بـابـل الجـديـدة
في الثقافة والأدب والواقع

ناظم مهنا

بابل الجديدة

في الثقافة والأدب والواقع

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق 2016

بابل الجديدة في الثقافة والأدب والواقع / ناظم مهنا.– دمشق – الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م .– ٣٢٨ص؛ ٢٥سم.

١– ٠٨١ م هـ ن ب ٢– العنوان ٣– مهنا

مكتبة الأسد

«وشوهد الفرات الذي يروي بابل يحترق

واحترق كذلك العاصي

وهرب النيل مذعوراً إلى طرف العالم» ..

أوفيد ٣٤ ق.م - ١٧م

- ١ -

مقاربة ثقافية للأزمة

انتصار نظرية مالتوس

وضع الباحث الاقتصادي توماس روبرت مالتوس ١٧٦٦ – ١٨٣٤ نظريته للحد من النمو السكاني بإشعال الحروب في أماكن عديدة من العالم، من منطلق أن الموارد والثروات قابلة للنفاد وغير كافية، ورغم أن النظرية لم تلق استجابة كبيرة عند علماء الاجتماع في القرنين التاسع عشر والعشرين، بل تعرضت للتسفيه بكونها غير أخلاقية، ولكن اعتاد البشر أن يتصرفوا عكس ما يقولون، فالحروب المتلاحقة والمتناوبة لم تتوقف إلا برهة قصيرة من الزمن، تشبه استراحة المحارب الجريح الذي يحصل على نقاهة قصيرة ثم يعود إلى الساحات أشد ضراوة، حتى ليصح أن يقال عن الإنسان إنه حيوان محارب ومدجج بالخطط الحربية والأسلحة الفتاكة! اليوم تبرز على السطح النظرية المالتوسية من جديد أكثر من أي نظرية أخرى، كأن الروح الحربية عند البشر أكثر أصالة من روح السلام على ما يبدو! ففي الوقت الذي تسفه فيه نظريات العدالة الاجتماعية، كالماركسية مثلاً، تتقدم نظريات سطحية وعنصرية بل إجرامية، يسوقها منظرون اقتصاديون وموظفو شركات صناعة السلاح ورجال أعمال، فيتحدثون عن: «المليار الذهبي» وعن حروب الجيل الرابع، والحروب بالوكالة وبلا كلفة، حتى يخال أن عصابة من الأشرار تدير العالم، ولا تتردد في أن تذهب به إلى الهلاك أو الفناء، بدافع البطر واللهو والأنانية!

في بديات القرن الماضي كتب العلامة الكبير جرجي زيدان مقالاً بعنوان: «هل تبطل الحرب من الأرض»؟! جاء فيه: «مهما بلغ شأن هذه المدنية من الارتقاء بكثرة الاختراعات والاكتشافات، ومهما تربع أصحابها على الفراش الوثير وركبوا البخار واستضاءوا بالكهربائية. ومهما أنشؤوا من الصحف وألفوا من الجمعيات والنوادي أو الأحزاب، ونادوا بالحرية والاستقلال، فلا يغرك دفاعهم عن الفرد وسعيهم في تحرير الرقيق، فإنهم مهما يكن من أمرهم، ما يزالون بعيدين عن المدنية الصحيحة، ما دام فيهم الميل إلى الحرب». أما الذين يحسنون الظن بالنظام الدولي، يبدون اليوم جماعة من السذج الفاقدين للذاكرة القريبة والبعيدة! فالعالم لم تغيره المدنية المزعومة، وهذا موقف كبار المفكرين المناهضين للسلوك العدواني والحربي في حضارة البشرية التي ما انفكت تمجد الحروب ورجالاتها على حساب الفلاسفة والشعراء والحكماء! والغريب أن الشعراء والفلاسفة أنفسهم منحوا هؤلاء المحاربين هذا المجد والخلود منذ ما قبل الأسكندر المقدوني مروراً بيوليوس قيصر، وليس انتهاء بنابليون! فما هذه الثقافة التي يتناقض فيها أعلامها مع أنفسهم؟! وها هو المتنبي مثال على هذا التناقض، في الوقت الذي يمجد السيف والحرب في مرات كثيرة يقول في لحظة صحو:

«كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى..»

لا بد أن البشر، حتى المعتوهين منهم، يعرفون أهوال الحروب وفظاعتها، ولكنهم يمضون إليها كالعميان وفاقدي البصيرة! وقد تكون أسباب الحروب، على الأغلب تافهة لا تستحق أن يسفك من أجلها نقطة دم! أليس عجيب أمر هذا العالم الذي يهوى الرقص الدائم على البارود، ويتقزز من الأشلاء والخراب الذي يراه أمامه ولا يفعل شيئاً لوقفه؟! أم أنه ترك قياده لسحرة شياطين يلعبون به كيفما اتفق، هؤلاء السحرة يشعلون الحروب في كل مكان يجدون فيه قابلية، ثم يهرعون كملائكة الرحمة، للتدخل بحجة المساعدةّ!

المالتوسيون الجدد، مشعلو الحروب بكل أشكالها: الدينية والعرقية والقومية والأهلية... بدافع الهيمنة، وتقاسم النفوذ، ووضع اليد على الموارد، وتجارة السلاح، وإعادة الأعمار لتنشيط الدورة الاقتصادية في بلدانهم، ولتخفيض عدد سكان الأرض من شعوب الدول الفقيرة.. هؤلاء خطرون على الجنس البشري و على الحضارة الإنسانية.

أزمة أم حرب؟!

هل ما يجري علينا منذ خمس سنوات تقريباً، هو مجرد أزمة سياسية؟! هل الحصار الدولي وتآمر الدول القريبة والبعيدة، وتجنيد الإرهاب العالمي ورعاية نقله إلى سورية، ينحصر في كلمة أزمة، أم أن الأمر يتعدى ذلك إلى حرب شرسة منظمة تخوضها الإمبريالية العالمية وحلفاؤها وأدواتها الفاشية الجديدة التي تلبست لبوس الدين؟! في اعتقادي إنها الحرب، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى أشمل، يتضمن في طياته المركبة عناصر الأزمة. لكن لو حاولنا أن نفكك الحدث الكبير والفريد من نوعه في التاريخ، ونقدم لبرهة مفهوم الأزمة ونفرده عن العناصر الأخرى، عبر المقارنات التاريخية التي استخدمت فيها كلمة أزمة، لنأخذ مثلاً أزمة الصواريخ في كوبا، حيث احتدم الصراع الدولي بين الجبارين آنذاك، ووصل العالم إلى حافة الهاوية، وكاد يهدد السلم العالمي برمته، ثم مالبث أن أنفرج بتفاهمات معروفة، وكذلك الأمر في أزمات قابلة للحل. ولكن للأسف، هل حالتنا المستعصية تحل بهذه البساطة؟ لا أعتقد، رغم أهمية أي حوار سياسي بين السوريين، ويبدو أننا ذاهبون إلى حوار سياسي تعلق عليه بعض الآمال إذا ما اتفق الجميع على العمل لمحاربة الإرهاب ودعم الجيش الوطني العربي السوري باعتباره جيش كل السوريين القدير على مكافحة الإرهابيين ودحرهم خارج الحدود، والمدافع عن أمنهم ووحدة أرضهم، وأن يكون ذلك أولوية فوق كل الأولويات. وأنا هنا أشك بإمكانية تحقيق ذلك، وشكي هذا يعود إلى حجم تبعية شخصيات

المعارضة للاستخبارات الدولية المعادية لسورية. ولكن يبقى بعض الرهان أن يستفيق بعض هؤلاء ويدركوا فداحة المأساة الوطنية وحجم الخسائر والضحايا التي لحقت ببلادهم ويصححوا مسارهم، وقد سمعت أحدهم يقول إن الروس قالوا لهم رداً على تعنتهم والشروط اللاواقعية التي يضعونها للحوار، وعلى لسان بوغدانوف: «عليكم أن تدركوا أن بلدكم هو الذي يدمر وليس بلدنا» وهذه العبارة المؤثرة بمثابة من يضع المرآة في وجه من يهرب منها خوفاً من أن يرى حقيقته أو وجهه القبيح، أو يضع الحقائق الصارخة أمام من يتجاهلها. لو تحقق هذا التفاهم السوري برعاية روسية وموافقة من دول أخرى فهذا على أهميته في تفكيك الأزمة، إلا أنه لن ينهي الحرب، ولن تنتهي هذه الحرب المجرمة إلا إذا توقف تمويل الإرهابيين من السعودية ودول الخليج، وأغلقت الحدود التركية في وجه الإرهابيين، عندها يتكفل جيشنا البطل في وضع الفصل الأخير لهؤلاء المارقين القتلة الذين لفظهم الشعب والعالم بأسره لفظاعة ما ارتكبوه من جرائم موثقة.

إذاً، لا يصح اعتبار ما يجري مجرد أزمة سياسية تحل بتوزيع وتقاسم الحصص في السلطة، ففي هذا تبسيط لما هو غير بسيط، وقفز فوق الحقائق. نحن في حقيقة الأمر كدولة وشعب نواجه حرباً إرهابية تشارك فيها أطراف دولية استعمارية وإسرائيل رأس الحربة فيها، والأولوية هي وقف هذه الحرب الإرهابية، أو حسمها بالانتصار العسكري والسياسي. وليس صحيحاً ما يقوله بعض المعارضين باستحالة الحسم وتحقيق الانتصار على الإرهابيين، فالإرهابيون يهزمون اليوم في سوريا والعراق، وقد كانت أمثولة «عين العرب» مؤشراً على انحدار أسطورتهم الزائفة وبداية اندحارهم، ولولا هذه الانتصارات التي يحققها الجيش والشعب لما وافق المراهنون على أي حوار. فالعام الجديد هو عام انتصار سورية على أعدائها، وعندما تنتهي الحرب تحل كل الأزمات، وربما يرعوي المراهنون ويعودون إلى رشدهم أو يخرجوا من المعادلة غير مأسوف عليهم.

التنصت الشامل

يبدو العالم اليوم في ظل غياب الفاعلية والبطولة، واقعاً بين فاعليتين عدوانيتين، تفعلان فعلهما في السياسة وفي الحياة اليومية للبشر، يمكن تمثلهما رمزياً بطبائع الذئاب والفئران! التجسس والحرب، الوحشية والخسّة، أحيانا يعملان معاً، وأحياناً ينكفئ طرف ليبرز الطرف الآخر، وهما لا يتساويان بالخطورة مطلقاً، ولكنهما تصرفان عدوانيان، تمارسهما الولايات المتحدة ببراعة وتمرّس. منذ قررت التمدد خارج حدودها في ثلاثينيات القرن الماضي، وخروجها منتصرة في الحرب العالمية الثانية، وعملها على أن ترث بريطانيا وتضفي على الإرث نكهتها الخاصة. أمريكا تمارس الحروب والتجسس على العالم منذ تلك الفترة، لم تتوقف حروبها كما لم يتوقف التجسس والأعمال القذرة التي لا تعد ولا تحصى، وأغرب ما في المسألة أن كل هذا يحدث تحت عنوان: نشر قيم الحرية في العالم! فأمريكا وضعت لنفسها رسالة «سامية» لن تتورع عن استخدام كل الوسائل والذرائع، ليتجلى لنا نهج الذرائعية الأمريكية! منذ ما يقارب السنتين فجر صاحب موقع وكليكس «جوليان أوسانج» فضائح تسريبات اللقاءات السرية بين الدبلوماسيين الأمريكيين وسياسيين في الشرق الأوسط وغيره، وانشغل العالم بعض الوقت في تلك التسريبات التي تدفقت عليه وكانت من الخطورة إلى درجة فقدت مركزية تأثيرها، وما كانت لتتوقف لولا الأحداث الجسام التي شهدها العالم العربي، حتى أن البعض أعتقد بأن لهذه الفضائح دوراً فيما عرف «بالربيع العربي» وهذا اعتقاد غير صحيح، ولم تكد تخفت حكاية وكليكس، حتى خرج الذئب من جحره مهدداً بالحرب على سورية، كان من الممكن لو حدثت أن تتدحرج لتغدو حرباً عالمية! انكفأ الذئب، وخرج شخص آخر يدعى «أدوارد سنودن» موظف الاستخبارات في مكتب الأمن القومي الأمريكي، ليهرب أسرار الدولة الأمريكية، ويكشف للعالم أن أمريكا تتجسس على سياسييه؛ على الرؤساء والرئيسات، على الحلفاء والأصدقاء، وعلى أقرب المقربين، بل وعلى العالم كله! إنه التجسس الشامل تمارسه أمريكا من خلال الاتصالات وعلى شبكة الهواتف النقالة، ودون مراعاة أي خصوصية فردية أو جماعية، رسمية أو شخصية، ومنذ سنوات مستغلة الإمكانات التقنية

الهائلة التي توظفها لتتسلى في دول العالم وأفراده، وتحكم قبضتها عليهم أينما وجدوا، فعلى كل فرد في العالم مهما صغر أو كبر شأنه أن يعيش هاجس أنه مراقب بكل تحركاته من قبل أمريكا! وأن الرئيس أوباما وزوجته وموظفيه يمكنهم أن يقضوا عطلة نهاية الأسبوع في التندر على أسرار سياسيي العالم، ولا داعي لحضور الأفلام السينمائية أو أية نشاطات ترفيهية، فكلها لن توازي نهم الإنسان الأمريكي في استنشاق روائح الفضائح، والفضول في كشف المزيد من الأسرار! ولكن هل هذا مجرد لعب ومزاح ومشاغبة على الأصدقاء؟! أم هو آلية من آليات الهيمنة غير الأخلاقية، وغير القانونية على البشر كلهم؟ أنا شخصياً أعتقد بأن الهدفين معاً يمكن أن يجعلا الأمريكيين يفعلون ذلك، دون أن يكترثوا بمشاعر أحد، فمن شاء فليغضب وليضرب رأسه بالجدار، ومن شاء فليسكت، قانعاً نفسه بالقول إن من حق الدول أن تتجسس لمصلحة أمنها القومي. وإذا حشرت أمريكا من قبل بعض المستشارات الحليفات سيقولون إنهم يفعلون ذلك حرصاً على أمن المتنصت عليه من تهديد إرهابي، فهم يجيدون التنصت والفبركة أيضاً! ولن يكونوا عاجزين عن فبركة أدلة على ادعائهم، كما تفعل بعض أجهزة المخابرات العربية التابعة لأمريكا في مواطنيها!

أما كيف فتحت الطريق للسيد سنودن للخروج، فهذا أمر غامض! وعلى العالم اليوم أن يحل هذه الألغاز! جوليان وسنودن، شخصان عاديان، لم يكن أحد يسمع بهما من قبل، وكلاهما، ربما بالمصادفة، هزيلان يشبهان بعضهما البعض إلى حد ما، وإن لم يكن بالشكل، فبالسلوك (الفأري)! فنحن اليوم أمام حقيقة أن للفئران البشرية دوراً في التاريخ، يحد من اندفاع الذئاب، دون أن يهدد قوتهم أو يمس بها، بل على العكس، وإن أظهرت الذئاب امتعاضا إلا أنها في داخل أوجارها ربما تبتسم معجبة بذكاء هذا الكائن الصغير! ولكن، من يعرف كيف سيكون العالم بين براثن الذئاب و أنياب الفئران في العصر النيوليبرالي؟!

الخطر على الإنسان

.. «عندما يتحدث الأعلون عن الحرب/ يعلم عامة الشعب أن الحرب قادمة/ الأعلون اجتمعوا في حجرة واحدة/ يارجل الشارع، ودّع كل أمل».

تذكرت هذين المقطعين من قصيدة للشاعر الألماني **برتولد برشت** يوم انعقاد مؤتمر ميونخ للحوار حول الأمن العالمي.

السؤال الذي يطرح نفسه اليوم: هل حقاً زال خطر الحرب عن كاهل البشرية، وهل توقفت الحروب أساساً؟!

اعتقد البعض، حين سقوط جدار برلين أواخر عام ١٩٨٩ أن الحرب الباردة بين الجبارين: (الاتحاد السوفييتي وأمريكا) قد انتهت، وبدأ نظام عالمي جديد يقوم على حل النزاعات الدولية والإقليمية الساخنة في العالم، وبدا للعالم أن الأمور تسير على مسار السلام، وهاهم قادة الدول العظمى يحاولون، وقد انعقد مؤتمر مدريد لحل النزاع العربي الإسرائيلي. لكن لم تلبث أن تكشفت الأمور، فلم تنته الحرب بعد انسحاب الاتحاد السوفيتي من أفغانستان بل تجددت واشتد أوارها! واشتعلت أيضاَ في اليمن بعد أن رفع السوفييت رعايتهم للشطر الجنوبي، وتم تفكيك يوغسلافيا، وشنت الحرب على العراق بعد غزوه للكويت بتشجيع أمريكي، وفي الوقت الذي حلّ فيه حلف وارسو كان من المفترض أن يُحلَّ حلف الناتو المقابل له، لكن هذا لم يتم بل تم تعزيز إمكانياته العسكرية وتوسيع مهامه بذرائع عديدة! وتبين أن لاشيء يتغير، طالما أن الولايات المتحدة قد شعرت بالظفر، وأنها فرصتها لتكون سيدة العالم لمائة عام على الأقل، وتوفر لها منظرون يروجون لذلك! ودخل العالم مرحلة الأحادية القطبية النهمة للهيمنة ولو بالاحتلال المباشر، كما حدث بعد الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ إذ احتلت أمريكا وحلفاؤها كلاً من أفغانستان والعراق وهددت باحتلال سورية وإيران وضرب كوريا الشمالية باعتبارها دول مارقة أو دول محور الشر! إن وهم العالم الجديد بدأ يتكشف، وإن الدول العربية التي وقعت السلام مع إسرائيل بما في ذلك منظمة التحرير الفلسطينية، تبين أنهم قد سيقوا

إلى احتفاليات ومصافحات كاذبة وخادعة لم تفض إلا إلى الإذعان وإلى المزيد من المكاسب لإسرائيل ولم تحل مشكلة الاحتلال، وتحول الفلسطينيون إلى رهائن في قبضة محتليهم، وحوصروا كما حوصر وقتل رئيسهم ياسر عرفات الحاصل على نصف جائزة نوبل للسلام! واليوم لا يستطيع الرئيس الحالي محمود عباس التنقل إلا بموافقة الإسرائيليين! ورغم كل هذا الواقع المرير يقدم الحكام العرب المبادرة تلو المبادرة ويريقون ماء وجوههم للإسرائيليين دون جدوى! وبعد مبادرة السعودي عبد الله بن عبد العزيز عام ٢٠٠٣ بل في اليوم الذي أعلنت فيه هذه المبادرة اقتحم شارون مع قواته الحرم القدسي، ثم شنت إسرائيل حربين على غزة وحربا على لبنان، ولا تزال تهدد بالمزيد، فهل نحن نعيش في عصر سلام، وهل جعلتنا أمريكا ننعم بالسلام ولو ليوم واحد؟! إذاً لم ينته الصراع لا عندنا ولا عند غيرنا ومشاكل العالم تزداد توتراً وسباق التسلح عاد من جديد، وحدة التنافس بلغت أشدها في السنوات العشر الأخيرة، بعد بروز قوة الصين وعودة روسيا إلى واجهة السياسة العالمية. فنحن من جديد نعود إلى استئناف قلق الحروب التي تهدد العالم، حتى لو اجتمع القادة في ميونخ! فنحن لا نزال في زمن الحرب والموت، والخطر لايزال قائماً، وربما لا يؤخر وقوعه سوى أن القادة الحاليين للدول الكبرى لا يملكون الجرأة على المجازفة، ليس لأنهم رجال سلام بل ربما لأنهم أجبن من أن يتحملوا مسؤوليات مثل هكذا قرار مدمر، وربما لأن الجنرالات العسكريين أكثر منهم تعقلاً، وإدراكاً لخطر الحرب! ولعل الجديد مع مثل هؤلاء القادة الضعفاء الذين يحلمون بالقوة وبالحرب ابتكارهم لنوع جديد وخسيس من الحروب التي لا يخسرون فيها لا مالاً ولا جنوداً ويسمونها: «**الجيل الرابع من الحروب**» لتفتيت الدول وإسقاطها من الداخل، يحركون بها الأدوات المحليين والإقليميين مع توفير كل أشكال الدعم والحشد اللازم! يجندون لمثل هذا النوع من الحروب: العصابات، والإرهابيين، والمثقفين والإعلاميين مع التقنيات الفائقة التطور، لنشر الأكاذيب والفبركات، وتحقيق المزيد من الدمار والفتك ونشر الكراهية وروح الانتقام في صفوف

الشعب الواحد! وبعد كل هذا، أي أمل يمنحنا إياه القادة المجتمعون في ميونخ، وبعضهم أياديهم ملطخة بدمنا؟!.

الروح الحربية

الصهيونية، من أخطر المنظمات التي عرفها القرن العشرون منذ ما قبل ولادته! من صلبها نشأت «دولة اسرائيل» وعلى هامشها ولدت في منطقتنا، حركات وأحزاب سياسية، وكيانات دول! ودفعنا ، ولا نزال ندفع، ثمناً باهظاً من الدم والأرض والعرض.. من جراء نشوء هذه اللعنة التاريخية! والصهيونية اليوم، ليست حكراً على اليهود، بل هي تتجاوز اليهود، لتقوم بدأب بصهينة العالم بكل فعالياته وشخصياته؛ الاقتصاديين، والسياسيين، والمثقفين، ولتصهين المعتقدات والأديان، والمنظمات الدولية، ولجان التحكيم في المجالات كافة، والقضاة الدوليين، والعالم كله! حتى ليخيل لك أن العالم بات كله صهاينة، إلا ما ندر من بقايا الأحرار الشرفاء المعتم عليهم! و قلما يتحدث اليوم أحد عن الصهيونية، وعن رجعيتها وخطرها على العالم! على مستوى الفكر، عملت الصهيونية على المحورين: الغيبي والعلماني، فوظفت الأساطير، وكان التوراة والتلمود منجماً للاستثمار بالنسبة لمنظريها، كما خلقت أساطير جديدة، مثل خرافة العداء للسامية، والهولوكست. ونجحت في فرض مجمل أساطيرها على التفكير البشري، حتى صار كل من يشكك في هذه الأساطير، في أي مكان من العالم يعاقب، ويوصم بالعداء للسامية، ولا بد أن يدفع الثمن! يحق للمرء أن يشكك بكل شيء، حتى بالخالق، ولا يسمح له بالتشكيك في سخافات الصهاينة! تخلى المفكر الفرنسي روجيه غارودي عن معتقده الماركسي الذي آمن به قرابة النصف قرن، ولم يهدده أحد، لكن قامت القيامة عليه لمجرد أنه شكك بأرقام عدد ضحايا المحرقة النازية! وفعلوا هذا مع الكثيرين، لكي يخنقوا أي صوت حر يخالفهم! لقد اغتالوا بشكل شنيع الكاتب الروسي «يوري إيفانوف» صاحب

كتاب «احذروا الصهيونية» ودفعوا بالكاتب اليهودي الشهير والمرتد عن الماركسية أيضاً «أرثر كوستلر» إلى الانتحار، وهو في سن السبعين، لأنه ألف كتاب «امبرطورية الخزر» يقول فيه باسم يهود إسرائيل ويهود أوروبا: إننا لا نستطيع أن نستمر بالكذب، فنحن لسنا ساميين نتحدر من أولاد يعقوب الاثني عشر، بل من سلالة وثنية من الخزر الأسيويين. كما طاردوا الكاتب والأكاديمي الأمريكي اليهودي «فرنكلين فنكلستين» صاحب كتاب: «صناعة الهولوكوست» وبتدخل المنظمة اليهودية العالمية (ايباك) أوقف عن التدريس في كل جامعات الولايات المتحدة، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، وكأنه وباء! والقصص من هذا النوع لا تعد ولا تحصى، وتحتاج إلى من يجمعها ويوثقها بالتواريخ. فأين هي الفاشية والنازية من الصهيونية في الإرهاب؟! وهي سابقة لهما، وربما هما توأميها، يشاركانها بالعنصرية، القائمة على الاصطفاء والشعب المختار، والصهيونية في هذا أكثرهما رجعيةّ! إذ تجيز الصهيونية أن يكون العالم كله «الغوييم» أي غير اليهود ضحايا أو عبيد لأفكار النخبة المصطفاة من الصهاينة، ولا شيء يمنع من أن يكون فقراء اليهود من الضحايا أيضاً، فهؤلاء يهود سيئون، والأثرياء هم اليهود الجيدون! وهم يسعون لتوحيد اليهود تحت نجمة داؤود أو «نجمة الإنقاذ» في «الدولة النقية اسرائيل» التي يُسوّقون لها على أنها المملكة الإلهية! ومن الصعب فصل اليهودية عن الصهيونية، ويؤكد الصهاينة أن كل يهودي منذ ولادته هو صهيوني بالضرورة! وهما معاً يعبدان المال، ويتقربان من أصحاب رؤوس الأموال، وأصحاب النفوذ والقوة، ما دفع كارل ماركس إلى ربط اليهودية بالرأسمالية، ويرى أن أوروبا ستزداد يهودية كلما ازدادت رأسمالية. وتعبيراً عن هذه الروح الإجرامية الخطرة للصهيونية، نورد بعض الأقوال لبعض المفكرين والأدباء الصهاينة، في تمجيد القوة والقتل، على سبيل المثال لا الحصر، لعلنا نذكر بعض اللبراليين العرب الجدد، والصهاينة العرب بحقيقة هؤلاء، وأين يقفون منهم؟. يقول أحد الصهاينة: «أثبت التاريخ أن كل إنسان ظن نفسه في منأى عن القتل كان مصيره القتل». ويقول آخر:

«أفضل للعالم أن يخافني من أن يشعر بالأسف لأجلي». ويقول صهيوني إسرائيلي: «ماذا يضيرنا، أن نكون في المستقبل، شعباً متحضراً له شيء من الماضي الإجرامي؟! إن ذلك يحدث في أحسن العائلات» ويقول أحد الإسرائيليين للكاتب الصهيوني «عاموس عوز»: سوف أمسح القرى العربية عن وجه الأرض، ولك أن تنظم المظاهرات والاحتجاج، ولتمثل أنت دور الشرف، شرف الأسرة، وأنا سأكون لطخة العار بالنسبة لشرفها، ما رأيك بهذه الصفقة؟.

إننا نستفيق كل يوم على تهديد بالحرب الكونية على سورية وإيران ولبنان من أجل إسرائيل ومستقبل إسرائيل! والغريب أن بعض العرب، لم يعد لديهم أي حرج في إعلان تحالفهم مع إسرائيل! إن أكثر ما يهدد السلام في العالم، هو هذه الروح الحربية التي تسود العالم اليوم، والمحرك الأكبر فيها هم الصهاينة.

العرب من منظور ياباني

بعد ما يزيد عن أربعين عاماً من العلاقة مع الثقافة العربية المعاصرة، ومن المعايشة للحياة اليومية العربية في بلدان عربية عديدة، ومن التنقل بين العواصم والمدن والأرياف والبادية، يقدم «المُعرّب» الياباني **نوبوأكي نوتوهارا** كتاباً باللغة العربية موجهاً إلى العرب فيه ملاحظاته الصادقة والصادمة والمحبة للعرب، والكتاب بعنوان: «**العرب/ وجهة نظر يابانية**» نوتو هارا ترجم روايات عربية عديدة إلى اللغة اليابانية، وتربطه صداقات مع العديد من الكتاب العرب، في مصر وسوريا وغيرهما، وهو يتحدث العربية بيسر وطلاقة، واسع الإطلاع، لديه نظرة عميقة للأدب العربي الحديث، وكنت التقيت به مرة واحدة منذ سنوات بفضل الصديق الشاعر وفيق خنسه. أول رواية عربية نقلها نوتوهارا إلى اليابانية عام ١٩٦٩ كانت رواية: «عائد إلى حيفا» للروائي الشهيد غسان كنفاني، ثم ترجم رواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوي عام ١٩٧٤ وترجم أعمالاً ليوسف ادريس، ولصنع الله إبراهيم، وإبراهيم الكوني... من خلال المعايشة الطويلة، وتتبع ما يصدر من روايات عربية خلال نصف قرن، عرف

نوتو هارا عن قرب مشاكل الإنسان العربي بمرضه وعافيته، وهو الخارج من هزيمة بلاده وتدميرها في الحرب العالمية الثانية، يقول في هذا الكتاب: «كنت في عامي الخامس، عندما انتهت الحرب العالمية الثانية، وقد رأيت اليابان مهزومة، وعشت مع أسرتي نواجه مصيرنا بلا أي عون، كنا لا نملك شيئاً أمام الجوع والحرمان، وطوكيو هدمت بالكامل، حياً حياً وشارعاً شارعاً في الأيام الأخيرة من الحرب، عرفت هذا كله وعرفت أيضاً مسيرة إعادة بناء اليابان وتصحيح الأخطاء، وأنا نفسي استمتعت بثمار النهوض الاقتصادي الياباني، بعدئذ سافرت إلى البلدان العربية وكنت قد تجاوزت الثلاثين من عمري، ورأيت وقرأت وتحدثت إلى الناس في كل مكان نزلت فيه».. لقد اخترت من مقدمة الكتاب هذه الأسطر، التي أراد الأستاذ الكبير أن يذكرنا أن اليابان عاشت الهزيمة قبلنا نحن العرب، وكانت هزيمتها أشد هولاً وتدميراً، لقد دفعت اليابان الثمن الأفظع، فبعد تدمير طوكيو واستسلام اليابان، ضربت مدينتي هيروشيما وناغازاكي بقنبلتين ذريتين، لتجرب أمريكا سلاحها الجديد آنذاك! مع هذا كله نهضت اليابان، واستفادت من أخطائها، ولا نكاد نعرف لها أدب هزيمة أو أدب نكسة، كما عندنا نحن العرب! ونحن حتى الآن لم نتخلص من آثار نكسة حزيران ٦٧ ونرثها جيلاً بعد جيل! وبهذا الصدد يذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أنه بعد هزيمة العرب في عام ٦٧ قابل شارل ديغول مبعوثاً من عبد الناصر، فقال له ديغول: ما بالكم أنتم العرب تولولون؟! قل لناصر إن الهزيمة في معركة لا تعني نهاية العالم. هذا ما لمسه صديقنا الياباني من مثقفينا الذين التقاهم في تلك المرحلة، وهو يتساءل: «كم يحتاج العرب من الوقت لكي يستفيدوا من تجاربهم ويصححوا أخطاءهم، ويضعوا أنفسهم على الطريق السليم؟!» ويروي نوتوهارا في الكتاب حوادث عديدة جرت معه في بلداننا العربية بعضها يبعث على الاعتزاز وبعضها الآخر على الخزي وهو لا يتجنى ولا يبالغ، تحت عنوان «حادثة غير متوقعة» يروي أن موظفاً في متحف عربي على حدود البادية تقدم منه بينما كان يتأمل آثار تلك المنطقة الشهيرة، وعرض عليه همساً وباللغة الانكليزية أن يبيعه قطعاً نادرة من الآثار، ويعلق على الحادثة: «حتى الآن أنا لا أستطيع أن أصدق أن موظفاً اختاره وطنه ليحرس آثاره ومع ذلك

يخون ضميره وشرفه وتاريخه ويبيع آثاراً تركها أجداده منذ آلاف السنين!..» ويشير بمرارة إلى سرقة الآثار في العالم العربي وتهريبها إلى الغرب! يتحدث في قضايا كثيرة : اجتماعية، ثقافية، أدبية، عن أصدقائه من البدو في بادية الشام وعن الطوارق في بلدان المغرب العربي وإعجابه الشديد بالكاتب الليبي ابراهيم الكوني، وعن سكان المدن والأرياف، وبعض العيوب في العادات والسلوك... من وجهة نظر صديق وفي يريد للعرب أن ينهضوا.

القوة الغاشمة!

كنت أنوي أن أحصر نفسي بالحديث هنا عن القوة والحق، لكن وجدتني في جو التصعيد الأمريكي، أكتب عن الحرب ودوافعها، والتشكيك بإنسانية من يقوم بها، وتجاهله للإنجازات الأخلاقية الكونية التي تدين الحرب وتجرمها!.

غريب أمر هذا الإنسان! كأنه بسلوكه العدواني أحياناً، بلا ثقافة، بلا ذاكرة، بلا عقل!.. كل البشر،عموماً،يكرهون الحرب، ويشمئزون من همجيتها، ولكنهم يذهبون إليها! وما أكثر الحروب التي شنها الإنسان ، وكم سخّر من مقدرات لتطوير أدوات الموت والتدمير؟! لنترك التاريخ ومآسي الحروب القديمة والحديثة جانباً، ولنكتفي الآن بحروب العقد الأول من هذا القرن التي شنتها الولايات المتحدة في منطقتنا على أفغانستان والعراق، لا تتوفر لدي إحصائيات عن عدد الضحايا في أفغانستان، ولكن أي إنسان يدرك أنهم كثر، وأن حجم الدمار لا يتخيله أحد! وفي العراق تسببت أمريكا بقتل مليون ونصف عراقي وملايين المنكوبين والمهجرين! ومع هذا كله لا يزال «النيوليبراليون العرب» يأملون ويطالبون بإلحاح لتأتي أمريكا إلى بلدانهم، بأساطيلها أو جنودها ودباباتها! ويفترض أن هؤلاء دعاة سلام، ويكرهون الحرب! هل السلام، أيها السيدات والسادة، يكون طيباً، فقط مع إسرائيل، والحرب تكون أحلى من العسل عندما تكون صناعة أمريكية؟!

أوباما أستاذ جامعي قبل وصوله إلى الرئاسة،يتحدر من عرق عرف عذابات العبودية والاضطهاد، وحروب الاستعمار، حامل جائزة نوبل للسلام، منحت له في بداية صعوده إلى رئاسة أمريكا تشجيعاً له من أجل العمل على نشر السلام! وبالتأكيد يعرف ما يترتب عن الحرب من دمار ومآس وكلفة عالية، وكان يعمل ضد حرب سلفه بوش على العراق، أم كان يركب موجة معارضة الحرب من أجل الفوز بالانتخابات؟! هذا الرجل الذي وصل إلى سدة الرئاسة بشعارات سلمية، لماذا يهدد ويصعد ضد سوريا اليوم، والتصعيد بحد ذاته جريمة وترويع للمدنيين؟! بكل وقاحة وصلف، ينصب نفسه للتدخل في مصير دولة ذات سيادة! ما أوهى وأتفه المبررات التي يسوقها هو ودعاة الحرب من أجل تبرير العدوان الخارجي؟!

الكاتب والباحث الأمريكي **ريتشارد نيد لينو** حدد في كتاب له دوافع الحروب،وهي أربعة دوافع عامة: **الأمن، المصلحة، المكانة، الانتقام.** ويؤكد أن وتيرة الحروب المدفوعة بالمصلحة والانتقام تشهد تراجعاً بتواتر الحروب، بل كل هذه الدوافع الأربعة يفترض أن تتراجع، فالحروب القائمة على المصلحة يجب أن تنخفض وتيرتها لأن النخب الإمبريالية تدرك أنها تستطيع زيادة الثروة من خلال تقسيم العمل والتجارة. لكن أيّ من هذه الأهداف والدوافع ينطبق على مزاعم أمريكا ضد سورية؟ تدعي أمريكا أنها ستحارب للدفاع عن المدنيين! وهل يُحمى المدنيون بالحرب البالستية؟! ما هذه الثقافة التي خولتكم استغباء الناس أيها الساسة الغربيون؟! من يصدق بعد الحرب على العراق أنكم إنسانيون؟! إن أبلغ ما سمعته بصدد تهديد سوريا بالحرب، ما قاله مسؤول روسي: «**إن الغرب يتصرف الآن كقرد يحمل قنبلة**» بعضهم في أمريكا، قالوا إن أوباما صعد إلى الشجرة ويحتاج إلى من ينزله! الحروب مهما سيق لها من مبررات، تكرس عدوانية الإنسان ونزوعه نحو التدمير، وأنه ينتمي إلى المملكة الحيوانية أكثر مما ينتمي إلى الإنسانية، عندما يمتلك القوة أو فائض القوة. دعاة الحرب، والذين يستمطرونها، يعبرون عن روح الهمجية، والقوة الغاشمة، ويجدون من يصغي لهم، أما المناهضون

للحرب، ودعاة السلام، رغم كثرتهم، للأسف لا يستطيعون منع الحرب! ومع ذلك، تبقى التحالفات الدولية، والجبهات الثقافية والقانونية ضد الحرب ونزعة الهيمنة ضرورية. أعتقد أن أوباما يتصرف مدفوعاً بالقوة الغاشمة الأمريكية، والقوة الغاشمة لا منطق لها، ولا مبررات، فهي، خطرة، انتقامية، وفيها جنون تأكيد الهيبة والهيمنة، وأوهام تصيب العقل، ولابد من ردع أو نزع القنبلة من يد القرد.

القوي والضعيف

تشكل هذه الثنائية إشكالية أخلاقية تواجه إنسان اليوم، تشبه ثنائية السيد والعبد في العصور القديمة، إن لم تكن هي ذاتها بتعبيرات أخرى وربما أشد ضراوة. كان من المفترض في عصر يدعي منذ أكثر من ثلاثة قرون أنه عصر الإنسان وحرية وكرامة الإنسان، أن يكون الإنسان محمياً بجدارة كونه إنسان أينما كان موقعه على هذه الأرض، ومهما كان أصله وفصله. لكن معطيات الواقع مختلفة عن الشعارات والعناوين العريضة التي تتشدق بها البشرية التي تدعي أنها قطعت شوطاً بعيداً في المدنية، إذ يبرز اليوم بشكل سافر الإنسان الضعيف الأعزل الذي يقابله الإنسان المتوحش المدجج بالسلاح والمتباهي بقوته الوقحة، والمحمي الظهر من قوى كونية لا قيمة للإنسان عندها خارج حدودها. فلنتأمل هذا المشهد الجديد المتكرر: قرى في شمال الوطن السوري يسكنها فلاحون آمنون مسالمون في بيوتهم، سكان أصليون قدماء، هم بقايا السوريين الذين تحمل سوريا كلها اسمها من حضارتهم الآشورية، تنقض عليهم في ظلام الليل جحافل من الغزاة الغرباء وغير الغرباء المدججين بالسلاح، وتعتدي على حياتهم دونما سبب سوى أن المُعتدى عليهم ضعفاء عزل لا يملكون الحد الأدنى من وسائل الدفاع عن النفس. وقبل أيام تقوم الجهة المعتدية نفسها بذبح العمال المصريين الأقباط في ليبيا، وكانت فد فعلت ذلك في سنجار مع الزرادشتيين،

وفي أماكن عديدة في سورية والعراق، وهي تصور (بطولاتها) لتبثها للعالم عبر الفضاء الكوني، الذي يشاهد الأهوال مكتفياً بهز الرأس أسفاً أو بأحسن الأحوال بإدانات خجولة لا تغني ولا تزيد الضحايا إلا قهراً. إذاً، الضحايا الذين يثيرون شفقة العالم أو دهشته، هذا العالم المثقل بالآثام والخطايا يقبل، دون أن يفعل شيئاً، أن يكون في العالم ضحايا هم الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة! أليست هذه إشكالية كبيرة في ضمير هذا العصر؟! نعم يستطيع هذا العالم (الحر) أن يفعل الكثير لو أراد، ولا يكلفهم شيئاً سوى الخروج من منازلهم إلى الشوارع والساحات ليضعوا حداً لسياسييهم الذين يستغلون انعدام التضامن العالمي، وغياب الرأي العام عن الفاعلية، ويعترفون على الملأ، وهم يضحكون زهواً، أنهم هم من أسس القاعدة وفروعها الإرهابية لاسيما داعش والنصرة، وآخر اعتراف كان للأمين العام السابق للحلف الأطلسي وسلي كلارك بأن الولايات المتحدة هي من خلق داعش لمحاربة حزب الله، وليس هذا الاعتراف مفاجئ ولا صادم فقد سبقته اعترافات عديدة من هذا النوع ومن أعلى المستويات الأمريكية وغير الأمريكية، ولا أحد يريد أن يصغي أو أن يفعل شيئاً! ولم يعد يكفي أن يقال أن الرأي العام في بلاد الغرب واقع تحت تأثير التضليل الإعلامي، بل هو واقع تحت تأثير التخدير الأخلاقي، وانعدام الشعور الإنساني! أين ذهبت الصروح الثقافية لهذا الغرب؟ أين قصائد الشعراء الإنسانيين لهذا الغرب، أين ذهبت كتابات أحراره؟! هل ذهبت أدراج الريح أم طواها النسيان؟! إن المرء ليأسف أشد الأسف لما آلت إليه الأمور، وهو يقر بحقيقة أن العالم منقسم ليس فقط بين الأغنياء والفقراء، وليس بين من يملكون ومن لا يملكون، بل بين أقوياء معتدين وبين ضعفاء ليس لهم سوى براءتهم أمام الله والعالم والطبيعة القاسية للبشر، وكأن كل شيء تحت رعاية هذا الغرب يعود إلى عصور الغزو والبربرية ! نعم إنهم يفتحون لهم باب الهجرة واللجوء الإنساني! وهم (الضعفاء والشرفاء) لا يريدون أن يغادروا أرضهم، موطنهم العزيز الذي فيه ذكرياتهم، وقبور آبائهم وأجدادهم. وكل ما يرجونه من هذا الغرب أن يكف عن إرسال القتلة الغزاة إلى ديارهم، ولكن هيهات، فالغرب لديه احتياطي هائل من هؤلاء

الإرهابيين، وأمريكا بشكل خاص، لها تاريخ حافل بصداقات من هذا النوع ، من عملائها في فيتنام إلى «الخمير الحمر» في كمبوديا إلى عصابات الكونترا في أمريكا اللاتينية، إلى الجهاديين في أفغانستان إلى العصابات المقنعة بالجهاد في سوريا والعراق، تتعدد الأسماء والإجرام متشابه وإدارته واحدة هي أمريكا التي تزداد انحطاطاً يوماً بعد يوم.

التّحدّي و الاستجابة

صاحب نظرية «**التحدي والاستجابة**» هو المؤرخ البريطاني **أرنولد توينبي** ١٨٨٩ -١٩٧٥ وهو فيلسوف تاريخ شجاع ومنصف، ومتحرر من نزعة المركزية الغربية، مؤمن بتكافؤ الحضارات. ولهذه الأسباب يضاف إليها موقفه الواضح من الصهيونية ومن مأساة العرب الفلسطينيين جعلته فيلسوفاً مهمشاً لم ينل ما يستحقه من الاهتمام ومن الترويج في الغرب، وقد ترجمت معظم كتبه إلى اللغة العربية منذ ستينات القرن الماضي، ومن أشهر كتبه: «**تاريخ البشرية**» وعمله الضخم «**دراسة في التاريخ**» من عشر مجلدات، وكتب عن الحضارة الهلنستية، وعن العصر البيزنطي، وله كتاب «**الغرب والعالم**». في كتابه تاريخ البشرية حدد ٢١ حضارة كبرى، مرت جميعها بمراحل متشابهة من البداية إلى النهايةَ، ما يشبه إلى حد ما نظرية ابن خلدون التاريخية، التي تبدأ من الميلاد فالنمو فالسقوط والتفكك، وأن مرحلة النمو تتشارك فيها عدة مكونات ثقافية، ولكن الأنانية والاستئثار بالسلطة والثروة من قبل العنصر الأقوى هو الذي يؤدي إلى التفكك والسقوط. أما عن التحدي والاستجابة في قانون قيام الحضارات عند توينبي، فيقوم على أن الوحي الإلهي أو الفكر الذي يسعى إلى القيام بنفس الدور، هو الذي يمد التاريخ بالمعنى، حينما يسعى المجتمع إلى التواصل مع مضمون هذا الوحي أو الفكر وتجسيده، وهذا هو التحدي الذي إذا ما تحققت الاستجابة له بنجاح تتحقق الحضارة. من

هذا المصطلح المنسوب لتوينبي أنتقل للحديث بمرارة عن التحديات العديدة التي واجهت العرب في العصر الحديث، وعن الرغبة أحياناً في الاستجابة لهذه التحديات، ولكن دون أي نجاح بل على العكس كنا ننتقل من إخفاق إلى آخر، ومن نكبة إلى نكبة، وها نحن اليوم نشهد التفكك العظيم، وأعتقد أن قراءة توينبي بتأمل تساعدنا في تلمس بعض أسباب هذا الانهيار!

منذ العصور الحديثة وأبرز احتكاك لنا مع الأوروبيين في حملة نابليون على مصر، برز التحدي الأكبر في وجه النخب العربية، ولاحظنا أشكالاً ضئيلة ومترددة من الاستجابة، عند من عرفوا بطلائع النهضويين العرب، أو الجيل الأول منهم، ولعل أبرزهم **رفاعة الطهطاوي** والجيل الذي أتى بعده مباشرة، ومنهم **الأفغاني** و**الكواكبي** و**محمد عبده** وآخرين،هؤلاء واجهوا بشجاعة وإقدام تحدي الجهل والتخلف والاستبداد، وتكوين هوية الأمة بالاستفادة من تجربة الأوروبيين، إلا أن أحلام هؤلاء الأعلام تكسرت على صخور الواقع، وأسدلت الستارة عليها بهزيمة ثورة **أحمد عرابي**. والجيل الذي أتى بعدهم ومكملاً لهم وقع بنفس المأساة وأصيب بخيبة كبرى! حين توهمت بعض النخب العربية أن الأوروبيين سيساعدون في نشر قيم الحرية والمساواة وحقوق الإنسان! ولم يلقوا منهم إلا المؤامرات والاستعمار وتمزيق الشعوب واستعبادها، فلم يتحرر العرب من الأتراك حتى اجتاحتهم بعض الجيوش الأوروبية: (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا) وقسمت بلدانهم وقدمت فلسطين العربية هدية لليهود بوعد بلفور عام ١٩١٧، وهكذا أخفقت الاستجابة الثانية، ثم لاحت الاستجابة الثالثة وماتت في مهدها بعد تأسيس إسرائيل. و إسرائيل بحد ذاتها تشكل تحدياً حقيقياً لمصير العرب، كان من المفترض أن يتوحدوا لمواجهتها، لكن هيهات! لقد هزموا هزيمة نكراء في حرب ١٩٤٨ ويقال إن عدد الجيوش العربية التي أعدت لهذه الحرب لا تتجاوز ١٢٠٠٠ عسكري بقيادات متناحرة وغير مؤهلة، مع التقدير لبعض البطولات التي ذهبت هدراً، بينما عدد الصهاينة بلغ ٩٠٠٠٠ مقاتل أكثرهم من المحترفين الذين شاركوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية! فأي استجابة

كانت لهذا التحدي الخطير؟! وحتى اليوم رغم تفاقم التحديات لا تزال الاستجابة منعدمة وتحت الصفر، لا بل العرب يتآمرون على بعضهم ويقتتلون! مما يجعل أي حديث عن الاستجابة للتحدي الذي يواجه العرب، أمر يدعو للتشاؤم، لولا بقية من مقاومين يقفون كالمشاعل في قلب الظلام!

أمريكا والعالم

مشكلة أمريكا مع سورية، هي جزء من مشكلتها مع العالم!..

تاريخ قائم على العدوان، تحت عنوان الهيمنة، ونشر القيم الأمريكية! يعتقد الأمريكي أنه ينتمي إلى أمة عظيمة، يحق لها أن تُصّدر قيمها إلى العالم، مع أولوية المصالح الأمريكية! وهذه أيديالوجيا راسخة في أمريكا، ولم تكن الأيديالوجيا السوفيتية، رغم أنها أممية، تبزها في ذلك! وهذه الأيديالوجيا محكومة بالإخفاق وبالمقاومة، وستفشل كما فشلت مع السوفييت. إذ لا أحد يقبل بالهيمنة، والأنظمة التابعة للولايات المتحدة لا تستطيع أن تؤمن الاستقرار طويلاً لكياناتها، ودول أوروبا مثال صارخ على ذلك، وهي كما يبدو مهددة بالإضطرابات وبالتفكك، وكذلك الأمر في تركيا ودول الخليج، حتى إسرائيل لا تشكل استثناء!

عاشت أمريكا بطر القوة ما يزيد عن نصف قرن، وبلغت ذروة غلوائها وصلفها بعد تفكك حلف وارسو دون حرب، واستفردت بالعالم، وجرّت العالم إلى حروبها المفتعلة والكارثية، في أفغانستان والعراق، بعد تفكيك يوغسلافيا، وخلفت فيهما الدمار، وأعادتهما إلى عصر ما قبل الدولة، وكالعادة لم تحصد سوى الخيبة! و البعض يرى في ذلك إنجازات للإمبراطورية الجديدة، وهذا غير صحيح، فقد أخفقت في أن تكون نموذجاً يَدّعي إقامة نظام عالمي جديد، قائم على حل المشاكل العالمية، بل تفاقمت المشاكل، وتراكمت العداوات مع شعوب العالم، وهي اليوم تتكفئ وتتراجع، وقوتها تتآكل، وتواجه تجمعات عالمية، وتعدد

أقطاب، ومن لا يرى ذلك، فهو مخطئ. صحيح أن أمريكا ما زالت قوة عظمى وتمتلك ترسانة سلاح هائلة، ولكنها ليست الوحيدة! وشرطي العالم فقد الهيبة، وتتراخى أذرع الإخطبوط!..

كانت أمريكا قوة كبرى ذات وجهين متناقضين، تذكرنا رمزياً برواية روبرت استفنسن: «دكتور جيكل/ ومستر هايد» أمريكا العسكرية الإمبريالية (الإسبارطية)، وأمريكا الانتصارات العلمية والتقنية المذهلة. لقد طغى وجه العدوان الإجرامي المتأصل على الوجه الآخر، اختارت أمريكا أن تتقمص شخصية «فنكلشتاين» المشوه، السادي، الذي يثير الرعب في الأولاد!

الشعب الأمريكي الذي تعب من الحروب، وكره بوش الأب و بوش الابن، اختار أوباما رئيساً له، آملاً أن يكون مختلفاً عن سابقيه، وعن دعاة الحروب وصانعي الأعداء من عصابة المحافظين الجدد، وأتذكر هنا اللحظة التي أعلن فيها فوز أوباما بالرئاسة في الدورة الأولى وقد احتشد عشرات الآلاف من الأمريكيين من كل الأعراق، وبينهم القس الأسود جيسي جاكسون والدموع تملأ خديه، وهو رفيق مارتن لوثر كينغ، وكان بجانبه حينما اغتيل على يد أحد العنصريين. اعتقدت يومها، مع كثيرين، أن الشعب الأمريكي، باختياره لهذا الرجل ذي الأصول الإفريقية، يريد أن يقدم للعالم الوجه الإنساني الذي تجلى في نصوص المشرعين الكبار وفي الأدب الأمريكي الخالد! لكن لماذا خيب أوباما الآمال، ومشى في نهج أسلافه؟! أ لأن قوة الشركات والصناعات العسكرية هي التي تفرض القرار؟! هذا ما أشار إليه بشكل صريح قداسة بابا الفاتيكان في صلاته المباركة من أجل السلام في «سوريا الحبيبة» والتعبير الطيب لقداسة البابا.

تروج الدعاية الأمريكية للأمريكيين، بأن سبب كراهية العالم للسياسة الأمريكية، لأن أمريكا متفوقة، والعالم كله يحسد أمريكا! و المشكلة ليست مشكلة أمريكا مع العالم بل مشكلة العالم مع أمريكا، فهذا العالم قاصر وحسود وأناني والبعض منه يحتاج إلى تأديب، حتى يعتبر الآخرون! وهذا ما أشار إليه الرئيس الروسي في مقاله الموجه للأمريكيين وللرئيس الأمريكي، قائلاً لهم: نحن

جميعاً متساوون. إن مشكلة أمريكا مع العالم كله كبيرة، وما لا يريد أن يصدقه الساسة الأمريكيون، أن القوة ليست مطلقة، بل محدودة ومقيدة، وأن الآخرين مهما بدو ضعافاً ليسوا معدومي الحيلة، ولا مجال لاستمرار الهيمنة، والتمسك بالوهم لن يقود إلا إلى المزيد من الخيبة والإحباط والانكفاء، وهيبة أمريكا يمكن أن تصان بصناعة السلام .

فوضى النظام الدولي

النظام الدولي الذي يتصدى لإدارة العالم، هو أكثر النظم السياسية إخفاقاً في تحقيق أي استقرار، فاشل ولا أخلاقي، ومنذ سنوات غدا آلية من آليات التحكم والسيطرة، وخرج بشكل كبير عن الأهداف التي قام من أجلها بعد الحرب العالمية الثانية، هذا عدا عن الفساد الذي يرتع به كبار موظفي أهم منظماته، وهي الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، مما جعلهم عرضة للابتزاز والرضوخ لإرادات الدول الكبرى، لاسيما الولايات المتحدة، لقد بات بمثابة هراوة وأداة لتبرير العدوان وفرض العقوبات، لا بل صار حارساً للفوضى ومديراً لها! ولم تنفع كل الدعوات لإصلاح مؤسسات هذا النظام الدولي، بل الأمور تزداد سوءاً سنة بعد أخرى! في ظل هذا النظام الدولي برزت الحروب كتعبير عن الصراع الدولي بأدوات محلية، ومن المعروف أن النظام الرأسمالي يمتلك المقدرة على تمويه انقساماته، بظاهرة التلاحم التي تترافق مع خلق أزمات، وتأجيج حروب وصراعات في أماكن أخرى بعيدة عن حدوده، وبعد أن يقوم بكل ما هو لازم لإشعال النار يتقدم كإطفائي جَسور وداعية سلام! هذا ما يعرف باسم تصدير الأزمات، وتحويلها إلى انفجارات في أماكن أخرى من العالم، لاسيما في الدول النامية والفقيرة والتي توجد فيها أرضية للتفجير، وكان الاستعماريون الأوربيون لاسيما الإنكليز والفرنسيون قد تركوها مرغمين لكن زرعوا فيها عوامل التفجير، حتى أنهم تدخلوا في دساتيرها وفي طبيعة نظام الحكم فيها وجعلوا ذلك غير

قابل للتعديل، وأي محاولة في ذلك دونها حرب ضروس! وبالعودة إلى تصدير الأزمات، كنا قد شهدنا في السنوات الأخيرة، أزمات اقتصادية كبيرة جداً في الولايات المتحدة ومعظم دول الاتحاد الأوروبي، لكن لم تلبث أن خمدت ولم يعد أحد يتحدث عنها مع انفجارات العالم العربي! لقد استخدم الغرب قوة التقنيات الحديثة كآلية جديدة للتحكم، وهم يعترفون أنهم نجحوا في بلدان ولم ينجحوا في بلدان أخرى، ولكنهم لم ييأسوا تماماً من تكرار المحاولات بطرق أخرى مستفيدين من الأخطاء، والعمل على استغلال الظروف والأدوات بشكل أفضل! إن منظريهم وسياسييهم ومراكز أبحاثهم يعملون بالسر وبالعلن على إدخال الشعوب في فوضى العصور الوسطى، بشيء أشبه بجحيم أو مطهر دانتي! فهؤلاء قادرون على إضفاء الطابع العقلاني على ما هو لاعقلاني! إنهم بارعون في إطلاق المترادفات الغامضة والسوريالية وخلق جاذبية لها بما يتناسب مع روح الفوضى الجنونية التي يؤججونها ويسمونها بالتعاون مع شركائهم المحليين، من اليساريين السابقين: «ثأر المجتمعات» ويغدوا هذا (الثأر) ممجداً طالما أنه يدمر كل شيء في المجتمعات والدول التي يريدون تفكيكها أو الانتقام منها! أما إذا ما مس بلدانهم أو الكيان المدلل، فيغدوا الأمر إرهاباً ما بعده إرهاب! هذا منطق النظام الدولي الفاسد والفاجر الذي لا يغيب عن باله أبداً أمن إسرائيل، ويخطط أسياده لحفظ أمنها لمائة سنة قادمة، كما يقولون! وهم عبر أبواقهم يتحدثون عن كل هذا وفق منطق يضفون عليه الواقعية والعقلانية! فيتحدث علماء الاجتماع عندهم عن إعادة تشكيل جغرافيا سياسية جديدة للعالم، على ضوء ما جرى في يوغسلافيا وبعض دول أوروبا الشرقية، وما جرى في تيمور الشرقية، وجنوب السودان وشمال العراق، ويذهب (المناطقة) منهم إلى نمط جديد، ينتج عن التفتيت، يطلقون عليه اسم: «**المدينة – الدولة**» وهي بديل عن الدولة الوطنية أو القومية المركزية ذات السيادة على أراضيها، و(للمدينة/ الدولة) ثقافتها وكتابها وتلفزيوناتها وشرطتها وبرلمانها وعلاقاتها الخارجية، وصلاحيات توقيع العقود!.. إذاً لم يعد النظام الدولي يشكل أي حماية لأعضائه ومؤسسيه، ولا يكترث بسيادة الدول ولا بوحدة أراضيها! وهو بذلك

يخرج عن ميثاقه، والأغرب من ذلك أن النظام الدولي هذا وأسياده لا يجد أي حرج في أن يشتري النفط من عصابات ومليشيات قاتلة لتمويل شراء السلاح ومقاتلة الدولة! وبعض الدول بالتعاون مع مافيا الآثار تشجع سرقة الآثار، فلا يجب أن يبقى شيء فوق الأرض ولا تحت الأرض! ولسان حالهم يقول: أنتم عليكم أن تدمروا كل شيء حتى نقوم نحن بإعادة التركيب.

الإمعان في الجنون

لا بد أن واحدة من النعم التي تحظى بها المجتمعات هي وجود نخبة فاضلة من المفكرين اللذين يتحلون بروح المسؤولية تجاه مجتمعاتهم وأوطانهم، رجال مميزون ولهم مكانتهم، يلقون بأنانيتهم خلف ظهورهم في أوقات الشدة، وينخرطون بجد في خلق التلاؤم والوئام بين الناس، بعد أن يتحسسوا الخطر المحدق من جراء الانقسامات والصراعات التي إذا ما تركت على حالها تهدد بالفناء! فالانقسامات والخلافات التي تتحول إلى العنف لا تحل من تلقاء نفسها، فلا بد من تدخل ما ينبثق من داخل المجتمع، ومن قلب الاحتدام ليضع حداً للصراع، ويخفف ببراعة الحكماء من غلواء المغالين والمتطرفين. وهذا ما حدث بالفعل حين بدأت أعمال التخريب والإحراق في شوارع وأحياء باريس ما دفع **سارتر** و**ألتوسير** وآخرين من مثقفي فرنسا للانخراط في احتجاجات الطلاب/ أيار ١٩٦٨/ وذلك لوضع حد لأعمال التخريب ووقف جموح الغاضبين، حرصاً على المجتمع والدولة. ونحن اليوم بأمس الحاجة إلى مثل هذه النخب التي تشعر بالمسؤولية والالتزام الأخلاقي حيال كل المجتمع دون تحيز، للأسف! مثل هذه النخب لم تتوفر عندنا، بل على العكس كانت بعض نخبنا مخيبة للغاية! انخرطت بغوغائية في تأجيج الانقسام، ووقعت بالابتذال والانحطاط الأخلاقي، واستمرت بالمكابرة الجوفاء، والتبعية لعواطف وهيجانات المنفعلين في الشارع، دون أن يستنتج أفرادها من الأزمة الدامية أفكاراً وعبراً. بل استمر خطابهم على

ما هو عليه منذ بداية الأزمة وإلى اليوم، حتى بات مملاً ومعلاًّ، حتى صح فيهم قول المعرّي:

«فُقِدتْ في أيّامك العلماء وادلهمت عليهم الظلماء

وتغشى دهماءنا الغيُّ لما عطلت من وضوحها الدهماء!»

ومن الصعب أن أصدق أن هؤلاء (النخب) مقتنعون بما يتفوهون به! وإذا كان هذا حظنا مع كتابنا ومثقفينا، فنحن لا نحسد عليه، بل علينا أن نعترف أننا في حالة بؤس ثقافي. فمن هذه الأزمة الدامية التي امتدت في الزمن، كان بالإمكان أن نستخلص دروساً وعبراً ونجري التأمل والتبصر ونستنبط الأفكار، لو كنا بمستوى الحدث، أليس من الغريب أن يتحدث أكبر مثقف في البلد مثل المهرب والحشاش والسوقي، ولم تعد تتميز لغته عن لغة هؤلاء، أليست هذه كارثة؟!

أزمتنا، بشكلها الظاهر والخفي، الذاتي والموضوعي، وبتعقيداتها الداخلية والإقليمية والدولية، كان بالإمكان أن تكون حقلاً جذاباً لابتكار الحلول والمبادرات، وأن يخرج من رحمها فكر سياسي ناضج وعميق مثلما حدث إبان انتفاضات الطلاب الأوروبيين في ١٩٦٨ ولكن لم يحدث، ولا يبدو أنه سيحدث، فالسطحية والسخف والتكالب والأنانية والمكابرة، ظلت كما هي عليه قبل الحرب وأثنائها وبعدها، لا بل ازدادت تردياً وانحطاطا، وإني لأستغرب من بعض من عرف عنهم اللانتماء أو عدم الانتماء، ونكران الأديانً والعلمنة إلى حد التطرف أن يقبلوا في حواراتهم الفضائية أن يوصفوا بانتماءاتهم الفئوية والطائفية الضيقة! ولا أعتقد أن المجتمع عندما يتعافى سيغفر لهذه النخب خطاياها. وأمام هذا التردي، وفقدان الأمل بصحوة (الحمكاء) ليس لنا من ملاذ سوى الدولة، ونعود إلى ما قاله المفكر السوري **إحسان سركيس** في كتابه: «**الأدب والدولة**» الصادر عام ١٩٧٧ يقول: «المفكرون الذين تخيلوا مجتمعات تزول فيها الدولة لا تزال رؤاهم بعيدة عن التجسد في الواقع، ولا تزال الدولة في هذا العصر تشهد اتساعاً عظيماً في صلاحياتها، ولا

تزال في جوهرها رهن الحاجات والضرورات التي اقتضت قيامها». ولم تكن الدولة السورية هشة كما كان يعتقد ويأمل البعض، وأنها ستسقط وتتهارعلى يد المخربين والناشطين الإلكترونيين، والمحطات الفضائية و... لقد صمدت الدولة لأنها كانت متجذرة فوق التصور! واليوم، الدولة ترعى المصالحات، وهذا في غاية الأهمية، ورغم العقبات والتشكيك، لابد أن تستمر الدولة في القيام بمهامها، ومع الدولة وتحت مظلتها، لا يكون ثمة منتصر وخاسر من الشعب، وغير ذلك هو الجنون والإمعان في الجنون.

بانتظار البرابرة!

الأساطيل، والبارجات، والغواصات، وحاملات الطائرات والصواريخ، ونذر الحرب تلوح، ويعلن النفير من الفضائيات النفطية وبأصوات إعلامييها ذوي الوجوه الكالحة! ومن البحر الأبيض، والأحمر، والميت، والمضايق، وحتى أعماق المحيطات ومن كل جهات الأرض، تحشد أمريكا، وحلفاؤها وأتباعها الحشود، وتقرع الطبول، وتعلن علينا الحرب! تحالف حربي يقوده رئيس الولايات المتحدة، منح جائزة نوبل للسلام، تشجيعاً له للمضي في صنع السلام! ومنذ وصوله إلى رئاسة أمريكا لم يعرف العالم لحظة سلام! فقد بزّ أسلافه جميعاً، في رجعيته، وفي تحالفاته، وفي القتل والاغتيالات بالطائرات بلا طيار، واستخدامه للإرهابيين لتحقيق انتصارات من خلالهم. لماذا يريد أوباما توجيه ضربات لسورية التي تشهد حرباً منذ ما يقارب الثلاث سنوات؟! لمصلحة من؟! هل من مصلحة السلام العالمي قتل المزيد من السوريين بشن حرب عالمية، أو تهجير ما تبقى؟! هل هذه الحرب لمصلحة الولايات المتحدة، أم لمصلحة الإرهابيين أم لمصلحة إسرائيل، أم لمصلحة تركيا والخليج، أم لمصلحة الربيع العربي، ولماذا تحاربنا فرنسا وبريطانيا وتتحمسان لتسليح المعارضة؟! قطعوا العلاقات مع الدولة السورية وأغلقوا السفارات، وأقاموا علاقات، تحت الأنفاق،

مع عصابات إرهابية قدموا لها كل الدعم وشجعوها على القتل والتخريب، وأجازوا شراء النفط المسروق من قبل مليشيات! هل هذه سياسة دول و مصالح؟! أمٍ سياسات صبيان تافهين، ومرضى عصر التفاهة؟! أحفاد الاستعمار يتسلون بمصير الشعوب بمساعدة عملائهم المحليين! ورغم سياساتهم الفاشلة في بلدانهم، لا يوجد من يحاسبهم، فهم يحتمون بالصهيونية ويعيشون في ظل نفوذها! إن من الأوجه القبيحة لما يحدث هو أن نرى هذه الوجوه المقيتة التافهة، ونسمع فحيحها صباح مساء، من أمثال: هولاند، فابيوس، كاميرون، هيغ، أشتون، داؤود أوغلو، سعود الفيصل، يبرزون للدفاع عن حقوق الشعب السوري، وهم كاذبون! أما عن «السعودية» فحدث ولا حرج، عن: الحكمة، والإنسانية، والعدالة الاجتماعية، وطهارة الكف، وإغاثة الملهوف في فلسطين، والصومال، وكشمير ونشر القيم في ربوع الأمة، وعن العلم والصناعة، وتصدير الثقافة، والرقص بالسيف، وأشياء كثيرة لا تعد ولا تحصى!

جاء في مقال نشرته صحيفة «الأخبار» اللبنانية، إن ما يجري في المنطقة كلها من تفجير وإرهاب وفتن، يجري تحت عنوان: «الموت والدمار» وهو برعاية السعودي بندر بن سلطان. لعل الرجل يعمل ببيت الشعر الذي يقول: «إذا أنت لم تنفع فضر/ يراد الفتى للنفع أو للضر». بندر، يمسك بتنظيم القاعدة، والأمريكيون يعرفون، ويقدرون له ذلك، فقد جند لهم آلاف الشبان المسلمين، المستعدين للموت وهم يعتقدون أنهم ذاهبون إلى الجنةَ! وكُتب الكثير عن ذلك بعد ١١ أيلول!.

على كل حال، الامبرياليون يقرعون طبول الحرب، وعلينا أن نستعد لهم، فهم وأجدادهم ناشروا الخراب والدمار والحروب، وتحضرني هنا مقولة **جوريس:** «الرأسمالية تحمل في أحشائها الحرب كما تحمل السحب المطر»، قد ينفذون تهديداتهم، لكي تستعيد أمريكا هيبتها التي داسها المصريون بنعالهم بإسقاط «الأخوان»! وقد يتراجعون عن الحرب إلى وقت آخر مع إبقاء التهديدات مستمرة وساخنة لكي تؤثر علينا نفسياً واقتصادياً! وما لا يغيب عن بالنا إن الحرب قائمة،

وهم يديرونها عبر أدواتهم، وأطالوا أمدها، ونحن الطرف الذي خسر كثيراً من الدماء ومن البنية التحتية، حتى جاز أن يقول واحدنا: «أنا الغريق فما خوفي من البلل»؟ فلينزلقوا إلى الحرب المباشرة إذا شاءوا، ونكون أمام عدوان خارجي واضح، يفرز المواقف، ويبين من هو الصديق ومن هو العدو، ويعري الخونة، ولنستثمر مقدراتنا العسكرية الإستراتيجية في مواجهة العدو الأصلي. وهؤلاء الذين يحتشدون اليوم هم أعداء تاريخيون لشعبنا ولشعوب العالم. والمهم أن نعرف أنفسنا، ونعرف عدونا، فنحن سوريون، وهذا يعني الكثير الكثير، حضاريون، أقوياء، لنا أصدقاء كثر في هذا العالم، يثقون بنا ويعلقون علينا الآمال، ولسنا أرانب أو نعاجاً. فليأت البرابرة الغزاة ونحن بانتظارهم.

حدود القوة

ربما يعود الحلم الإمبراطوري الأمريكي إلى فترة المؤسسين لأمريكا الذين صاغوا دستوراً ديمقراطيا للأمة الموحدة، يشبه دستور الإمبراطورية الرومانية في فترة ازدهارها، وقد يستطيع المرء أن يجد نقاط تشابه عديدة بين روما القديمة «وروما الجديدة الأمريكية» جديدة لاسيما في الروح الحربية. عرف التاريخ إمبراطوريات عديدة، كانت تبلغ في القوة والنفوذ إلى حدود قصوى ثم لا تلبث أن تضعف وتذوي وتتقلص إلى حدودها الأولية الضيقة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر: بفتوحات لاسكندر التي غلبت إمبراطورية الفرس وأزالتها، وبلغت حدود الصين، ثم سرعان ما تفككت قوته بعد وفاته! ثم جاءت الإمبراطورية الرومانية التي عاشت فترة طويلة عرفت فيها الازدهار والضعف إلى أن اضمحلت في شطرها الغربي ثم دمرها الجرمان في القرن الخامس الميلادي، أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية فقد استمرت حتى١٤٥٣ وهي السنة التي اقتحم فيها العثمانيون القسطنطينية. والأمر ينسحب على العثمانيين أيضاً وعلى المغول قبلهم، ثم في وقت لاحق حروب نابليون وهزيمة نزعته الإمبراطورية، وإمبراطورية النمسا التي أخرجت من التاريخ بعد الحرب الكونية الأولى، ثم

بريطانيا بمستعمراتها التي لم تكن تغيب عنها الشمس، مروراً بالإمبراطورية السوفيتية، انتهاء بالأمريكية التي كانت حياتها الإمبراطورية أقصر من كل ما سبقها! إن حقب السيطرة تتفاوت في مدى قسوتها، وبعضها أنعم من بعض إن لم نقل العكس! القوة بحد ذاتها تتضمن السيطرة والعدوان أحياناً، وكيف بالنزوع الإمبراطوري القائم على الهيمنة والتوسع وبسط النفوذ؟! لكن، يعلمنا التاريخ أن للقوة التي تبدو أحياناً مطلقة حدوداً ونهايات، يتكفل الزمن برفع البطاقة الحمراء بوجه أي إمبراطورية أو دولة معتدية! ففي اللحظة التي تبلغ فيها القوة ذروتها لا تلبث أن تنحدر، وفق آلية الصعود والسقوط، وإن زمن كرنفالات الانتصار للغزاة ليس إلا برهة قصيرة، تمضي مثل حلم يقظة، تأتي بعدها الكوابيس! شخصياً شهدت ذلك في بيروت عام ١٩٨٢ حين اجتاحت آلة الحرب الإسرائيلية ،المدعومة أمريكياً، لبنان، وساقت نوابه وحملت بعضهم بالدبابات، وبعضهم في لباس النوم لتنصيب رئيس للجمهورية المنتهكة بالاحتلال! ساعتها خيم ظلام دامس على النفوس البشرية وعلى الأرض والسماء، جعل الشاعر الفرنسي الكبير **يوجين غيللفك** يقول تعليقاً على هذا الاجتياح: «لقد فقدت ثقتي بالبشرية»! لكن، لم يمض على الاحتلال سوى برهة حتى انفجرت في وجهه بوابات الجحيم، وانفتحت كوة في الأفق ولدت منها المقاومة اللبنانية التي جعلت الاحتلال يخرج مهزوماً مدمى! وتكرر ذلك في أفغانستان والعراق، حين بدا بوش الابن وكأنه إمبراطور العالم، متخيلاً أنه اسكندر جديد أو أغسطس أو تراجان جديد! وكتبت المجلدات العديدة عن الإمبراطورية الجديدة، على أنها نظام جديد ما بعد إمبريالي، وإنها «سقف التاريخ» و «الإمبراطورية المعولمة» القادرة بقوتها ونفوذها على حل مشاكل العالم! وهي التي فاقمت مشاكل العالم وزادته بؤساً وتهديداً! وكرست فشلها في ركونها إلى قوتها العسكرية الجبارة، ثم ما لبثت أن تكشفت على أنها قابلة للانهزام! ففي اليوم الذي انتصر فيه بوش على نظام صدام بدأت أمريكا بالانحدار! ويمكن أن يتكرر هذا مع أي غزو أو عدوان خارجي، فالعدوان يولد المقاومة، والقوة الصلفة تحمل بذور تفكيكها دائماً، وإن

القوة مهما بدت في تجلياتها محكمة ومطبقة على الضحية، فإنها قابلة للهزيمة، إذا لم يكن على يد ضحاياها، فالزمن يتكفل في أن يوفر لها تفسخا دراماتيكياً مناسباً! ويرى شيشيرون الفيلسوف الفرنسي من أصل روماني، أن كثيراً من الظواهر في التاريخ تعيش في موتها فترة أطول من حياتها. فمن لا يلحظ اليوم أن أمريكا دخلت في عصر أفول قوتها ومجدها، فهو واهم. ولم يدلنا التاريخ على أن إمبراطورية ما خرجت عن خشبة مسرحه وعادت إليه من جديد بنفس المكانة والدور.

تاريخ العار العالمي

«تاريخ العار العالمي» عنوان كتاب قصصي للأرجنتيني **بورخيس**، أجواء قصصية متخيلة عن الغزو والقتل، استخلصها بورخيس من كتب الأدب والتاريخ وكتب السِّيَر ومن مخيلته، وللعرب والمسلمين ذكر وافر في هذه الكتاب بلا أي تجنٍ. كل الدلائل التي خلفها الإنسان منذ الأزل وحتى اليوم تشير إلى أبدية الصراع وسرمديته؛ الصراع مع الطبيعة، صراع الأفراد فيما بينهم، صراع الجماعات، ثم القوميات إلى آخر ما هنالك من أشكال الصراع! وربما الشيء الوحيد في التاريخ البشري الذي نما بتواصلية ودون انقطاع هو الصراع الدامي بين البشر، حتى بات الصراع هو القانون الرئيسي للبقاء! وأعتقد أن هذا ما دفع الأعمى البصير **بورخيس** بطريقته القصصية الخاصة والأخاذة إلى اعتباره تاريخاً للعار الكوني. الأديان والفكر الإنساني والفلسفي، وسلوك الإنسان يقر بالصراع على أنه من سنن البشر والطبيعة. واللافت أن الإنسان مع تطوره الحضاري وثقافته التي ازدادت معرفة وتعقيداً غير أشياء كثيرة في نمط حياته، إلا أنه حافظ بحنو على هذه الغريزة، وتركها تزداد ضراوة، لتشير بما لا يدع مجالاً للشك إلى عدوانيته المتأصلة، ولم يفتأ يطور أدوات الصراع الفتاك إلى حد يفوق أي خيال ويشيب له شعر الغلام! ومنذ عقود والحديث يتعالى عن

القوة التدميرية لأسلحة الدول التي تمتلك ترسانات نووية قادرة على تدمير الكوكب عشرات المرات بضربة واحدة وببضعة دقائق أو أقل! فهل هذا عالم سلام بصدق، وهل هو عالم ثقافة وشعر وحضارة؟! أم هو عالم حروب وصراعات دائمة، فتاكة في أحيان كثيرة، وخفية في بعض اللحظات عندما يتوفر التوازن بين الأقوياء المتصارعين؟! والمتأمل لهذا التاريخ يخلص إلى أن المدنية المزعومة، لم تكن يوماً مهددة كما هي عليه في العصور الحديثة التي أسموها: «عصر الإنسان» وتوهمنا جميعاً أنها بحق عصر الإنسان! وتستحق أن تسمى بجدارة عصر الوحوش البشرية! لنقرأ معاً هذه الصورة المرعبة التي قدمها عملاق الرواية العالمية في القرن العشرين **غابرييل غارثيا ماركيز** في الذكرى ٤١ لانفجار القنبلتين الذريتين الأمريكيتين على مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين، يقول: «بعد دقيقة واحدة من آخر انفجار، سيكون قد مات نصف البشر، وسيكون الغبار والدخان المتصاعدان من القارات الغارقة في النيران المضطرمة قد بدد ضوء الشمس، وسيعود الظلام المطلق يطبق على العالم مرة أخرى، وسيسود شتاء ذو أمطار حمراء وصفراء وعواصف دوارة، يغير مناخ المحيطات، كما يغير مجاري الأنهار التي تنفق أسماكها ظمأ في الأمواج المحرقة، ولا تجد طيورها السماء...» إلى آخر هذا المشهد المرعب عن الطاعون الذري الذي يمكن أن يحدثه العسكريون والسياسيون الأقوياء في الدول العظمى وعلى رأسهم الأمريكان الشماليين، وكان ماركيز يتحدث عام١٩٨٦ عن ٥٠٠٠٠ رأس نووي منصوب في المواقع! وربما تضاعف الرقم التدميري اليوم كماً ونوعاً! وأشار ماركيز في السياق إلى أن كل إنسان، والأطفال ضمناً، يجلس، مجازياً، على برميل يحوي أربعة أطنان من الديناميت، يمكن لانفجاره بشكل كامل أن يزيل أثنا عشر مرة كل أثر للحياة على وجه الأرض! كل المؤشرات العسكرية اليوم تشير إلى أن الإنفاق العسكري يزداد بشكل جنوني، ولم تتوقف شركات إنتاج السلاح للحظة واحدة عن إنتاج وتطوير أدوات القتل وبالتالي تأجيج ساحات الحروب والصراعات النارية لتسويق منتجاتها في الدول الفقيرة والمؤهلة للتمزق! فلو كانت

المدنية والقيم الأخلاقية هي التي تسود بالفعل لكان بالإمكان أن تحل كل مشاكل البشر على الكرة الأرضية ولما كان ثمة فقر أو جوع أو بطالة أو ديون أو نهب أو استغلال وكان الإنسان يستحق بجدارة أن يزهو بإنسانيته، ويقول بأعلى صوته: إنني أفضل الحيوانات التي عرفتها الكرة الأرضية. وكان على الشعراء أن يمجدوا هذا الكائن الشقي بأعظم القصائد دون أن يشعروا بعار الكذب على الإطلاق!.

ثقافة ضد البربرية

تحت تأثير وضغط ما يحدث من فظائع يكثر التشكيك ببعض المفاهيم والقيم، وينعدم اليقين بجدوى نشاطات الإنسان التي كنا نعتقد أنها غير قابلة للمس أو للتشكيك، ومنها مثلاً جدوى الثقافة في زمن كهذا الزمن الذي تطفو البربرية على سطحه مثل بقعة زيت سميكة ومتعاظمة. إذ كثيراً ما يواجه الواحد منا نفسه أو يواجه من آخر بمثل هذا التساؤل عن جدوى الكتابة أو النشاط الثقافي في زمن داعش والنصرة ومن لف لفهما؟ وإن يكن التساؤل مفهوماً ومسوغاً مثل أي تساؤل غير أنه ليس عميقاً ولا يتعدى أن يكون صدى للانفعال والتوتر النفسي **المادون ثقافي**. ولكن ليست طفرة ولا حالة نادرة في التاريخ أن توضع الثقافة في وجه البربرية، ففي كل تاريخ التوحش لم يكن أمام الإنسان المذهول والمصدوم إلا أن يشهر ثقافته ليؤكد أمام الله والتاريخ أنه ليس حيواناً بل هو شيء آخر مختلف عما يمارسه البرابرة. وهذا ما جعل أحدهم يقول: «ليس ثمة وثيقة للثقافة، إلا وهي أيضاً سجل للبربرية» وتعليقاً على ذلك يقول الناقد البريطاني **تيري إيغلتون**: ولكن حتى في مجتمعات لا تملك وقتاً للثقافة، مثل مجتمعاتنا، ثمة أزمنة وأمكنة تكتسي فيها الثقافة فجأة أهمية متجددة، مشحونة بدلالة تتجاوزها هي ذاتها. نعم الثقافة تغدو صرخة احتجاج ثم فعل مقاوم ضروري وملح. أول ما يتبادر إلى ذهن الإنسان حتى البسيط عندما ترتكب الجرائم النكراء أن يتذكر ثقافته التي هي الحصن اللاشعوري للإنسان

الأعزل، ويقول أول ما يقول أنا أنتمي إلى حضارة عمرها آلاف السنين، كيف يحدث هذا على أرضي وأرض أجدادي؟! ويكاد لا يصدق أن من يفعل ذلك يمكن أن يكون من ورثة هذه الثقافة ومن الأصل المتواتر لهذا الشعب الذي توحد الثقافة هويته. لكن كيف، والبرابرة يستهدفون حياة الإنسان وثقافته وكل ما هو عزيز عليه حتى القبور، قبور الآباء والأجداد والأولياء، لا تسلم من أيدي المغول الجدد؟! إنهم يشبهون الطاعون، وقد شبه المغول والتتار من قبل المؤرخين بالبلاء الأعظم، وبالوباء الأصفر، وكتب **ابن الأثير** يوم زحف هولاكو على ديار المسلمين، وكان قد فعل ما فعل في المدن الشرقية، مثل نيسابور وسمرقند وآلموت، وقتل رجالاتها حتى الذين سايروه ورضخوا له دون قتال، وعلق ابن الأثير على ذلك الحدث الفادح قائلاً: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسيا» هذا ولم يكن **هولاكو** قد وصل إلى بغداد بعد. ولنا أن نتخيل تلك المحنة الحالكة السواد والغزاة يدمرون كل شيء، ويلقون بكل ما أبدعته العقول وسطرته الحضارات المتراكمة في نهر دجلة! ويتكرر مثل هذا الأمر مع كل اجتياح أو غزو قديم أو معاصر، وهل ننسى مشهد الغزاة الأمريكيين، وهم يقتحمون متحف بغداد؟! هذا هو الصدام التاريخي بين القوة الغاشمة وبين القوة الناعمة والدائمة من (الديمومة) ولا يعقل أن يستسلم الإنسان استسلاماً كلياً لوطأة التوحش، قد يصاب بالهلع للوهلة الأولى، قد يصاب بالإحباط ولكن سرعان ما يستفيق، سرعان ما توقظه إنسانيته مثل الشوكة التي لاتنام، تجعله يتساءل في أرقه عن هويته عن معناه، عن وجوده وربما سيغني أو يطلق صرخة أو يرسم لوحة أو يكتب قصيدة، أو يسرد حكايات أو يفعل أي شيء في وجه الوحوش البشرية، هكذا فعل **بيكاسو** حين رسم حمامة السلام وغدت رمزاً للسلام، وحين رسم الغرينيكا، وكذلك فعل **إيلوار** حين كتب قصيدة الحرية. الثقافة هي تأكيد دائم على مدنية الإنسان.

ثقافتنا الوطنية

لم أكن فيما مضى أميل إلى هذا التعبير، بل كان ينفرني لما قد يحمل من عصبية وسطحية أحياناً إلى حد الابتذال! ولكن أرى اليوم وبعد ما جرى لنا أنه ملح وضروري وغير نخبوي، والتفكير فيه يضعنا في خضم المسؤولية الأخلاقية. وإذا كانت الثقافة انتماء، فنحن بأمس الحاجة لإعادة تجديد مفهوم هذا الانتماء، وطرح الأسئلة على ثقافتنا السائدة: «ما العمل، وماذا نريد»؟ ولكن هل نخرج من نرجسيتنا ونعترف أننا عانيننا قروناً من الركود والتكرار واللفظية وتجريح الذات والهزيمة؟ واليوم وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه في مرحلة التدمير، ولا يخفى على أحد الدور السلبي للثقافة اللامنتمية واللاوطنية في صب المزيد من النفط على النار وقد ركب بعض فرسانها موجة العواء مع الذئاب، حتى باتت أي محاولة إصلاح أو أي دعوة للعقلنة كصرخة في بيداء موحشة، أو ضرب من الجنون! صحيح في حالات الخطر الجماعي يغيب التفكير الصحيح و مع ذلك ليس لنا إلا أن نراهن على العقل، وعلى العمل الجدي المحسوب والمدروس جيداً، والأمم الحية تجد لنفسها المخارج من رحم الصعوبات وأقسى الآلام، ونحن نثبت يوماً بعد يوم وبإصرار أننا لن نهزم وسنخلق أسطورتنا وملحمتنا الخالدة بالانتصار النهائي على الظلامية التي بلغت ذروة توحشها وهي اليوم تندحر مادياً في أماكن عديدة، مثل وحش متعدد الرؤوس يتهاوى وهو يتلقى الضربات المتتالية من أيد مقتدرة رسخت فيها روح البطولة. وستعزف سيمفونية الإبداع بمشاركة الشعراء والموسيقيين، والمبدعين في كل المجالات التي يبرع فيها أبناء هذا الوطن. هذا هو الإطار العام الذي يفتح للثقافة الوطنية آفاق الحركة ويغذيها بالإمكانات، فنحن لا نحتاج إلى أن نهدم كل شيء لنبني من جديد، البنيان موجود ويحتاج إلى تفعيل وتنشيط حركيته بالشكل الصحيح، واستثمار الطاقات الشاردة ووضعها في الخضم العام وفق آليات جديدة غير اعتباطية وغير تقليدية. آليات حكومية وأهلية تعنى بالفرد المبتكر، المجتهد وتتفاهم معه على أن

المجتمع له الأولوية دائماً. وإن الاهتمام بالإبداع والإنتاج الثقافي للأفراد هو جزء من آلية خدمة ثقافة المجتمع، ولا يوجد تناقض في ذلك، دون الارتهان كلياً على اللجان التي تُعين عادة للقيام بمثل هذا الدور الهام، تفيدنا التجربة أن اللجان لا تصنع ثقافة إلا بمقدار تنوعها وتعبيرها عن التيارات الثقافية الحديثة والمنفتحة على بعضها، وباعتقادي أن التعويل على اللجان وإن كان من حيث الشكل منطقياً إلا أن فاعليته معدومة في حال لم تراع النوعية في اختيار أعضائها، وأن يتمتع كل واحد منهم بالثقافة المشهود له بها وبالبصيرة وروح المبادرة والنزاهة والغيرية وروح المسؤولية. عندما تتوفر هذه الشروط في اللجان المسؤولة عن تفعيل ثقافتنا الوطنية، وتنعدم البيروقراطية والأهواء، ويكون كل شيء مدروس وفق الجدوى والأسباب ولا يوجد هدر ولا فوضى أو عبثية سنجد أنفسنا في مكان آخر وعلى الطريق الصحيح. والرهان الأكبر اليوم على المؤسسات الثقافية الوطنية، وعلى وزارة الثقافة بشكل خاص لما تملكه من قدرات في إطلاق المبادرات ووضع الخطط القابلة للتنفيذ لتفعيل وتنشيط الحياة الثقافية، وتقوية العلاقة بالكتاب الجيد من خلال النشر، تأليفاً وترجمة، وألا يترك القارئ تحت رحمة فوضى دور النشر الخاصة لتفرض عليه الكتب التي تناسبها تجارياً أو فكرياً كما كان يحدث في السابق، فالمعركة مفتوحة ومستمرة على كافة الجبهات، وليس أمامنا سوى أن ننتصر فيها.

اليسار العربي: حق الدخول في النسق المأساوي

إذا كان الشطر الأكبر من القرن العشرين هو العصر الذهبي لليسار، فنحن اليوم في زمن آخر، زمن «ما بعد اليسار» إذا صح القول، وقد يجعلنا هذا نرنو إلى الحالة من خارجها، ونقاربها بأقل قدر ممكن من العاطفة. بداية، من هو اليساري، ما ماهيته، ما أوصافه،ما أهدافه، وهل اليسار كتلة واحدة أم أفراد؟ وأعتقد ليس من السهل الإجابة على هذه الأسئلة، التي تبدو بسيطة، دون

النظر إلى الصورة النمطية التي قدمتها السردية الشاملة والملحمية عن اليساري في فترة بطولته، والتي اختلط فيها الواقع مع الخيال أحياناً. ومهما حاول البعض أن يبخس اليساريين حقهم إلا أنهم كانوا أبطال مرحلتهم بامتياز، وكان حضورهم طاغياً على الصعيد العالمي، وفي السنوات الأولى للثورة البلشفية قلما نجا مثقف أو كاتب في العالم من تأثيرات هذا الفكر الاشتراكي أو اليساري. ولم تكن بلاد العرب بمنأى عن هذا التأثير، منذ مطلع العشرينات في القرن الماضي، تكون الرعيل الأول، وظهرت في مصر وبلاد الشام شخصيات وتجمعات وأحزاب شيوعية، هب أفرادها (المعلمون) يكرزون بمبادئهم الجديدة، حتى بلغوا بها في وقت قصير أقصى القرى والدساكر والأحياء المظلمة. وكان لهذا الرعيل والرعيل الذي تلاه دور في نشر فكر جديد وحديث في مناطق تعم فيها الأمية والفقر لكنها تعج بالأحلام. ولذلك لا نستطيع أن نقول أن اليسار العربي والماركسي منه تحديداً أخفق في كل شيء. أعتقد في تقريره إلى شعوب الشرق كان لينين واقعياًَ ً جدا، كعادته، في النظر إلى الشيوعيين في المستعمرات وفي بلدان المشرق ، مشيراً إلى صعوبة عملهم وحدود الدور الذي يمكن أن يقوموا به، وهو في نظر لينين مهم جداً على ضآلته. وأعتقد أن اليساريين نجحوا إلى حد كبير في تأكيد حضورهم الثقافي والتحرري، ولذلك كانوا جزءاً من ديالكتيك العملية الثورية العالمية. رغم الظروف الصعبة، والمطاردة والمعتقلات، والموت تحت التعذيب، كمن يرقص على الجمر، كانوا حملة تنوير وتحرر وحداثة، وإذا اعترفنا لهم بهذا نكون قد أوفيناهم بعض حقهم، أما الذين يستهويهم اليوم جلد اليسار العربي والتحدث عن إخفاقاته، ويحملونه مسؤولية كل ما آلت إليه الأمور، فهذا جحود ما بعده جحود، ومبالغة في تحميل هؤلاء مالا طاقة لهم على تحمله، وقفز عن الواقعية والظروف التاريخية التي نشأ فيها هذا اليسار، واستهانة بالأحلام النبيلة، وإن حساب الأمور بالنتائج ليس أمراً ثقافياً على الإطلاق بل هو أقرب إلى منطق أرباب العمل ورجال المال. وقد تكون واحدة من أخطر مشاكل تاريخ اليسار، أنه لطبيعة طوباوية فيه، يَعِدُ بأكثر مما يستطيع أن يقدم. وإذا كان

الشيء بالشيء يذكر، فهل نجح اليمين والبرجوازية العربية في شيء؟! وكان بيدهم ما لم يكن بيد اليساريين. قد توجد أخطاء عديدة في سيرة حياة اليسار، ولكن المصير المأساوي لهذا اليسار، وفق نيتشه، هو النسق الأهم في هذه السردية إذا كنا نريد أن نتحدث من منظار ثقافي، ويمكن أن نلخص الحكاية على الشكل التالي: «الزمن: مطلع القرن العشرين حتى السبعينات منه أو أكثر بقليل. والمكان: قلب العالم العربي (مصر وبلاد الشام) والحالة العامة: ليل مطبق، ظلمات فوقها ظلمات قرون، إلا بقع ضوء تتوس من هنا وهناك، وومضت على أشدها في ما سمي عصر «النهضة العربية الأولى» الموؤد. في هذه الظروف، انبرى رجال حالمون بالتغيير، يحملون طاقة كبيرة من الأمل، مستجيبين لأصداء كونية كانت تتجاوب في كل أنحاء العالم. ولنا أن نتخيل أن هؤلاء الفرسان لم ينوجدوا ولم تلامسهم الموجة أبداً، كم ستكون الحكاية موحشة ومقفرة بل إلى أي حد كان سيبلغ التصحر؟! مع هؤلاء ازدهرت الثقافة والجدل والصحافة وانتعشت الفنون على قدر الإمكان، وتراكمت الترجمات المختارة التي كانت لنا نحن الأجيال اللاحقة كمصل الدم للمريض. وإذا كان من الطبيعي أن يرفض اليسار شرعية السائد، وهو في أهم تعريفاته أنه رفض دائم، ويدعو إلى تغيير هذا الواقع، فإن اليمين لم يعترف اعترافاً حقيقياً بوجود اليسار إلا بصفته جماعة مارقة من الأفاقين الملحدين والمنحلين أخلاقياً، والذين يتلقون التعليمات من السوفييت. ورغم هذه الحملات ضدهم استطاع اليساريون أن يفرضوا حضورهم الجماهيري، وأن تدور بفلكهم حركات جديدة أكثر راديكالية أحياناً. ولكن، هل كان اليسار العربي راديكالياً حقاً؟ من خلال اطلاعي المتواضع على تاريخ هذا اليسار الرومانتيكي، أستطيع أن أجزم أن الجسم الرئيسي «الأرثوذكسي» لليسار كان إصلاحياً وأبعد ما يكون عن الجذرية ويتأفف بشدة من الشعارات التي تدعو إلى العنف المسلح، والتيارات الأكثر تطرفاً والمنشقة عن هذا اليسار (الرخو) لم تمارس العنف المسلح إلا في أحلامها أو مفرداتها الشعبوية، والأمثلة على ذلك كثيرة، إذا ما تغاضينا عن الأساطير والحكايات التي كرسها شعراء

اليسار عن ثورات مسلحة، لا تتعدى أن تكون حوادث عابرة تم فيها الاحتكاك مع بعض الدرك! فهذا اليسار عموماً بمجمله يسار ثقافي تنويري ولم يتعد ذلك إلا في حالات نادرة مارس فيها اليساريون المقاومة، كما فعل اللبنانيون وبعض الفصائل الفلسطينية، وإذا كان مظفر النواب وحيدر حيدر قد تغنوا بثورة الأهوار في جنوب العراق فقد سمعت منذ سنوات شهادة تلفزيونية لـ«عزيز الحاج» أحد القادة الشيوعيين الذين ينسب لهم هذا النشاط الثوري المسلح يقول مبتسماً: إن ثورة الأهوار لم تكن إلا مجموعة رفاق من تسعة أشخاص تاهوا في أحراش القصب، وصادفوا في طريقهم مخفراً للشرطة فيه بعض الحراس النائمين، فاستولوا على بعض البنادق وتمت مطاردتهم والاشتباك معهم. وسمعت أساطير مشابهة عما كان يسمى منظمة «أنصار» المشكلة من بعض عناصر من ثلاثة أحزاب شيوعية انبرت للمشاركة في العمل الفدائي، وكان هذا تعبيراً عن الجدل القائم داخل اليسار الشيوعي حول الكفاح المسلح، والذي تطور إلى انشقاقات كبيرة داخل هذه الأحزاب.

أما اليوم وقد مضى عصر اليسار، وبات وكأن الزمن الذي يفصل بيننا وبين ماركس ولينين وتروتسكي يعادل قروناً حتى يصح أن يتوهم البعض أن الأبطال الكلاسيكيين الثلاثة بكل ما أحدثوه من وقع شديد على إيقاع العالم الحديث ينتمون إلى عصور ما قبل التاريخ، ويا لها من مفارقة! تجيز لنا أن نستشهد لها بمقطع من قصيدة **بتلر يتس** «**المجيء الثاني**» وكأنها رثاء متقدم لليسار على شكل نبوءة: «المركز يتفتت والخيرون يفتقدون أي يقين!». نحن اليوم، وقد دخلنا في عصر **اللويثان** الجديد، بعد أن بدا العالم للوهلة الأولى وكأنه يوضع بين أيدي (التكنوقراط المحايد) ليتبين أنه بين أيدي أعتى اليمين(المحافظ) الذي لم يتوقف للحظة عن تسعير الحروب، وإحياء العنصرية، وتغذية أشد الحركات الدينية ضراوة وظلامية، وفي ظل غياب تام لليسار بعد أن سرق منه كل شيء، واستخدمت شعاراته من قبل أعدائه التاريخيين في أبشع صورة! في عصر يضج بالحركات المجتمعية الخالية من المضمون اليساري

والاجتماعي، يسمونه: عصر الفوضى واللايقين، وعصر المتاهة و«المتاهة وطن المتشككين» حسب **وولتر بنيامين**، عصر «ما بعد اليسار واليمين والثالثيين» عصر لا يستطيع أحد أن يجزم أين سيكون المستقر. والعلم يكتشف لنا اليوم مداخل للجحيم، وأعتقد أنه قد عثر حتى الآن على خمسة مداخل، قد تكون كافية لإدخال العرب كدفعة أولى ثم ليأتي بعدهم من يأتي. أما من يتحدثون عن أمل في انبثاق يسار عربي جديد، شخصياً وبكل أسف لا أراه في الأفق القريب، بل يلوح في الأفق الشبح المشؤوم لغراب **إدغار ألن بو** وهو ينعق بجملته الكارثية وفي ليلنا الحالك: «ما مضى لن يعود». إن تاريخ هذا اليسار العربي الذي انقضى له كل الحق في الدخول في النسق المأساوي، على أنه سردية ثقافية تنويرية يجب أن تقرأ بما لها وما عليها. وما من شيء يمنع إخلاصاً للثقافة والشعر والفن والتاريخ من أن نرفع القبعات وننحني إجلالاً للرومانسيين الثوريين الذين احترقوا على فوانيس القرن العشرين الخادعة، وكانوا أبطالاً بلا انتصارات كبرى

جورج أمادو والسوريون

الكاتب البرازيلي **جورج أمادو** من الكتاب الكبار في القرن العشرين والأكثر شهرة من بين كتاب أمريكا اللاتينية، رشح من كتاب أوروبيين كبار لجائزة نوبل عام ١٩٦١ وظل مرشحاً حتى قضى، منذ بضع سنوات، ولم ينلها كما لم ينلها كتاب عظماء آخرون ونالها من هو أقل منهم قيمة وشهرة، فلم تعط **لتولستوي صاحب رواية الحرب والسلم** بينما أعطيت للشاعر والقاص الاستعماري **ريارد كبلنغ** عام ١٩٠٧ ولم تعط لـ: **غراهام غرين** ولا **لكزنتزاكي** ولا **لمورافيا** ولا للشاعر اليوناني **ريتسوس**.. على كل حال هذا شأن الأكاديمية السويدية. ولد **جورج أمادو** عام ١٩١٢ نشر روايته الأولى «بلاد الكرنفال» عام ١٩٣١ هو روائي إقليم «باهيا» أرض زراعة الكاكو، وموطن المزارعين

وشركات التصدير، وحيث الاختلاط البشري من الخلاسيين الأفارقة والهنود ومن الأوربيين والعرب.. يقول أمادو عن باهيا: «إن أي زقاق في باهيا يحتمل كل معجزات العالم». الروائي الأكثر واقعية والأكثر ملحمية، جعل من الإنسان وعلاقته بالأرض محور أعماله الروائية مع تنوع في أعماله ومواضيعه، وبهذا عبر من المحلي إلى العالمي! ويشير الأستاذ شاكر مصطفى إلى مراحل خمس في تاريخ أمادو الأدبي: الأولى، مرحلة قص الحوادث، وفيها وضع أمادو الأسس الرئيسية لكل ما سوف يكتبه فيما بعد. ثم تأتي مرحلة باهيا، ثم زراعة الكاكو وقصص الأرض ومآسيها. ثم مرحلة القصص السياسية التي كتبها أثناء الحرب، وأخيراً أخذ يكتب القصص ذات الأبعاد المتعددة. نذكر من رواياته التي ترجمت إلى العربية : أرض ثمارها من ذهب، دروب الجوع، فارس الأمل، كانكان العوام الذي مات مرتين، غابريلا قرفة وقرنفل. عالم أمادو أخاذ، حاشد بالصراع والحب والخصب والموت الواقع والأساطير، وكل عمل من أعماله رائعة من الروائع! ورائعته الخالدة: «كانكان العوام الذي مات مرتين» هي رواية أشخاصها من الصعاليك، حظيت بترجمتين إلى العربية الأولى صدرت عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٦٤ قام بها صديق أمادو المهاجرالسوري ابن إنطاكية نخلة ورد ضمن مختارات من القصص البرازيلي. والترجمة الثانية عن الفرنسية صدرت عن دار الفارابي في بيروت عام١٩٨٥ قام بها الأديب الراحل محمد عيتاني. وشخصية غابريلا التي تشبه الأرض والنار والماء ورائحة القرنفل والقرفة من بين كل العشاق والطامعين بها لم تحب أحداً كما أحبت «نسيب» العربي!

جورج أمادو صديق حقيقي للعرب وللسوريين بشكل خاص، وتكاد لا تخلو رواية من رواياته لا يوجد فيها سوري أو عربي، وهو يتحدث عن السوريين بعمق وإعجاب، وقد كرسهم كمكون للمجتمع البرازيلي، وقدمهم بصورة إيجابية، وهو يصر على أن يسميهم، كما هم،السوريين أو العرب، خلافاً لبعض كتاب أمريكا الجنوبية ومنهم ماركيز الذين يطلقون على كل مهاجر من أصل عربي

لقب «تركي» ويعتبر الأستاذ شاكر مصطفى أن مرد ذلك يعود إلى أن المهاجرين الأوائل من السوريين واللبنانيين كانوا قد ذهبوا إلى المهجر بأوراق ووثائق تركية، وهو يرى أن إطلاق صفة التركي على العرب فيها شيء من الاحتقار المتوارث. وقد عبر أمادو في رسالة إلى صديقه نخلة ورد عام ١٩٦٣ بمناسبة ترجمته لمختارات من القصص البرازيلية عن نظرته الصريحة للعرب، نقتطع منها: «من جبال سورية ولبنان انحدروا بقاماتهم الممشوقة، بقدرتهم على العمل والأحلام، بتوقهم للحياة، وبشجاعتهم الحازمة، لقد اخترقوا المحيط ونزلوا البرازيل، وفي اليوم التالي كانوا جميعاً برازيليين، من أعرق البرازيليين، ومن أوضحهم ملامح وأشدهم وطنية. إن الدم العربي لعب دوراً من أكبر الأدوار شأناً في ديمقراطيتنا العرقية، في مساهمتنا بالثقافة العالمية، وفي نزوعنا الإنساني ... إن بين سورية والبرازيل كل هذا الدم الجامع، كل هذه الأخوة، كل هذه الحياة المعاشة..» أليست كلمات مفعمة بالحب والإنصاف من كاتب بهذا المقام؟.

حالة حصار

«سوزان لينداور» كانت تعمل ضابط اتصال في المخابرات المركزية الأمريكية في العراق، قبل الغزو الأمريكي لهذا البلد، ووقفت ضد الحرب، وتحولت إلى ناشطة من أشد المناهضين لغزو العراق، صارخة: «إن الحرب تقوم على أباطيل» وهذا ما أدخلها في مأساة مع حكومتها، لكن بلغت ذروة مأساتها حين أعلنت أنها تمتلك حقائق حول تفجير برجي التجارة العالمية في ١١ أيلول سبتمبر ٢٠٠١، ودور إسرائيل فيها، وأن المخابرات المركزية كانت على علم بذلك قبل حدوثه! وهنا بدأت رحلتها الجحيمية؛ في نهاية الولاية الأولى لبوش الابن وعلى أبواب الانتخابات لدورة ثانية، وخوفاً من أن تتحول (ثرثرات) سوزان إلى فضيحة سياسية تؤثر على الجمهوريين، تعرضت لمحاولتي اغتيال فاشلتين، ثم داهم رجال (f.b.i) منزلها عند الفجر، واقتيدت إلى الاعتقال،

وسجنت خمس سنوات، مع أشد أشكال التعذيب النفسي والابتزاز والاتهام بالجنون والتهديد بالسجن لمدة ٢٥ سنة من أجل أن تصمت. ولكن لينداور عاندت وقررت أن تواجه مهما كان الثمن، فألفت كتاباً تروي فيه تجربتها، ترجم إلى عدة لغات وسافرت إلى اليابان وروسيا وأجرت مقابلات وتحدثت إلى كل ما أتيح لها من وسائل الإعلام الدولية. وحالة سوزان تشبه حالة العميل «سنودن» وفضيحة التنصت، وهي سابقة لها وأشد منها مأساوية. تحدثت لينداور إلى قناة روسيا اليوم على عدة حلقات عن أمريكا ما بعد ١١ أيلول، وتحديداً ما بعد قانون المواطنة: «باتريوت أكت» لعام ٢٠٠١ وقالت، في هذا القانون المتهم مدان حتى يثبت العكس، دون أن يعرف التهمة الموجهة إليه، قد يعتقل اعتقالاً مفتوحاً ودون محاكمة، مع إلزامه بالصمت للمصلحة القومية! إنه نفس قانون الاتحاد السوفيتي الذي سن في عهد ستالين عام ١٩٢٩ وإن أمريكا التي تتحدث عن الديمقراطية وحقوق الإنسان يعيش فيها الإنسان تحت ظل قانون الستار الحديدي الذي استمدته من الستالينية كما هو! وقالت: «لقد استيقظت على أمريكا أخرى لم أكن أعرفها، وكنت أحب بسذاجة أمريكا القديمة، أمريكا حقوق الإنسان» وبينت لينداور أنها في ذروة محنتها انفض عنها الجميع، أنصار السلام والمعادون للحرب تلاشوا جميعاً بتأثير الدعاية ضدها، والخوف وحتى الرشوة! أشاعوا عنها أنها امرأة مختلة تتوهم أشياء لم تحدث، المشرف عليها في الاستخبارات «ريتشارد فيوز» الذي تلقى رشوة قدرها ١٣ مليون دولاراً لكي يصمت عن المعلومات التي يطلع عليها حول ١١أيلول ودور إسرائيل، أنكر معرفته بها. وعينت لها المحكمة محامياً للدفاع عمل ضدها، وقالت: «إنه يهودي صهيوني معاد للعرب، سألني عن موقفي من اسرائيل، فقلت، أنا ضد العنف واستخدام القوة ومع الحقوق المدنية، استنتج من هذا أنني ضد إسرائيل واتهمني بالجنون»! وكشفت لينداور أن رجل الأعمال الملياردير اليهودي «سلفر ستاين» صديق شارون ونتنياهو كان مستثمراً للبرجين، قام قبل شهرين من انفجار البرجين بتسجل استثماراته في شركة تأمين يابانية، وحصل على ٧

مليار دولار من شركة التأمين اليابانية، وكان هذا الرجل قد اعتاد أن يتناول فطوره اليومي في أحد مطاعم البرجين إلا أنه لم يحضر في يوم الانفجار. أشياء كثيرة قالتها سوزان لينداور. قالت: لقد حولوني إلى امرأة فقيرة بلا عمل ولا مال ولا أصدقاء، ولكنني قررت مواصلة العيش من أجل قول الحقيقة، وإن قضيتي هي قضية أمريكا والعرب والإنسانية. رغم انفعالها، ومرارة كلامها لاتبدو سوزان امرأة مهزومة أو مختلة، بل على العكس فهي تعرف ماذا تريد، وإنها اختارت أن تقاوم بوعي، مثل كل الأحرار. لقد حوصرت وأطلقوا عليها كلابهم «الديموقراطية» وعملوا ضدها كل أشكال الدعاية والتشهير، بعد السجن والتعذيب، ولم يستطيعوا تحطيم إرادتها. وحالة هذه المرأة الشجاعة ليست فريدة من نوعها وليست استثنائية، وما جرى لها هو أسلوب شهدته أمريكا منذ منتصف القرن الماضي مع ما عرف بـ «المكارثية» وملاحقة المثقفين والفنانين الأحرار بتهمة العداء لأمريكا.

مصر وحلم سلامه موسى

للمفكر والمربي التنويري المصري سلامه موسى كتاب عن أحلام الفلاسفة، يعرض فيه لتصورات الفلاسفة الأوروبيين في إقامة عالم سعيد على الأرض، يبدأ فيه من جمهورية أفلاطون حتى برنارد شو وويلز ووليم موريس مروراً بـ **توماس مور**، ويختم كتابه بحلم خاص به وبمصر، وعن مصر الغالية سيكون حديثنا اليوم.

بداية، السوريون والمصريون امتزاج حضاري واجتماعي وجيوسياسي قديم، يعود إلى ما يقارب الخمسة آلاف سنة، وقد تعمق هذا الامتزاج واشتدت أواصره في عصر الحكم الإسلامي، ثم بلغ أوجه في عصر القومية العربية المعاصر، وهذا الامتزاج، صار حقيقة قائمة، ولا يستطيع أحد مهما حاول أن يقفز فوق حقائق التاريخ. واليوم، يتطلع أمثالي إلى مصر، بالمزيد من العاطفة

والتمنيات، لأن تستعيد مصر دورها وتنهض لتجمع شمل العرب وتوقف التمزق العربي الذي يدمي القلب، وهذا ما جعلني أستحضر حلم سلامة موسى هنا؛ حين كان الرجل يفكر بيوتوبيات التاريخ، غلبه النعاس حتى كاد أن يتطور إلى نوم عميق بعد تعب، إلا أن: «وعي العقل الظاهر ينقلب إلى أحلام العقل الباطن» وبين الصحو والغفوة ثم النوم الذي لم يكن نوماً إلا في ظاهر الجسم، بينما الأعصاب والدماغ كانت تتأرجح، والخواطر تترادف وتتجمع .. ولن نستغرق في رواية الحلم وتفاصيله المملة والمركبة، كعادة الفلاسفة ورجال الفكر الإصلاحيين في أحلامهم المعقدة! سنأخذ حلم الرجل برمزيته وكونه نتاج عقل وثقافة، لعل أبرز ما فيه هذه (الثيمات) التي تختزنها الكلمات التي تتكرر، يقول في سياق العرض: «هببت من فراشي وأنا أقول: «تأخرت، تأخرت» ولكني قعدت ثانية في الفراش عندما نظرت إلى ما حولي، فإن الغرفة لم تكن غرفتي، ولا الفراش فراشي، ونظرت إلى الحائط، فوجدت معلقاً عليه هذه الأرقام: ٧ فبراير ٣١٠٥» ويتبين في الحلم أن الرجل كان مريضاً وهو يقبع في مستشفى مستقبلي فيه أطباء وممرضون من العهود القديمة والجديدة! وهو لا يتذكر مرضه ولم ير أو يلمس في جسده أي علامة مرض! ثم يقول: «قمت من الفراش وسرت نحو النافذة، ولكنني لم أخط خطوتين حتى صكت أذني صرخة، فالتفت إلى الوراء فرأيت فتاة تعدو وهي تقول»: النائم صحا، النائم صحا «ولم تمض دقائق حتى سمعت المستشفى كله يردد هذه العبارة، وبعد نحو ربع ساعة سمعت الشارع كله يتجاوبها». سأكتفي هنا بهذه المقتطفات من حلم سلامة موسى الطويل! وليتأمل كل منا برمزية العبارات المتكررة: «تأخرت، تأخرت» و «النائم صحا» والعبارة الأخيرة تحولت إلى لازمة احتفالية عامة يرددها الجمهور في الساحات من أطفال ورجال ونساء!. الحلم يدل على أن سلامه موسى كان يحلم لمصر أو أن مصر كانت تحلم في شخص ابنها البار. وفي الختام ينصح سلامة موسى القراء بالا يهزأوا بالأحلام، فما قد نشتهيه في اليقظة قد نراه في النوم. ونحن كما الرجل نريد لمصر أن تصحو من نومها، لأن في صحوة

مصر صحوة لأخواتها. أما عن الأحلام فأختم بهذه القصة الطريفة التي تروى عن التابعيين الجليلين الحسن البصري ومحمد بن سيرين؛ إذ يروى أن الحسن البصري كان يهزأ من تفسير ابن سيرين للأحلام، ويقول أمام مريديه: أين لهذا الرفاء أن يفسر الأحلام؟! إلا أنه بعد أيام رأى حلماً ما كان ليقلقه لولا أنه تكرر ثلاث مرات، فأرسل الحسن رجلين إلى ابن سيرين، وطلب منهما أن يرويا له الحلم دون أن يفصحا له عن صاحبه، وفعلا كما طلب، إلا أن ابن سيرين رفض أن يفسر لهما الحلم وقال لهما: اذهبا إلى من أرسلكما وقولا له إن الرفاء لا يستطيع أن يفسر الأحلام. وقد دهش البصري، كيف عرف ابن سيرين أنه صاحب هذا المنام، فذهب إليه وسأله عن ذلك ، فرد ابن سيرين أن هذا الحلم لا يراه إلا رجل فيه صفات ومناقب الحسن البصري، وكان الحلم، أن البصري رأى نفسه، فيما يرى النائم، يقف عارياً فوق مزبلة. و فسر ابن سيرين، أن المزبلة هي الدنيا، والعري هو الزهد بها.

حول فكرة الدولة

بداية، ما سأعرضه هنا عن الدولة، هو مجرد أفكار انتقائية عامة، وليس فذلكة في البعد القانوني والسياسي، وهو للتذكير ولملامسة علاقتنا بالدولة وحاجتنا الوجودية لها كأفراد وكجماعات.

يرى جوزيف شتراير أن الإنسان قد يستطيع أن يعيش دون عائلة، ودون مسكن ثابت، ودون انتماء ديني، لكنه بدون دولة ليس شيئاً، وليس له أي حقوق وأي أمن. صحيح لم تكن الدولة موجودة دائماً، إلا أن شكلاً من أشكال الدولة المركزية قد عرفته منطقتنا قبل أماكن أخرى من العالم، ثم ما لبثت الدولة القديمة أن اندحرت بفعل عوامل عديدة، منها ماهو ذاتي ومنها ما هو موضوعي. وفي العصور الحديثة تطور مفهوم الدولة و تكونت كضرورة اجتماعية، وتعمقت فلسفتها، وبات عند الناس في كل أنحاء العالم قناعة بأن الأقوام الأكثر تخلفاً

والأكثر بدائية تستطيع وحدها الاستغناء عن الدولة. وبما أن الدولة ترتكز على مؤسسات دائمة، فلا بد أن تقوم هذه المؤسسات على أرض ثابتة، وحسب شترايز أيضاً: «من الصعب إقامة مثل هذه المؤسسات إذا كانت الأرض التي تقوم عليها تتغير باستمرار، وإذا كان تلاحم الجماعة، التي تتكون منها الدولة، يتغير تبعاً لفصول السنة». إذاً لابد من الديمومة في المكان والزمان، وبعد ذلك لا بد من توفر المكانة، وسلطة اتخاذ القرار الذي يجب أن ينفذ، ولا بد من الولاء والرضا من الانتماء لهذه المؤسسة التي توحدني مع الآخرين، كما أن النزعة القومية تعزز هذا الولاء. وعلي أن أعطي الأولوية لصالح الدولة ولو تعاكس هذا مع مصالحي الخاصة، ويرى أحدهم في الولاء للدولة نزعة إنسانية، والدولة عليها أن تضمن لمواطنيها السلام والأمن والرفاه، إذا أمكن. يعرف أحدهم الدولة بأنها جماعة تبنيها وتديرها القوانين. وإن الفكرة الرئيسية في السياسة هي أن طبيعة الدولة تحددها قوانينها الأساسية ودستورها، فيعيش الناس في ظل ملكية أو جمهورية أو استبدادية. ويذهب برنار غروتويزن إلى أن إنشاء الدولة يعد فناً «إنه الفن الاجتماعي» وموهبة البناء، وإعطاء جماعة ما دستوراً متجانساً. ويكتب السياسي الفرنسي في عصر الثورة الفرنسية «ستيس» بافتتان عن هذا الطابع الفني للتكوين الاجتماعي، وكيف أن جمهوراً من ملايين البشر يجتمعون وينتظمون وفق قوانين، ويؤلفون بعلاقاتهم كلاً يخضع لقوانين البناء الاجتماعي العقلي الذي هو الدولة. وبالفعل إنها صورة مشرقة للعقل الاجتماعي. ومن البديهي أن للفرد حقوقاً أساسية يجب أن تراعى، والفرد طرف محوري من أطراف الحق وهو شريك في تكوين الدولة، وللمجتمع حق اتخاذ القرارات بشأن الفرد، بموجب عقد اجتماعي يتم فيه نقل جميع حقوق الفرد إلى المجتمع، وتعمل الدولة على تطبيقه وحمايته. ومنذ أن ينضم الفرد إلى مجتمع ما، تبدأ بالنسبة له حياة جديدة، فينتهي انطواؤه على نفسه، ويغدو بكليته ملكاً للمجتمع، وحياته جزءاً من حياة الجماعة. في كنف الدولة التي نبضها القانون، يشعر الفكر بعلو منزلته، وتزدهر الفنون والعلوم. وحقيقة الأمر أن الدولة بناء عقلاني، وكيان واقعي وعميق. ويرى فيلسوف الدولة هيجل أن الدولة واجبة

التحقق، والحياة السياسية هي حياة الدولة، وأن الفرد يبلغ كماله في الدولة. التفكير الفوضوي والغوغائي، مهما تقنع بقناع العمق، ودعوات الحرية الفردية المطلقة، هو فكر سلبي، وأحياناً تخريبي، لا يحترم القانون الذي يُجمع الناس عليه، ويسفه المؤسسات! هذا النوع من التفكير البدائي لا يمت إلى المدنية بصلة، ومن حق المجتمع أن يعزله، ويحد من مخاطره. وأرى اليوم، فيما يخصنا كعرب، أن من واجب كل واحد منا، أن يفكر بروية في معنى الدولة، ويتأمل بعمق بمعنى فكرتها، وبما يجب أن يكون عليه حالها.

خرائط الجحيم

حين يكون العالم لعبة بين أيدي صبيان تافهين، يمارسون فيه ألعابهم وفق هوياتهم المتنافرة القاتلة، علينا أن نتوقع كل شيء متناقض، فهم يشعلون النيران في كل مكان، ويهرعون بمتعة لإطفائها، وهم ضد الحرب، ويؤججون الحروب في كل لحظة! في هذا العالم الـ «مافوق سوريالي» يحدث فيه كل شيء، المبكي والمضحك، التراجيدي والكوميدي ونسمع فيه عن عجائب تفتقر إلى الإدهاش، وعن خرافات تغدو حقائق بسحر ساحر! هذا زمن الألعبان الإمبريالي! كل شيء فيه يفضي إلى الشقاء وإلى المزيد من الفقر وإلى الحروب والتهجير..

منذ أيام أعلنوا عن اكتشاف بوابة للجحيم في مكان ما من العالم، ثم أعلن عن اكتشاف بوابة ثانية في شرق آسيا، وبعدها فتحة ثالثة ربما في استراليا أو نيوزيلندة، ونحن الآن أمام ثلاث بوابات معلنة للجحيم، وقد يتم اكتشاف بوابات جديدة، وتوجد عندنا هنا بوابة رابعة في «بابل» لم يُعترف بها بعد، رغم أنها حقيقة صارخة ولها جذر تاريخي، ووكالة وهابية معلنة باسم «الخليفة إبراهيم بن عواد»! البوابات الثلاث الأولى قد تكون ضرباً من الأخبار الإعلامية للإثارة، أو ترويجاً لمشروع سينمائي قادم قد ينتج عنه حزمة من الأفلام الهوليودية! مثل خرافة مثلث برمودا، والكائنات الفضائية، والصحون الطائرة.. ولكن، لنفترض ولو

للحظة أن بوابات الجحيم حقيقية، فما هو هذا الجحيم التحت أرضي الذي يفضي كما عند، الوثنيين، إلى العالم السفلي عالم الظلام الأبدي، حيث يجلس «هاديس» حارس بوابات الجحيم وزبانيته لينقلوا الأرواح إلى الظلام الرهيب، كما جاء بخيال فذ في ملحمة «جلجامش» البابلية منذ قرابة أربعة آلاف عام. فإلى جانب أن اكتشافنا الجديد هو حالة نكوص ارتكاسي بالخيال إلى زمن ساحق قبل التاريخ، سبقنا إليه إنسان فجر الحضارات! والاكتشاف الجديد ممسوخ، وقاصر من الناحية الجمالية و لا طعم له إذا ما قيس بالأول، حيث جلجامش كان يبحث بنبل عن عشبة الحياة الدائمة وحل سر الموت، بينما أبطال العصر الحالي، أبطال العولمة يبحثون للإنسانية عن بوابات للعبور إلى الجحيم! وإذا كانت هذه تصلح أن تكون مفارقة، فإن ما يزيد في الأمر هزالاً ويضعنا أمام مفارقة ثانية و مريرة هي أن عصرنا هذا على ما يبدو قد كف عن الاكتشافات العلمية العظمى لخدمة الإنسانية، ليبحث في حقل مغاير عنوانه: البحث عن بوابات فاغرة للجحيم! كم نحن أمام خيال كوني مريض خال من الإبداع، وأمام ثقافة هزيلة لا تُشرِّف أحداً؟! لماذا لم يكتشف لنا، أولاد الأبالسة، بوابات للفردوس الأرضي، وبوابات للسلام الدولي؟! وياله من تساؤل ساذج! فهل يعقل أن يُكتشف في عصر جون ماكين وكيري وأولاند وهنري ليفي وفابيوس وكاميرون وأردوغان ومن لف لفهم من حكومات تابعة وعصابات وجماعات سوى بوابات السعير؟! وإذا ما تجاوزنا حقل المجاز إلى الحقيقة، فالإمبرياليون، والرأسماليون المتوحشون بسياسييهم وجنرالاتهم ومراكز أبحاثهم، منشغلون بدأب في رسم خرائط جديدة أقل ما يقال فيها هي خرائط الجحيم الحي! تؤدي إلى حروب مدمرة ومتدحرجة قد تنتقل من قارة إلى قارة، وهم يفعلون ذلك بكامل وعيهم الإجرامي، ويوظفون لذلك إمكانياتهم الهائلة. الجحيم الأرضي بواباته هي الحروب، وهم حين يتحدثون عن الجحيم، يعنون ما يقولون، وتفصح اللغة المجازية المحملة بالدلالات التوراتية والتلمودية عن نواياهم في إقامة أحزمة نار حول الصين وروسيا والهند، وليرقص العالم على النار لعقود من

الزمن!. ومن المتوقع أن نكون أمام اكتشافات جديدة من هذا النوع، بينما بوابات السلام ستظل مغلقة حتى زمن آخر أو إلى حين.

زمن القتلة!..

عرف العالم المعاصر تسميات للزمن من خلال أبرز ظاهرة فيه، منها: زمن العلم، الثورة الصناعية، زمن الاستعمار، زمن الشيوعية، زمن الفاشية والنازية، وزمن حركات التحرر الوطني، وزمن تولستوي في الأدب، وزمن غاندي في الهند...إلخ ونحن اليوم، حط علينا زمن ليس كمثله زمن؛ إنه زمن القتلة بامتياز! زمن الوحوش البشرية، ونظلم الوحوش البرية إذا ما شبهناهم بها! قتلة وأي قتلة في مطلع القرن الواحد والعشرين هذا؟! أي فاتحة لهذا القرن التعس الذي قالوا أن العالم فيه صار قرية واحدة؟! وإذا كان الأمر كذلك فليتساوى العالم بالمصائب، ولتغدو هذه القرية الكونية المزعومة كلها قتلة ومقتولين! وينتهي ساعتها زمن الآدميين بكل ما ادعاه من ثقافة وحضارات ووعي، ولترتفع عندها راية البربرية على الكون، ونخلص ساعتها من عبء الثقافة والتفلسف والفنون والشعر والتغني بالجمال ولنلقي بالوصايا العشر، وشريعة حمورابي، ومبادئ ويلسون، ولنرفع راية هولاكو وتيمور وهتلر وشارون وكل الطغاة والقتلة في التاريخ، والعالم كله إما قاتل وإما مقتول! أهذا ما تريده الدول المهيمنة على العالم، أهذا هو عصر الديمقراطية وجوهرها؟! ما هذا النظام الدولي القائم الذي يرعى القتلة المجرمين ويمولهم، ويعكس الحقائق على هواه، فيغدو في عرفه الثوار والمناضلون الحقيقيون إرهابيون مطاردون، والإرهابيون الذين يقطعون الرؤوس ويهدونها لأطفالهم ثواراً يثيرون الإعجاب؟! ما هذا النظام الدولي الذي يسارع كلما شنت إسرائيل حرباً بربرية على الفلسطينيين العزل أن يجتمع ويبرر لها عدوانها وإجرامها بحجة أن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها؟! ما هذا النظام الدولي الذي يحاصر الشعوب التي تطمح إلى التحرر والسيادة وامتلاك العلم الضروري لتطور شعوبها؟! ما هذا العالم؟! وأي إنسانية

يمكن أن نتباهى بها وأمام أعين البشرية تباد البقية الباقية من شعب قديم مسالم كـ «الأزديين» القاطنين في جبل سنجار وغيرهم من سكان العراق وسورية من السكان القدماء الذين انقض عليهم وحوش ضوار جاءوا بهم من أصقاع وبراري العالم، أن يتجرأ هؤلاء القتلة المعتدين ويفعلوا فعلتهم هذه ويتباهون بها في وضح النهار دون أي حساب للعالم القريب والبعيد ووسط صمت مخز، إن دل على شيء فهويدل على أن هذا العالم قد صُ ُفرَمن الأخلاق وأنه بات خاوياً من الأحرار، وأنه لمن المستغرب أن الضمير الكوني لم يتصدع إذا كان موجوداً؟! ألا يخجل المثقفون والفنانون والأدباء العرب وغير العرب أن تعبر المشاهد أمام أعينهم دون أن يبدوا أي تأثر؟! أن يروا الصبية التي ألقت بنفسها منتحرة من فوق صخرة من أعلى الجبل كي لا تطالها أيدي القتلة، أن تباع النساء في سوق النخاسة؟ وهل تكفي الإدانة، وهل تنفع مع مثل هؤلاء المجرمين بيانات الشجب والإدانة؟! والحقيقة هم يراهنون على الإعجاب بهم من قبل قطاع واسع من البشر ويحققون إنجازات واضحة في ذلك! ويبدو أنهم أكثر منا واقعية وفهماً لطبيعة البشر في هذا العصر! نحن لا نقرأ عن جرائم حدثت في كتب التاريخ، بل نراها ونسمع صرخات المعذبين و نرى أخوة لنا يذوقون الموت ودموعنا لن تنفعهم بشيء! وهذا العالم الظالم المتحكم لا يزال يمعن في دعم القتلة ويريد أن يثبتهم على الأرض ويشرعن إجرامهم!

عن أي قضية يقاتل هؤلاء الجبناء، الذين يفتقرون إلى أي ذرة من رجولة أو شجاعة، فأخلاق الفرسان لا تبيح قتل الضعفاء والأسرى. وأي انتصار سيحققونه على الناس المروعين في قراهم، الذين يغيرون كالضباع ، ويفرون كالجرذان أمام الأبطال المدافعين عن الحمى؟!

لا ينفع التراخي مع هؤلاء الغيلان، أو الاستهانة بخطرهم، وفي زمن العجائب هذا قد يكون للشر جاذبية! ولنا في التاريخ عبر، إذ بدأ التتري تيمورلنك الأعرج بعصابة من أربعة أشخاص حتى صار له جيش من القتلة

الفتاكين فيه من كل الأجناس وحثالات الأرض. كي لا نرضخ لزمن القتلة، علينا الدفاع عن إنسانيتنا باقتدار.

صحوة اليونان

كما يوجد في العالم (شمال وجنوب) فقراء وأغنياء، كذلك في دول الاتحاد الأوروبي يوجد (شمال/ جنوب) أغنياء وفقراء.. وهم يتحدثون منذ عقد من الزمن عن اليونان وكأنها عالة على الاتحاد الأوروبي، وقد أغرقت بالديون وأعلنت الدولة إفلاسها، وأوشك الأمر أن يصل إلى حد عرض اليونان على البيع في مزاد علني، وأعتقد تم بيع بعض الجزر، وأعلنت حالة التقشف التي أرهقت الشعب، في الوقت الذي ناشدت فيه حكومة اليونان السابقة شقيقاتها في الاتحاد الأوروبي إلى جدولة الديون وتقديم يد المساعدة، ولكن لم تلق إلا الرفض والتعنت، متروكة لتئن تحت وطأة المعاناة، وسياسة الإذلال وكأنه انتقام مارسته ألمانيا ودول أوروبا الغنية مدعومة من البنك المركزي الأوروبي، والمفوضية الأوروبية، وصندوق النقد الدولي، ولا أعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية بريئة من هذه السياسات. وتحمل الشعب اليوناني بصبر طويل، ثم بنفاد صبر سياسات حكومته السابقة والفاشلة، ثم كان لابد من أن يضع لها حداً، وينتخب حزباً يعد بإنهاء التقشف ويتخذ قرارات صادمة، وانتخب حزب سيريزا اليساري، الذي شكل حكومة ائتلافية من أحزاب يسارية صغيرة برئاسة اليساري رئيس الحزب الفائز اليكسيس تسيبراس، وخرج الشعب اليوناني محتفلاً بالانتصار، إذ وضع الاتحاد الأوروبي على المحك وفي حالة قلق من المطالبة بإلغاء الديون، وتوجهت اليونان الأرثوذكسية بأنظارها نحو روسيا الحليف الطبيعي والتاريخي، وكان هذا بداية الرد على الاستعلاء والإذلال الأوروبي لليونانيين، وربما لتذكيرهم بحقيقة من هو اليوناني التي قد تناساها الأوربيون على ما يبدو.

تشكل اليونان في وجدان كل مثقف في العالم معنى، في حضارتها القديمة والمجيدة الزاخرة بالفلسفة والشعر والمسرح والنحت والبطولات أيضاً، وفي تاريخها الحديث، في كفاح شعبها للتحرر من الأتراك، وفي مقاومتها ضد الفاشية والديكتاتورية، وفي أدبائها العظماء المعاصرين: نيقوس كازنتزاكيس، ريتسوس، سيفيريس، والموسيقي تيودور راكس... وغيرهم. هذا الشعب استيقظت فيه الروح المتوسطية، وأراد أن يقول لدول الشمال الغنية، للوحش الرأسمالي الكاسر: كفى، ليس اليورو والمارك والجنيه الإسترليني والفرنك كل شيء في أوروبا، والفقراء ليسوا بلا كرامة. لقد استيقظت روح العظمة في هذا الشعب، وانتفض لكرامته، وكأنما انفجرت فيه دفعة واحدة روح أبطاله وعظمائه، وهو يعرف عواقب ذلك، وماذا يعني أن تتحد كل هذه القوى المتوحشة ضده، وكأنه يقول، فلتذهب الأمور إلى نهاياتها، ولتكن المأساة وهو شعب المآسي الكبرى في التاريخ! إن إذلال شعب وأمة ليس أمراً سهلاً أو عابراً في ضمائر الشعوب الحية، وهذا مالا يريد أن يدركه المتوحشون الذين يمارسون الحصار والتجويع والعقوبات الجائرة على شعوب بأكملها، ويكفي أن نستحضر حالة كوبا التي قررت الولايات المتحدة منذ أيام رفع الحصار الذي دام خمسين عاماً عنها، بعد نصف قرن أدرك الأمريكيون أن العقوبات على كوبا لم تجد نفعاً ولم تسقط نظام فيديل كاسترو! ومع ذلك لا تزال تحاصر كوريا الشمالية وإيران وسوريا وتهدد دولاً أخرى بالمزيد من العقوبات، حتى أنها فرضت مع حلفائها حرباً اقتصادية وعقوبات على روسيا الدولة العظمى والعضو الدائم في الأمم المتحدة. هذه سياسات آنية ولا أخلاقية بل إجرامية وتزيد العداء بين الشعوب وتزيد الفظائع والتوترات والانقسامات في العالم، وهم أي الإمبرياليون يعرفون ذلك ولا يجهلونه، ومع ذلك يصرون لأنهم يمتلكون القوة والمال، وكأنهم يصرون على أن الشريعة التي تتحكم بالبشر هي القوة الغاشمة! وما يزيد الأمر سفالة أنهم يبدون وكأنهم ينتقمون من ورثة الحضارات القديمة، كما فعلوا مع العراق وإيران وليبيا، والصومال (أرض البونت) وسوريا ومصر، إذ يهددونها بشكل مباشر أو غير مباشر، وكذلك فعلوا مع اليونان، وها هي ترد على إمعانهم كما يجب، وسيتلقون

الرد دائماً من الشعوب العزيزة والكريمة الأخرى في كل العالم لوضع حد لهذا التوحش الذي فاق المعقول.

صورة العربي

تكون وعينا الشقي والمعاصر على مشهد لا يكاد يفارق تصورات أي واحد منا، وهو يتكرر ربما عبر قرون! ولكنه اليوم، في عصر الصورة، أشد وضوحاً ومضاضة على النفس! صورة الإنسان العربي المهجر الذي يحمل صرته ويهيم في الطرقات! تكاد هذه الصورة أن تكون حكراً على الإنسان العربي، حتى لكأنها قدر محتوم كتب علينا أن نتذوقه جيل بعد جيل. في القرن التاسع عشر، وكما كتب الدكتور شاكر مصطفى كان على الشباب السوريين واللبنانيين الهاربين من العثمانيين ومن الفقر أن يزحفوا إلى شواطئ المتوسط، حين تأتي سفن الشحن الأجنبية لتحملهم كالمواشي إلى حيث لا يدرون إلى أين يذهبون، وأين ترسي بهم أقدارهم؟! بلا أوراق شخصية، بلا مال، بلا حقوق وحتى بلا أسماء! وكثيرون منهم هلكوا في أعماق البحار، والناجون منهم ممن وصلوا إلى أمريكا الجنوبية منحوا أسماء جديدة، وهلك منهم عشرات الألوف في تجفيف المستنقعات منذ الأيام الأولى للهجرة! ولو قيض لهم العيش لكانت جمهوريات أمريكا اللاتينية اليوم كلها، تقريباً، من أصول عربية! هذه صورة يجهلها الكثيرون منا ولو لم يذكرها كاتبنا الكبير لما درى بها أحد. ثم في ثلاثينات القرن الماضي وبمؤامرة فرنسية تركية هجر قسم كبير من سوريي لواء اسكندرون، وقد صور هذه المأساة من ذاكرته كاتبنا الكبير حنا مينا في روايتيه الرائعتين: «المستنقع» و«بقايا صور» وبعد حوالي عقدين من الزمن أصيب العرب بنكبتهم الكبرى، اغتصاب فلسطين. وكانت جريمة العصر الكونية الأكبر، وأكبر مشهد للتهجير الجماعي من الوطن إلى المخيمات، وشكلت جرحاً لم ولن يندمل في ذاكرة من لديهم ذاكرة! ولم يتوقف المشهد منذ أن تحالف الاستعمار والحركة الصهيونية وزرعوا «اسرائيل» كالسرطان في قلب الجسد

العربي! وأمدوها بكل الدعم وأسباب القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية، وأقاموا لها دويلات وإمارات وكيانات لتبقى ولتمد من عمر مأساتنا وليلنا الطويل، وكل ما يجري عندنا وعلينا لها يد فيه وأكثر! ونتيجة لذلك طاب للأعداء مع حلفائهم أن يرسخوا صورة العربي المنكوب والنازح والمهجر عن أرضه ودياره تحت النار والقصف! لقد استكملوا المشهد في عدوان دائم فبعد ١٩٤٨ جاء عدوان ١٩٥٦ ثم الـ ٧٦ وحروب الاستنزاف وبعدها الحرب في لبنان والاجتياح الصهيوني وتهجير عشرات الألوف، ثم تكرر مشهد التهجير في الكويت ثم في العراق، ولم يكد يتوقف في مكان حتى يهب في مكان آخر واليوم صهاينة العصر، بكل أجناسهم ومذاهبهم، يعملون بنا كالإعصار، ويشعلون نيرانهم في كل مكان مباشرة أو عبر أدواتهم، في وطننا سوريا على مدى ما يقارب الأربع سنوات كلما كادت تنطفئ في مكان يغذونها في مكان آخر، وكلما هلك فصيل من فصائلهم أحيوا لنا فصيلاً آخراً، وهاهم ينتقلون من جديد إلى العراق ليكملوا ما لم يستطع الاحتلال الأمريكي والبريطاني فعله! هاهم يهجرون سكان الموصل، السكان الأصليون، من الأشوريين والكلدان والسريان والعرب، كأنه انتقام من التاريخ والحضارة، عبر صهاينة جدد في لباس أفغاني وسلوك وهابي، وترادفهم حليفتهم إسرائيل بحربها الشنيعة على الفلسطينيين في غزة المحاصرة منذ ثماني سنوات! وفي الوقت نفسه اندلعت حرب الفوضى في كل ليبيا ويتدفق آلاف اللاجئين الليبيين إلى تونس والجزائر وتغلق في وجوههم الحدود! وأعتقد ستدور الدوائر على كل العرب ولن يكون أحد بمنجا مما خططه لهم اعداؤهم، وهم غافلون وبعضهم بحيونة يدفع المال ويمول صراحة كل هذا الحريق ويجد بين المثقفين من يثني عليه ويمدح حكمته العربية! ألا يتساءل هذا العربي الضال إلى أين سيفر إذا ما وصلت إليه الفوضى، بدل من أن يشمت ويتشفى ويتآمر على إخوته؟! هذا هو المشهد العربي: إننا نحترق عراة وسط العار العربي والدولي ودماء الأبناء تسيل في الطرقات وأشلاؤهم تتناثر في كل

مكان! فلنصرخ كما صرخ نيرودا في وجه العالم ضد الفاشيين في اسبانيا: «تعالوا انظروا الدماء في الشوارع».

في أزمنة الفكر والحرب!..

.. دخل العالم القرن الواحد والعشرين، بلا أمل!..

على المستوى السياسي، أخفق النظام الدولي في حلِّ مشاكله، وازدادت مشاكل العالم تفاقماً! وبرزت النزعة الامبراطورية و شهوة الهيمنة، والرغبة في الانتقام والعقاب، من قبل الولايات المتحدة، التي تفردت في قيادة العالم بعد انهيار المنظومة الاشتراكيّة، وشنت، مع حلفائها، خلال عقدين ثلاثة حروب مدمرة؛على يوغسلافيا، وأنهت وجودها كدولة موحدة، وعلى العراق، وأفغانستان، ودمرتهما! وهي لا تزال تهدد بالمزيد من الحروب! ورغم كل الفرضيات التي قدمت لتفسير هذه الحروب، لا تزال التفسيرات غير مقنعة، هل دوافع هذه الحروب، هي المصالح الاقتصادية، ونهب الثروات، أم هي لفرض الهيمنة والقوة، أم لتجريب الأسلحة الجديدة وتسويقها، أم هو بطر القوة الفائضة، والرغبة في ممارسة العبث العدواني؟! أم هناك أسباب أخرى، أم هي مجموعة أسباب؟!

إن النظام الدولي، الذي يهيمن على المنظمات الدولية بالكامل ويتحكم بها، أفشل عن عمد، إمكانية أي حل عادل أو غير عادل للقضية الفلسطينيّة! وأي أمل يرجى من هؤلاء السياسيين الضحلين الذين يقودون العالم؟! مجموعة من الجبناء المنافقين، الذين لا يجرؤ أحد منهم أن يتخذ موقفاً شجاعاً! وإذا ما توهم أحدهم للحظة أنه قادر على ذلك، وإذا ما تجرأ وأطلق كلمة عن مأساة الفلسطينيين، مثلاً ، فلن يصيح عليه الديك، حتى يكون قد ملأ الدنيا اعتذاراً وتوسلاً للغفران!

هذا الفشل السياسي، انعكس فشلاً وفوضى على المستوى الأخلاقي والثقافي. والأصح أن الفشل السياسي عززته الفوضى الثقافية التي سبقته بعقود من الزمن! وقدمت له كل المبررات اللازمة له! فعلى المستوى الثقافي، فكما هي

الفوضى في الواقع، هي أيضاً في عالم الأفكار! وتعود الفوضى في عالم الأفكار، إلى زمن اللاعقلانية الغربية، التي انتعشت في الثقافة الألمانية الرومانتيكيّة، وتوفر لها أعلام كبار، من فلاسفة ومؤرخين وشعراء وموسيقيين، منهم نيتشه، شبنجلر، فاغنر.. وعن هذا العصر كتب الفيلسوف الهنغاري جورج لوكاش كتابه الشهير: «تحطيم العقل». ليس هذا الموضوع ، كما قد يعتقد البعض، خاص بالغرب ولا يعنينا! فنحن كما يقولون اليوم، لسنا في جزيرة معزولة! بل نشترك مع الغرب في ثقافته القديمة والحديثة،إضافة إلى أن معتقداتنا الدينية مصدرها واحد، هو الابراهيمية، التي تجمع الديانات التوحيدية الثلاث، وإضافة إلى أننا كنا جسراً، كما يقولون، بينهم وبين الإغريق! نحن أيضاً من مستهلكي ثقافتهم الحديثة عبر آليات الهيمنة وعصر الاستعمار والتبعية، ونحن نردد مقولات مفكريهم، ونحفظ أسماء كتابهم وشعرائهم أكثر مما يحفظها أساتذة الجامعات عندهم! حتى أعلام ثقافتنا التاريخية، كالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد.. لا قيمة لهم عندنا، إلا من خلال القيمة التي يمنحها الغرب لهم! إذاً، نحن معنيون بثقافة هذا الغرب، بصفتنا مستهلكين لها، ونحن زبائنها الدائمون! فلا بأس إذاً أن ننقد هذه البضاعة أو نعلق عليها! أو لنأخذ منها منهج التشكيك، ونقرأ وفقه، كما فعل عميد أدبنا طه حسين، ثم أليس للمستهلكين حقوق؟! على كل حال، علينا أن نتذكر أن القرن العشرين، الذي يصوره البعض عندنا بصورة شاعرية، على أنه عصر الإنسان، وعصر المكتشفات العلمية الكبرى! هو أيضاً عصر جنون، شهد حربين كونيتين، وحروباً أخرى لا تعد ولا تحصى، راح حصيلتها ١٦٨ مليوناً من البشر! ومئات الملايين من الضحايا والمشوهين! حتى استحق هذا القرن، أن يوصف بأنه القرن الأكثر دموية في التاريخ! ومع انقضاء القرن الماضي، الذي كان إلى جانب هذه الصورة القاتمة، عصر زاخر بالأفكار والنظريات، وتحطمت فيه أنساق فكرية كبرى، لتحل محلها أفكار أخرى، كان أهمها سقوط الحتميات، وانتشار الفكر التشاؤمي بصيغ متعددة، تتفق معظمها،على إنكار الاعتقاد

السابق، أن الإنسان هو الفاعل في التاريخ وفي العالم! ولتؤكد أن الإنسان مجرد بنية في نسق، ولتحل العلاقات بين البنى والأنساق محل الكينونة! التي شغلت الوجوديين على تنوعهم!.. وفي عالم الفكر والفلسفة، قلما يصح أن نتحدث عن الخطأ والصواب، بل عما هو جيد أو أقل جودة!

حال أمة العرب!

.. عالمنا العربي اليوم في حالة نكبة كارثية! بكل ما تعنيه الكلمة من محمولات. وأعتقد أن كلمة محنة، أو أزمة، أو شدّة، لا تفي في وصف ما نشهده! لا أحد اليوم على هذه الأرض العربية بمنأى عن الأذى، ولا بمنجا من القتل العمد أوغير العمد! قد يلقى الإنسان مصرعه وهو يسير في الشارع، من جراء انفجار متفجرة أو مفخخة أو عمل انتحاري! أو قد تطاله رصاصة وهو يطل من نافذة بيته، أو من شرفة منزله! إن حياة الإنسان العربي أصبحت أقل قيمة من حياة أي حيوان آخر! موت مجاني وبالجملة والمفرق! ودون إسهاب في الوصف، هل نبقى نتفرج على دمائنا وهي تسيل، هل ينتظر كل منا موته بالطريقة التي يريدونها له؟! ما هي الأهداف وما الأسباب التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه؟! وهل نكتفي بإدانة المجازر والقتل دون أن نشير أو نلمح إلى القتلة ومن يقف خلفهم؟! من أين خرج علينا كل هؤلاء القتلة، وانبثوا في المدن والقرى والحارات، فوق الأرض وتحت الأرض، وبأي حق يقتلون الناس دون أي خوف أو ندم؟! أشلاء البشر عالقة على الحيطان، الجثث في الطرقات والدروب، والدم في كل مكان! وأيدي ملوك وأمراء وحكام المشيخات تمتد للمزيد من الإضرام،كما فعلوا في العراق وليبيا وسورية، يوسعون دائرة النار إلى لبنان ومصر، وغداً لا ندري أين؟! ألا يستدعي هذا الحال، الذي لا يخفى على أحد، إلى التأمل ولو قليلاً، إلى أن يخرج الصامتون والمتفرجون والحائرون ويفعلوا شيئاً ولو بسيطاً، أن يقف الشعراء والسرديون والدراميون والمصورون وكل النخب بكافة صنوفها، ويطرحوا على أنفسهم أسئلة بسيطة لا

تكلفهم شيئاً من المال أو الجهد: ما الذي يجري اليوم في عالمنا؟! هذه ليست مجرد فوضى، ترافق المراحل الانتقالية، كما يطيب للبعض أن يقول. هذا هو الجحيم الحي، يقيم بيننا على يد عصابات من القتلة والمافيات والجهلة والعملاء الخونة، الذين يرتكبون ما لا يجرؤ أن يرتكبه أسيادهم! لماذا تغدق كل هذه الأموال والأسلحة على القتلة، ومن الذي يتكرم بها، وهل هؤلاء المسرفون في الكرم، عشاق حرية وإصلاح سياسي أو اجتماعي أم أصدقاء للفتن والتفتيت؟! لقد بلغ الأمر ما فوق طاقة البشر على الاحتمال، أما من نهاية لهذا الكابوس؟! ثم ما هذا الانهيار في الوزن الوجودي للعرب؟! أليسوا دون درجة الخمسين تحت الصفر، رغم أموال النفط والغاز التي يشترون بها ذلهم ومهانتهم؟! العرب يمولون أعداءهم، ويشترون العبودية بأموال شعوبهم!هذا ما يقوله عنهم حتى من يعتقدون أنهم حلفاؤهم! فهل تنفع الصرخة أو العتاب بمثل هؤلاء الذين قال فيهم شاعرهم : «تنبهوا واستفيقوا أيها العرب/ فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب»؟!

إذا كانت كل هذه الدماء والمجازر، التي دونها كل مجازر التاريخ وحشية، وكل ما فعله جنكيز وهولاكو وتيمور وهمجيات الجنس البشري، لم توقظهم، بل زادتهم تعنتاً وإمعاناً وتغولاً في الدم العربي، فلا أمل في أن تصحو فيهم بقية من غيرة أو بضعة من ضمير! فيا أيها المثقفون العرب، الذين يزقونكم بالدنانير والدولارات، ابصقوا هذا السم الزعاف، وتداعوا غيرة على أبناء جلدتكم، اخرجوا من أحضان هؤلاء، من بؤرة الأفاعي، وتذكروا ما فعله موظفو الإذاعة البريطانية العرب أثناء العدوان الثلاثي على مصر، حين قدموا استقالات جماعية احتجاجاً على العدوان! فهل كان العرب يومها غير العرب اليوم؟ كفوا عن الأكاذيب والأضاليل واختلاق التبريرات السخيفة، فحقيقة الأمر أن القتلة لا يتورعون عن شيء، ولا حرمة لكائن عندهم، وأمتكم تذبح من الوريد إلى الوريد، ودم الأطفال النقي الساخن والأبرياء الذين ينحرون كالخراف، والجريمة كبيرة واضحة لا لبس فيها!

توصية الجنرال

مرة، كتب الروائي الراحل غالب هلسا عن وثيقة أرسلها من مصر الجنرال البريطاني الشهير «**إدموند ألنبي**» وكان المندوب السامي البريطاني هناك عام١٩١٧إلى وزارة الخارجية والمستعمرات في بلاده، يوصي فيها حكومة بلاده بالعمل على نشر شيء من المدنية والتحضر في مستعمرات الشرق الأوسط التابعة لبريطانيا، كنشر التعليم وبناء المدارس والمطابع والصحف، وذلك «لإنشاء أجيال تقدس كل ما يكتب لها على أنها معلومات غير قابلة للشك» وهذه رؤية إستراتيجية للسيطرة عند هذا الجنرال الاستعماري العريق الذي كانت معظم خدمته وشهرته في منطقتنا العربية، متنقلاً بين مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية وإليه ينسب القول الشهير عند دخوله مدينة القدس: «ها قد انتهت الحروب الصليبية»!. وقد تكون الحكومة البريطانية أخذت بوصية الجنرال ألنبي أو وصايا جنرالات آخرين. يكفي أن نذكر منها معهد شملان في لبنان، أقامته بريطانيا بتوصية من ريتشارد كيسي المفوض العالي البريطاني لشؤون الشرق الأوسط عام ١٩٦٠، ويهدف هذا المعهد الذي ظاهره معهد للدراسات العربية، وباطنه لتخريج النخب التي ستقود المجتمعات العربية بعد العصر الكولونيالي، وقد أطلق عليه الوطنيون العرب اسم «وكر الجواسيس». ولو أن جهود الباحثين تركزت حول هذا النوع من النشاط الغربي في فترة الاستعمار لكشفت عن الكثير من هذه المدارس والمعاهد أو ما شابهها! العالم منذ الخمسينات يعيش في العصر الأمريكي، العصر الإمبريالي، أو يطيب لبعض الأكاديميين أن يسميه عصر «ما بعد الكولونيالية» أي ما بعد الاستعمار الأوروبي. في «العولمة» بلغت الهيمنة الأمريكية ذروة سيطرتها، هي ثورة تكنولوجية جديدة قائمة على المعلومات والاتصالات! أبهرت هذه الثورة النخب في أطراف العالم ومراكزه، وأصبح الجميع يتحدث بشاعرية فياضة عن العالم الذي صار قرية واحدة، وتوهم الكثيرون ممن يثقون بالعلم أن الثورة التقنية الجديدة مع الاكتشافات الطبية المذهلة ستغير وعي البشرية بالكامل، وخيل

لآخرين أن العالم قد تحرر من المركزية بعد أن ربطته شبكة الاتصالات من أقصاه إلى أدناه بأتوسترادات متقاطعة ومتوازية! وارتفعت راية شركات المتعددة الجنسيات، وحرية التجارة العالمية، والفضاء المفتوح ، وأمطرت علينا السماء من كل حدب وصوب شاشات فضية وذهبية والماسية يطل منها فرسان العولمة من ليبراليين ورجال القرون الوسطى وعصور الظلام، جنباً إلى جنب، و«الساق على الساق...» وقال قائلنا: زيدي يا نعم الحياة علينا. وردّ عليه صوت من وراء البحار: خذوا يا عرب.. ولأزيدنكم من هذا الألعبان حتى تفتنوا! لقد فتنا بالفعل بشيوع المعلومات! وحق لنا أن نفتن، فنحن أمام ثورة من نوع جديد يقودها المستر غوغل، وفيسبوك وتويتر وما يعرف بالغرف السوداء، واعتقدنا ببراءة أن المعلومات لم تعد حكراً على المثقفين المحترفين والانتلجنسيا المتعالية صاحبة الامتيازات في كل عهد! وبات بمقدور أضعف طفل في العالم أن ينالها بيسر، وعلى ضوء ذلك تحمس البعض وأعلن «موت المثقف»! ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، فالهيمنة غدت أخطبوطية، وأحكمت سيطرتها على العقول التي أغرقت بمعلومات سطحية مختزلة ومبتسرة، وتم توظيف النخب وتحويلهم إلى أدوات في آلية الهيمنة والخداع! لقد أخذتنا الغبطة بثورة المعلومات ولم نفكر بنوعية هذه المعلومات ولا بمصدرها، وهل هي مفيدة حقاً إلى هذا الحد! و في غمرة الحماس، نسينا أن لهذه المعلومات التي تضخ مصدر واحد هو الولايات المتحدة، وكم هي جديرة في إدارة المعلومات الثقافية للعالم؟! وما هي مصلحتها في ذلك؟! وكيف يتم توظيف المعلومات واستخدامها وهل تراعي خصوصيات الثقافات أم أنها تعمل على اختراقها وتفتيتها وفق المصالح؟! مما لاشك فيه أن هذه العولمة لا نستطيع أن نرفضها، ولكن بالتأكيد نستطيع مقاومة البعد السلبي فيها لتقليل انعكاساتها الضارة، ولكي لا نكون ضحايا توصية الجنرال ألنبي.

هل انتهى الإستعمار؟!

لو طرح كل منا على نفسه السؤال التالي: ماذا يعني أن تكون من بلد مستعمر؟! ربما سيتبادر إلى الذهن الإجابات التالية: هذا يعني أنني لست حراً، وثروات بلادي منهوبة، ولا توجد سيادة وطنية على الأرض...إلخ وكلها إجابات صحيحة، ولكن بالمعنى الثقافي والأبعد يعني أن كل شيء منتهك، كل شيء يتم المساس به من قبل قوى أجنبية مدججة بنزعة الهيمنة والاستعلاء والعدوان، حيث الأرض والشعب والتراث والحياة اليومية والعقائد والثقافات يتم العبث بها وصياغتها من جديدَ! هذا ما مارسه الاستعمار الكولونيالي الأوروبي في آسيا وأفريقيا، وهذا ما استدعى دائماً المقاومة والكفاح لرده على أعقابه. إن الاستعمار يولّد مقاومته من الشعوب المُستعمَرة بكل أشكال المقاومة المشروعة؛ العسكرية والسياسية والثقافية. وهذا ما فعله شعب سورية منذ اللحظات الأولى. لقد خرج يوسف العظمة وزير الحربية آنذاك مع بضعة رجال ليتصدوا في ميسلون للجنرال غورو القادم من لبنان إلى دمشق. وصار من المعروف من خلال ما ذكره **ساطع الحصري** عن صديقه الشهيد أن **يوسف العظمة** كان يدرك أنه لا يستطيع رد جحافل القوات الفرنسية المصرة على احتلال سورية، ولكن عزّ عليه أن يكتب التاريخ أن المحتل دخل دمشق دون أية مقاومة، فأوصى صديقه الحصري بابنته الوحيدة ليلى، قائلاً له إنها أمانة في عنقك، وتنادى مع رفاقه من عسكريين سابقين ومدنيين للتصدي للمحتل. كان الرجل يرى الشهادة في الأفق، وكان يدرك معناها، وإنها ستكون النقطة الأولى في السطر مع الفرنسيين ويرى فيها المجد أكثر من أي شيء! لو أن الرجل لم يخرج من كان سيذكر يوسف العظمة؟! وهل كان سيتحول إلى رمز للشموخ الوطني كما هو الآن، وهل كان سيكتب عنه الشعراء والكتاب والمؤرخون؟! حدث الأمر نفسه مع الشيخ صالح العلي في اللاذقية، وكان الجيش الفرنسي قد دخل اللاذقية قبل دمشق بعام، ثم خرج هنانو بثورته، وكرّت الثورات متتالية في كل ربوع البلاد، إلى أن توحدت الثورات السورية بقيادة سلطان باشا الأطرش. يقال إن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كان له الدور الأهم في اختيار قائد ثورة السويداء العظيمة «سلطان الأطرش» زعيماً للثورة

السورية عام ١٩٢٥ و يا له من اختيار ينم عن روح وطنية تعطي للرجال حق قدرهم دون أنانية أو استئثار بالزعامة! هكذا تكون النخب الوطنية العظيمة، التي ينطبق عليها قول القرآن الكريم: «يؤثرونك على أنفسهم وإن كان بهم خصاصة» لقد رفض الشعب والنخب سياسات فرنسا القائمة على المبدأ الاستعماري الشهير: «فرق تسد»، وأصروا على وحدة سورية، وأفشلوا مشروعها التقسيمي الذي عاش بضع سنوات، تم فيها فرز الغث من الثمين، وترافقت المقاومة المسلحة مع الكفاح السياسي لإنجاز الاستقلال السياسي، ومن ثم الجلاء النهائي للمستعمر. في اللحظة التي تم فيها الجلاء، ويمكننا أن نتخيل الفرح السوري العارم بهذا الإنجاز الوطني الكبير والذي تحول إلى عيد وطني يحييه السوريون كل عام إلى يومنا هذا. في تلك اللحظة العظيمة بدأ القلق والتحدي وقد عبر عنه أحسن تعبير الشيخ صالح العلي في مهرجان احتفالي في دمشق بالذكرى الأولى للجلاء، قال فيه الشيخ الثائر مخاطباً شعب سورية؛ لقد أنجزنا الجلاء، وهذا شيء عظيم، ولكن الجلاء ليس سوى البداية، أمامنا تحديات كبيرة، أمامنا معركة بناء الوطن، والتحرر الاقتصادي والاجتماعي. قام الاستعمار الفرنسي والبريطاني، وفق سياسة التضليل والخداع على قانون الانتداب، وفق المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم التي تقول: إن جزءاً من الجماعات التي كانت تابعة للدولة العثمانية قد بلغت من الرقي درجة تؤهلها للاعتراف بأنها شعوب مستقلة، شريطة أن تسترشد بنصائح ومساعدة دولة منتدبة. في عام ١٩٢٢ أقر مجلس الأمم صك الانتداب على سوريا ولبنان، ويقضي بوضع دستور لمدة ثلاث سنوات، ومراعاة حقوق عموم السكان، وإيجاد الوسائل التي تسهل تقدم سوريا ولبنان، وأن تسيطر الدولة المنتدبة على جميع العلاقات الخارجية، وأن لا تتنازل عن أي جزء من أجزاء سوريا ولبنان... ربما انطلت هذه الخدعة على بعض النخب العربية، ووجدوا فيها خلاصاً يخرجهم من الظلمات إلى النور، على أن تأخذ بيدهم هذه الدول المتقدمة للعبور من التخلف إلى التقدم، ومن الحالة التركية الغاشمة إلى الحالة الأوروبية، وإشعاعات الثورة الفرنسية! لكن سرعان ما تبين للجميع أن الانتداب ليس سوى

الاستعمار، ففرنسا الدولة المنتدبة على سورية، منذ اللحظة الأولى تصرفت على أنها قوة احتلال مطلقة الصلاحيات! بدأ الفرنسيون بحل الجيش الوطني، ثم قاموا بإعلان استقلال لبنان عام ١٩٢٠ وعينوا له حاكماً فرنسياً، وضموا له أربع أقضية من دولة دمشق وسموه: «دولة لبنان الكبير» ثم استكملوا تجزئة سوريا إلى دويلات طائفية، وعينوا عليها حكاماً فرنسيين أحياناً وعملاء محليين أحياناً أخرى، إلا أن المفوض السامي كان الحاكم المطلق في سوريا ولبنان، ولابد أن نلحظ بأن النخب السياسية والثقافية في سورية ولبنان كانت متداخلة، وكان عدد كبير من السياسيين والمثقفين والصحفيين، ينظرون إلى سورية ولبنان على أنها أرض بلاد الشام وسورية الطبيعية ومصير مشترك، وكان رجال الاستقلال من البلدين ينسقون فيما بينهم في مواجهة الاحتلال الأجنبي، والسعي للتخلص منه ونيل الاستقلال. لقد خالفت فرنسا بكل وقاحة قانون الانتداب، واستخدمت النهب والقمع واقتطاع الأرض، وتمزيق وحدة الشعب، وتحريك الفتن الطائفية والمذهبية، وسعرت العداوات بين أبناء الشعب الواحد، ومارست سياسة السيد والعبد حتى مع موظفيها المحليين! وبدلاً من الأخذ بيد الشعب الذي فرضت وصايتها عليه، أنهكته بالضرائب، وصادرت الأراضي، وسحبت احتياطات العملة الذهبية التي كانت قيد التداول ونقلتها إلى باريس، واحتكرت إصدار العملة السورية اللبنانية! ثم لم تكتف بذلك فقد قامت بمنح أراض سورية للأتراك، ثم توجت جريمتها بسلخ لواء اسكندرون عن الوطن الأم ووهبه لتركيا، وتم ذلك بعملية احتيال معقدة! كما فعلت بريطانيا المنتدبة على فلسطين والعراق، إذ ارتكبت جريمة العصور، والتي لم تعاقب عليها حتى الآن، وهي بمنح وطن قومي لليهود في فلسطين! لقد تمزقت بلاد الشام على يد فرنسا وبريطانيا منذ اتفاق /سايكس وبيكو/ عام ١٩١٦ واستمرت الجريمة تحياها الأجيال العربية إلى اليوم، وتعاني من تبعاتها! لقد أثمر الكفاح الوطني عن طرد الاستعمار من بلادنا، وتم جلاء آخر جندي في ١٧ نيسان ١٩٤٦ وهبت حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا، وحصلت الدول جميعها على الاستقلال، واعتقدت النخب أن عصر الاستعمار قد انتهى إلى غير

رجعة، وكتبت عشرات الكتب بل مئات الكتب حول ذلك، وعشنا مرحلة ما بعد الكولونيالية، ودخلنا العصر الامبريالي الأمريكي ولا نزال، وعن الامبريالية قال لينين بأنها أعلى مراحل الاستعمار! ونحن نشهد اليوم في ظل الامبريالية استيقاظ أحلام الاستعماريين القدامى من فرنسيين وانكليز، ما يجعلنا نقول بأسف أن الاستعمار لم يمت نهائياً، وإن إمكانية الدخول إلينا من نوافذ عديدة لا تزال قائمةً! وإن نخبنا اليوم ليست أفضل من نخب الأمس، بل على العكس، هي أقل حصانة، ومتفلتة من الوطنية ومن أي ضوابط أخلاقية، فلا عجب أن نرى اليوم قوى وأحزاباً وجماعات تقليدية وعقائدية، تقدمية ورجعية، ومعها بعض الشخصيات التقدمية التي عاشت شطراً من حياتها تحت عناوين النضال ضد الاستعمار والامبريالية، واقتاتت على ذلك عقوداً من الزمن، أن تستجدي الاستعمار القديم والجديد للتدخل العسكري في أوطانها! وعلى ضوء ذلك وبعد أن طرد أجدادنا وآباؤنا الاستعمار القديم في ذلك الربيع الرائع، أتساءل: هل انتهى الاستعمار حقاً؟!

الغربان!..

روى لي صديق،أن رجلاً من قريتهم الجبلية المنعزلة، في ستينيات القرن الماضي، كان الوحيد في القرية، يستأثر بجهاز «ترانزستور» أهداه إياه شقيقه العامل في لبنان ليتسلى به في وحدته. ويبدو أن الجهاز قد أخذ بلب الرجل، فانقطع عن الناس ليسمع أخبار إذاعة لندن وبرامجها. وفي يوم قائظ خرج الرجل يضرب كفاً بكف بما يوحي بأن الكارثة وقعت أو على وشك أن تقع! اتجه صوب نبع القرية ليبترد ويُبلّغ، وكان النبع مزدحماً بصبايا ونساء القرية اللواتي سيتكفلن بنشر الخبر في القرية وخارج حدودها. قال لهم الرجل: «الحكم الديمقراطي قادم إليكم، سيذيقكم الويل، وسيشوي الناس بالحديد والنار..» وولولت النساء، واغتم الرجال عندما سمعوا الخبر للوهلة الأولى، ثم ما لبثوا أن استهانوا به عندما تبينوا أن مصدره هذا الرجل المسكين الذي لا يدري ما يقول!

ذكرني هذا الرجل بـ«الخبير الاستراتيجي» لقناة الجزيرة، وهو عميد متقاعد من أحد الجيوش العربية. والفارق الكبير بين الرجل الأول والثاني، أن الأول ليس خبيراً استراتيجياً، بل هو رجل بسيط، مدهوش، مسحور بهذا الجهاز الخارق الذي يبث بين يديه وعلى مسامعه أخباراً وأغنيات من لندن والقاهرة وبيروت، ودمشق و.. أما الثاني، فهو رجل مأجور، كاذب، يجهل حتى جغرافية البلدان التي يتحدث عنها! وقد وقع بأخطاء متكررة لا يجوز أن يقع فيها حتى الصبيان! ومن المرجح أن القناة التي استخدمته على مدى أشهر تعرفه جيداً، وقد أغرقت نفسها بأمثاله من المحللين والمفكرين (الاستراتيجيين) و هي اليوم، بسبب أكاذيبها وانفلاتها من أي ضوابط، في أسوأ حالاتها تواجه من الناس لا مبالاة شاملة! وهذه من المصائر التراجيدية للميديا، وينطبق عليهم ما يصفهم مفكروا ما بعد الحداثة: بـ«الذين يخنقون أنفسهم».

لكي لا أبدو متحاملاً بلا سبب على الخبير العسكري، ويتبادر إلى الذهن، أن من حق الرجل، مثل أغلب الناس أن يبحث عن رزقه ويبيع بضاعته! ولكن لو أن الأمر كذلك وبلا ضرر للآخرين لكان محتملاً! ولكن الرجل منذ أن بدأ بالظهور على الفضائيات الكالحة مثل وجهه وهو يهددنا ويتوعدنا بـ«القبة الفولاذية» الإسرائيلية، منذ عام ٢٠٠٦ وكانت أول مرة أسمع بها منه، وقد أسهب في وصف مقدراتها وبأنها كفيلة بإنهاء كل شيء عندما تستكمل وتنصب، وستكون صواريخ المقاومة مجرد لعب أطفال! وها نحن اليوم أيها الخبير(الاستراتيجي) الفاشل، نرى قبتك الفولاذية عاجزة عن رد صواريخ المقاومة الفلسطينية العاملة في غزة، وقد حولها أبطال غزة إلى أضحوكة، يسخر منها حتى الإسرائيليون، وقد قال واحد منهم ساخراً: «لقد نجحت القبة الحديدية في إسقاط جميع صواريخ الفلسطينيين، على حيفا وتل أبيب!». وهذا (الخبير) غاب عن المشاهدة منذ أشهر، بعد تحولات كبيرة جرت في بلاده، ووجد نفسه في مكان معاد لسياسة بلاده ولمؤسسته العسكرية التي تخرج منها، وربما خوفاً من العقاب الشعبي والرسمي الذي قد يلحق به، فشمع الخيط وهرب!

وكنت أتمنى أن يطل علينا للمرة الأخيرة ليخبرنا لماذا فشلت القبة الفولاذية؟! وأرجو مصيراً مشابهاً لكل أمثاله من (الاستراتيجيين) الممخرقين الذين صدعوا رؤوسنا بإسفافهم، وهم ينعقون كالغربان.

- ٢ -

النظام الدولي واغتراب الإنسان

الانفجار الثقافي

ليس اليوم كالأمس، وليست حداثة الألفية الثالثة، كحداثة القرن الواحد والعشرين، فكل شيء تغير أو يكاد يتغير، ومن غير المحتم أن هذا التغير هو نحو الأفضل حتى وإن بدا التطور التقني يتقدم بسرعة الضوء! نحن اليوم بحالة انفجار ثقافي حجمه يسع الكرة الأرضية، ومع ذلك ليست الثقافة قوة فاعلة، وهذه من غرائب الأمور! في زمن العولمة، أو زمن «الانفجار الاتصالي» وهو زمن يفرض نفسه بقوة على العالم أجمع، ويحس بوجوده حتى الأكثر بدائية في أقاصي الأرض، وهذا أمر لا ينفع معه النكران أو التجاهل، بل يستحسن الاعتراف به وفهم آلياته، وابتكار طرق مقاومة ما هو سلبي فيه، وفيه الكثير من السلبيات والايجابيات أيضاً وبالتالي مقاومته مشروعة، والتفاعل معه أيضاً مشروع!

من جهتي، لا أتمنى للحظة أن أبدو وكأنني أشتم الحاضر، ولا أعتقد أن العصر الذهبي للبشرية كان في الماضي، وأن الحاضر فاسد دائماً! وأتباع هذا التيار، موجودون في تاريخ الفكر الغربي والشرقي، ويعرفون في الثقافة الغربية وفي اليهودية تحديداً بـ«القابالا» وفي المسيحية بـ«الطهرانيين» أو «البريتان» وعندنا يعرفون بالسلفيين أو الماضويين حتى وأن لم يكونوا متدينين! مثقفو الغرب من الجيل الأخير للقرن العشرين أعلنوا بشجاعة موت الحداثة قبل أن

تموت فعلياً، وبينما كان مثقفونا المتأخرين دائماً عن الركب الحضاري لا يزالون ينظرون بحماس شديد للحداثة على أنها المنقذ لمجتمعاتهم من التخلف! داهمتهم الموجة التشاؤمية أو العدمية وأوقعتهم في حيرة وتخبط لا يزالون يعانون منهما دون أن يحسم الأمر عندهم! وفي الآونة الأخيرة بدأ رجع الصدى يتردد في أفياء بعض الأوساط ولكن بشكل هزلي أو هذياني! على شكل مصطلحات وترادفات فيها الكثير من الحذلقة، ولعل آخر مثال على هذا كتاب صادر حديثاً عن إحدى المجلات الخليجية بعنوان: «هدير السرد» ومثله يمكن أن نقيس عناوين من هذا القبيل: كـ«أطياف السرد» أو «أشباح السرد»...إلخ ولكن لا بأس، ليس في الأمر كبير ضرر، إلا أنه تعبير عن انعدام الابتكار، والتبعية الثقافية، ومحاكاة الضعيف للأقوى!

في زمن الانفجار الثقافي لم يعد للمثقف الطليعي أو النخبوي من وجود مؤثر، أو فاعلية حقيقية، ولم يعد هذا النمط من المثقفين يحتكر المعرفة أو يشكل مرجعية وجاهية في الحقل النظري. نحن اليوم أمام مشهد فيه عدد لا يحصى ممن يمتلكون كم هائل من المعارف التخصصية، لاسيما من الشبان الذين يتعاملون مع أدوات المعلوماتية بمهارة قد توازي أو تتفوق على مهارات الغربيين! لكن للأسف هؤلاء مجرد متلقين للمعلومات وليسوا شركاء في صناعتها وفي توجيهها، فرغم كل ما يبدو من فوضى ناتجة عن هذا الانفجار الثقافي لا تزال الثقافة أداة خاضعة لقوى الهيمنة الامبريالية، حتى ليجوز أن نستخدم في وصفها مصطلح: «القوة القووية» لأحد كتابنا المتمرسين. منظرو هذه الثقافة السائدة لا يكترثون بالصدق ولا بالعدالة ولا بالمنظومات القيمية، بل يهزأون بكل ما سبق، ويطلقون حكم الإعدام على ما يسمونها «السرديات» الكبرى والمكتملة أو «الحكايات» أو «الميتا حكايات» ذات النسق الأسطوري الزائف! ويتلطى هؤلاء خلف النسبية أوما هو جزئي، وعندهم كل شيء خاضع للشك واللايقين! هذه «الوضعية» الجديدة التي تدعي الحياد والاكتفاء بالتوصيف هي في كثير من الأحيان تبريرية وذرائعية، وخاضعة لقوى النفوذ

المالي والمافيوي وللإعلام المسيطر! وهذا النمط الثقافي الذي يسود اليوم بقوة أشبه بحالة الجنون العام بالنسبة للمفكرين «الإنسانويين» الذين يوصفون من قبل هؤلاء بالرومانسيين أو ذوي الخطاب الخشبي! أدت دعاوى هؤلاء المنظرين الجدد إلى انشقاقات كبرى في صفوف المثقفين على مستوى العالم وإلى جدل حاد حول التنوير والفكر الإنساني التقدمي، ولا يتفق اثنان من هؤلاء حول مفهوم واحد، أو معنى، أو تفسير لظاهرة! حتى صار الانفجار الثقافي الأفقي رديفاً للغموض والسطحية رغم كل أقنعته اللغوية الجذابة!

البحث عن تعريف

منذ أيام سألتني ابنتي، في الصف العاشر، سؤالاً مباغتاً: ما معنى مثقف؟ وأجبت: المثقف هو من يمارس عملاً عقلياً في إنتاج الثقافة والمعرفة.. أي من ينتج في العلوم والآداب والفنون. وشعرت أن التعريف الذي قدمته غير كاف لتوضيح أو تقديم معنى شامل لهذا المصطلح، ولكثرة ما نستخدم هذه الكلمة نتوهم أننا نقبض على معناها بشكل كامل ومحكم! كلمة مثقف من أكثر الكلمات استخداما في حياتنا اليومية والفكرية. من هو المثقف؟ هل هو كل متعلم يحمل شهادات في التعليم العالي؟ هل هو الأديب؛ الشاعر أو المسرحي أو الممثل، هل هو القائد السياسي أو الحزبي..؟ وما يزيد الأمر تشويشاً، أننا أمام تعريفات عالمية عديدة لكلمة الثقافة التي يفترض أن كلمة مثقف مشتقة منها، وقد أحصى كل من كروبر و كلاكهون ما يربو على مائة وستين تعريفاً صورياً لكلمة ثقافة! ولعل التعريف الأكثر شيوعاً، رغم قدمه، هو تعريف عالم الانتربولوجيا «**إي. بي تايلور**» ويصف فيه الثقافة بأنها: «ذلك المجموع المعقد الذي يشمل المعارف، والعقائد، والفن، والأخلاق، والقانون، والأعراف، وكل مهارة أو عادة أخرى اكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع ما.». هذا يعني أن كل إنسان مثقف، ونحن العرب نستخدم المعنى الضيق لكلمة ثقافة، حين

نحصرها بالكتاب من أدباء وصحفيين وصناع رأي. ويقول أحد الفلاسفة: «لا يوجد علم مطلق ولا جهل مطلق». كلمة مثقف لا ترد في التراث العربي للدلالة على المعنى الذي نستخدمه اليوم، كان يقال: عالم، فيلسوف، حكيم، عارف، راوية، فقيه، إمام...وللمبالغة كان يضاف مفردة أخرى للزيادة في المعنى، كأن يقال: حكيم زمانه، أو سلطان العارفين، أو ما شابه ذلك، وأعتقد أن العصر العربي الذي ازدهرت فيه كلمة مثقف كاشتقاق للدلالة على المتعلمين هو عصر النهضة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وعلى امتداد العقود والسنوات التالية كان استخدام الكلمة يزداد انتشاراً أفقياً في الإعلام، فنقرأ: المثقف المتنور، النهضوي، التقدمي، اليساري، الثوري... يقابل هذه الصفات صفات معاكسة، واليوم يتم الدمج بين المفكر والمثقف، وتمنح كلمة مفكر مرتبة اعتبارية أعلى، ولا توجد ضوابط ولا معايير لاستخدام هذه الصفات، وقد تحولت هذه الاستخدامات إلى أعراف! ففي سياق الانزياحات والمستجدات والتمدد في المعنى، يطرح السؤال نفسه: من هم المثقفون؟ هل هم الذين يكدحون بفكرهم وعصارة عقولهم من أجل أنفسهم ومن أجل الصالح العام؟ أم هم الأجراء الذين يبيعون بضاعتهم لمن يدفع أكثر؟! ينبئنا الواقع أن المثقفين ليسوا جماعة متجانسة، ولا يشكلون شريحة موحدة، بل هم على الأغلب فرديون متناحرون، حتى وأن بدو عكس ذلك، ولا تستطيع أن توحدهم لفترة طويلة حتى الأحزاب والجمعيات التي قد ينتمون إليها! المثقف في عالمنا الحالي سريع التقلب، قد يقول الشيء وعكسه في آن واحد دون حرج! ويظهر هذا النوع البهلواني بأشد أشكاله وضوحاً فيما بات يعرف «بالمثقف المتلفز» الذي لا يزال يصر على التمسك بالامتيازات القديمة كالوصاية وامتلاك الحقيقة، فهو يتنطح لكل شيء! ونحن نرى كل يوم على الشاشات هذا النوع من المثقفين الذين يغطون فضائنا، وقد جرهم الاستقطاب الفتنوي وورطهم الإعلام الرديء ليكونوا فقهاء ودعاة فتن! نجد مثقفين وقد تحولوا من الماركسية إلى الطائفية، ومن القومية إلى العشائرية، ومن الليبرالية إلى الوهابية! فكيف نثق بمثل هؤلاء؟! إن هذا الواقع

يدفعنا إلى الشك بكل الآراء والتبصر فيما يبث لنا من أراجيف وترهات! إن الدلالة الإيجابية لكلمة مثقف تتراجع! المثقف الشجاع الذي يقول كل ما يفكر به بحرية ومسؤولية، صاحب الرؤية الواضحة لما يجري حوله، حامل ذاكرة أمته، الملم بثقافات العالم وثقافة شعبه.. هذا النمط من المثقفين أصبح نادر الوجود! وفي ظل هذه الفوضى والاعتباطية وغياب التعريف الأمثل للمثقف، أقترح، بحذر شديد، تعريفاً مؤقتا، هو جوابي الشخصي عن السؤال؛ من هو المثقف؟: المثقف هو من ينتقد المثقفين.

التفكك

هذا عنوان رواية جحيمية للجزائري **رشيد بوجدرة** صدرت في ثمانينات القرن الماضي، أخذني هذا العنوان للتفكر في الحال الذي نحن فيه كعرب، وعلى وقع ما نشهده اليوم في عالمنا هذا من توحش، وضياع وتفكك وتوغل في الانحطاط الاجتماعي والثقافي والأخلاقي، وكل الأشكال التي تطفو اليوم على السطح، وأن أسوء من فينا يقتلون أنبل من فينا في وضح النهار وبلا هدف واضح أو أي مبرر أو مسوغ سوى الإمعان في الفتك المجنون الذي يستهدف كل الأحياء بلا استثناء: أطفال المدارس وطلبة الجامعات والعمال والناس في بيوتهم وفي الطرقات والأسواق، و.. ما هذا الجنون المسعور الذي حل على عالمنا؟

وإذا كان هذا البلاء الدموي أمراً واقعاً، لم يعد أمامنا إلا القيامة الشاملة عليه، فالأمر المحير هو هذا التفكك الثقافي الموازي وربما الممهد لما جرى لنا. نحن اليوم وسط هذا الانحطاط الأفقي والعمودي الذي يعم عالمنا العربي من البذاءة والسخف، والذي غرقت فيه حتى بعض النخب الثقافية، نصاب بالحيرة بل بالذهول ونحن نقرأ أو نسمع ما يكتبه وما يقوله أمثال هؤلاء، ليس فقط في أحاديثهم السياسية المتلفزة أو عبر كتاباتهم في وسائل التواصل

الاجتماعي، بل في نصوصهم الأدبية المطبوعة من قصص وروايات وشعر، هذا الفائض الهائل من البذاءة التي تجعلنا نبدو وكأننا في هذا العصر لم نعد قادرين عل إنتاج أدب رفيع أو مترفع بل ننتج ما في نفوسنا من تسفل وضغائن تخجل منها حتى الحيوانات. وليس المقصود هنا بالبذاءة ما يرد من مفردات نابية أو ساخنة أو تعبيرات جسدية أو سوقية يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، وموجودة بكثرة في كتب التراث، فهذه ليست مشكلة كبيرة على الإطلاق، رغم أن «الطهرانيين» العرب وموظفي الرقابة يعدونها قضية حياتهم ويقضون جل وقتهم في تصيدها! ولكن، أحقاً أن البذاءة محصورة في هذا الجانب أو في هذه المفردات؟ لا أعتقد. بل إن البذاءة الأخطر، والتي تكاد تكون مشرعنة اليوم، وتنطلق بحرية وبلا رقيب أو بلا حدود هي اللغة الطائفية البغيضة التي تزرر المجتمعات وتمزق الأوطان، وتنال من كرامة جماعات هي من نسيج الأمة ومن مكوناتها التاريخية والاجتماعية والثقافية. هذه اللغة الطائفية المنتشرة هي الأخطر والأكثر بذاءة، و هي التي يجب أن تمنع وأن تحاصر، وأن يطلق على كاتبها صفة البذيء مع أقصى نظرات الاحتقار. هذا الأمر تنبه إليه أباؤنا النهضويون عندما كانوا يؤمنون بالأوطان وبوحدة الشعب والأرض، فما بالنا نحن اليوم نصر على أن نكون أقل وعياً وإدراكاً للمصلحة العامة؟! قرأت مرة باعتزاز أن حزباً علمانياً في سورية ولبنان في أربعينات القرن الماضي فصل ثلاثة من أعمدته بتهمة البذاءة، وكان المقصود بالبذاءة الطائفية. وقياساً على هذا الموقف، علينا أن نفصل من وجداننا الكثير من النخب والمثقفين العرب والسوريين بشكل خاص الذين لم يعودوا يتحدثون، بلا خجل أو رادع،إلا بهذا الجنوح نحو البذاءة. كيف يكون هؤلاء وطنيون أو أخلاقيون، كيف يكونون كتاباً؟! والكتابة مسؤولية وليست فلتان وتدمير للمجتمع، هذا لم يحدث في التاريخ، ولا في أي بلد في العالم، أن يقوم كتابه مهما بلغت بهم السلبية والشذوذ بتحريض الشعب على بعضه، ونشر الضغائن بين مكوناته أو العداء لجماعة كبيرة أو صغيرة من مكوناته! هل هي ردة؟ بل هي أكبر من

الردة، وترقى إلى مستوى الخيانة العظمى، مهما تقنع أصحابها أو تذرعوا بالذرائع والمسوغات، وأصحاب هذا السلوك ألأداتي لا يقلون خطراً عن حملة السيوف ومرتكبي الإرهاب الناري، وقديماً قال العرب: «**جراحات السيوف لها التآم**» أما جراحات اللغة واللسان فلا تندمل. أمام هذا التردي لا يكفي الغضب ولا التأفف بل لابد من فعل ثقافي عاجل وفعال لعلنا نتدارك أمرنا ونجمع أشلاءنا. وفي الختام ننادي الأحياء من المثقفين والنخب العربية: أخرجونا من هذا الجحيم الحي الذي يطبق على حاضرنا ومستقبلنا.

الإنسان العادي

يبدو أن للإنسان العادي، وكلنا عاديون، قيمة في العصر الحالي، على مستوى الواقع والتاريخ، السياسة والاقتصاد، وعلى مستوى السرد، والمعنى.. الإنسان العادي، الذي يصفه الاقتصاديون بالمستهلك، ويسميه السياسيون بالناخب، ونقاد الأدب وصانعوا الميديا بالمتلقي! هذا الإنسان العادي الذي لا يعي أهميته، ويتصرف وكأنه غير معني بما يخططه الآخرون له، هو يدرك أنه لا يصلح بطلاً للملاحم، ولا نجماً هوليودياً أو دراميا. هذا الإنسان العادي الذي أسماه «ولهم رايش» بالإنسان الصغير وخاطبه في كتاب مرير: «استمع أيها الصغير» ساعياً لإصلاحه وتنبيهه من هفواته الضارة! لكنه لم يسمع لا لرايش ولا لأي مصلح آخر، بل على العكس كثيراً ما ينجذب إلى من هم أكثر غرائزية وغوغائية! هذا الإنسان العادي، بحياته الرتيبة والمتوترة، بخيباته ونجاحاته، بملذاته الماجنة أو المكبوتة، يسعى الروائيون أن يرصدوه، يتلصصوا عليه، دون استئذان، بوصفه مادة مفعمة بالإثارة والتشويق! هو يعرف وهم يعرفون، أنه ليس دونجواناً، ولا جنتلماناً، بل هو مجرد إنسان عادي، متعب، بسيط ومخادع أحياناً، إنه مزيج من مازوشي وسادي، أو «مارا/ ساد» على حد تعبير بيتر فايس، إنه صاحب الصوت الهامس عند هاندكه، والكائن الخفيف الظل عند

كونديرا، والمسخ عند كافكا، وواحد من المذلين المهانين عند ديستوفسكي، ومن الذين يموتون ورؤوسهم محنية، أو «صالبا» الغريب في المدينة عند يلماز غونيه، أو الرجل الثرثار عند ناريان الهندي، أو هو ضحية «اللجنة» التي تتفحصه عند صنع الله إبراهيم، أو الرجل الخائف في قصة «تلك الرائحة» التي تنبعث من الشوارع والأحياء المزدحمة بالفقراء، إلى ما لا يحصى من الروايات التي جعلت من الإنسان العادي مادة للكتابة. إنه عصر الإنسان العادي الذي تستهدفه الميديا بكل أنواع الأحابيل، رغم أنه سهل الانخداع وسريع التأثر! الإنسان العادي الذي احتقره نيتشه في القرن التاسع عشر، ووصفه بـ«الوضيع» الذي يستحق كل أشكال الازدراء! وتواطأ معه سارتر فيما بعد ليعيد له الاعتبار. كان دائماً خارج الفلسفة الكلاسيكية،لأنه عادي، ليس ارستقراطياً، ولا هو محارب برتبة فارس، لا يتعدى أن يكون واحداً من الدهماء! أو فرد في جماعة صغرى أو كبرى! غير قادر أن يصدح بالقصائد لأنه لا يجيد القراءة ولا يتذوق الشعر!

لكن، هل هذا الإنسان سعيد في أن يتنافس عليه المتنافسون، أو أن يكون مادة للتلصص من قبل الروائيين؟! أن يكون مكشوفاً هكذا للسابلة، يتفرج عليه من يريد ويهزأ به من يريد، لأنه لا يتحدر من سلالات مجيدة، ولا ينتسب إلى العائلات المنعمة، رغم أنه طيب كهبوب النسيم! أما آن له أن يوقف هذه المهزلة؟! أن يقول: كفى، لم أعد أحتمل، أريد أن تذهب عني صفة العادي إلى الجحيم وإلى الأبد، لقد سئمت من هذه الكلمة ولم أعد أطيقها، أريد أن أكون إنساناً مجرداً من الصفات، لا أريد أن تكون لي قصة أو حكاية تثير الشفقة أو السخرية، وأن يتلاعب بي المؤلفون كما يشاؤون،أن يجعلوني أنهض أو أنام أو أسافر أو أغامر أو أموت! فليكف المؤلفون عن هذه الوقاحة، وليرعوي السرديون عن هذا التمادي، وكأنهم يرعون قطيعاً من الأنعام في مراعي أبائهم! وإذا كان لابد من حكاية أو رواية، فليتذكروا أنني لست فأر تجارب، أو كما

يطيب لهم أن يدمغوني بالإنسان العادي، بل إنسان وحسب، بلا أي ملحقات تسقط علي كالحجارة من كل حدب وصوب!.

الحقيقة والقناع

سعت الميديا الامبريالية منذ سنوات على تسويق شخصين، على أنهما فيلسوفان من طراز فريد! الأول: هو شمعون بيريز، والثاني هو الفرنسي: برنار هنري ليفي. الصهيوني العجوز شمعون بيريز الرئيس الحالي لإسرائيل، مواليد ١٩٢٣ تجاوز التاسعة والثمانين، وهو الصديق العزيز للرئيس المصري محمد مرسي! بيريز الذي كلف من «بن غوريون» بإجراء صفقة مع الفرنسيين لبناء مفاعل «ديمونا» النووي في جنوب فلسطين المحتلة. هو المسؤول عن عملية «عناقد الغضب» في جنوب لبنان عام ١٩٩٦ والتي توجت بمجزرة قانا، في الاعتداء على مبنى للأمم المتحدة لجأ إليه لبنانيون لتفادي قصف الطائرات الإسرائيلية، كان بيريز رئيساً لوزراء إسرائيل، ولم يكن قد مضى على نيله جائزة نوبل للسلام سوى سنتين! بيريز متحذلق، ومدّعي فكر، ويحب أن يقدم نفسه للغرب على أنه فيلسوف ضيّعته السياسة، ويتظاهر بأنه رجل عالمي، وفيلسوف سلام، رسالته لا تنحصر بإسرائيل فقط، فهو يتطلع ليكون من حكماء العالم الذين يوجهون البشرية! تظهر هذه الشخصية لبيريز في حوارات أجراها معه في تل أبيب روائي أمريكي صهيوني أو منافق للصهيونية يدعى: «روبرت ليتل» وترجمت إلى العربية في كتاب، يمجد هذا الروائي بيريز ويصفه في مقدمة كتابه بأنه: «رجل دولة من الطراز الأول في العالم» رغم أن الإسرائيليين لا يرون فيه ذلك، وهو معروف عندهم بالمراوغة والكذب، لكن تصر جهات ما في العالم على تقديمه كرجل استثنائي! في هذه الحوارات يجهد الروائي في إضفاء العمق على الأسئلة، ويستشهد بشعراء وفلاسفة، ويحاول بيريز أن يغطي جهله بالاستعلاء على أقوال هؤلاء، كأن يقول: «لا أوافق هذا القول، أو لست مع هذا

القول» وأحياناً يقحم كلمات تعبر عن جهله وجهل محاوره، كأن يصف جاك شيراك بظاهرة ديكارتية جدلية! كما ينسب أقوالاً لغير قائليها، كمقولة هيرقليطس الشهيرة: «لا تستطيع أن تستحم في ماء النهر مرتين» ينسبها بيريز لبوذا. ولنلحظ حجم النفاق والمبالغة المبتذلة عند الروائي، إذ يقول لبيريز: «هل تعرف بأنك صنعت تاريخاً، بحضورك، ووجودك، وأعمالك، والتي حولت مجرى نهر التاريخ قليلاً؟».

أما الرجل الآخر،برنار هنري ليفي، الذي سطع نجمه في الآونة الأخيرة من الاضطرابات العربية، والذي لا يخفي هلوسته الصهيونية، وتأييده الجنوني لإسرائيل، هو من مواليد عام ١٩٤٨ اشتهر في السبعينات من القرن الماضي كيساري صهيوني، من اليسار الجديد. وهو يزعم أنه من مؤسسي جماعات القاعدة والجهاديين الجدد، وله صداقات وصور وثائقية مع المقاتلين في أفغانستان، ومع «الثوار الليبيين» ومع معارضين سوريين! وصدر له مؤخراً كتاب مترجم إلى العربية بعنوان: «يوميات كاتب في قلب الربيع الليبي» يظهر فيه دوره وكأنه لورنس العرب الجديد، وسط أتباعه المسحورين بشخصه! ولكي لا نبالغ في ردود الفعل، يمكن أن يقول أحدهم عن بيريز، إنه سياسي مخضرم وصاحب تجربة، ويتناسى جرائمه، منذ كان فتياً انتسب إلى عصابات «الهاغانا»! ويمكن أن يقال عن ليفي إنه كاتب، أو إنه ذكي، أو مغامر، أو صاحب كاريزما... لكن لماذا يصر بعض الإعلام العربي، على أن يقدمه، وعبر مذيعات عربيات حسناوات،على أنه: «الكاتب والمفكر والفيلسوف»؟! ألا تكفيه واحدة من هذه الصفات الثلاث؟! والمفارقة أننا في عالم قام منذ عقود بتجريد الفلاسفة الحقيقيين من هذا اللقب، ونزع بعضهم صفة الفيلسوف عن كل من أتى بعد هيجل، وتساهل البعض مع آخرين! فلا يكون ماركس، ولا انجلز، ولا لينين، ولا فرويد، ولا سارتر، ولا فوكو، ولا دريدا، ولا ألتوسير... فلاسفة! ولا ينال إدوارد سعيد، ولا نعوم شومسكي، ولا طارق علي لقب مفكر، بل مجرد أصحاب خطاب خشبي! بينما ينال بيريز صفة الحكمة الكونية، وينال

ليفي لقب: كاتب ومفكر وفيلسوف! والحقيقة المرة أنه ما كان لهذين التافهين أن يكون لهما هذه المكانة في عالم الثقافة، لولا التضليل الممنهج من جهة والجهل السائد في عالمنا من جهة ثانية.

الحياد العلمي!..

منذ أكثر من قرن، ونحن العرب، نتعرض للخداع، تنصب لنا الفخاخ والمصائد ونقع فيها، بل نتهافت عليها المرة تلو المرة كما الفراش يتهافت إلى الضوء!

لقد قبل معظمنا أن نكون متلقين للأكاذيب، نرددها كما أرادوا لنا أن نردد، ونحولها إلى حقائق غير قابلة للشك! من هذه الأكاذيب التي لا تعد ولا تحصى، أكاذيب المنظمات الدولية، والجمعيات الحقوقية، والإعلام المستقل، والحياد العلمي..إلخ بينما العالم الإمبريالي يضع لنا الخطط والأحابيل والمؤامرات، وهو لم يعد يخشى أن يعلن عنها طالما أن معظمنا لا يريد أن يصدق! وهم يصفوننا باستهانة بـ «أننا لا نقرأ وإذا قرأنا لا نفهم» وهل بعد هذا من مهانة لنا كشعوب وأمة وأفراد؟!

ما أردت أن أشير إليه هنا هو الخداع الثقافي أو العلمي الذي يمارس ضدنا، وقد يتحسس البعض من الكلام عن شبح المؤامرة، ويهزأ من هذا الرهاب الذي لا يرى له وجود، رغم واقعيته ورغم ما لحق من كوارث دمرت مصيرنا على مدى أكثر من قرن من المؤمرات! وهنا سأستند على بعض ما كتبه البرفيسور سمير بطرس أستاذ العلوم السياسية بجامعة «وين ستيث» في الولايات المتحدة الأمريكية. يكتب الدكتور بطرس في مقال يعود إلى عام ١٩٨٨ نشر في مجلة الوحدة أن الولايات المتحدة منذ منتصف القرن الماضي وفرت كافة الموارد العلمية والبشرية والمالية لتشن هجوماً مركزاً على القومية العربية، و يبين كيف وظفت أساتذة الجامعات وعلماء الاجتماع لأغراضها

السياسية، ويشير إلى حقائق مذهلة وردت في كتاب من ستمائة صفحة لأستاذ التاريخ الأمريكي روبن وينكس عن العلاقات بين جامعات أمريكية مرموقة مثل: هارفارد وييل وكولومبيا وغيرها وبين وكالة المخابرات الأمريكية، ووزارة الخارجية وغيرهما من مؤسسات صناعة السياسة الخارجية الأمريكية. و من الأمثلة على ذلك، أن معهد الدراسات الدولية في جامعة ييل كان واحداً من اثنين من أفضل مصادر المعلومات لأجهزة المخابرات ووزارة الخارجية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية. وأن مؤسسة روكفلر أمدت المعهد المذكور بمنح بحثية لتزويد وزارة الخارجية بسلسلة من الأبحاث محورها: «كيفية إعادة تنظيم العالم بالشكل الذي يلائم أمريكا» فضلاً عن بحوث تتناول الخصائص الثقافية والعرقية لبعض الشعوب. ويشير إلى أن المخابرات الأمريكية تحرص على انتقاء أساتذة العلوم الاجتماعية والتاريخ للقيام بمهام يتم تنسيقها فيما بين الجهتين! وكنت قد قرأت في مكان آخر أن كل طالب دراسات عليا يتقدم بأطروحة عن دول العالم العربي وما شابهه تذهب نسخة من الأطروحة إلى المخابرات المركزية ونسخة إلى وزارة الخارجية ويكون ذلك سرياً دون علم الطالب أحياناً! كما يتم تجنيد بعض الطلبة لصالح المخابرات عن طريق أساتذة مرتبطين بها. ويستند الدكتور بطرس على ما كتبه عالم الاجتماع الأمريكي المرموق رايت ميلز لفضح عمالة أساتذة العلوم الاجتماعية الأمريكيين، ويكشف أن معظم البحوث في هذه العلوم موجه لخدمة المؤسسة العسكرية والشركات الكبرى. وأنه بفضل ما تقدمه هذه الشركات من منح بحثية، وهم اليوم أكثر من أي وقت يعملون كخلايا النحل في التركيز علينا، مستخدمين كل الإمكانات التكنولوجية، وتجنيد الطاقات البشرية المحلية والخارجية من أكاديميين ومثقفين لتحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية والعسكرية. ويقدم البرفيسور بطرس دلائل ملموسة وبالأسماء على وهم ما يسمى الحياد العلمي، وإلى مؤلفات لعلماء اجتماع أمريكيين ومجنسين عرب وغير عرب ومراكز بحوث تتنامى اليوم بكثرة وبعضها يدار من ضباط استخبارات سابقين من الموساد وCIA وعملاؤهما ويشنون حملة مركزة عبر أربعة عقود

على أيديالوجيا القومية العربية التحررية المعادية للإمبريالية والصهيونية. الحقائق والوقائع كثيرة وتدعونا بإلحاح إلى المزيد من التنبه والتبصر وتمتين المقاومة، والشجاعة في الإقرار إن الأعداء حقيقيون وأيديالوجيون ومتوحشون جداً، وألا نجعل خطاب السذج والأجراء عندنا يهيمن علينا.

الخرافات المعاصرة

في هذا العالم الذي يسمونه: عالم «ما بعد الحداثة» أوعالم التقنيات أو ثورة الاتصالات، يتم في أماكن متعددة وفي مصانع معلنة وخفية، إنتاج خرافات جديدة! لم ينته عصر الخرافات كما كنا نعتقد! وليست الخرافات نتاج العرب والأفارقة وشعوب الشرق فقط، بل هي أيضاً نتاج غربي معاصر! الخرافات المعاصرة التي ينتجها الغرب، تختلف عن الخرافات والحكايات الخرافية القديمة والبريئة والتي ظلت عبر العصور تحتفظ بجاذبيتها وجمالياتها التي أبدعها الخيال الإنساني البكر. الخرافات المعاصرة، هي أكاذيب يخترعها علماء، مخططون، دهاة. وهي موظفة لخدمة هدف: سياسي أو مالي أو عسكري أو عقائدي.. إلخ ولهذا هي أقرب للأكاذيب والفبركات التي تتقمص الحقيقة، ولا يهم مبتكروها إذا ما سقط القناع عنها بعد حين! ساعتها سيقهقهون ويقولون لقد أدت الغرض المطلوب بنجاح! يحدث هذا دائماً، ونحن لا نعرف الأحابيل التي تسلكها الطغمة التي تنتج هذا النوع من الخرافات، وأين تقبع وما هي جنسيتها ولصالح من تعمل! ولكن يبدو أنها كما الشركات المتعددة الجنسيات والعابرة للحدود، وهي موجودة في قطاعات عديدة من مجالات الحياة، ففي مجال الصحة،خلال العقدين الماضيين تم اختراع أمراض عديدة، ترافقت مع نشر الذعر في العالم، وسرعان ما يصل الحديث عنها إلى أوجه ثم ينحسر ويختفي، والأمر كذلك في الحديث عن ملكات الجمال، وحفلات التتويج، وعن الزلازل والكوارث المتوقعة، أما في مجال السياسة أو الاقتصاد أو الثقافة، فهنا تنشط

بشكل كبير الآلية التي تنتج الخرافات الموظفة! وهذا النمط الدعائي السافر والعدواني الذي يبث بقوة إلى الأماكن التي يجب أن يبث إليها. أعتقد أن الفارق الجوهري بين الخرافات القديمة والخرافات المعاصرة، أن الأولى تربطنا جمالياً بالعالم وتمد الجسور بيننا وبين العالم، بينما الخرافات المعاصرة سريعة الزوال، لكنها قادرة على أن تفصلنا عن العالم، وتكون عاجزة عن مد مثل هذه الأواصر! قدم لنا العالم القديم أساطير وخرافات وأوثان، وكانت بمثابة بؤر جمالية ومعرفية ورمزية، مثل أبطال الأساطير اليونانية والفينيقية، بينما الأساطير والخرافات والأوثان الجديدة تكون خالية إلا من السأم! في السياسة يخترعون أوثاناً غير صالحة للهضم، أو غير صالحة لأن تؤكل كأوثان العرب القدامى، بل على العكس تكون الخرافات المعاصرة هي التي تأكل الإنسان وتلتهم حتى مخترعيها! كما في «صورة دوريان جراي» لأوسكار وايلد! وأكثر ما تكون صناعة الخرافات الجديدة في عالم السلعة، والماركسيون يستخدمون تعبير: «صنمية السلعة» وفي خرافات عالم الثقافة، مثل خرافة البنيوية وتشعباتها ورؤوسها الميدوزية! ألا يسمونه عصر الميديا وعصر الصورة؟! الذي أطلق عليه الكاتب الأمريكي مارشال بيرمان اسم «حداثة التخلف! لكن لا تخلوا خرافاتنا الجديدة من الإبهار والحبكة ومن قوة التأثير! لأنها مصنعة بعناية وعلى يد خبراء مهرة! وقد يقول قائل، إننا نقع هنا بالإرباك والتناقض، وهذا صحيح، ومن وظيفة الخرافات الجديدة أن توقعنا بمثل هذا التناقض والحيرة، وإلا لن تكون خرافات تستحق أن يهدر عليها المال والجهد. نخلص إلى القول إن عالمنا حافل بالخرافات والأكاذيب على شكل حكايات وصور وأساطير ومفاهيم، وبما أن العالم لن يتوقف عن إنتاج الخرافات، فليس أمامنا إلا أن نجيد تحليل هذه الخرافات، والحذر من التصديق ومن التوهم أنها حقائق حتى ولو بدت كذلك ! ولنردد إذاً مع القائل: «والليالي من الزمان حبالى/ مثقلات يلدن كل عجيب».

الحضارة الفاوستيّة

بدأت قصة جوهان فاوست، في ألمانيا، كخرافة أو حكاية شعبية قديمة، تتحدث عن شخص باع نفسه للشيطان! كان فاوست ساحراً ومنجماً عرافاً، ويدعي استحضار الأرواح، واستعادة المخطوطات الضائعة التي ألفها الكتاب القدامى. وأعماله هذه جعلته ينال لقب (دكتور) وهذا ما أطلقه عليه كريستوفر مالرو.

هذه الحكاية انتقلت من ألمانيا إلى انكلترا. ففي انكلترا ظهرت أول قصة منشورة عن فاوست سنة١٥٩٢ استفاد منها المسرحي المعاصر لشكسبير «كريستوفر مالرو» صاحب مسرحية: «يهودي مالطا» قدم مالرو هذه الدراما الشعرية بعنوان: «الدكتور فاوستوس» ثم مالبثت أن شاعت القصة بين ألمانيا وانكلترا، إلى أن جاء العصر الرومانتيكي الألماني، وأشهر نجومه «يوهان فولجفانج فون غوته» ثم صديقه الشاعر والمسرحي والمفكر الشهير«شيللر». غوته أطلق هذه الملحمة للعالم، بعد أن كتبها بعمل شعري درامي من جزأين، وقدمها للألمان سنة ١٨٠٨، فصارت بحق ملحمة أوروبا، والمعبر عن الحضارة الأوروبية، منذ العصر الكلاسيكي إلى العصر الحديث. وبعد غوته قدمت للباليه، وقدمها فاغنر كعمل موسيقي، ولم تفقد أهميتها في القرن العشرين، فقد مها الروائي الكبير «توماس مان» كرواية في جزأين، ثم تصدى لها الشاعر الفرنسي الكبير بول فاليري وقدمها بعمل مسرحي بعنوان: «فاوست كما أراه» وعرضت مرارا على خشبات المسارح في أنحاء العالم، ووفق وجهات نظر متعددة. كما قدمت للسينما من منظورات متعددة. وكتبت كتب تحليلية ونقدية عديدة عن معنى هذه الأسطورة وأبعادها. ومعظم هذه الأعمال الأساسية، ترجمت إلى العربية، من مسرحية مالرو، إلى ملحمة غوته' إلى مسرحية فاليري، وفي السنوات القليلة الماضية، ترجمت رواية توماس مان.

عندما نقرأ نحن العرب، هذه المأساة، سنتذكر قصة النبي أيوب، فثمة أوجه شبه واضحة، من حيث أن كلا الشخصين تعرضا لاختبار إلهي ساقه إليهما الشيطان!

ففي قصة النبي أيوب، وكما يذكر الثعلبي في «عرائس المجالس» أن إبليس وقف في حضرة الله، وقال: «ياإلهي، نظرت في أمر عبدك أيوب، فوجدته عبداً أنعمت عليه فشكرك، وعافيته فحمدك، ثم لم تختبره لا بشدة ولا بلاء، وأنا ملك زعيم لئن ضربته ببلاء ليكفرن بك ولينسينك...» فسلطه الله على عبده أيوب ليختبره، فانقض إبليس عليه في رزقه وعافيته، إلى نهاية القصة المعروفة. حدث الأمر ذاته لفاوست، فقد خضع لاختبار،بعد حوار بين الله وإبليس. إلا أن الفرق الجوهري بين الشخصيتين، يكمن في أن إبليس فشل في الإيقاع بالصابر المؤمن أيوب، بينما استطاع بيسر أن يغوي الدكتور فاوستوس الطامح إلى السعادة والزعامة والملذات، ورغبة الاكتشاف وخوض التجربة! وهذه الأخيرة مهمة لمعرفة لماذا تعبّر مأساة فاوست عن الإنسان الأوروبي! لقد وقع فاوست ميثاقاً مع الشيطان، يضع فيه نفسه بالكامل تحت تصرف الشيطان! لكن، ماذا حدث بعد ذلك؟! لقد تفوق هذا الفاوست (الأوروبي) على الشيطان، وسخر منه، وصار فاوست سيد مصيره!

وفق نظرية الناقد الكندي نورثروب فراي، عن الأسطورة البدئية، فستكون قصة أيوب هي الأساس لقصة فاوست، وكل ما طرأ عليها من اختلافات وإضافات، تعد انزياحات عن الأصل، ومعرفة الأصل ومعرفة الانزياحات، أمران في غاية الأهمية لفهم العمل الأدبي.

فسر النقاد الأوربيون، هذا العمل الذي قدمه غوته، كل حسب إيديالوجيته، فالماركسي العريق لوناتشارسكي رأى في فاوست معبر عن روح الشعب، ونقاد ألمان رؤوا فيه تعبيراً عن الروح الجرمانية، وآخرون من أمريكا وغيرها رأوا فيه المعبر عن الديموقراطية!

من المفيد أن نعرف أن الأساطير الأساسية منبعها من هنا، وهي قريبة منا جداً، وقد تزورنا شذراتها في أحلام النوم، ونحن لا ننتبه، لاسيما، إلى أهميتها في الأدب المعاصر!

الخروج والوصول

يتصرف الإنسان في سلوكه اليومي، دون أن يدري أحياناً، أو عفو الخاطر أو لاشعورياً، ككائن حامل للأنماط الأولية أو للاشعور الجمعي. ولا يستطيع السرد الحديث وهو يرصد بدقة حياة الشخصيات إلا أن يسلط الضوء على هذه (المثيالوجيات) الصغيرة في حياة الإنسان المعاصر. والأدب الحديث حافل بمثل هذه التكثيفات الرمزية التي يمكن إعادتها إلى الجذور الأولى للثقافة أو إلى الأساطير الأولية، ويكاد لا يخلو عمل أدبي هام من هذا البعد الذي يمنح الأدب بعداً عميقاً، وهو يتفاوت بين كاتب وآخر. دعاة السطحية واللامعنى والحداثة الراديكالية يحاولون أن يفصلوا الإنسان العادي عن هذا البعد الأصيل والمتجذر في كل شخص يحمل ذاكرة، وهذا عبث وربما جهل بطبيعة الإنسان! والروايات التي واجهت بنفور إنسان النسق مثل روايات العبث والغثيان والسأم والسخط، كما عند سارتر وكامو ومن تأثر بهما،على أهميتها، لم يكتب لها الديمومة، بل كان تأثيرها ظرفياً، رغم أنها لا تنجو من تأثيرات الأنماط الأولية والأسطرة كما عند كامو، مثلاً. ولعل واحدة من (الميثات) الأسطورية الفرعية التي تتكرر في الأعمال الأدبية القديمة والحديثة (ميثا) الخروج من المنزل، التي تفترض مساراً ينتهي بالوصول أو بالعودة إلى المنزل. هذا واضح في ملحمة جلجامش إذ يخرج من قصره إلى البرية ليعثر على انكيدو، ثم يخرج خروجاً أكبر في البحث عن سر الخلود ، والأسطورة عبارة عن سلسلة من متتاليات الخروج ثم العودة، وهذا يتكرر في كل أدب الرحلات والمغامرات وروايات الفروسية. وفي أدبنا الكلاسيكي القديم لاحظ الدكتور وهب رومية بحساسية فذة هذا الطقس الشعري والدلالي وقدم أطروحته في كتاب: «الرحلة في القصيدة الجاهلية» وهو للأسف لم ينل ما يستحقه من قراءة! والخروج تتعدد أشكاله وأهدافه، في القصص الدينية، حيث الخروج يشكل بنية أساسية في الحكاية، ويكون فردياً أو جماعياً أو عائلياً، وكذلك الأمر في الأدب المعاصر،

ففي رواية «عناقيد الغضب» للأمريكي «شتاينبيك» خروج جماعي وترحل بسبب الجفاف والقحط ورحلة شاقة للبحث عن الكلأ والمراعي الخصبة تشبه قصة خروج النبي موسى من مصر والتيه في الصحراء. ومن الروايات المعاصرة النموذجية للخروج الفردي رائعة سيلين: «رحلة في أقاصي الليل» وهذا على سبيل المثال لا الحصر. وكذلك خروج شتاينبيك نفسه في رحلة تجوال مع كلبه تشارلي في ربوع ولاية كاليفورنيا، وهي تماثل رحلة ابراهيم بن أدهم في السياحة المعرفية. وتشكل قصيدة وولت وايتمان «أغنية نفسي» حالة خروج وتجوال طويل. إنسان التجوال وجواب الأفاق يكون بمثابة صياد معرفة في مدن العالم الحديث! يشكل الخروج، حالة حركة وسفر، وتجربة وتراكم معرفة، ضد الخمول والسكونية والاستنقاع، إنه بالمعنى النفسي حالة نضج، ما بعد الطفولة، إنه اختبار للرجولة يقوم به الإنسان من لحظة شعوره بذاته المنفصلة عن الآخرين والمتصلة أيضاً. في الأدب، إنسان التجول نقيض إنسان العزلة، الذي يقيم في جحر أو في غرفة في فندق ويراقب العالم من ثقب، كما في رواية «الجحيم» لهنري برابوس! والخروج من البيت أو من القرية إلى المدينة أو إلى العالم، طالت الرحلة أم قصرت لابد أن تنتهي بالعودة، وأشكال العودة متنوعة؛ قد تكون عودة سعيدة إلى مسقط الرأس كما السندباد، أو عودة الخائب الذي لم يحصد سوى الشقاء، أو الموت في طريق الإياب! وبكل الأحوال هي الرحلة المعاكسة: عودة المرء من حيث أتى. وبهذا الصدد يقول عالم النفس اليونغي «ببير داكو»: «إن جميع الراشدين يمتلكون في أعماقهم رغبة حنينية في العودة إلى رحم الأم». وهذه طريقة نظر في قراءة الأدب والروايات بشكل خاص.

الذئبية

تكاد تكون «الذئبية» في الأدب حالة سيكيالوجية راسخة وكاملة الملامح. الإنسان الذئب، أو الذئب الإنسان أو الإنسان والذئب، وهي حالة تتكرر وبأشكال مختلفة. ويا له من أمر محير! لماذا استحوذ الذئب دون غيره على هذه المكانة، من وفرة الحضور، في الخيال القصصي والشعري منذ القديم وحتى الآن؟! وينافسه في الحضور الثعلب والحمار، ومن الطيور: الديك والهدهد. ومن الصعب إحصاء المرات التي كان للذئب فيها دور البطولة، ففي العديد من الحكايات وقصص الأطفال والأساطير وحتى الكتب المقدسة، يوجد ذكر بشكل أو بآخر لهذا الكائن الذي نكاد لا نعرفه إلا من خلال هذه السرديات المتنوعة والتي هي خيالية ورمزية أكثر منها واقعية. واللافت، أن كتاب «الفيزيولوغس» عن الطبائع المخلوقة، المنسوب للقديس غريغوريوس من القرن الثاني الميلادي لا يرد فيه ذكر للذئب! لماذا اصطفى الخيال هذا الحيوان من الحياة البرية ومنحه هذا المقدار من الدرامية التي لم تنضب أو تستنفذ إيحاءاتها ورمزيتها؟! والطبع أو السمة البارزة للذئب هي: (الافتراس) عند الجوع، إذ لا يخرج الذئب بحثاً عن فريسته إلا إذا كان جائعاً. يصور امرؤ القيس في معلقته ذئباً جائعاً (كالخليع المعيل) صادفه في واد قفر لانبت فيه وخاطبه:

«فقلت له لما عوى: إن شأننا   قليل الغنى إن كنت لما تموَّلِ

كلانا إذا ما نال شيئاً أفاقه   ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل»

والفرزدق أيضاً له وقفة مع الذئب الجائع في قصة شعرية يدعوه فيها للعشاء والمشاركة بالزاد شريطة أن يلتزم آداب الصحبة. وقال أحد اللصوص شعراً:

«عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ   عوى وصوت إنسان فكدت أطير»

والبحتري يصف ذئباً جائعاً يلتقيه في بيداء، ويكاد يتوحد معه في جوعه، قائلاً:

«كلانا بها ذئب يحدث نفسه   بصاحبه والجد ينفسه الجد»

و يطيب للمرء أن يترصد هذا التآخي أو الاستئناس بين الإنسان والذئب في الشعر العربي، ولكثرة هذا النوع من الشعر الطريف والحواري والذي يتماثل فيه الشاعر مع ذئبه، كما قال البحتري: «كلانا ذئب» ما يجعلنا نتساءل عن إمكانية وجود ذئب آخر غير الذئب النمطي المفترس والغدار، هو ذئب الشعراء أو ذئب الخيال، وأيهما أقرب إلى الحقيقة؟ واختم الاقتباس من الشعر العربي ببيت لأبي فراس الحمداني يشكو فيه ما آلت إليه أمور الناس في زمنه:

«وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهنَّ ثياب»

والصورة المأساوية للذئب في الشعر يقابلها، أحياناً، في الروايات العربية المعاصرة صورة أخرى للرجل الذئب (الإقطاعي) الذي يفتك بضحاياه من الفلاحين والفلاحات! ويمكن أن نلتقي بهذا الذئب المتواري، في الروايات الحديثة جداً، خلف الروائي الذي يتحدث بنرجسية عن افتراسه لعدد من المغفلات التي يصطاد منهن في كل جولة ليلية أو نهارية!

هذا التحول (التناسخي) الرمزي المتبادل،بين البشري والذئبي يغدو في الكتابة حقل دلالات خصيب ومتجدد، وهل ننسى حكاية: «ليلى والذئب»؟! وما أثارته من تأويلات في جانب من مستوياتها الدلالية. للروائي الأمريكي جاك لندن رواية «ذئب البحار» كما للروائي الألماني هيرمان هسه رواية «ذئب البوادي» وهي رواية عن رجل مثقف يدعى هاري هالر له طبيعة إنسان وطبيعة ذئب. أما القاصة والمحللة النفسانية كلاريسا بنكولا في كتابها العميق: «نساء يركضن مع الذئاب» وفيه دعوة إلى المرأة القوية المتواشجة مع الطبيعة، ترى هذه الكاتبة أن الذئبة القوية تشترك مع المرأة القوية في خصائص نفسية واحدة، حيث تتسمان بصدق المشاعر والروح المرحة والقدرة العالية على العطاء. لكن بقي أن نقول أن الإنسان يفضل أن ينتمي بوعيه إلى التمدن والرقي لا إلى التوحش والافتراس.

الفوضويون!.

الفوضى قد تكون عفوية، وقد تكون ممنهجة أو إيدالوجيا يقف خلفها منظرون أو دعاة. وتحظى الفوضوية، كطريقة حياة، بجاذبية كبيرة في أوساط الشباب وبعض المثقفين، الذين يتباهون بأنهم ضد المؤسسة أو ضد الدولة وضد المجتمع! تاريخياً عرف دعاة هذا الاتجاه الفوضوي باسم: «الباكونيين» نسبة إلى اليساري الروسي الشهير: «ميخائيل باكونين» ١٨١٤ – ١٨٧٦ الذي عاصر ماركس واختلف معه، ويوصف بأنه: «رسول الفوضى» خرج هذا التيار من بين صفوف اليسار الهيجلي والذي كان كارل ماركس أحد أكبر أعلامه. ويتلاقى الباكونيون مع نيتشه في بعض التقاطعات، ويفترقون في نقطة جوهرية، هي أن نيتشه كان يرنو إلى الأرستقراطيين بينما باكونين يرنو إلى الرعاع، وكلا الطرفين يصبو إلى الفتك بالآخر! وكان تأثير باكونين في ذلك الزمن يفوق بكثير تأثير نيتشه. لباكونين مؤلفات كثيرة بدأ بها ولم يكملها، وأشهر مؤلفاته: «الله والدولة» يقول فيه: «إننا نرفض كل تشريع، وكل سلطان، وكل تأثير امتيازي، رسمياً كان أو قانونياً، حتى ولو كان صادراً عن انتخاب عام، لأننا مقتنعون أن هذا التأثير لن يعود بالمصلحة إلا إلى أقلية مستغلة مسيطرة..» تحولت دعوات باكونين إلى ممارسة العنف! وعرّف أتباعه «بالأنارشيين» أي دعاة العنف والتدمير، ووجهوا سهامهم ضد كل أشكال التنظيم والمؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية، بدءاً من مؤسسة البيت أو الأسرة الصغيرة إلى أعلى مستوى! ولا نستطيع أن نتجاهل مقدار جاذبية هذه الدعوات في بعض الأوساط، ومهما بلغت من جاذبية، إلا أنها ضارة وخطرة، أولاً لأنها فردية جداً، ثم عنفية، وبالتالي عدوانية وتكفيرية، والداعون إليها يسوغون العنف و يحولون المجتمع، بكل مكوناته الصغرى والكبرى، إلى ضحايا لتصوراتهم الفردية، ولنظرتهم السلبية للبنى الجمعية التي تكونت تاريخياً ودفع الناس ثمنها دماً وكفاحاً! والأنارشيون لا يعيرون اهتماماً لما يسمى منجزات حضارية ولا للعقائد ولا للأديان، ولا لحقوق الجماعات، فكلها يجب أن تجرف في

سيل العنف الذي يصبح غاية في حد ذاته. في الثقافة، يمجد الفوضويون كل أشكال التحلل من الأعراف، ويهللون للمنشقين عن منظوماتهم ومؤسساتهم، حتى ولو التحقوا بمنظومات أخرى أكثر سوءاً! وكانت لهم تعبيراتهم في مجالات الفنون العديدة! وأذكر بهذا الصدد أنني في بداية دراستي الجامعية في دمشق، وفي مطلع الثمانينات، حضرت فيلماً هوليودياً، لم أعد أذكر منه سوى شخصية بطله، وهو أستاذ جامعي عجوز، يدرّس الفلسفة في إحدى الجامعات الأمريكية الشهيرة،جيء به وسط حفاوة كبيرة على أنه فيلسوف كبير ومفخرة للجامعة! شخصية غريبة بالفعل! أبيض الشعر، أحمر الوجه، يترنح في مشيته من تأثير الكحول! يأتي إلى القاعة حاملاً زجاجته بيده، ثم يضعها أمامه، ويقذف بقدميه في وجه طلابه، ويطلق شتائم وعبارات بذيئة تطال كل مشايخ الطرق الفلسفية من فيثاغورث حتى جون ديوي، مروراً بأرسطو وأفلاطون وبالقديس أوغسطين، ولكم أن تتخيلوا جو القاعة والهرج والمرج في أوساط الطلاب، وعندما تنتهي الزجاجة، التي يستل روحها كما استل أبو نواس روح الدن وألقى به مطروحاً جسداً بلا روح، يلقي بها من النافذة أو بين الطلاب، وتكون قد انتهت المحاضرة! فيما بعد صادفت في الولايات المتحدة نمطاً آخر من الفوضى الممجوجة، ويعد مألوفاً هناك، وهو أن بعض الأستاذة الجامعيين وفي جامعات مرموقة لا يجدون حرجاً في أن يلتقوا بك لقاءاً شبه رسمي للحديث في الأدب والنقد ويأتيك واحدهم، حتى ولو كان اللقاء الأول بينك وبينه، مرتدياً الشورت والصندل، وما يكاد يبدأ بالحديث حتى يمد يده إلى حقيبته الكبيرة ويخرج منها سندوتش الهمبرغر ويقضمها ويمضغها بتأن، وهو يحدثك عن تاريخ النقد الأدبي ونظرياته وأعلامه، ولا يخطر بباله أبداً أن يدعوك للمشاركة في طعامه ولو كنت تئن من الجوع! فاين هم هؤلاء الفوضويون الجدد من شاعرنا الهجاء الفرزدق الذي دعا الذئب ليتقاسم معه الزاد وهو يحدثه عن الأخلاق؟!

الطفل الذي لا ينمو

تقودنا فظائع الحروب، إلى التشاؤم، وانهيار الثقة بالمنظومات الأخلاقية للبشر! وبالتالي قد نبرر لبعض المصلحين مقدار مرارتهم، حين يجرون المقارنات بين وعي البشر ووعي البهائم والسوائم! حين يلحظون عند كل مفترق من مفترقات الحضارة، كيف تصنع الحروب وتأخذ البشر نحو الهاوية!

حين كانت جحافل الغزاة الصهاينة تجتاح بيروت عام ١٩٨٢ علق الشاعر الإنساني الكبير يوجين غليفك على ذلك، قائلاً: «أنا حزين، وفقدت الثقة بالإنسانية». رغم أنني لا أود أن أكون سوداوياً، أو شتاماً لحضارة البشر، وأحاول دائماً ألا أقع في هذا المطب، إلا أن الواقع الذي نشهده، يفرض علي الخيبة! ألم تكن ثمة ظروف مشابهة قد دفعت شاعر العرب وحكيمهم أبا العلاء ليقول للعالم القريب والبعيد: «وأصدق من أصدقكم صخرة/ لا تظلم الناس ولا تكذب»؟!. تقودنا الخطايا الكبرى التي تتكرر، إلى التشكيك بحقيقة الوعي، وبانعدام الثقة بما يذهب إليه المتفائلون، القائلون: إن الوعي يتطور مع تطور الزمن. والعلاقة بين الوعي والوجود شغلت الفلاسفة في العصور القديمة والحديثة، وانقسموا بين من يرفض وجود الوعي من أساسه، وأنه مجرد وهم أو كلمة لا أكثر!، ويهزأون بقسوة ممن بالغ في إعطاء الوعي الدور الحاسم في إحداث تغيير في واقع الإنسان. ويرى أحدهم أن الوعي البشري حتى الآن، وفي أحسن تجلياته، لا يتجاوز وعي صبي في الثامنة من عمره! ويزيد عليه آخر، من نفس الاتجاه، قائلاً: «قد يموت الطفل قبل أن يستيقظ فيه الوعي». في كثير من الأحيان، توحي الترجمات الفلسفية بأن الوعي والعقل كلمتان مترادفتان لمعنى واحد، تشابكت فيهما الأفكار بين من هو مثالي، أو مادي أولا أدري، وتفلسفوا كثيرا حول ماهية العقل ودوره ومصدره. وكان هيجل من أشهر المعولين على حضور الوعي أو العقل، ويرى أن الوعي هو جوهر العالم. ويفرط فيورباخ في التفاؤل فيرى أن البشرية قد بلغت عهد نضوجها. وحسب لينين، فإن وعي الإنسان لا يعكس العالم الموضوعي فحسب، وإنما يخلقه أيضاً. أمثال هؤلاء الفلاسفة

والمفكرين الذين يولون ثقتهم الكاملة بالعقل، وبالوعي الفردي والجمعي ، يقف في مواجهتهم، من هم أقل وثوقية، أو من لا يثقون بالمطلق بهذا الذي يسمونه: الوعي، ويرى أحدهم أن تقدمية الوعي، هي مجرد خرافة من خرافات القرن الثامن عشر الأوروبي. ويرد البعض من هؤلاء على أتباع النزعة التقدمية في النظر إلى الوعي البشري، فيقول: أن البشر عبيد أوهامهم، وسيزدادون عبودية مع الأيام وحتى مع التطور العلمي والتقني. وأحد شخصيات الروائي فرغاس يوسا ، يقول: «ثمة قاع بهيمي في الجميع، مثقفين وغير مثقفين، ولعله أقوى ما يكون في الطبقات الدنيا». ويرى فيلسوف معاصر، أن الخيبة هي الترجمة التامة للمعرفة، فإن تكون واعيا، معناه أن تكون خائباً. وما كان للشعراء والكتاب والفلاسفة أن يتحدثوا بهذا التشاؤم لولا المفاسد التي تحيق بالعالم من كل جانب، والناس يتوافقون ويتكيفون مع هذا الخراب والنفاق السائد والذي لا تكتمل ثمرته المرة إلا بإشعال المزيد من الحروب، ومهما اختلف أصحاب الرأي في الوعي والعقل، فالأمر لن يختلف كثيراً! وبعيداً عن المتفائلين والمتشائمين، وأمام هذا التردي وعلى كل المستويات، فليس أمامنا إلا أن نكتشف أننا نقيم محاصرين في منزل الخيبة. وأما هذا الطفل الذي تتنازع عليه أمان كاذبتان واحدة وثوقية والأخرى إنكارية جعلتاه مكبلاً مشلولاً!

المثقف الفاوستي

نموذج الدكتور سعد الدين إبراهيم، مدير مركز ابن خلدون في مصر، على غرابته، صار مألوفاً في المشهد الثقافي العربي! اقتدى به بعض المثقفين، وربما أعجبوا به، وساروا في نفس الطريق، والبعض يحسده ويتمنى أن يكون له نفس الدور، ولكن لا يحالف الحظ كل من هب ودب!ولا يستطيع كل من أراد أن يبلغ ما بلغه الدكتور سعد!هو رجل أكاديمي يدرس في الجامعات الأمريكية منذ سنوات، ويعرفه البعض بأنه عالم اجتماع، في الخمسينات كان يحسب على حكم عبد الناصر، وصار يسارياً لعقود، متزوج من ناشطة أمريكية شديدة الحماس لسياسة

بلادها. لا أعرف بالضبط متى قرر الدكتور أن يكون عراب أمريكا في مصر وربما خارج مصر. في التسعينات عقد مؤتمراً ممولاً في القاهرة عن حقوق الأقليات في العالم العربي، بصفته مدير مركز ابن خلدون، وانتقد يومها كثيراً، ولكنه لم يبال، ولشهرته كلفته السيدة الكويتية سعاد الصباح، من الأسرة الحاكمة في الكويت، بإدارة دار النشر المعروفة بـ«دار سعاد الصباح» في القاهرة، وكانت تمنح جائزة أدبية سنوية، لكن، ما لبثت أن اتهمته بسرقة أموال طائلة، وقامت عليه دعوى نصب واحتيال! ولكنه لم يبال! ثم سجنه نظام حسني مبارك، وقامت أمريكا ولم تقعد حتى أخرجته من السجن، وكان قد سجن عدة مرات في عهد مبارك، وكأن مبارك لم يكن يريد أن يكون في مصر صديقاً لأمريكا أكثر منه! يجاهر الدكتور بصداقته لأمريكا، وقد تفاخر بأنه هو من كتب خطاب أوباما الذي ألقاه في جامعة القاهرة، وبدأه بتحية الإسلام: «السلام عليكم» حتى ترقرقت عيون الحاضرين وظنوا أن الرئيس أوباما مسلماً لا مجال للشك في إسلامه! كل من يريد أن يقدم أوراق اعتماده للأمريكيين عليه أن يعتمد على سعد الدين إبراهيم! و يحكي أنه التقى في السجن قبل رحيل مبارك برجالات من حزب الأخوان المسلمين المصريين وشكوا له قائلين: لماذا تدير لنا أمريكا ظهرها ونحن براغماتيون وعندنا رغبة بصداقتها. ونقل رغبتهم إلى الأمريكيين مع تذكية خاصة ونصيحة بأن يجربوهم كبديل عن مبارك، فكان عراب الصفقة بينهم وبين أمريكا! هذا ما قاله على إحدى الفضائيات المصرية بعد سقوط مبارك، وعبر عن أسفه لأنهم فاشلون، على حد قوله. قد يكون ما قاله ادعاء مبالغ به، وقد يكون صحيحاً. ولكن من المعروف عند قطاع واسع من المثقفين في مصر والعالم العربي أنه رجل أمريكا الموثوق. هو في نظر القوميين خائن، وفي نظر الليبراليين شاطر للغاية، على مبدأ: «دعه يعمل دعه يمر» هو يقول عن نفسه: «لا يهمني الإجماع العام، ولا رأي الناس بي، إنني أخدم المصلحة العامة، وأخدم البحث العلمي»! هو يختلف عن العراقي كنعان مكية، وعن اللبناني فؤاد عجمية، الذي قال عنه جورج بوش الأب بعد أن التقاه: «لم أر في حياتي رجلاً يكره قومه كهذا الرجل». وبالحقيقة يتمتع الرجل بكارزما أكثر من غيره في طبقة المثقفين، وهو حلو

اللسان، متهكم، كما أنه يتحاشى الوقوع في الابتذال اللفظي، وقلما يهاجم أحداً، ويقابل التهجم عليه بابتسامة ماكرة! وهو أذكى من أن يظهر تأييداً لإسرائيل، ولم ألحظ أن أحداً اتهمه بالترويج للتطبيع، ولعل الرجل مقتنع بأن أمريكا هي السيد والأصل! وكل شيء يمكن أن يغطى بالوشاح العلمي الذي يوفره مركز ابن خلدون، ومهنته كأستاذ جامعي في الجامعة الأمريكية و(عالم اجتماع) فهذه الألقاب والصفات تمنحه حرية الحركة، وتسهل لمن يرغب الاتصال به أن يفعل دون حرج! قد يكون الرجل خطيراً في الأدوار الخفية التي يلعبها، وقد لا يكون له هذه الأهمية. إلا أنه صورة للفاوستي الذي وقع عقداً علنياً مع إبليس!

مذنبون بلا ندم

كان سارتر يرى في مثقفي عصره «مذنبين كباراً» لما يشيعون من «وعي تعس» في مجتمعاتهم، و يرى إنهم خدعوا الشعب في الظروف الهامة كافة، وحملوه على أن يدير ظهره لمصالحه بالذات، وخدعوا بعضهم بعضاً بصدد كل شيء ويرى أن مفهوم المثقف غير مستقر. في الوقت الذي كان آخرون كثر يرون في المثقف منارة، وفي جماعة المثقفين طليعة ترشد إلى التنوير، ولكلا الرأيين وجاهته ونصيبه من الصواب ربما. ولكن ما الذي يدفع سارتر صاحب كتاب «دفاع عن المثقفين» لأخذ هذا الموقف في السنوات الأخيرة من حياته؟! يشير سارتر إلى العجز والخور عند هؤلاء وإلى أنهم ضعاف بالطبيعة، فهم لا ينتجون وليس لهم إلا أجرهم أوداً لحياتهم، وهذا ما يجردهم من كل إمكانية للدفاع عن أنفسهم في المجتمع المدني والسياسي على حد سواء ويقول: «هاهم هؤلاء عديمو الفعالية، متذبذبون. ونظراً إلى افتقادهم كل سلطة اقتصادية أو اجتماعية تراهم يعدون أنفسهم نخبة مدعوة إلى تقييم كل شيء والحكم عليه..» ومع ذلك ورغم أنهم «يتلبسون روح النفي دوماً وأبداً» لا مناص من وجودهم للحفاظ على الثقافة ونقلها وإغنائها. ويشير سارتر منذ عام ١٩٦٨ إلى الدعوات القائمة في أوروبا على قدم

وساق إلى موت هؤلاء الناس الذين يدعون معرفة كل شيء، وذلك بتأثير أفكار أمريكية تطلق التكهنات حول اضمحلال أو موت المثقفين التقليديين كدور وفاعلية، لأن تقدم العلم، بحسب هؤلاء، سيفضي لا محالة إلى الاستغناء عن هؤلاء الموسوعيين المزعومين بفرق من الباحثين المتخصصين. ويبدو أن هذا قد تحقق في أماكن عديدة وفي درجات متفاوتة، ويبقى لهم في بلداننا دور وظيفي قد يزول عندما تنتفي حاجة مموليهم إليهم. ولعل واحداً من أخطر الأدوار التي يقوم بها بعض المثقفين عن قصد أو عن غير قصد هو الروح العدمية الرافضة لكل شيء، ومثقفو القرن العشرين امتهنوا الرفض حتى صار عقيدة شبه مقدسة تترافق مع الهجوم على المؤسسات وعلى المنظومات بكافة أشكالها باعتبارها ذات بنيان هرمي، لا تتناسب مع الروح الفوضوية للمثقفين. وتقوم الثقافة الأدبية والسردية لهذا النمط من المثقفين على الإعلاء من شأن الهامشيين والمنعزلين والمنفيين، قسراً أو طوعاً، والمنشقين، والمعادين لدولهم ولجماعاتهم. وأصحاب هذه النظرة حتى ولو انتموا لليسار إلا أنهم نخبويون، لا يبالون بالناس ولا بمشاعرهم، وهم يقينيون أيضاً إلى أبعد حد، ليس لهم إلا أن يشهروا الـ«لا» في وجه كل اقتراح أو مبادرة. وهم ضد أي إصلاح جملة وتفصيلاً، وعندهم التراجع عن الموقف، حتى ولو كان بيّن الخطأ، يعد هزيمة شخصية لا يمكن احتمالها، فلا يجرون مراجعات بل المزيد من المكابرات المتتالية والراديكالية التي توقعهم، وتوقع آخرين معهم ممن يعجبون بهم في أخطاء مميتة. إنهم يفتقرون الموضوعية، وهم بعيدون عن ما يدعون من انفتاح على الأفكار وعلى الآخرين، بل يتمترسون في مواقفهم (الثورية) ولو كانوا يركبون بغال الليبرالية، ويتحدثون صبح مساء حتى في خلواتهم عن الديمقراطية وحرية الرأي والرأي الآخر، فهم في الحقيقة على عداء مع أي رأي يخالفهم، ويعتقدون بكل بطر واستعلاء أنهم وحدهم، يملكون الحقيقة، ولا يوجد عندهم إلا اليقين الصلف والشك كل الشك بالآخرين! يسمى هؤلاء بالفوضويين أو الراديكاليين في السياسة وفي الفلسفة والفكر يعرفون بالعدميين، وأشهر أعلامهم الروسي باكونين الذي عاصر كارل ماركس واختلف معه، وهو زعيم الفوضويين عبر العصور بلا

منازع، وهو من دعاة العنف ضد أي شكل من أشكال الدولة والمؤسسات! ورغم الجاذبية الثقافية للرفض إلا أنه يأخذ منحى هداماً وتخريبياً عندما يتحول في الواقع إلى عنف منفلت، ويقوض المجتمعات. مثل هؤلاء المثقفين المذنبين لا يعول عليهم في بناء الأوطان وإصلاح المجتمع، مهما بلغت درجة ثقافتهم.

أتباع هذا التيار موجودون في كل مكان.

الوضع الإنساني

قدم أرك فروم تصوراته من أجل إنقاذ الإنسان من كارثة سيكيالوجية واقتصادية قائمة أو محتملة، رسم من خلالها ملامح للإنسان الجديد الذي يستعيد كينونته وجوهره الإنساني، ويصلح لأن يكون نقطة انطلاق لكل مجتمع يصبوا لتغيير واقعه وبناء إنسان مغاير. يحدد ذلك بأربعة شروط، إذا توفرت كان التغيير ممكناً، وهي:

أولاً: المعاناة، مع الوعي بأننا نعاني. ثانياً: الكشف عن الأصل في الحالة السيئة التي من أجلها نعاني. ثالثاً: أن نتبين أن ثمة مخرجاً من حالتنا تلك. رابعاً: أن نقبل فكرة أنه لكي نتجاوز تلك الحالة، يجب علينا أن نتبع طرائق معينة في المعيشة، وأن نغير ممارساتنا الحياتية. استخلص فروم هذه الشروط من تعاليم بوذا، وهي تبدو بسيطة لدرجة أنها تكاد تفقد أهميتها! لكن، على بساطة هذه الشروط، لو تأملنا فيها ملياً لأدركنا أهميتها القصوى، فهي إلى جانب أنها تأتي من مفكر نقدي، إنساني النزعة، عاش حياته متميزاً في مدرسة التحليل النفسي، وناقداً نزيهاً لأستاذه فرويد، وظلّ يقرع أجراس الإنذار، محذراً من الكارثة التي تحدق بالبشر، والتي يعيشونها في كل مكان على المستوى الكوني. ولأن هدف فروم دائماً الإنسان وإصلاح حاله، وفق الشروط الأربعة، تميز خطابه دائماً بالوضوح الشديد، خلافاً لأقرانه من جمعية التحليل النفسي، ثم جماعة فرانكفورت الشهيرة بنظريتها النقدية. دعا فروم لإنسان الكينونة، إنسان

الجوهر الذي يتميز بروح الإيجاب، لا تمتلكه الأشياء، ولا يستلب أو يرتهن لآلية الاغتراب والتشيؤ والأنانية التي يفرزها النظام الرأسمالي.

وفق علم النفس التحليلي، إن كل إنسان يعاني، وقلما يوجد سعداء على الدوام! فالإنسان هو حيوان شقي، ووعيه لهذا الشقاء يجعله أكثر قلقاً، وأكثر توقاً للخلاص، وللوصول إلى سعادة الوعي. إذاً، الإنسان الذي يرومه فروم، هو الذي يعي إنسانيته، على أنها قيمة كبرى لا يجوز تبخيسها أو الانتقاص منها، ويعي موقعه في «الآن وهنا». وبما أن الوعي شرط أساسي للتغيير، فإن الثقافة تفرض نفسها كضرورة ملحة لتنمية الوعي وتحصينه. وبالعودة إلى شروط فروم، أتوقف عند الشرط الثالث الذي يبدو لي كبير الأهمية، لأنه يلامس حالنا هنا، فهو يحثنا على الأمل وعلى الثقة بالذات، وعلى ضرورة النظر الثاقب للذات وللتاريخ وللعالم من حولنا. ونؤكد عليه بقول الشاعر العربي القديم: «ما أصعب العيش لولا فسحة الأملِ».

إن فروم عدو لدود لليأس وللعدمية الفلسفية، ويرى أنها من مآسي الإنسان منذ بدأ يعي ذاته، ومنذ فجر الوعي الإنساني، رغم تشريحه الممنهج للعدوانية التدميرية في الجنس البشري، وهو صاحب كتاب: «تشريح التدميرية البشرية» وكتاب «الهروب من الحرية» وكتب أخرى عديدة من هذا النوع. وهو يدعو الإنسان ليتجاوز واقعه، ويكتشف إنسانيته، ويصحح ممارساته الحياتية، ويلتقي فروم في نظرته هذه مع أرنست بلوخ، ومع كريشنا مورتي، وكارل يونغ، إلا أن الأخيرين بسبب من صوفيتهما الإنسانية، يريان أن المعضلة البشرية تكمن في الفرد البشري وفي الثقافة الفردية، وحلها يبدأ من الأفراد، عن طريق تبدل نفسي للأفراد. بينما يرى فروم أن المرض في المجتمعات وفي السكيالوجيا الثقافية، والإصلاح يكون اجتماعياً وثقافياً واقتصاديا بما يقود إلى نمط حياة جديدة. مورتي يقول: إن معضلة العالم هي معضلة الفرد ذاته. وفي نظره أن تعديل أو تبديل الهياكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية، تعديلاً أو تبديلاً، ليس إلا إصلاحاً للسطح لا يجدي كثيراً لأنه لا يباشر في تحويل جذري لقلوب وأرواح الناس. أما يونغ فيقول: «بقدر ما تكون التجمعات مجرد تكومات أو تكتلات للأفراد، كذلك تكون معضلاتهم بالقياس ذاته تكومات أو

تكتلات للمعضلات الفردية». ويرى أن معضلات من هذا النوع لا تعرف الحل، بأي شكل من الأشكال، عن طريق تشريع أو تبديل في الاسم والعنوان، وليس من سبيل إلى حلها إلا من خلال تبدل شامل للموقف أو للوضع. وتجمع هذه القامات الفكرية الكبيرة على أن ثمة خلل في الوضع الإنساني، ولا بد من وجود أمل في حل هذا الخلل.

اللويثان الجديد!

اللويثان، هو الوحش الأسطوري، الذي يرمز إلى الشر والقوة. ألف الفيلسوف الانكليزي توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٦) كتاباً بهذا العنوان، واللويثان ورد ذكره في سفر أيوب. لنقل اليوم؛ هذه الأحابيل التي تعيد تشكيل تصوراتنا وقناعاتنا، إنها القوة اللامحدودة للميديا الأخطبوطية التي بلغت ذروة قوتها في «الانفجار الاتصالي عن بعد» كما يسميه الفيلسوف المابعد حداثي «فرانسوا ليوتار» إنها أشبه بهذا اللويثان!

مع هذا اللويثان، يمتثل الإنسان لإعادة فبركته،ليتحول إلى كائن ممغنط، يمكن التحكم به عن بعد! كيف نما هذا اللويثان الكوني، وصار قوة تفوق القوة الحربية؟! منذ ظهور الأنترت في مطلع التسعينات من القرن الماضي لاحظ الخبراء ازدياد عدد المستخدمين، من عدة ملايين إلى مليارات من البشر، أغلبهم من القطاع الشبابي، وصارت وسائل الإعلام الاجتماعية حقيقة من حقائق الحياة اليومية بالنسبة للمجتمعات في جميع أنحاء العالم. وبرزت المعلومة كسلعة جديدة يمكن استخدامها استخداماً سحرياً في عالم القرية الكونية! وصار اللويثان الجديد يتكون ويتدرع بكل الأدوات القابلة للتوظيف في خدمة المصالح السياسية والاقتصادية للقوى المتحكمة بوسائل الاتصال، وتحديداً الولايات المتحدة الأمريكية التي أطلقت هذا الوحش، ليكون عنوان القرن الواحد والعشرين في خدمة الامبرطورية الجديدة!

إن عالم الميديا المهيمن اليوم، عالم بلا ثقافة، رغم أنه عالم تدفق المعلومات! فهذه المعلومات المتدفقة التي تدمر كل ما هو كلاسيكي في الإنسان، هي معلومات قابلة للمحو الدائم، إن الذاكرة البشرية لا تخزنها، وهي قابلة للتلف،لا للأرشفة! ورأى منظرو عصر المعلومات إن هذه ميزة عظمى، تناسب آلية الاستهلاك المطلوبة اليوم! فكما أن كل إنسان يحتاج المعلومة، كذلك كل إنسان يحتاج السلعة، وكما المعلومة، كذلك السلعة الجديدة، من ميزاتها أن تستهلك بسرعة قصوى. فقبل أن يرد لك طرفك، يتم طرح موديلات جديدة، تجعل ما هو بين يديك، وما كنت تتفاخر به ركاماً ممقوتاً! ضمن هذه الآلية من التدفق، ثم الاستهلاك السريع، ثم تحويل كل شيء إلى كم هائل من النفايات المتدفقة والمتراكمة، هكذا تكتمل الدائرة اللويثانية، أو الدوامة التي تنبذ كل ما هو جوهري أو كلاسيكي في الإنسان! فالمعلومة الجديدة هي ابنة الميديا، يصنعها من هم أكثر مهارة في الكذب والترويج! وليست المعلومة ناتجة، كما في السابق، عن التأمل أو التجريب! والسلعة أيضاً؛ الكلاسيكية إلى المتحف، أما الجديدة، فهي مدموغة بماركة ما، وهويتها متعددة الجنسيات! أما إذا كنت من هواة اقتناء الماركات النادرة، فهذه إيقونات، تليق فقط بالاستثنائيين من أصحاب الثروات النادرة!

أما كلمة «ثقافة» فهي تستخدم استخداماً غير كلاسيكي، في الميديا، فالثقافة هي مجموعة المعلومات التي تقدمها الميديا عن الثقافة. فلا قيمة للوحة لا يروج لها، ولا قيمة لقصيدة، أو لرواية، أو لموسيقى، أو لمطرب، أو لكاتب، أو لتاريخ، لا يدخل في دائرة اللويثان!

واللويثان له مسابقاته السنوية، وجوائزه المبهرة! والكل يوظف ضمن هذا «الاتضاع المؤسس» بحسب ماركوز، الذي هو نقيض للتسامي، كيف لا، أليس التسامي مفهوماً كلاسيكياً؟! ويصبح الكاتب واحداً من آلاف المتسابقين في حلبة مفتوحة،والكاتب الذي يفوز في السباق، ينال الجائزة،يكرم، ويدلل في مهرجانات اللويثان، لمدة شهر أو نصف شهر، ثم يتحول إلى نفاية حسب

الآلية! ويلقى به مع اللجنة الفاحصة،التي يُكشف عنها، في سلة المحذوفات! فأي رواية في زمن اللويثان، وأي إبداع؟!

إن ما يتجشأه هذا اللويثان هو الخداع والأكاذيب. وصدق بودريار حين قال: «إننا نعيش في فلك الظواهر الخيالية، أو المخادعة، وأن الحقيقة ولت مثلما ولى العقل التنويري، وإن الواقع اليوم مشروط بكليته برقصة الصور الزائفة المتكاثرة» كبيض البعوض! والصفة الأخيرة من إضافتي. وإذا كانت الثقافة في القرن التاسع عشر قد عرفت بأنها نقد للدين وللمجتمع، فالثقافة اليوم، باعتقادي، ولكي لا يبقى الإنسان رهينة الميديا، وفريسة بين فكي اللويثان الجديد، يجب ان تكون نقداً لا هوادة فيه للميديا وأشباحها. الميديا التي حولت الإنسان من لاعب نرد، إلى أن يكون النرد نفسه!.

بابل الجديدة!..

لعل الليبراليين الجدد من العرب، بسبب نشأتهم على الحتمية، لا يؤمنون بأي شكل، ولا يوجد لديهم أي احتمال، بأن الرأسمالية قابلة للانهيار! فهي، برؤيتهم النقدية الجديدة، سقف التاريخ، وهي قادرة على أن تجدد نفسها وتتغلب على أزماتها بشكل دائم! وهذا بالنسبة لهم أصبح قانوناً علمياً وحتمياً غير قابل للتشكيك حتى ولو كان المشكك كارل ماركس نفسه! فما بالكم إذا كان لينين هو القائل بهزيمة هذا الوثن؟! عندها سيكون من السهل الاستهزاء بهذا النصف آسيوي (المسكين الشمولي) الذي تبين لهم أنه لا يعرف شيء من فقههم السحري حول الديمقراطية! لنفترض صحة أن الرأسمالية قادرة على تجديد نفسها، أو تهريب أزماتها، لكن إلى أي حد، وكم مرة ستفلح في ذلك؟! ولماذا لا نترك باباً للاحتمالات أو المفاجآت؟ لقد خفتت النظرية الحتمية عند معظم أتباعها، ولم يبق الكثير من اليقين عند هذه الجماعة، إلا أن اليقين (الجديد) في ديمومة الرأسمالية لم يتزعزع بل ينمو ويزداد رسوخاً، ربما بدافع النكد أو الانتقام من الماضي! ليس العيب في التحول من موقع إلى آخر، أو التبدل في مواقف

المثقفين، فهذا أمر معهود، وكما يقولون الديالكتيكيون: النظرية رمادية وشجرة الحياة في تجدد دائم. لكن، المطلوب هو حد أدنى من التناغم مع الذات، ولنترك الباب مفتوحاً للاحتمالات، فقد تعصف في وجه النظام الرأسمالي والامبريالي عواصف من الفوضى والأزمات قد يستطيع وقد لا يستطيع تجاوزها، و على الأرجح، لا يوجد نظام له الديمومة، ولا توجد قوة مطلقة، وكما قال الشاعر أبو البقاء الرندي الأندلسي: «لكل شيء إذا ما تم نقصان/ فلا يغر بطيب العيش إنسان/ هي الأمور كما شاهدتها دول/ من سره زمن ساءته أزمان..».

وقد وصلت قوة السيطرة الإمبريالية إلى حدود قصوى، والبعض يرى أنها في انحدار، وأن منظماتها تتداعى، ولم يبق منها سوى الوجه الوحشي المتخفي وراء أكاذيب وأقنعة الميديا المكشوفة، وتاريخ الإمبراطوريات يقدم لنا الدرس والبرهان، فأين إمبراطورية الفرس، والرومان، وإمبراطورية النمسا، والعثمانيون، وأي مصير آلت إليه مملكة بريطانيا العظمى التي لم تكن تغيب عنها الشمس؟! كل واحدة من هذه الإمبراطوريات كانت تهيمن على العالم ولم يبق منها سوى سطر أو سطرين في كتب التاريخ! فلماذا على سيدنا التاريخ أن يمنح تاج الديمومة للنظام الرأسمالي؟! ألأنه نظام مثالي كامل الأوصاف، أم لأن ضحاياه كانوا الأكثر عدداً؟! وللتذكير فأن هذا النظام في القرن العشرين وحده قام بحربين كونيتين قتل فيهما ما يربوا عن المئة مليون، هذا في النصف الأول من القرن، وتلا ذلك ما يعرف بالحرب الباردة ولم تكن الضحايا أقل، ولا يزال الأمر منسحباً على وحشيته إلى يومنا هذا! ألا يشكل هذا حرجاً لأصدقائنا النيوليبراليين العرب المعجبين بأمريكا وبأتباع أمريكا؟! على كل حال، لكل امرئ ما هوى أو ما نوى! وإذ نحن اليوم دخلنا في عام جديد، أطل علينا فيه المتنبئون، وأتحفونا بالتنبؤات السعيدة وغير السعيدة، عبر الشاشات العربية وغير العربية، وبما أن الأمور سائبة إلى هذا الحد، ولعلها من نعم الليبرالية والديمقراطية الإعلامية، ومن مبدأ المساواة، يحق لكل إنسان أن يتنبأ على

طريقته، وإذا كان لي الحق في ذلك، فإنني ككاتب قصة، وهاوي أساطير وحكايات وعجائب أقدم توقعاتي بكثير من الحذر والحيطة، ولا أورط نفسي بوضع سقف زمني لما أتوقع إذ تنقصني الجرأة والخبرة والمعرفة على قول ذلك، فأنا أرى: إن انفجارات فوضوية، متعددة الجنسيات، عارمة ومدمرة، أشد ما تكون في المدن الرأسمالية، يشارك فيها المراهقون، وطلبة الجامعات، وعارضات الأزياء، والفنانات، ونساء الكنبات، والهايكرز، وأعداء العولمة، وربما ينضم إليهم أتباع الديانات السماوية وغير السماوية! وإذا كانت بابل القديمة، قد انتهت حيث اختلطت وتبلبلت الألسن، سنشهد قيامة بابل الجديدة حيث تختلط الألسن والوجوه والأعراق والجنسيات والميول، ويكون هول،لا يترك مجالاً لأحد أن يشمت بأحد!.

تشاؤمية فرويد!..

حين أقرأ فرويد، وأميل إلى قراءته منذ سنوات، لا تفارقني صورة الغراب، وأتذكر بيت الشعر الذي يقول:

«ولم تعلم ببين الحي حتى — أتاك به غدافي فصيح»

لقد هزت الحرب العالمية الأولى فرويد، ومات عام ١٩٣٩ في بداية الحرب العالمية الثانية، وعايش انتصار النازية وصعود هتلر عام ١٩٣٣ وقد بلغ التشاؤم بالرجل مبلغاً جعله يرى بأن الحرب تحررنا من الوهم! ويقول تعليقاً على الحرب الأولى وقد تورط أبناء وطنه فيها وانحط قدرهم: «لم يكن مبرراً الحزن وخيبة الأمل المؤلمة اللذان أحسسنا بهما لدى رؤية هذه الأعمال غير المتفقة مع نظرتنا إلى الحياة المتحضرة والتي قام بها مواطنونا في العالم. وفي الواقع، لم ينحدر مواطنونا بقدر ما اعتقدنا، وذلك لسبب بسيط مفاده أنهم لم يرتفعوا إلى الدرجة التي كنا نتصورها». فرويد الذي «أزعج نوم العالم» باكتشافاته المذهلة على صعيد التحليل النفسي، لاسيما في اكتشافه الأبرز للاوعي ودوره في الوعي والسلوك، إذ يحرك هذا «الهو» كل شيء من وراء

الستارة، وهو مصدر الإبداع وكل شيء جميل أو قبيح!.. كان فرويد ناقداً جارحاً للثقافة الأوروبية، ويشير إلى ثلاثة جروح نرجسية كبيرة في الثقافة الغربية: الجرح الذي فرضه كوبرنيك، وجرح دارون، والجرح الثالث الذي فرضه فرويد نفسه. ويؤكد على ذلك ميشيل فوكو بتعديل آخر، إذ يرى ثمة ثلاثة جروح في الثقافة النرجسية الأوربية أحدثها: ماركس، نيتشه، فرويد. والحقيقة أن فرويد جرح نرجسية الإنسان كما فعل دارون الذي ذهب إلى أن الإنسان يتحدر من فصيلة القرود، رأى فرويد، أن في كل إنسان تعيش ميول هدامة، مناهضة للاجتماع وللثقافة! والحقيقة أن فرويد نفسه يحتاج إلى تحليل لاسيما في نظرته التشاؤمية للبشر! وهذا ما فعله زملاء له، إذ تعرض لانتقاداتهم القاسية، من: كارل يونغ، وإلفرد إدلر، وأريك فروم وآخرين، وقد اتهمه أحدهم بالتزوير والكذب العلمي، وقدم أمثلة على ذلك. واتهمته الحركة النسوية التحررية بالرجعية وبالعداء الذكوري للمرأة، لاسيما حين يتحدث عن عقدة الخصاء عند النساء ويسمهم بالدونية حيال الرجال. كان فرويد، كأي عبقري، صارماً ومتحمساً إلى درجة التعصب لأفكاره! ولم يكن يجامل أو يهادن. وسواء أكانت أفكاره صائبة أو خاطئة، وسواء ناسبتنا أم لم تناسبنا، إلا أنه من الصعب القفز فوق منظومة فرويد التحليلية والعلمية إلى حد كبير، ومكانتها في العلوم الإنسانية. ولم يقتصر عمل فرويد على علم النفس التجريبي، وعلى تحليل سلوك الأفراد كطبيب، بل خاض في تفسير الأحلام، وتأويل الفن وتفسيره، وتحليل الحضارة، والسلوك الحضاري والتاريخي، على ضوء نظريته التحليلية. وكانت تقدم له حياته الشخصية ومعايشته للأحداث راوافد متدفقة للخذلان بالإضافة إلى طبعه المتأصل بالتشاؤم، فقد انفض عنه رفاقه في جمعية فيينا للتحليل النفسي وتحول بعضهم إلى أعداء ألداء له، وهذا ما جلب له المرارة، كما أن أجواء الحرب ورائحة البارود التي كانت تزكم الأنوف في كل أوروبا لابد قد أثرت عليه ودعمت نظرته للعالم! إذ لم يقتنع فرويد بالحضارة الغربية أبداً، ولم يلجأ كغيره إلى التصوف والهروب نحو الشرق، كما فعل هيرمان هيسه، بل استل مشرط

التحليل، وأخذ بتمزيق الأقنعة، والكشف عن حجم النفاق والكذب الذي راكمه العالم، وبلغ أوجه في الحضارة المعاصرة! ولعل أقسى أحكامه وأشدها مرارة تأكيده على أن الجوهر العميق للطبيعة الإنسانية يقوم على الغرائز الأولية التي هي مشتركة بين جميع الناس، والذهن البدائي أصيل في الإنسان وغير قابل للزوال، بأكمل معنى لهذه الكلمة! وهو بهذا لم يستثن أي حضارة، ولا يعترف بأي تميز لحضارة الغرب ولا حتى بالإرث الإغريقي! ويعلن أن الحضارة المعاصرة أخفقت عن تهذيب الإنسان بالمطلق!

جسد التاريخ!..

«إن جسد التاريخ كله ليس سوى سرد مطوّل». ليست هذه العبارة لي، ولا لكاتب حديث، إنها للكاتب السوري القديم والمدهش: «لوقيان السميساطي» من القرن الثاني الميلادي، وهي ترد في سياق رسالة له بعنوان: «كيف يجب أن يكتب التاريخ؟». وهذه الرسالة، باعتقادي، ليس لها مثيل في التكامل والروعة والدقة والأسلوب الساحر، وهي تصلح لكل العصور حتى يومنا هذا! لوقيان كاتب سوري ساخر، كان متشبعاً بالثقافة اليونانية، وله ٨٠ مؤلفاً، منها: محاورات الألهة، محاورات الموتى، وأقاصيص عديدة يسخر فيها من الخرافات والرذائل التي كانت تسود ثقافة عصره. وقد عرفه الغربيون، وله قصة بعنوان: «قصة حقيقية» هي عبارة عن رحلة خيالية في الفضاء، تأثر بها الروائيون التنويريون في رواياتهم، وشبه لوقيان بفولتير عصره، إلا أن الغربيين أصروا، عن خبث أو غير خبث، على يونانية الرجل، رغم معرفتهم بهويته السورية الأصيلة، ولتأكيد يونانيته يصرون على إلحاق حرف السين باسمه ليصبح «لوقيانوس»! ويدعمون موقفهم هذا بأن لوقيان كان يكتب باللغة اليونانية، التي كانت لغة التأليف والثقافة في زمنه، وكان يتحدث السريا نية في حياته اليومية في بلده، مثل معظم السوريين. ومن المتأثرين به، وباعتراف نقاد الغرب: فولتير، رابليه، ديدرو، سويفت... وكان لوقيان يعي سوريته تماماً، ففي كثير

من المرات عندما يتحدث عن نفسه في كتاباته، يصف نفسه بالسوري، ويقول: «أنا السوري» وله كتاب: «تاريخ الآلهة السورية» وهو كتاب هام ترجم ونشر في دمشق، طبق فيه نظريته في كتابة التاريخ التي وردت في الرسالة، وهي قائمة على السمو بكرامة التاريخ عبر نشر الحقائق والوقائع بأسلوب يحقق المتعة والفائدة، بدقة، وبلا مبالغات، وبلا تلفيق وكذب، وبعيداً عن الجنوح الخيالي.. وبما أن رسالته هذه التي أرسلها إلى صديق له يدعى: «فيلون» يعبر له عن ضيقه الشديد من كثرة المؤرخين، واستسهال الكتابة ، وتراكم الأخطاء والحماقات، ما يجعل «الصمت غير ممكن بين هذه الأصوات الصاخبة» وقبل أن تتفاقم الأمور، ويصفق الجمهور للأكاذيب، وتوضع المؤلفات في بلاطات الملوك، وتغدو حقائق يستحيل تغييرها! لهذا كله يقدم نصائحه للمؤرخين، التي نلخص منها: أن تتوفر عند المؤرخ صفتين أساسيتين، تستمد من أصالته نفسها، وهما: الذكاء السياسي، والوضوح في التعبير، الأولى موهبة طبيعية، وأما الثانية فيمكن صقلها بالممارسة والعمل الدائب. ضرورة معرفة جغرافية الأحداث، والتسلسل التاريخي، ورواية الأحداث كما جرت، وأن يضع المؤرخ نصب عينيه الذين سيقرؤنه في الآتي من الأيام، أن يكون المؤرخ حراً يصادق الحقيقة والصراحة، ويروي بوضوح ما وقع فعلاً دون تهيب أو وجل، ويتمتع بالقدرة على التحليل والاستنتاج والتمييز، والشك بالمرويات، وإجراء المقارنات التي تنشط الذكاء والتنبه عند القارئ، كما يحبذ لوقيان أن يكتب المؤرخ مقدمة يشرح فيها ما سيقوله، وبعد كل هذا، يغدو السرد سهلاً طبيعياً «إذ أن جسد التاريخ كله ليس سوى سرد مطوّل. لذا وجب علينا أن نزينه بجميع ما تمتاز به القصة، وأن يكون سيره موحداً متوازياً، منسجماً مع نفسه، دون رفع أو خفض، وان يكون ذا وضوح جلي، يهب لجميع قصصه شكلاً تاماً وكاملاً..» مع التأكيد على «أن الإيجاز ضروري دوماً، بخاصة حين يكون لدينا الكثير مما نقوله، أعني أن نمر مسرعين بالأشياء البسيطة ذات الفائدة الضئيلة، كما نفيض بما يكفي حول الأمور الكبيرة..». إن نصائح لوقيان، هذه، هي نقد فني وأخلاقي للمؤرخين، وتأكيد على أن التاريخ جسد فني

سردي، أي أن التاريخ رواية، كما أن الرواية تاريخ بشكل أو بآخر! وهذه شهادة متقدمة من فيلسوف وأديب كبير عن علاقة الرواية بالتاريخ.

وإذا كان كتابنا المعاصرون ينالون جوائز مالية على الهذيان الذي يكتبونه، إذا ما قيس بكتابة لوقيان، فالجائزة الأعظم التي نمنحها لأنفسنا وللوقيان؛ هي أن نقرأه جيداً نحن السوريين على الأقل.

رحيل فيلسوف المواجهة

شخصياً، كنت أظن أن الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي قد رحل عن الدنيا منذ سنوات، إلى أن أعلن عن رحيله منذ أيام. في ضجيج هذا العالم، رحل الرجل بصمت، وقد أرادوا له أن يدفع الثمن، أو يموت منذ عقود، وقبل أن يتحقق لهم ذلك وصموه بالجنون، وأخرسوه لأنه وقف بشجاعة في وجه التيار الغربي، وضيقوا عليه الخناق، حتى حظر عليه النشر، ولم تتجرأ أي دار نشر في بلاده، التي كانت تدعى بلاد الحرية، أن تنشر له كتاباً، ولا وسيلة إعلامية أن تذكره، أو تنشر له تصريحاً أو تجري معه حواراً، وطيلة سنوات لم يذكر عنه أي شيء! حتى ظن واحدنا أنه قد مات، ويبدو أن الإعلام العربي قد تواطأ مع هذا التعتيم الجائر، وأجرى عليه حظراً! لم لا، والرجل لم يكن في أي لحظة من لحظات حياته مجاملاً أو منافقاً. بل كان رجل مواقف، شجاعاً، ومجادلاً كبيراً. متوقد وتنويري من الطراز الفريد. لقد فتحت عليه أبواب الجحيم بعد كتابه: «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية». الحملة الهوجاء ضده قادها الثلاثي الصهيوني: «برنار كوشنير» الوزير السابق، الروائي «جاك أتلي» والطبيب شوانزربرغ. لقد مارس المهرج كوشنير ضغوطاً هائلة على الأب بيير لكي يجعله ينقلب على صديق عمره! وفي كل مرة كان الأب يتراجع لصالح صديقه، الذي جمعته به مواقف عديدة وجريئة، كان كوشنير يبتزه ويحاصره، حتى بدا الرجل الطاعن بالسن، غير قادر على الصمود في وجه الضغوط الهائلة، وبدا وكأنه

ألعوبة بين يدي مبتزيه من مؤيدي إسرائيل! قدم غارودي للمحاكمة عدة مرات بسبب كتاباته، وتساؤلاته حول محاكمات نورنبرغ، وبتهمة التشكيك بالمحرقة النازية لليهود. رغم أن غارودي لا ينكر المحرقة، لكن يشكك بعدد ضحاياها. ويرى غارودي أن هدف هتلر من اضطهاد اليهود هو وضعهم كلهم خارج أوروبا، وترحيلهم إلى مستوطنة في مدغشقر، ولم يأمر هتلر بإبادة اليهود وقتلهم، بل بضرورة معاملتهم بشكل سيء، وتسخيرهم بأعمال الطرق الشاقة حتى يهلكوا من الإرهاق. ووفق حولية يهودية أمريكية، إن عدد اليهود في أوروبا خلال سيطرة هتلر لم يتجاوز الثلاثة ملايين ونصف، فمن أين جاء هتلر بستة ملايين يهودي إلى أفران الغاز؟! وغارودي في موقفه السياسي من الصراع العربي الإسرائيلي، يدعو إلى تطبيق قرارات الأمم المتحدة. ويرى أن سياسات إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة لا تؤدي إلى السلام بل إلى الحرب الدائمة، وإن هذه السياسات الصهيونية مدعمة بأساطير مختلقة، وأن فلسطين ليست الأرض الموعودة، بل الأرض المنتزعة. وتعليقاً على الحملة الضارية التي شنت على الفيلسوف، تساءل غارودي: من الذي يحكم فرنسا اليوم؟! واستشهد بما قاله الجنرال ديغول مرة، حين تعرض لهجوم بسبب موقف منه ضد إسرائيل: «لم أكن أعرف أن فرنسا صارت يهودية!».

لقد اختلف غارودي مع رفاقه في الحزب الشيوعي الفرنسي، واستقال من الحزب في مطلع السبعينات، وتحول إلى لاهوت التحرير، ثم جاء إلى الإسلام في منتصف الثمانينات، من بوابة محيى الدين بن عربي، وقال: جئت إلى الإسلام دون التخلي عن المسيحية والنظرية الماركسية. وبالفعل كان وهو شيوعياً في ظل «موريس توريز» القائد التاريخي للحزب الشيوعي الفرنسي يسعى إلى التقارب بين السماء والأرض، أي بين الكاثوليكية والماركسية، بين الدين والمادية! له مؤلفات عديدة معظمها ترجم إلى اللغة العربية، ومن أشهرها : واقعية بلا ضفاف، الوجودية فلسفة الاستعمار، البنيوية فلسفة موت الإنسان، وكتاب عن الفيلسوف الألماني هيجل، ترجمه إلى العربية إلياس مرقص. عاش غارودي قرابة

القرن، معظم حياته كانت في المواجهة الفكرية، وكان واحداً من كبار أعلام الفكر في القرن المنصرم، وإذ ننعه هنا، لأنه كان صديقاً للحق دائماً، ولكي لا نكون شركاء في مؤامرة الحظر على اسمه.

ظاهرة نيتشه

يُحار المرء مع نيتشه، هل عليه أن يحبه أم يبغضه؟! وهل هو أمام فيلسوف أم شاعر أم داعية حرب يدعوا الناس للنفير والحرب على ماضيهم وعلى أوهامهم؟! لقد اختار نيتشه أن يكون ناقداً نارياً للفكر وللحضارة وللواقع، مبشراً بإنسان المستقبل، ومنذ أكثر من مائة عام على رحيله وحتى الآن لم يخفت صوته، وظل حياً في حضوره على مدى قرن ونيف، تزداد الحاجة إليه كلما تدهورت حضارة البشر، لقد كان نيتشه مختلفاً حتى توّج من بعض الفلاسفة اللاحقين، كواحد من أبرز فلاسفة الاختلاف في تاريخ الفلسفة. تحمس له البعض ووضعه بمرتبة هيجل، ونفى عنه البعض أن يرقى إلى مرتبة الفيلسوف! ومنذ وفاته عام ١٩٠٠ إلى اليوم كتب عنه مئات الكتب ولا يزال يكتب، وقد تنبأ لنفسه بهذه المكانة عندما أصدر كتابه الشهير: «هكذا تكلم زرادشت» وفشل في تسويقه، ويقال، لم يطبع منه في طبعته الأولى سوى ستين نسخة! ولكن، بعد رحيله، انتشر الكتاب في العالم انتشار النار، ووصل إلى ربوع العرب على يد فليكس فارس عام ١٩٣٨ ومن يومها حتى الآن يطبع بشكل مستمر، وينتشر في أوساط القراء الشباب أكثر من أي كتاب آخر، والكتاب أشبه بقصيدة طويلة، أطلق فيها هذياناته المتفجرة، ودعا، بصيغة تبشيرية، إلى ديانة جديدة، ديانة الإنسان المتفوق القوي المتحرر من الأصنام والأوهام. تبدو أفكار نيتشه الراديكالية غريبة الأطوار لدى الأخلاقيين وذوي النزعة الإصلاحية، فهو لم يوفر أحداً صادفه في وجهة، ففي كتابه «أفول الأصنام» وتحت عنوان: «لا يطاقون بالنسبة لي» قدم لائحة فيها: سينكا،

روسو، شيللر، دانتي، كانط، فكتور هوجو، جورج صاند، زولا، كارليل، ستوارت مل...ووجه لكل من هؤلاء بأسلوبه الموجز المكثف أقسى الكلمات! فيقول عن دانتي: «الضبع الذي ينظم الشعر على الأضرحة» وقس على ذلك! ويتميز نيتشه في بعض كتاباته بأسلوب الشذرات الفلسفية، كما عند هيرقليطس وباسكال. ينفي نيتشه في «العود الأبدي» التقدم في التاريخ، ويرى أن كل شيء يعود ويكرر نفسه دورياً. وهو يرى أن في الإنسان بعدين، أحدهما الدنزيوسي (إنسان النشوة والانفعال) والآخر الأبولوني (التأملي)، ويرى أن القوة هي الخير، والشر هو الضعف. وكان يرى فيما يراه، وهو من دعاة الارستقراطية الفكرية، أن الديموقراطية نظام فاسد يؤدي إلى انحلال التماسك وإلى تتويج الفوضى واستحالة ظهور الرجال العظماء!. أثر نيتشه بأدباء كبار مثل: هنريش ايبسن، توماس مان، برنادشو.. وفي كتاب «التجانس الروسي» يقول توماس مان: «واقعتان تربطان ابن القرن العشرين؛ ظاهرة نيتشه وروح روسيا». ولكن انتقد البعض عدمية نيتشه وأفكاره الحادة، وقد وصفه تولستوي بالسخيف! و بعض الكتاب الروس رأوا فيه فناناً حراً مبدعاً لكن ليس فيلسوفاً! وقد كرس له الكاتب السوفيتي ستيبان أودويف كتاباً ضخماً بعنوان: «على دروب زرادشت» ترجمه إلى العربية الأستاذ فؤاد أيوب عام ١٩٨٣ وفيه تفنيد مركز لأفكار نيتشه وأبعادها، ولا ينكر مؤلف هذا الكتاب مكانة نيتشه وعمق أفكاره ونفاذ بصيرته، ويرى فيه صياداً للنفوس البشرية، محاولاً أن يفسر انجذاب بعض الكتاب الماركسيين له وذهاب البعض منهم إلى جعله قريناً لماركس! وهذا ما ينفيه هذا الكاتب ويرى أن العدمية، التي يتسم بها نيتشه، هي الحركة الأساسية لتاريخ الغرب، وهي حركة بالغة العمق، بحيث لا يمكن لانتشارها إلا أن يؤول إلى كارثة عالمية. ويرى أيضاً أن راديكالية نيتشه زائفة، وظاهرته دليل تدهور العقل! وهو هنا يتفق مع جورج لوكاش. كانت حياة نيتشه قصيرة مأساوية، كان ضعيف البنية وانتهى بالجنون «ذلك المحارب الناري العظيم المضرج بالدماء» على حد قول نيكوس كازنتزاكس.

«عش ودع غيرك يعش»

هذا المبدأ، ساد في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، وهو تعبير عن الخوف من مقدمات الحرب، بعد ذاكرة طويلة ومؤلمة من الحروب الطويلة على الساحة الأوروبية. قبل الحرب العالمية الأولى نعمت أوروبا بفترة من الاستقرار والهناء، يمكن أن تسمى فترة الهدنة أو الاستقرار، أو العصر الليبرالي، ولكن الرخو، الذي سمح للمنحى البربري أو الوحشي أن ينشب أظفاره من جديد في هناءة أهل ذلك الزمن، اللذين نعموا ردحاً من الزمن بالإبداع الموسيقي، والمسرح والأوبرا وفن الرواية والشعر الرومانسي ومدارس الرسم لاسيما الانطباعية. عن هذا المبدأ يكتب الكاتب النمساوي الشهير استيفان زافايغ في كتابه الممتع: «عالم الأمس» الصادر عن وزارة الثقافة بدمشق عام ٢٠٠٩: «كان مبدأ» عش ودع غيرك يعيش «هو المبدأ الفيناوي الشهير (نسبة إلى مدينة فيينا) هو مبدأ ما زال يبدو لي حتى اليوم أكثر إنسانية من كل الأوامر الإلزامية، وكان هذا يفرض نفسه فرضاً لا يقاوم في كل الأوساط». أنهى زفايغ هذا الكتاب عام ١٩٤٢ العام الذي انتحر فيه مع زوجته احتجاجاً على الحرب العالمية الثانية واجتياح النازية لوطنه ولمعظم أوروبا! على كل حال، وبالعودة إلى المبدأ السابق، أعترف، أنا السوري، لو أنني قرأته قبل ثلاثة أعوام لما عنى لي شيئاً يستحق التوقف عنده. لكن اليوم، وفي ظل ما يجري عندنا، بدا لي أنه يصلح مبدأ للعبور، لو أن كلاً منا يهمس به أو يردده، أو أن يوضع كلازمة أو كشعار. قد يبدو تصوري هنا ساذجاً! إذ ماذا تفعل العبارات في زمن الجنون؟! وأنا أشك في قدرتها على فعل شيء، ولكن، علينا أن لا نيأس من قوة الكلمات، فعبارة سقراط الشهيرة: «أعرف نفسك» ظلت تردد مئات السنين، حتى يقال إنَّ مدينة حران السورية كان حكماء فيها قد جعلوها نقشاً على بوابة المدينة! وكذلك

الأمر، كان شعار الليبراليين في أوروبا: «دعه يعمل دعه يمر» شعاراً تحول إلى سلوك وإلى عنوان لمرحلة من تاريخ أوروبا.

قد يكون واحدنا سوداوياً أو محبطاً لا يحب الحياة أو سئم من العيش، لكن هذا خيار فردي، ويعرف صاحبه أن للحياة قيمة، وأن الآخرين يولدون لكي يعيشوا حياتهم كاملة، دون أن يكون لأي معتد الحق في انتزاع هذه الهبة الإلهية أو الطبيعية. وقديماً قال شاعرنا: «سئمت تكاليف الحياة، ومن يعش/ ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم». وكان زهير قد امتد به العمر حتى قارب المائة عام وشهد حرباً ضروساً بين قبيلتي عبس وذبيان عرفت بحرب: «داحس والغبراء» سعى فيها زهير للصلح بين القبيلتين، وهذا دليل على إيمانه بقيمة حياة الآخرين والدفاع عنها. نحن اليوم بأشد ما نكون إلى حكمة احترام الحياة، والعمل على وقف الاعتداء عليها، ولا أذكر من القائل: «لو كانت سعادة البشرية بقتل طفل واحد لما قتلته» لا توجد مبررات لا ثورية ولا عقائدية ولا دينية لقتل الناس ووأد حياتهم، وهذا أمر في غاية الفظاعة، ومع ذلك هو يحدث على أرضنا وبين ناسنا بصورة لا يحتملها ضمير حي! فما الذي جرى لكي يخرج كل هذا الشر والاستهانة بالحياة؟! نعم نحن نتعرض لعدوان سافر فاجر لا مثيل له، حتى لا يقبله إنسان لأعدا أعدائه، وما كان ليعتقد أحد أو يتخيل أن يجري هذا يوماً على الأرض السورية التي طالما تغنينا بسماحة شعبها وتآخيه على مر الأزمان! وكيف دخلت علينا الذئاب من كل حدب وصوب حتى صارت أية جماعة في هذا العالم تخشى بل تهلع من أن يصيبها ما أصابنا؟! ولكن، ورغم كل شيء، لا يزال في السوريين حيل وقوة وبقية عقل لكي يصحوا على فداحة ما جرى لهم، ويقولوا لأنفسهم وللعالم: كفى جنوناً. ويا أخي، عش ودع غيرك يعيش.

عصر ثقافة التسلية!..

يصف الروائي الألماني الشهير هيرمان هيسه في روايته الشهيرة: «لعبة الكريات الزجاجية» التي استحق عليها جائزة نوبل،العصر الحديث الذي تشهده أوروبا من الناحية الفكرية بـ «عصر محنة». هذه الرواية التي تشكل البناء الأكثر بروزاً وهندسة في روايات هذا الكاتب، لم تحظ بشعبية كبيرة، وكثيرون من الروائيين العرب لم يقرؤوها، والبعض لم تعجبه ولم يكمل قراءتها! ويلخص هيسه هذه المحنة في: العزلة، والصراع، والتفتت، والسطحية. وبمواجهة هذه المحنة يعمل نخبة من العلماء في الرياضيات والموسيقى والفنون، إلى إقامة مجتمع نخبوي في إقليم «كاستاليا» يتزعم المجتمع الكاستالي، ويجلس على قمة النظام الهرمي للإقليم «جوزيف كنشت» بطل الرواية الذي يبتكر لمجتمعه لعبة الكريات الزجاجية، يهدف منها التسلية والترفيه من جهة وتوحيد شتات الفكر عند الصفوة التي تقود الإقليم من جهة ثانية، يعيش مجتمع كاستاليا في نظام صارم، بالغ الإتقان: «يشتغلون بالفكر ويخلصون له، لا تؤرقهم مشاكل اجتماعية ولا مالية ولا سياسية..» حتى يظنون أن مجتمعهم هو مجتمع الكمال والسعادة والنجاح! ويعتقد جوزيف كنشت أنه بلغ القمة بهذا النظام الذي ابتكره، وأن مجتمعه ينعم بسعادة المعرفة والتمتع بالموسيقى والفن، وينسى العالم خارج حدود كاستاليا، يأتيهم من خارج الحدود من يذكرهم بأنهم يعيشون في وهم خادع، يقول لهم: بلينو ديزينوري، والأب ياكوبوس بقسوة: «أنتم هنا تلعبون لعبة الكريات الزجاجية، بينما يعيش الناس المساكين في الخارج في قذارة العالم، في الحياة الواقعية، ويؤدون الأعمال الواقعية! أنتم يا أهل كاستاليا علماء أفذاذ ومتخصصون كبار في الجمال، تزنون وزن الحروف الساكنة في قصيدة قديمة، وتوجدون لذلك الوزن علاقة تربط بمسار الأفلاك! وهذا شيء بديع، ولكنه لا يزيد على أن يكون لعباً!». وتسقط الغشاوة، ويكتشف الكاستاليون الثغرة الكبرى في نظامهم، وهي الحياة الواقعية، والنقص في معرفة ماهية الإنسان، وحين يقرر كنشت أن يخرج خارج حدود مملكته إلى العالم الواقعي، حاملاً خبرته ومحاولاً تطبيقها هناك، إلا أنه يصطدم بجحيم الواقع، ويصاب بالخيبة، وينتهي

غرقاً في بحيرة جليدية! وقبل أن أنهي الكلام عن الرواية، أعتقد أن محاولات تلخيص الروايات العظيمة فيه إخفاق وتجن، ولا يصلح لنقل مضمون أو جماليات الرواية.

تشير الرواية إلى ثلاث مراحل فكرية، أو عصور مرت بها أوروبا الحديثة، هي: القرن الثامن عشر، عصر ثقافة التسلية، عصر يقع في زمن ما بعد ٢٠٠٠م وهو الزمن الذي تجري فيه أحداث الرواية. أي حاضر الرواية هو المستقبل إذا عرفنا أن الرواية ظهرت عام ١٩٤٣ أما لماذا القرن الثامن عشر؟ فهو على حد قول الدكتور مصطفى ماهر مترجم الرواية إلى العربية وواضع مقدمتها: القرن الثامن عشر هو القرن الذي اجتذب هيرمان هيسه، لأن هذا القرن كان يجمع بين حركة التنوير العقلية، وحركة الصوفية، وكانت وحدة الثقافة ما تزال قائمة، وكادت الموسيقى على يد باخ تصل إلى قمة لم تتمكن من وصولها فيما تلا ذلك، وهيسه الصوفي كما الصينيين القدماء يرون أن تدهور الموسيقى علامة مؤكدة على تدهور الحكومة والدولة، والموسيقى هي تآخي العقلية مع الصوفية. أما العصر الذي يطلق عليه هيسه: عصر صحافة التسلية، هو عصر الثورة التكنيكية، وعصر الحربين العظميين، يتميز بالسطحية، رغم أنه لم يكن مجرداً من الفكر، ولم يكن فقيراً إلى الفكر، لكنه لم يكن يعرف كيف يفيد من فكره أو لم يعرف السبيل إلى منح الفكر المكان والوظيفة المناسبين له في نظام الحياة والدولة. على ضوء ذلك، وفيما نشهده من صراع وتفتت وسطحية في عالمنا اليوم، ونحن نعيش عصر فوضى المعلومات وثورة الاتصالات، ألا يحق لنا أن نقول إننا في محنة، ونعيش عصر ثقافة التسلية بكل أبعادها و تفاهتها؟!.

كيف تتصحر العقول؟!

.. أزعم أنني كنت من المتابعين للمجلات الثقافية العربية، على مدى ثلاثة عقود على الأقل، واحتفظ حتى الآن بما هو هام منها، وعندي مجلات قديمة لا أستطيع التفريط بها، وأحياناً أعود لقراءتها كما لو كانت جديدة! أذكر منها: الفكر المعاصر التي رأس تحريرها زكي نجيب محمود، الكاتب رأسها صلاح عبد الصبور، بعض الأعداد من مجلة القصة رأس تحريرها أحمد حسن الزيات، القاهرة، أدب ونقد.. ومن المجلات اللبنانية، مجلة شعر، ومواقف، والطريق، والفكر العربي المعاصر لمطاع صفدي، والفكر العربي التي رأس تحريرها حسن قبيسي، ومجلة أقلام العراقية، وبعض الدوريات الكويتية الرصينة، والآداب الأجنبية السورية، وما شابه ذلك من المجلات العربية التي لا تنسى.. كانت الكتابة في هذه المجلات تعد ميزة تحسب للكاتب، وتسجل في سيرته! انزوت هذه المجلات، وطغت عليها المجلات الخليجية، ولا بد من الاعتراف أن المجلات الخليجية كثيرة ومتنوعة، وفخمة الطباعة، وحسنة الأجور للكتاب، ولا أريد أبداً أن أسيء الظن بمن يديرونها ولا بالقيمين عليها، وقد تكون أهدافهم نبيلة، وهذا أغلب الظن عندي. استكتبت الصحف والمجلات الخليجية كتاباً كباراً من العالم العربي، وبعضها تعاقدت معهم ككتاب أعمدة، وكان من المأمول أن يرفع هؤلاء الكتاب من مستوى هذه الصحف، احتراماً لأنفسهم وللأجور التي يتقاضونها، ولكن للأسف هذا لم يحدث! فلا قضية تستحق أن تقرأ، ولا أسلوب، لا شكل ولا مضمون، عبارات إنشائية! وتحار، هل هي خواطر مبتدئين، أم هلوسات عجزة بلا خيال؟! تقرأ كأنك تزدرد الرمل! سخف في سخف، كتّاب جفّت عقولهم، روائيون وشعراء من المشاهير، من بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وعلى كل عمود صورة شخصية ملونة، وكأن الصحيفة، دفعاً لأي شك أو التباس أو استغراب، تؤكد بالاسم والصورة إن ما هو مكتوب هو للشخص الشهير الذي تعرفونه، وليس الأمر تشابهاً بالأسماء! ولمن يريد أن يتأكد من ضحالة ما يكتبون، فما عليه إلا أن يتابعهم في أعمدتهم. هل المشكلة فيهم، أم في المكان الذي يعملون فيه، أم هو المال الذي فتنهم، فخربت النفوس،

وتصحرت العقول؟!لماذا يبدو كل شيء رديء هناك، تفوح منه رائحة الاسترزاق؟! رغم كل أشكال الإبهار والفخامة! هناك لا يبقى المرء على حاله أو على ما كان عليه أو كما كنا قد ألفناه، إنه يتغير لكن نحو الأسوأ! مهما كانت مكانة الشخص مرموقة، عندما يرتهن أو يستدرج مأخوذاً بجاذبية الرفاه، يجد نفسه بالتدريج قد فقد ملامحه، وصوته، ولغته، ومكانته، وصار من الرخويات أو الضفادع ذات النقيق على أطراف المستنقعات! قد يقول قائلهم، إنه يكتب هناك بحريته، ويقول رأيه في أي منبر، دون أن يتدخل أحد في ما يكتب. وهذا القول فيه خداع للذات وللآخرين، صحيح أن عرب الخليج من المثقفين يتمتعون بتهذيب غالباً، ولا يملون على الكتاب المستضافين، ولا يوجهونهم، ولكن، يقول الناس عندنا: «اطعم الفم تستحي العين..» فأنت، أيها الكاتب، تم استدراجك، وذهبت كالمسرنم، إلى حيث يقتلون الجياد بالتخمة، أو ستجد نفسك عالق في دبق يصعب التخلص منه، ولو قيض لك ذلك ووخزتك صحوة من ضمير، ستجد نفسك أنك كنت في مكان آخر أنت فيه غريب عن نفسك وعن ماضيك! ربما تنجو بنفسك أو تمعن في التورط! أذكر أن للروائي السوفيتي جنكيز أيتماتوف قصة يتحدث فيها عن فتى تخطفه قبيلة من الرعاة من بين يدي أمه، يُحلق شعر رأسه، ويُشد على رأسه قناع مصنوع من جلد الإبل، ممرغ بالدهن، يبقى على رأس المخطوف حتى يلتصق تماماً بجلدة رأسه، وهي حالة مؤلمة للغاية، حين ينبت شعر الرأس ويصطدم بالقبعة، يرتد إلى داخل الرأس، وينغرس كالإبر في الدماغ! ينتج عن ذلك أن يفقد الفتى ذاكرته وتُمسح تماماً، ثم يُعاد تأهيله، وتلقينه بمعلومات جديدة، ويُطلق لرعي أغنام القبيلة، بولاء مطلق لحالته الجديدة! وفي الختام يلتقي هذا الولد بأمه التي تبحث عنه ، فيقتلها!.

ما بعد الصدمة

يشكو البعض، مصدوماً، مما يسمعه من بعض الكتاب والمثقفين السوريين والعرب عموماً! وهو صادم بالفعل ومخيب إلى درجة تفوق التوقعات في مستوى الانحدار والسفاهة والابتذال والسطحية والهوان! لكن، في اعتقادي لم تعد المشكلة مشكلة مثقفين أو رموز ثقافية، وهم بالأساس ممخرقون، تابعون وضحايا المؤثرات والمغريات التي اجتذبتهم أو استدرجتهم منذ سنوات، بل المشكلة تكمن في الثقافة برمتها، الثقافة التي أنتجت هؤلاء وعومتهم، ولم يكن لهم أقدام ثابتة أبداً. هذه الثقافة على مدى قرون من الزمن، عجزت عن إنتاج نهضة حقيقية، إذا استثنينا الومضات المأساوية التي وئدت في مهدها، ولم تجد لها حاضنة دافئة ومستقرة أبداً! وهكذا تبددت الأصوات الأصيلة والعميقة وذهبت أدراج الريح! منذ محنة الطبري وخيبة أبي حيان التوحيدي وحصار أبي العلاء المعري إلى زمن الاغتيالات والقتل في عصرنا، والفكر المتعصب يسود ويراكم انتشاره أفقياً وعمودياً إلى يومنا هذا! وأخشى بعد كل ما جرى أن تكون هذه الثقافة أفقنا ومستقبلنا أيضاً إذا لم نصحوا ونمتلك الجرأة على محاكمة هذه الثقافة التي هادنَّاها وصمتنا عليها كثيراً حتى أصبحنا نستمد شرعيتنا منها! فهي التي تراقب، وتتحكم وتجيز وتمنح الجوائز والشهرة والامتيازات، وتستطيع أن تتلون وتنافق وتغير أقنعتها مع المتغيرات، ومع أي نوع من أنواع السلطات وعلاقات القوة دون أن تتخلخل، ليس لأنها مرنة وديناميكية على الإطلاق، بل لأنها ثقافة نفاق وتختزل طاقات تبريرية لا حدود لها! هذه الثقافة التي أنتجت الفتن والاقتتال والاحتراب والكذب واللاأخلاقية، جعلتنا ندفع الثمن غالياً، وقد يقول قائل، إننا نبالغ إذا ما حملنا الثقافة كل المسؤولية عما يجري، وإننا نتجاهل تاريخنا الحضاري والصفحات الناصعة من هذا التاريخ! ونقول إن كل العلاقات والبنيات الفوقية والتحتية هي نتاج الثقافة، وكل شيء يتحول بالمحصلة إلى ثقافة: العادات، والحياة اليومية، والعلاقات فيما بين الناس، وحتى الفساد يمكن أن يتحول إلى نمط ثقافي، ويتجلى كل ذلك في اللغة وفي التفكير والممارسة، وما اللغة البذيئة السائدة بين الناس إلا تعبير عن التردي الرهيب!.. وإننا

سمحنا، ويا للأسف، للثقافة الرديئة أن تحجب ما هو ناصع ومضيء في ثقافتنا الجريحة، بالصمت أو بالتواطؤ، ولم نجن سوى الحصاد المر. هذه الثقافة بكل تشعباتها الصلبة والرخوة تحتاج إلى النقد والتجريح بلا هوادة، وتجريحها لا يعني تجريح الذات بل على العكس هو تشخيص للمرض المزمن وخطوة في طريق علاجه. والثقافة العربية السائدة ثقافة وبائية بعد أن تفسخت، وإذا ما سمح لها أن تعيد إنتاج نفسها فنحن أمام قرون قادمة من الظلام الدامس! عرفت أمم كثيرة الهزائم والأزمات وخرجت منها بالمراجعات والنقد المرير والمصارحات وبالقطيعة أحياناً مع ثقافة وصلت إلى طريق مسدود، وهذا ما فعله اليونانيون بعد هزيمتهم أمام الفرس، وما فعله الأوربيون بعد حرب المائتي عام، ثم بدء عصر الأنوار في أوروبا! نعم بالإمكان التخلي الإرادي عن ثقافة لم تعد تجدي بل تلحق الضرر الفادح بمكوناتها كافة! وإذا كنا حريصين وغيورين حقاً على ثقافتنا وعلى هويتنا الحضارية، لا بد من وقفة جريئة أمام مرآة الذات الجمعية والفردية، والكشف بلا تردد أو مراءاة عن مكمن الداء، وأن نعترف أننا ورثنا ثقافة معاصرة غير صالحة للتوريث بما هي عليه. ولنحاول أن نكف عن هذه النرجسية المقيتة والاعتقاد الساذج بأن كل ما هو معطى ثقافي يحمل قيمة في ذاته. الثقافة تتجدد وتقاوم الموات بجرأتها على قول الحقيقة مهما كانت قاسية، وبقدرتها على نقد ذاتها وتجاوز معوقاتها. ولا أعني هنا ثقافتنا التاريخية فقط بل ثقافتنا المعاصرة التي توهم مترجموها أنهم يتفاعلون مع الحداثة! وإلا ماالذي يفسر هذه الفوضى والاضطراب في الرؤيا والمواقف عند يساريين يقبعون في قعر الرجعية ويتلقفون بشهية ما يلقى عليهم من فتات البترودولار رغم معرفتهم المؤكدة بقذارة المصدر، وقس على ذلك؟! لقد تلقينا الصدمة الكبرى فهل يعقل أن يكون ما بعدها كما ما قبلها؟!

مأزق التخلف

عندما صدر كتاب الناقد الأمريكي مارشال بيرمان «حداثة التخلف» أثار ضجة كبيرة في أوساط الثقافة العالمية باعتباره يقدم مفارقة من مفارقات الحداثة، ويخلق التباساً بالجمع بين نقيضين، وكان قد سبقه إلى ذلك على شكل إشارات الشاعر المكسيكي أوكتافيوباث عندما أشار إلى أن الحداثة في ذهن دعاتها تتضمن التقدمية والرجعية معاً! وبيرمان في مقدمة كتابه يشير إلى تعايش الخيالي والواقعي في حيوات أبرز الكتاب الحداثويين، ويقول: «إن تكون حديثاً يعني أن تعيش حياة مفعمة بالمفارقات والتناقضات، وأن تخضع لهيمنة التنظيمات البيروقراطية الهائلة التي تستطيع أن تتحكم بسائر التجمعات والقيم وأن تدمرها في أكثر الأحيان». أي، أن تكون ثورياً ومحافظاً في الوقت نفسه. ويتفق هذا الكاتب مع أكتافيوباث في أن أحد شروط الاتصاف الكامل بالحداثة هو أن تكون معادياً للحداثة! ولكن ليست هذه الأفكار موضوع نقاش هنا، بل هي مجرد مدخل للحديث عن تخلفنا المركب، نحن سكان هذه المنطقة في زمن تقحم التكنولوجيا، وكيف أن أحدث التقنيات وأرشق العقول والمهارات، والطاقات الشابة عندنا توظف لصالح التخلف! ولا يتسع المجال هنا للبحث في أسباب التخلف الاجتماعي الذي يجعل مجموعة من الأوهام الماضوية، التي انقضت منذ عشرات القرون تتحول إلى أولويات، وإلى محفزات للتدمير الذاتي؟! حتى تكاد هذه الأفكار تشبه القماشة الحمراء التي يلوح بها مصارع الثيران للثور في حلبة المصارعة! وبهذا المأزق التخلفي، نثبت أن كل التجارب والمآسي لم تعلمنا شيئاً، وأن التعليم والتضحيات والجهود والأموال التي أنفقت على تنمية الإنسان عندنا تتبدد في لحظة واحدة! بعض «الصيادلة وأطباء الأسنان والمزارعين» كما وصفهم ساخراً الرئيس الأمريكي باراك أوباما منذ أيام، ينخرطون إلى أبعد مدى في هذا الهيجان الشامل! وبغض النظر عما قاله أوباما، ألا يعني انفجار هذا العنف الجنوني في المجتمع، وتدمير كل المنشآت، وقتل الكوادر، وكل شيء، تحت رايات وشعارات غير قابلة للعيش، إننا في مأزق كبير؟! لمصلحة من يجري كل ما يجري؟ هل هو من أجل إصلاح حاضرنا؟! هل هو من أجل

الحرية والكرامة؟! وهل هذا الطريق يوصلنا إلى الحرية والكرامة؟! ونحن نشهد عشرات الفصائل والميلشيات تتقاتل فيما بينها وكل منها ينتمي إلى جهة خارجية، وتلتقي بشكل سافر مع استخبارات دول معادية للوطن وللشعب وتاريخها حافل بالجرائم! لقد هدر هؤلاء كل شيء، بدءاً من الحياة الإنسانية لأهل وطنهم، طالوهم أفراداً وجماعات، أطفالاً ونساء وشيوخاً، وأعملوا فيهم الذبح والشنق والحرق والرصاص! ولم ينتهوا عند حد. هجروا الناس من بيوتها وقراها وشردوهم في أصقاع الأرض بعد أن كانوا ينعمون بالسلام الاجتماعي والحياة الآمنة وصاروا في مخيمات اللجوء، كالكرام على موائد اللئام يستجدون المأوى ولقمة الطعام! وفرّطوا بسيادة بلادهم وشرّعوا حدودها للغرباء، يطردون السكان الأصليين ويستوطنون مكانهم! لم يشهد التاريخ في أشد مراحله سواداً ما شاهدناه على يد هؤلاء الذين ليسوا مجرد جهلة وحمقى ومغفلين، كما يطيب للبعض أن يصفهم، وإذا اكتفينا بهذه الأوصاف والشتائم نقوم بطمس الحقيقة وإخفاء الواقع. حقيقة الأمر، يوجد في صفوف هؤلاء: متعلمون، خبراء سلاح، مخططون، يجيدون استخدام الدعاية ويجيدون صناعة «عقيدة التوحش» الجاذبة لعدد من الشباب، ويستخدمون أنواعاً حديثة جداً من الأسلحة وأجهزة الاتصالات التي تزودهم بها الدول الداعمة لهم، وخلفهم فقهاء، و مؤيدون حداثويون يروجون لهم ويبررون أفعالهم، ويشرف عليهم رجال ونساء من الاستخبارات الدولية! وبغض النظر عن التحالف الدولي المزيف والذي يخفي مآربه وأهدافه بدعوى محاربة الإرهاب! نحن نواجه على أرضنا ظاهرة إرهابية فرضت علينا، يتصدى لها جيشنا باقتدار وبثقة بالانتصار، وبما أن لهذه الظاهرة ثقافتها وأدواتها، تحتاج أن تواجه بعمق وبجدية وأن يستنفر لها أخصائيون بعلم النفس (العسكري والاجتماعي) يضعون الخطط المضادة لأيديالوجيتها المتخلفة.

محاكمة سقراط الجديدة!

منذ أيام أعلن في اليونان عن إعادة محاكمة سقراط! وصدر الحكم الغيابي، بتبرئة الفيلسوف بعد حوالي ٢٤٠٠ عام! من المدهش أن تفتح اليونان هذا الملف، الذي يثير الأسى، وهي تمر اليوم بظروف صعبة! ربما أرادت أن تقول للأوروبيين، لا تنسوا أن المدنية الأوروبية والغربية، وريثة فكر سقراط والفلسفة اليونانية. وقد تحتاج الشعوب المجروحة أن تذكر، لعلّ الذكرى تنفع!

عام ٣٩٩ق.م مثل سقراط أمام المحكمة في أثينا، وهو في السبعين من عمره، وواجه تهمة الإلحاد، وإفساد شبيبة المدينة. وقدم سقراط مرافعته أمام ٥٠٠ مواطن، ونشر أفلاطون هذه المرافعة في كتابه: «الدفاع عن سقراط» إلا أن المحكمة حكمت عليه بالموت متجرعاً كأس السم!

ولد سقراط سنة٤٧٠ ق.م في ضاحية من ضواحي أثينا، من أب نحات وأم قابلة، اشتغل في صباه نحاتاً كأبيه، ثم عني بالإرشاد الأخلاقي، وكان ينادي بالرجوع إلى حياة الطبيعة والفطرة. كان سقراط،كما يوصف، قوي الجسم، قبيح الوجه، لكنه كان وطنياً مخلصاً وشجاعاً ومحدثاً بارعاً. وكان يؤدب الناس مجاناً، ولم يترك آثاراً مكتوبة، وما نقل عنه من تعاليم ومحاورات دونها تلامذته، وأشهرهم أفلاطون الذي حزن عليه أشد الحزن، وسخر من الديمقراطية التي عدها مسؤولة عن محاكمته والحكم عليه. أثر سقراط بشباب أثينا وسحرهم، واتهم الشعراء بأنهم لا يفقهون ما يعملون، ولام السياسيين واعتبرهم سبب الانحطاط في المدينة، فتألب عليه خصومه واتهموه بالإلحاد، وبإفساد الشباب وزعزعة عقائدهم السائدة. سجن وحكم عليه بالموت! وتجرع السم ومات سنة ٣٩٩ق.م . ومن المؤكد أنه لم يقاوم، ولم يهرب، ولم يدافع بجد عن نفسه، بل كان يتهكم على القضاة ويستفزهم! مما دفع البعض للاعتقاد أنه كان ينوي الانتحار، أو أنه كان يريد الموت ويشتهيه! لقد يسر له تلاميذه سبل الفرار من السجن ومن أثينا، إلا أنه رفض الأمر احتراماً للقانون.

سقراط الذي قال عنه شيشيرون: إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض. خلافاً لمن سبقه من الفلاسفة اليونانيين، عني بالإنسان بالدرجة

الأولى، وهو الذي دعا الإنسان لكي يعرف نفسه! ويرى أنه ينشأ عن معرفة الإنسان لنفسه طريقة مزدوجة ذات وجهين: وجه سلبي هو التهكم، وغايته إنقاذنا من الخطأ، وتنقية ضمائرنا حتى نصبح متهيئين لتلقي الحقيقة، ووجه إيجابي، وهو التوليد، وغايته إيصالنا إلى الحقيقة، والحقيقة لا تكتشف إلا في نفوسنا. ويقول سقراط: «إن مهنتي كمهنة القابلات، غير أنني أسعى إلى خلاص الرجال، والتوليد الذي أمارسه، يُعنى بتوليد العقول لا الأجسام. وكان لسقراط طريقة منهجية في الحوار، تقوم على السؤال والجواب، يستنطق فيها السائل، الذي يبدو أنه لا يعرف شيئاً عن القضية المطروحة، من الطرف المحاور، ليرتقي معه إلى لب المسألة وجوهرها!..

إن محاكمة سقراط سجلها أفلاطون في نثر أبدع من الشعر، كما يقول «ول ديورنت». في المحكمة التف حوله المخلصون من تلاميذه، قال مخاطباً كريتوس: «دعهم يحضرون السم ياكريتوس» وتجرع كأس السم بشجاعة، وراح يتمشى كي يسري السم في عروقه، إلى أن استلقى على الأرض، وكانت كلماته الأخيرة إلى كريتوس: «أنا مدين بديك إلى أسكيبيوس، أرجوك ألا تنس دفع هذا الدين». بعد ٢٤ قرناً على هذه المحاكمة، والتي كتب عنها الكثير من الروايات والمسرحيات، وهاهي تعود الآن من جديد لتؤكد ما كان يتوقعه سقراط بأنه سيبقى حياً بعد موته، وستكون لطخة عار في تاريخ ديمقراطية أثينا التي لم تكن تعجب سقراط من أي وجه!

مدنية الغرب!

كثيرة جداً مآثر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ومن بينها واحدة سمعت بها منذ زمن طويل، واستيقظت في ذاكرتي منذ أيام، تفيد أن الخليفة، حين كان جيش المسلمين يحاصر مدينة شمال حلب كانت تحت حكم الرومان البيزنطيين، قد وصلته تقارير عن المآسي التي لحقت بأهل هذه المدينة جراء

الحصار، فأمر بفك الحصار عنها، واستن شرعة كانت جديدة أن تعمم على العالم كله، بأنه لا يجوز محاصرة المدينة أكثر من شهر، وإذا لم تستسلم يجب تركها تفادياً للمآسي الإنسانية! هذه واحدة من قيم الإسلام ومدنيته التي يحق لنا أن نعتز بها. وفي تاريخنا مواقف كثيرة من هذا القبيل، منها وصية الصّدّيق لجيش الفتح، بألا يقطعوا شجرة أو يقتلوا مُدبراً أو امرأة وألا يمثلوا بأجساد. وكذلك وصية علي بن أبي طالب للأشتر حين ولاه على مصر، أن يرفق بأهلها، فالناس إما أخوة في الدين أو أخوة في الإنسانية. وصالح بن مرداس فك الحصار عن معرة النعمان كرامة لشيخها الضرير وحكيم الزمان أبي العلاء المعري الذي خرج ،متردداً، ليتوسط لأهل المعرة عند صالح. ما يدفعنا للحديث عن الحصار هو رغبة الغرب والنظام الدولي، الذي تقوده دولة تاريخها حافل بالانتهاكات وتأسست على الجريمة والاغتصاب، يدعي الإنسانية، في فرض عقوبة الحصار على الدول التي ينقم عليها،لأنها ترفض أن تنصاع لإرادته! لقد فرض الغرب عقوبات على كوبا وعلى العراق وعلى إيران وعلى غزة، واليوم يفرض الحصار علينا نحن السوريين! وكانت تجربة سيئة للغاية وفاشلة،لا تؤدي إلى ما يؤملونه منها، بل هي تستفز الشعوب، وتجعلها تتماسك، وتعمق الكراهية، وأودت بحياة مئات الألوف، بل الملايين من السكان، دون أن يكترث سياسيو الغرب أو يتعظوا! إذ الحصار الذي يفرضه الغرب يستمر لسنوات، ويتم بكل أشكال العنجهية ومنطق القوة الصلف والوقح، يقطعون فيه كل شرايين الحياة عن الدولة المحاصرة، يريدون لها أن تئن وتستسلم، يمنعون عن شعبها الغذاء والدواء والتكنلوجيا اللازمة للاستمرار في الحياة الإنسانية، ويدمرون اقتصادها، لكي تضعف هذه الشعوب، ثم ينقضوا عليها بجيوشهم كالوحوش الكاسرة، كما فعلوا مع العراق! إن هذه السياسات لا أخلاقية ولا تليق بالمدنية، ولا تمت إلى الحضارة، بل هي وصمة عار، لو كان ثمة نخب ثقافية حقيقية في الغرب،لوقفوا في وجه هذا النوع من الحروب القذرة، وقادوا المظاهرات ضدها حتى تزول من سلوك العالم نهائياً. ولكن، للأسف يتكشف يوماً بعد يوم، أن

العالم الغربي يكاد يخلو من المفكرين الأحرار، وإذا وجدوا فهم قلة محاصرة لا حول لها ولا قوة أمام تحكم الميديا الامبريالية التي حولت المثقفين إلى موظفين يبررون سياسات بلدانهم. ما أحوجنا اليوم إلى أمثال سارتر ومالرو وجان جينيه وبرتلد رسل وجارودي وسوزان سونتاج، و(ريجيس دوبريه وهربرت ماركوز) قبل تدجينهما. إن عالمنا اليوم عالم بلا منطق بلا ثقافة بلا معنى، يفتقر إلى الروح النقدية والاعتراض، يقوده سياسيون تافهون لا تاريخ لهم، وليست لهم هوية، وهو لا محالة ذاهب إلى الدمار، إذا لم ينبثق من وسط هذا الخراب، قوى جديدة تعقلن هذا الجنون وتوقفه عند حده، وتضع للعالم قوانين جديدة أكثر إنسانية. هذه السادية في السياسة الغربية، نلحظها في تصرفات السيدة كلنتون وفابيوس وهيغ وكل هذا الرهط السخيف السابق واللاحق، وتوابعه من الحكام، ومن مشيخات العار، الذين يتبطرون بجرائمهم، وبهيمنتهم على المنظمات الدولية البالية، ويهددون بالحروب متناسين أزماتهم الداخلية الخانقة! أليس هذا دليل صارخ على الجنون أيها المثقفون في بلدان الغرب؟!

مرتزقة المنطق

«مرتزقة المنطق» وصف أطلقه الناقد الأمريكي المرموق كريستوفر نوريس على مفكري ما بعد الحداثة، من أمثال الفرنسي بودريار، وليوتار، وفيش، ورورتي، وفوكوياما وغيرهم من أتباع ما يعرف بالانعطافة اللغوية، وهؤلاء لهم أتباع ومسحورون بهم عندنا نحن العرب وفي بعض أنحاء العالم.

نورس يشن هجوماً مركزاً على هؤلاء، ويضعهم في مواجهة نزعة التنوير التي يتضمنها النقد، فهم أصحاب نظريات لا نقدية بل تبريرية تعمل بشكل مأجور على تكريس الهيمنة. ينطلق نوريس في نقده لهؤلاء من موضوعة الحرب على العراق، باعتبارها كانت بؤرة موضوعية للصراع بين المثقفين في تياراتهم الجديدة. ويعتمد الناقد على التفكيكية في تفكيك آليات الخطاب ما بعد

الحداثوي، ويبين كيف تتحول معهم الوقائع إلى سخرية، والحقيقة إلى ألعاب لغوية! فالواقع، حسب زعمهم، مشروط بكليته برقصة الصور الزائفة، وما من جدوى ترتجى من انتقاد الظواهر الزائفة! فالحرب عندهم مجرد كلمة، دلالة عائمة ، فارغة من أي محمولات أو زخم إجرائي له صلة بالعالم الحقيقي! فحرب الخليج، مثلاً، هي حرب مابعد حداثوية وليست حرباً حقيقية، هي مجرد شيء ملفق أفرزه زيف الإعلام وخطاب ألعاب الحرب! ويرى هؤلاء المزيفون أن سياسة الردع الأمريكية في الأربعين سنة الماضية، قد فعلت فعلها، بحيث أصبحت الحرب مستحيلة إلا بوصفها جزءاً من ظاهرة خطابية، وهذا مضمون مقال كتبه بودريار ونشر في الصحف الأمريكية قبل الحرب التي قادتها أمريكا على العراق بأيام، بعنوان: «حرب تلفزيونية» وأن الحرب على العراق لن تحدث إلا على الشاشة، وكل ما رأيناه وسمعنا به هو مجرد خدعة! ولم ينفرد بودريار المنظر الأشهر لما بعد الحداثة بهذا الرأي الخطير بل أيده مجموعة من المثقفين والتلاميذ، وأثار جدلاً منقطع النظير في أوساط النخب العالمية آنذاك، والذين أيدوا الحرب الامبريالية وجدوا في المقال مخرجاً لورطتهم الأخلاقية الناجمة عن حجم الدمار والفظائع التي نجمت عن القصف الأمريكي، الذي أخذ طابع الاستعراض للقوة من جهة والترويج للسلاح الأمريكي من جهة ثانية! يشكك نوريس في نزاهة مثل هذه الأطروحات التي يتم تبنيها من قبل مراكز الهيمنة العالمية! أي ثمة نوع من التجنيد الأيديالوجي الذي يخدم هيمنة الولايات المتحدة على العالم، فأتباع هذا التيار يرون أن الواقع هو محض ظاهرة خطابية، ونتاج شيفرات متعددة أو ألعاب لغوية أو نظم إشارية! وتكون وفق منطقهم كل الحروب كارثية إلا الحروب الأمريكية فهي خالية من الجرائم لأنها خدع سينمائية لا أكثر! ويرى نوريس أن هذا التيار يستند معرفياً على تحليلات ميشيل فوكو لسيرورات: (المعرفة/ السلطة) وإلى التاريخانية الجديدة التي تختزل التاريخ إلى ميدان متصارع من الخطابات الأيديالوجية، ويستندون إلى فهم خاطئ وقراءات مغلوطة لجاك دريدا، لاسيما مقولته الشهيرة: «لا شيء خارج

النص»، ويجهد نوريس إلى فك الارتباط بين هؤلاء التبريريين العدميين وبين دريدا التنويري النقدي. بودريار وأتباعه يدعون للتصالح مع المعطى الجديد للقوة المهيمنة عالمياً ويروجون لها، وهؤلاء المثقفون يتحدرون من صفوف اليسار مثل بودريار وليوتار الذين يعتقدان أن النظرية تقف ضعيفة الحيلة وعاجزة على أن ترتقي إلى أي نوع من أنواع المقاومة النقدية الفعالة، بينما هي قادرة على تقديم العون للمعتقدات التي تخدم أيديالوجيا الهزيمة! وأخطر ما في هؤلاء اليساريين السابقين هو حقدهم الشامل لكل قيم الفكر الإنسانوي! وأتباعهم المملون عندنا يستهجنون مفاهيم مثل: الضمير، الحكم الأخلاقي، الحقيقة، الواقع، المسؤولية .. فهذه مفاهيم خشبية أو بائدة أكل عليها الزمن! وتتأتى جاذبية هذا الفكر التشاؤمي الأدبي المنحى، عند بعض المثقفين العرب المنكفئين، من بعض المصطلحات الأدبية الغامضة، ومن الأيديالوجيا الجمالية التي يبرع كتاب مابعد الحداثة، وأغلبهم فرنسيون، في ابتكارها!

وفي مواجهة هذا التيار الذي يضع البلاغة فوق العقل والخيال فوق الحقيقة، يؤكد نوريس على البعد الأخلاقي النقدي، ويخلص إلى القول: «غالباً ما تترافق الفلسفة الرديئة مع السياسة الرديئة» وما بعد الحداثة في نظره هي فلسفة رديئة على كل الصعد، ولعل أخطر ما فيها هي أنها انتهت إلى التبشير الشمولي، وهي التي كانت تدعي أنها ضد الشمولية التبشيرية، وضد الأمل دائماً!

معذبو الأرض

لا صوت لمعذبي الأرض في هذا الزمن، كأنهم دخلوا في التيه! هل تحطمت الآمال، هل خدعوا أم خانوا أنفسهم؟! في القرن الماضي كانت صرخة المعذبين قوية وفاعلة، وشغلت فضاء ثقافة قرن بالكامل، شارك فيها الشعر والمسرح والروايات والفنون ووسمت القرن العشرين بطابعها، وأضفت عليه عمقاً ومعنى، فكان قرناً من صراع الأفكار والعقائد والأيديولوجيات، وكان الطابع العام

الذي يطبع التفكير العالمي هو التعبير عن صوت هؤلاء المخنوقين عبر العصور، الفقراء الذين ينحاز إليهم كل فكر حر وتقدمي، وكل مضمون ثقافي، في ذلك الزمن كان الصراع واضحاً، والأهداف واضحة أيضاً، إذ خرج من بين الفقراء من يعبر عنهم بأشكال مختلفة، وكل أدب لم يعبر عن صوت المعذبين عد أدباً رجعياً أو برجوازياً، ووصم بأنه يناصر أعداء الشعوب ويقف عائقاً في وجه التحرر، لقد نجح الفقراء وأبناؤهم في أن يفرضوا صوتهم في الثقافة على مستوى الكون، وقدموا نماذج باذخة في الإبداع، وفرضوا حالة عزلة على أدب الضفة الأخرى الذي وصف باللامبالاة، والتعالي، أو الأدب الفارغ أو أدب الصالونات، قابله بقوة أدب ملتزم بالقضايا الاجتماعية. اليوم تنقلب الصورة بشكل دراماتيكي، وبدا وكأن الفقراء قد خرجوا نهائياً من حلبة الصراع، وانتصر (الانعزاليون) الذين يرسخون يوماً بعد يوم انتصارهم دون رحمة، وتم تسفيه كل رموز الشعر والأدب والفنون التي كانت تعبر عن المعذبين، وفي عملية تصفية حساب مستمرة، أجتذبت عدداً من الخونة ذوي أنصاف المواهب إلى التيه، وبدا وكأن الفقراء يخونون أنفسهم! ويكفي أن تصف كاتباً، مهما بلغ إنجازه، بالمباشرة حتى تقضي عليه نهائياً! أعظم الروايات والقصائد والمسرحيات في القرن الماضي تم سحبها من الذاكرة والتداول بحجة أنها تقريرية أو مباشرة، وتم تعويم كل ماهو مضاد لهذا النمط الأدبي والفكري، والأدب الممجد من القرن الماضي هو «أدب الردة» مثل أدب أورول، وكوستلر، وأودن، وسولجنستين، مع التقدير. لكن هؤلاء الفرسان أهم من شتاين بيك، وآمادو، ونيرودا، وأرغون؟! رغم أن الصنف الأول أكثر تقريرية ومباشرة وآنية، وقيمته في تعبيره عن معاكسته للنسق العام الاشتراكي، أي قيمته تتأتى من مضمونه لا من أدبيته ! فقد نظر النقاد الغربيون إلى هذا النوع الأخير من الكتابة على أنه نوع من الأسلحة النافعة في الحرب بين المعسكرين التي كانت محتدمة في ذاك الزمن. ورغم أن المعركة انتهت قبل نهاية القرن بخروج معسكر كامل بكل منظوماته، إلا أن الغرب وملحقاته لا يزالون يتصرفون وكأن المعركة لا زالت مستمرة. لن يتركوا للفقراء شيئاً إلا إذا أجازوه

هم، وكل الرموز التي أنتجها المعذبون مشبوهة ومريضة ومشوهة، وحاقدة! قد يكون هذا من حق المنتصرين أن يفرضوا صوتهم تعبيراً عن انتصارهم، ولكن لماذا يصدق الفقراء الكذبة إلى هذا الحدّ؟ يبدو أن المنتصرين قد نجحوا جداً في فتح بوابات المتاهة من جديد، وواحدة منها : هي الخجل من الذات، فالفقراء اليوم يخجلون من تاريخهم ومن فقرهم، ويؤكدون لمعذبيهم أنهم كانوا واهمين حينما اعتقدوا أن لهم صوتاً وثقافة، كما الأسياد! فلا قيمة للشعراء ولا للمسرحيين ولا للروائيين، ولا للينين، ولا لماو ولا لغاندي، ولا لناصر، ولا لفرانز فانون ومانديلا وابن بيلا وغيفارا! هؤلاء كلهم ديكتاتوريون يستحقون الرجم والشتم، أما نيكسون ومكنمارا وكيسنجر وشاه إيران والسادات والنميري، على العكس، كانوا عباقرة! لقد رسخوا عند المعذبين أن لا حاجة لأن يكون لهم صوت، ولا ثقافة بل هم «حيوانات للذبح» على حد قول أحدهم. والثقافة فقط هي للمتخصصين والأكاديميين، الذين يدركون قيمة ثقافة السوق والمصالح، ويرددون بأمانة أو بغير أمانة ما كتبوه لهم على أنه الواقعي والصحيح. هذه صورة من صور الزمن الثقافي السائد.

- ٣ -

الثقافـة والأفـق

الإحساس بالعالم

العالم حافل بالمسائل التي لايمكن تجاهلها، والإحساس بالعالم لا مفر منه، ونحن نتحسس العالم وفق آليتين أساسيتين متلازمتين، الأولى فطرية، والثانية مكتسبة، هما: الإحساس الواقعي، والإحساس الجمالي، كلاهما قابلان للنمو في التدرب والممارسة. الإحساس الواقعي، يبدأ بالتفاعل الأولي مع كل ماهو داخل الذات وخارجها، وهو موجود عند كل إنسان،وهو الذي يقدم لنا، عبر الحواس، المعرفة التي تقود إلى الإدراك والوعي بالذات وبالعالم،من خلال هذا الإحساس تنشأ العلاقة بالزمان والمكان. أما الإحساس الجمالي، فهو أكثر فردية ويتفاوت من إنسان إلى آخر، عبر الاستجابة الجمالية مع الصور الأدبية، والمفاهيم التي تتكون من المعارف التي يمنحها لنا الإحساس الواقعي. يتوفر في الإنسان هذان البعدان وهو يتصرف وفقهما سلباً وإيجاباً. والإنسان الإيجابي هو الأكثر تواصلاً مع العالم، أما الإنسان الآخر فهو الأكثر عزلة واغتراباً، وربما عدوانية! لكن التواصلية ليست دائماً مباشرة، فالإنسان المنزوي،المتأمل، الصوفي ليس إنسان قطيعة، كما قد يبدو، فالمعري مثلاً، انزوى عن الناس، كما تخبرنا آثاره وسيرته، ولكن في الانكفاء كتب أعظم كتبه، وقام بتدريس قاصديه من الطلبة، وقدم رؤيته التشاؤمية الناقدة للعالم ولمعتقدات البشر الفاسدة ، إلا

أنه أفصح عن نزوعه للإصلاح! وهذا ينفي عنه صفة الانعزالية، على عكس ما بدا، فقد كان إحساسه بالعالم دفاقاً إلى درجة كبيرة. والإحساس بالذات أولاً يقود إلى الإحساس بالعالم، وهذا الإحساس بالعالم ليس قيمة عابرة أو مجردة، بل هو يصل إلى حد الوجوب الإرادي عند الكتاب والمبدعين والفنانين الذين يشعرون بالحاجة للخروج إلى العالم وإلى التجول في الأسواق والحارات وبين الناس لاكتشاف ما الذي يجري خارج منازلهم وخارج رؤوسهم، فمن يستطيع أن يدير ظهره لما يجري في العالم من أحداث جسام، ولا يتفاعل معها؟! من يتوهم أن بمقدوره أن يتغافل عن الإحساس بالعالم، هو إنسان فارغ خمول،تعيس،يفتقر إلى التأمل والشعور بالامتلاء الذي يشعر به الإنسان الإيجابي الذي تستيقظ فيه الروح البشرية الخلاقة ويشعر بسعادة التواصل وبفرح العلاقة مع الآخرين وكأنه يكتشف وجوده ووجودهم في كل لحظة! هذا الإحساس يهذبنا، يعمق معرفتنا، ويجعلنا نحسن استخدام الأشياء، واستخدام كامل الحواس بلا خمول أو تقاعس! مع هذا الإحساس، يشعر من يمارسه بالمسؤولية وبأنه يليق بكونه إنساناً، ويكون أكثر كمالاً ودقة. في عالم الاستهلاك الذي يسود فيه التشيؤ والتسليع والاغتراب،تنتشر العدوانية ونزعة التدمير! النقص في الإحساس بالعالم، يعني خراب الإنسان وخراب العالم، وتكريس حيوانية الكائن البشري! ولذلك كان على الإنسان أن يخرج من قوقعته ليعانق العالم والوجود، هذا ما أدركه جلجامش حين أنسن أنكيدو، وخرجا معاً في سفر شاق للبحث عن الخلود واكتساب المعرفة بالتجربة والمعايشة والانغماس في مشاكل العالم! هذا شعور قديم وأصيل في الإنسان لا يجوز أن ينزوي. الإنسان اليوم في مواجهة ما يجري، عليه أكثر من أي وقت، أن يصحو،أن يتجاوز وحشته بالتأمل بالطبيعة وبالإنسان، بما يجري ولماذا وكيف..وبهذا الإحساس الواقعي والجمالي معاً يخلق التفكير العميق، ويزدهر الشعر والسرد والتفلسف.

الاستشراق السياسي

الاستشراق يعيش اليوم حالة تدهور،لأسباب عديدة، منها:رحيل الأعلام الكلاسيكيين الكبار من المستشرقين، والنقد الذي وجه إلى الاستشراق، وفضح دوره الوظيفي في خدمة الاستعمار الأوروبي، وتفكيك منظومته الخطابية بشكل ممنهج، على يد كتاب عرب وأجانب. مماحكة المستشرقين، والرد عليهم تعود إلى عصر النهضة، مع ملاحظة أن أغلب أعلام النهضة العربية كانوا قد تأثروا بآراء المستشرقين، وربطتهم صداقات ودية مع بعضهم.

بدأ النقد الجارح لخطاب الاستشراق في عقد الستينات من القرن الماضي، على يد المفكر المصري أنور عبد الملك، الذي بدأ هجومه بمقال نشر باللغة الفرنسية، لاقى صدى واسعاً، وألهب كتاباً عرباً للخوض في هذا الموضوع، وبعده في مطلع السبعينات نشر كتاب إدوارد سعيد: «الاستشراق» باللغة الانكليزية، ثم ترجم إلى العربية وكان صداه مدوياً، حتى أن كاتبه قال: «لم أكن أتوقع أن يكون له كل هذا التأثير». فليس من المبالغة القول أن هذا الكتاب هزّ الاستشراق من أساسه، وفتح الباب واسعاً أمام كتاب العالم الثالث، بالانتقال إلى مرحلة الهجوم، والنظر إلى العقلية الغربية بتفحص وريبة على أنها كونت تصوراتها، وفق خطاب الاستشراق الاستعلائي العنصري، وكان هذا الخطاب هو الرافد الأساسي والوحيد الذي غذى خيال الغرب وكون قناعاته، وتجلى هذا في آدابه، وفنونه، وكتابات الرحالة الذين كرسوا صورة الشرق السحري، أو الخامل، أو المتوحش، وقدموا مبررات ايديالوجية للاستعمار الأوروبي لنشر التحضر في الشرق! ولم يستثن إدوارد سعيد أحداً من المستشرقين أو غير المستشرقين من دائرة الاتهام، فالاستشراق حتى ولو كان مقنعاً بالعلمية وبالموضوعية، هو قراءة الآخر، وفق رؤيته الاستعلائية، لتاريخك. هذا الموقف الحاد، هو ما عرض سعيد لبعض الردود من قبل منتقدين غربيين وعرب!ورغم الهجوم عليه، ظهرت حلقات من الطلبة والكتاب في الولايات المتحدة والغرب متحمسة له، وظهرت كتابات مضادة للاستشراق، جعلت من الكاتب الفلسطيني الراحل إماماً في نقد الاستشراق! حتى باتت كلمة الاستشراق

مرذولة! ويعود الفضل في ذلك، بلا أدنى شك، إلى إدوارد سعيد. وتدليلاً على ازدراء الكلمة، أذكر أن المفكر الفرنسي الشهير فرانسوا شاتليه دعي إلى بيروت، في الثمانينات، لإلقاء محاضرة، كان يحضرها السفير الفرنسي في لبنان مع مثقفين عرب، قال شاتلية، مخاطباً المثقفين العرب: «يقف أمامكم أستاذ جامعي فرنسي، يحمل عار خمسين عاماً من الاستعمار، وثلاثة قرون من الاستشراق، ليقول لكم بصدق؛ احذروا الحبائل والفخاخ التي ينصبها لكم الغرب..» هذه الكلمات الصادمة دفعت السفير الفرنسي للخروج من القاعة محتجاً، وعلق شاتليه على ذلك قائلاً: «أسجل لنفسي شرف انسحاب السفير الفرنسي من محاضرتي». كانت نظرة مفكري النهضة العربية للاستشراق نظرة إيجابية، رأوا فيه احتكاكاً مفيداً مع حضارة حديثة وصاعدة، وإن كانت تحتاج إلى بعض التصويبات، و صادرة عن وجهات نظر معرفية محضة، ولم يدركوا الأبعاد الخفية لرجالاتها الذين كان الكثير منهم موظفين في حكومات بلدانهم ويعملون لمصلحتها، ماسنيون، على سبيل المثال، كان موظفاً في وزارة الخارجية الفرنسية، وجاك بيرك أيضاً. يذكر أن جمال الدين الأفغاني خلال إقامته في فرنسا كتب مقالاً باللغة الفرنسية، جاء فيه، أن في تاريخ الإسلام، وفي مرات عديدة، وقف الدين عائقاً في وجه العقليين والمستنيرين. وقد تلقف أرنست رينان هذا المقال ورحب به أيما ترحيب، ووجه دعوة لصديقه الأفغاني لإلقاء محاضرة، أمام أكاديميين فرنسيين، ليؤكد هذا الموقف، إلا أن الأفغاني ارتاب بنوايا رينان العنصرية، فطلب منه أن يوقع معه على بيان يفيد بأن في تاريخ كل الأديان يوجد اضطهاد للفكر الحر. وكان له ذلك. اليوم ارتدى الاستشراق السياسي قناع مراكز البحوث والدراسات الشرق أوسطية، ويشكل المستشرق البريطاني الصهيوني المخضرم مشيخة معتمدة في الولايات المتحدة، فهو منظر للسياسات الأمريكية، وجيفري فلتمان الذائع الصيت أحد تلامذته المقربين الداعين لتفتيت المنطقة عبر الفتن والاحتراب.

أعمدة تدمر

قبل أن أتحدث عن أشواقي الخاصة نحو تدمر؛ مملكة الرمل والنخيل، ومملكة زنوبيا.. تبادر إلى ذهني وأنا أقرأ كتاب: «قبض الريح» للمازني، وهو كتاب مقالات أدبية وفكرية، وأمام هذا الأسلوب الأخاذ، والفكر التحليلي العميق، وجدت نفسي أفكر بذاك العصر الذهبي للثقافة العربية الحديثة، ورجالاتها. ُخيّل لي إن كتّاب ذاك العصر من التنويريين الكبار يشبهون أعمدة تدمر. طه حسين، أحمد أمين، المازني، العقاد، محمد مندور، علي عبد الرازق، الزيات، سلامه موسى، مي زيادة، بنت الشاطئ، والجيل الذي سبقهم من الرواد السوريين والمصريين، هذا «الكبيتول» المدهش، الذي يكاد يندثر ويضيع في رمال الذاكرة! اليوم قليلون من يقرؤون هؤلاء الشوامخ، وكل واحد منهم صرح قائم بذاته، إنهم أسياد في الثقافة وفي النقد والتحليل، كتبوا في مواضيع عديدة: في الشعر قديمه وحديثه، وفي سير الأعلام العرب، وفي النقد الأدبي، وفي الاجتماع والتاريخ.. وبغض النظر عن إخفاق المشروع النهضوي التنويري العربي، وإن واقع الحال يفضي إلى ذلك، إلا أن هؤلاء العظماء لا ذنب لهم في الإخفاق الذي لحق بنا، ولا يمكن أن نحملهم المسؤولية كما يحلو للبعض أن يقول! لقد كان هؤلاء الآباء مفعمين بالأمل، وبالإيمان بإمكانية إصلاح الإنسان العربي، ولهذا كانوا يكتبون ويترجمون بروح المسؤولية، ولا يضربون خبط عشواء، كما هو حالنا اليوم من الفوضى الشاملة! ولم يكن واحدهم يترك موضوعه حتى يشبعه تمحيصاً ودراية، ووفق منهج وتصور عقلي، ويبرر ما يذهب إليه بالحجاج والجدل. قد يقول قائل؛ إن هؤلاء كانوا على تباين شديد، وهذا صحيح، كان بينهم محافظون، ومجددون، وكانت تبايناتهم تتحول إلى آراء مكتوبة في الصحف وفي الكتب، ويقرؤها القارئون بمتعة! وهذا مما نفتقر إليه اليوم، نفتقر القامات الكبيرة من أصحاب الآراء، وأصحاب الأساليب. أولئك قدموا صورة مشرقة للثقافة، وللمثقف المحترف المنخرط في صناعة مصير مجتمعه، فبرزت صورة المثقف الأستاذ، الذي جاء ليصلح وينير الدرب، فكانوا، رغم خلافاتهم، نخباً مؤثرة ومحترمة. طه حسين مثلاً، وهو من أعمدة هذا الكبيتول العربي، عندما نشر كتابه الإشكالي: «في الشعر الجاهلي» أثارت آراؤه جدلاً واسعاً

جداً بين معجبين ومتحفظين ومعارضين بشدة، وهذا كله مجتمعاً جعل من الكتاب حدثاً ثقافياً يتردد صداه على مدى عقود بعد نشره عام ١٩٢٦ نحن اليوم رغم انتشار التعليم، وتنوع الثقافة، ووسائل انتشار المعلومات وسرعتها، نلحظ تهاوياً وتردياً ثقافياً، يجعلنا نرنو إلى قامات ذاك الجيل ونرى فيهم أعمدة راسخة، ويصح القول إن هذا حال الثقافة في العالم كله اليوم! فأين القامات الثقافية الغربية التي توازي جورج سانتيانا، ولوكاش، وسارتر، وديوي، وبرديائيف، وغيرهم من هذا الرعيل؟! إلا أن عندنا يشتد عصاب الراديكالية أوالعدمية، ويذهب بنا إلى الحالات القصوى، التي قد تطيح بالأعمدة، وتقلب الدنيا عاليها سافلها!

وبالعودة إلى أعمدة تدمر، وأقول بأسف وحسرة، إنني لم أزر تدمر حتى الآن، وهذا يشعرني بالخجل، فتدمر تعني لي الكثير، وكنت وعدت نفسي بزيارتها، إلا أن الأحداث حالت دون ذلك، وحتى حين أراها كصورة تنتابني تداعيات شتى، تدمر يا لوجين، يا أمير الفلسفة ووزير زنوبيا، وشهيد تدمر كنت تريدها مدينة للفلاسفة والشعراء ورجال الفكر، إلا أن جبروت روما و عجرفة أورليان أرادوا لها عكس ذلك! فيا تدمر يا منارة التاريخ السوري آمل أن أفي بما كنت وعدت به نفسي قبل فوات الأوان.

الإنسان والأطلال

يبدو، أن الإنسان في كل مكان، وعبر العصور، لديه شغف طفولي في الآثار! وهذه الحقيقة يمكن أن يختبرها أي واحد منا. إن مجرد رؤية خرابه فوق تل، أو سكة معدن أو كسرة فخار، أو رقيم في أرض خلاء، يجعلنا نرتعش، وتثار فينا التداعيات! ثم، ما الذي يدفع بعض الناس إلى الهوس بالمقتنيات الأثرية؟ وما الذي يدفع آخرين أن يأتوا من أصقاع الأرض سياحاً لزيارة بعض المعالم، وما أسباب وجود المتاحف في كل مدن العالم، ثم ما أسباب انتشار الحفريات، وكثرة علماء الآثار؟!

سمعت مرة عالم الآثار الفرنسي آلان شناب المدير العام للمعهد الوطني للتاريخ الفني في باريس، يقول في محاضرة له في دمشق: «إن الإنسان يطارد الطلل كما يطارد ظله، فمن حضارة مصر والرافدين مروراً بالإغريق والرومان، وصولاً إلى أيامنا هذه، والموضوع إنساني كوني، عرفته الشعوب القديمة والحديثة». إذاً لم يكن شعراؤنا القدامى، الذين بكوا على الأطلال واستبكوا، حالة نادرة تدل على البداوة والفقر الحضاري، وسامح الله أبا نواس ومسلم بن الوليد على سخريتهما المقزعة من الشعراء السابقين لهما. فهل كان شعراؤنا القدامى، الذين وقفوا على الأطلال، يمارسون تقليداً مبالغاً فيه، أم طقساً وجدانياً، فرضته عليهم الأحوال النفسية والاجتماعية، أم هو مجرد طقس بدوي يستحق أن يسخر منه أبناء المدن، كما يعتقد البعض، وأن الحياة المدنية في العصر العباسي، جاءت وأنهت هذا الطقس؟ إنها أسئلة تتداعى في هذا المقام. وإذا ما تجاوزنا وقوف الشعراء العرب على الأطلال وأبعاده وتجلياته في القصيدة العربية القديمة، لنرى أن الأمر يتعدى شعرية الآثار، إلى علاقة الشاعر بالزمن، وبالمكان، وبمعنى الوجود.

يؤكد «شناب» أن التأمل في الأطلال حالة موجودة في كل الثقافات، وأن العلاقة بين الإنسان والآثار، حالة كونية قديمة، وإن للآثار المندثرة جاذبية في أي مكان من العالم. إضافة إلى الشعرية، وإلى الخيال الذي تنعشه الآثار، فهي تحمل دلالات رمزية متعددة الأبعاد، منها؛ التواصلية التي تجعلنا ننجذب إلى الرقيمات، وإلى الكلمات المنقوشة على حجر أو جدار، أو إلى القصائد التي تحاكي الدواسر والصروح، مثل قصائد كفافيس اليوناني الذي عاش في الإسكندرية، وفي شعره مساحة للصروح القديمة عند الإغريق والسوريين ثم الرومان.

كان التعرف على آثار الماضي، عند المصريين القدامى، يعد نوعاً من العبادة، وعند البابليين، كانت الاستمرارية تتم عبر الكتابة الشعرية والرسائل، أما عند الإغريق، وفي ظل حياة مفعمة بالحضور، يلاحظ غياب الاهتمام بالأطلال!

إذا ما قيسوا باللاتين الذين تتماهى عندهم الآثار بالعدم، وبالمدينة التي تهدمت، أو أزيلت عن الوجود كإسبارطة أو طروادة. وفي العالم الأوروبي، ومنذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث، نجد أن كل شظية باقية من العصر القديم، هي جزء من الوعي بالزمن الذي يمر، و يلتهم كل شيء. يرى بنيامين بيريت أن الآثار هي رمز للإنسان الذي تطارده أشباح مسيطرة كظل تسكن خياله طوال حياته. إن الخيال والحنين من مكونات شعرية الإنسان، والإنسان ينجذب إلى الماضي ورموزه. و«الآثار ينكرها أولئك الذين ليست حياتهم سوى خراب» فلنلتمس العذر لشعرائنا القدماء، الذين قال قائلهم، معبراً عن جلال الموقف:

«رسـم دار وقفـت فـي طللـه   كدت أقضي الحياة من جلله»

أما الأعشى، فيستفز الطلل خياله، ليقول:

«وبلـدة مثـل ظهـر التـرس   للجن بالليل في حافاتها زجل»

التربية الجمالية

أصحاب النظرة الرومانسية أو الشعرية ينظرون إلى الإنسان بنبل، على أنه يولد ويسكن على الأرض كشاعر مفعم بالأحاسيس ومتذوق للجمال، ومبدع للفنون. ومن ثم تأتي الحاجات والعلاقات الجائرة بين البشر لتقف حائلاً بالتدريج بينه وبين العلاقة الأصيلة بما هو جميل في نفسه وفي الطبيعة، وقد يذهب به الأمر بعيداً في الغلظة نحو التوحش أو العدوانية. أصحاب هذه النظرة الإنسانية على عكس المتشائمين الانعزاليين اللذين يرون أن الشر متأصل في الإنسان، والقوانين وقوة الردع والعقوبات الزاجرة هي الوحيدة الكفيلة بتهذيب هذا الكائن المتحدر من الغابات. وهنا لا نية لي بأن أجري مقارنة بين النظرتين التي تجد كل واحدة منهما من يؤيدها ويتحمس لها. وفي هذا المقام ولأسباب تتعلق بواقعنا الحالي أجد نفسي منحازاً إلى النظرة الأولى التي تقول بضرورة تعميق علاقة إنساننا بالفنون، وتسليط الضوء على ما هو جميل بالشكل والمحتوى، وخلق تماس

مباشر ويومي مع الجمال، ويمكن أن يكون هذا هدفاً آنياً ومستقبلياً تتفق الأسرة والمدرسة والمؤسسات الثقافية على جعله ثقافة عامة وهدفاً استراتيجياً، وفق التربية الجمالية الكفيلة بتهذيب الأخلاق وتغيير الطبائع ومن ثم تحرير العقل من التبعية للأشياء أو للآخرين. قد يبدو الأمر ضرباً من الطوباوية، ولكن لا يصعب على الخيال الواقعي أن يتخيل مجتمعاً يربى أطفاله وأفراده تربية جمالية تلفت انتباههم إلى العلاقة مع الطبيعة ومع الموسيقى والشعر والنثر والفنون والآثار وكلها موجودة من حوله وأمامه. وإذا كان الإنسان حقاً ينحو نحو السعادة فسيجد متعة في النظر إلى هذه الجماليات على أنه معني بها وهي موجودة من أجله، فكم من الصالات الفنية التابعة لمديريات وزارة الثقافة والبلديات، فلماذا لا تُفعّل، ويتم زيارتها من قبل التلاميذ وأن يلتقوا مع الرسامين ويسمعون منهم كلاماً عن الرسم والفن، وكذلك الشعراء والمسرحيين، وما الذي يمنع أن تقام بعض المعارض الفنية في المدارس وفي الساحات؟ وأعتقد أننا كنا قد بدأنا بشيء مشابه قبل الحرب علينا ويستحسن أن يستأنف. كان المسرحي والشاعر والفيلسوف الجمالي الألماني فريدرك شيلر، وهو صاحب كتاب «رسائل في التربية الجمالية» يرى أن التفكير الجمالي يساعد في إصلاح الدولة، ويساعد في سعادة البشرية. أزعم أن التربية الجمالية ملحة للغاية، ويمكن أن تكون تحدياً ثقافياً ليس صعب المنال والتحقق إذا ما توافرت الإرادة الطيبة، وتمكنا كمجتمع وكأفراد ومؤسسات من جعل إنساننا قدر الإمكان من مستهلكي الجماليات، والجماليات من مفرداته وثقافته، وقد استعرت بتصرف تعبير «مستهلك الجماليات» من الكتاب النقدي الجمالي للفيلسوف الأسباني خوسيه أورتيغا إي غاسيت الصادر مؤخراً عن وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب بعنوان: «تجريد الفن من النزعة الإنسانية» ترجمة الأستاذ جعفر العلوني. يجد القارئ في هذا الكتاب تحمساً للجمال. وقد يكون هذا التحمس للجمال من الوظائف التي تقع على عاتق النقاد الجماليين، والنقد العربي اليوم، المطلوب منه الخروج العاجل من الحذلقات والغموض واستعراض المصطلحات وأن يكون أكثر حميمية ووضوحاً وتواضعاً حتى يحقق

بعديه التفسيري والتنويري. حماسنا هنا للجمال يأتي من إيماننا بأهمية الثقافة عموماً و الجماليات منها بشكل خاص، وعلاقة ذلك بالأخلاق وبالإنسان العميق المدرك لإنسانيته الذي يحترم الآخر بمقدار احترامه لنفسه، إنسان متسام، لا يقترف العدوان والتخريب، ويشعر بقيمة وجوده على الأرض كشاعر على حد قول هولدرلن.

التعددية

قبل أن يرحل عن العالم عام ١٩٨٥ قدم الروائي الإيطالي الكبير ايتالو كالفينو ست وصايا للألفية الحالية، وهي محاضرات في الإبداع الروائي من صاحب خبرة وتجربة، وأهم ميزة لهذا الكاتب، في نظري، أنه كان ضد الكآبة في الكتابة. في هذه الوصايا أو المحاضرات وهي خمس، فالسادسة بعنوان: «الاتساق» لم تعثر عليها زوجته التي جمعت هذه المحاضرات بعد وفاته. أتوقف هنا عند واحدة من هذه الوصايا بعنوان : *التعددية*، ليس لأنها أفضل من غيرها، بل لأننا بتنا نستخدم هذه الكلمة مرات عديدة في مجال واحد أو اثنين لا أكثر، وعلى الأغلب في المعاني التي لا تتطرق إليها هذه المحاضرة، لقد خدعنا كالفينو دون أن يقصد كعادة الأدباء المراوغين الذين يتمتعون بخفة الدم والطرافة، فلم يتحدث عمَّ يجول في خاطرنا حين نستحضر كلمة التعددية! فالرجل غير معني هنا بتعدد الأحزاب ولا بالديموقراطية وصناديق الاقتراع! أراد بالتعددية أن يبحث في الرواية المعاصرة كموسوعة أو كمنهج معرفة، وبتعبير آخر: الرواية «كشبكة من الصلات بين الأحداث والناس وأشياء العالم». كالفينو رغم أنه من دعاة الدقة والاتساق لكنه يقول في فلسفته حول التعددية: «أن تعرف هو أن تُحرّف الواقع» أي أن تجري انزياحات عديدة في معاني الأشياء، أن ترى العالم بوصفه «نظام نظم» كل نظام يشترط النظم الأخرى، وهذه تشترطه بالمقابل. كيف يتحقق ذلك في الرواية المعاصرة؟ إن روايات كالفينو في

معظمها تحقق هذا المنظور ألتعددي، الشبكي، الموشوري، الرؤيوي. عنده لا ضير في ألا تكتمل الرواية، وفي ألا يكون لها نهاية محتومة، بل أن يقوم آخرون بوضع خاتمتها كل على هواه، ويُفضل كالفينو ألا ينجح أحد في وضع خاتمة محكمة غير قابلة للتشظي وللتهكم. إذاً، فلتضرب الفؤوس في الجذع اليابس، وليتناثر الحطب ويتبعثر خارج الموقد، ولابد أن أصابعَ ستتحرك، وفي النهاية سنرى النار أو الجمر! ولا ننسى أن كالفينو يتحدث هنا عن التعددية في الرواية، وهو ليس ناقداً أدبياً ولا سيميائياً كمواطنه امبرتو إيكو، لكنه مثله في الرواية حفار معاني، ونحات كلمات، وجواب آفاق في الأساليب. في هذه التعددية التي يرومها كالفينو في الروايات، أن تكون الرواية شبكة شاسعة، وهو يقدر صوت المعترضين الذين يرون عكس ما يرى ويقولون إنه كلما مال العمل نحو تعددية الاحتمالات، كلما انفصل عن المركزية أو النواة الواحدة التي هي ذات الكاتب وتعبير عن نزاهته الداخلية. يجيب كالفينو على هؤلاء المعترضين: نحن مركّب من تجارب ومعلومات وكتب قرأناها وأشياء متخيلة. كل حياة، في نظر كالفينو، هي: «موسوعة، مكتبة، مخزن أشياء، سلسلة من الأساليب، ويمكن أن يستبدل كل شيء باستمرار، ويعاد تنظيمه بكل طريقة يمكن تصورها. وهنا وإن كانت نواة الفكرة التي ينطلق منها كالفينو مستمدة من بورخيس الذي يؤمن بأن الحياة مكتبة، ويسرّه أن تكون موسوعة أيضاً إلا أن بورخيس لا تستهويه هذه التعددية، ولا يحبذ أن يسمع أن الحياة مخزن أشياء، فالواقع عند بورخيس خدعة، ولا شيء خارج الذات، وهو المسحور ببركلي، ولن تكون التعددية في نظره إلا ميوعة عليه أن يتحصن ضدها دائماً!. ومن جهتي، لو كان لي أن أختار بين الاثنين، لاحترت مع من أقف، ويصعب التوفيق بين الموقفين، أحدهما رجعي محافظ كحد السيف، والآخر ماركسي وله موقعه الإبداعي الذي أقدره. الأصيل هنا هو بورخيس، هو صاحب فكرة أن الكون كتاب، وفي أماكن عديدة من هذه الوصايا يذكره كالفينو بإعجاب شديد. وقد تكون هذه اللوثة الليبرالية عند كالفينو ليست أصيلة في تاريخ الفكر والإبداع،

بل هي وليدة ترهل اليسار العالمي ومهادنته، و هي لا تخلو من الممالئة للمزاج العام المعاصر. وقد تأخذنا العاطفة باتجاه الشاعرية والإنسانية المشرقة وروح الاحتواء التي يطرحها كالفينو، وتدهشنا عوالم بورخيس الخيالية والمجردة والرمزية، إذ العالم عنده يتمركز في قلب المتاهة والحدائق المتشعبة.

الثقافة والمجتمع

بداية، لا بدّ أن نلحظ أنَّ ثقافتنا يغلب عليها الطابع الأدبي، ومعظم نخبنا، إما شعراء، أو أشباه شعراء، أو هواة شعر وأدب، بما فيهم: رجال القانون، والاقتصاد، والسياسة،وحتى بعض العسكريين!.. وإن يبدو هذا جيداً ومحبذاً، إلا أن له سلبياته أحياناً. منها أنه عاطفي وانفعالي، بينما تحتاج المجتمعات إلى عقول علمية منضبطة، تستخدم اللغة والمصطلحات بدقة، وبروح أكاديميّة. وقد صنف علماء اللغة المعاصرون النظام اللغوي بصنفين: عقلاني وسحري. الأول يشمل العلوم، والثاني يشمل الفنون والآداب!

الأخطر من ذلك، أن ثقافتنا الأدبية، هي ثقافة هزيمة، بمؤثراتها الداخلية والخارجية، بسبب تتالي الهزائم والإخفاقات على مدى قرون، بالإضافة إلى الترجمات الأوروبية، لاسيما الفرنسيّة،والتي تصنف أيضاً على أنها ثقافة هزيمة، يغلب عليها، الحزن والكآبة والعزلة، والتعارض الحاد مع المجتمع، كما عند بودلير، ورامبو، ولوتريامون، وأندريه جيد، وكامو، وجينيه، الذي يقول: «إن المجتمع يستنكر الشر والرذيلة، لهذا نسعى إليهما سعياً».

ونحن اليوم، في وضع غير طبيعي، على كافة الأصعدة، وينبثق داخل كل منا تساؤلات عديدة، لا تستطيع الثقافة التقليدية السائدة الإجابة عليها، وهذا ما يعمق الأزمة في المجتمع وعلاقته بالنخب! ولعل واحدة من مآسي النخب، فقدان ثقة المجتمع بهم، والاستخفاف بعقولهم، وقد باتوا مكشوفين،عراة، حين غدت الكتابة والفن، مجرد مهنة للربح، ولتعزيز الأنانيّة! وفاقم الأمر سوءاً، في

هذا القطاع الرخو والهام بالوقت ذاته، هذا الطوفان من الكتابات التي تعتمد على معلومات مجتزأة وضحلة، وغير مدققة، يضخها الإعلام الجديد!

ولم يكن المثقفون أكثر حصانة من أي قطاع آخر في تفشي الفساد! وإنه لأمر فادح! «حتى باتت الأشياء تتداعى، الخيرون يفتقدون أيَّ يقين» وهذه أستعيرها من الشاعر ييتس، وأدعمها بقول المعري:

«وما أدب الأقوامَ في كل بلدةٍ إلى المين إلا معشر أدباء»

ألسنا في حالة فوضى، وفلتان ، وتفشي الكذب، حتى بات الكذب ثقافة سائدة؟! أليس من حق المجتمع أن يقول من أين أتى كل هذا الانحطاط؟! هل غابت الأصوات التنويرية المسؤولة في خضم هذه الفوضى؟!

لا بد أننا اليوم أمام صورة جديدة للمثقف لم نكن نعهدها من قبل، تفرضها قوة الواقع الجديد، والتي تؤدي،لا محالة، إلى موت الثقافة، حين لا يكون أمامنا إلا مثقف مرتهن للإعلام القوي، وخاضع لآليات القوة.

مثقف يستسلم للأكاذيب، ويصنعها، ليضخها الإعلام كيفما يشاء، مثقف يرضخ لاستطلاعات الرأي، بدل أن يكون صانع رأي!

هل رضي المثقف أن يكون انتهازياً، يتبع الشائعات، والرأي السائد حتى ولو كان فاسداً؟! هل كان ابسن، وتلستوي، وديستوفسكي، وفرويد، وكامو، وسارتر، وطه حسين، ومحمود أمين العالم، وغالب هلسا ...يقبلون أن يكونوا مجرد مشتغلين في مهنة للربح؟!

يتأكد اليوم، أكثر من أي وقت، أن المشتغلين في الثقافة، كائنات رخوة في علاقات القوة، وأمام قوة الواقع! ولأهميتهم الرمزية يتم استقطابهم للقيام بدور وظيفي، وبما أنهم كائنات الفزع والأوهام والتوجس واللا استقرار، مع وجود استثناءات عصية، وقد يقول البعض، إن هذا كلام قاس! أعترف إنني أقوله بألم. هذا الافتراق بين المثقف والمجتمع، تحدث عنه كثير من النقاد. فالمثقفون، وإن لم يكونوا هم الثقافة كلها، إلا أنهم ضروريون للتعبير عن حيوية

مجتمعاتهم، هذه الحيوية التي يسميها البعض: «روح المجتمع» قادرة على أن تضبط إيقاع الفوضى، وأن تفتح الآفاق..

المجتمع في وعيه لثقافته، وفي اللحظات الحرجة، يستطيع أن يكون الحاضن للمبدعين والمبتكرين من أبنائه، وأن يوفر لهم الشروط اللازمة للارتقاء. وبهذا الصدد يقول الناقد هربرت ريد، صاحب كتاب: «إلى الجحيم أيتها الثقافة»: «يرتقي الفن في مجتمع حيوي بثلاثة طرق: التقدير الاجتماعي، والرعاية الاقتصادية، والحرية الحيوية بالضرورة».

إن روح المجتمع، يمكن أن ينبثق كطائر الفينيق، والشواهد كثيرة في التاريخ، هذا ما شهدته روسيا قبل الثورة، حين توفر لها انتلجنسيا عظيمة، من شعراء وروائيين، وموسيقيين، وفلاسفة ونقاد... استطاعوا أن يؤثروا بالعالم لعدة عقود.

عندما يكون المجتمع في دينا ميكيته وحيويته، لا يعود يهم إذا ما كان المثقف عبثياً أو لا منتمياً، سلبياً أو إيجابياً...فالمجتمع يحتويه، على أنه رجل فكر، ضمن العجلة العملاقة، التي تشبه الناعورة الحموية وهي تقذف الماء في المجرى لتخصب الحقول.

المجتمعات الحيّة، تستطيع أن تخلق مقاومتها ومناعتها. وأحسب، أن بلادنا الغالية، ومجتمعنا المعطاء، لن يقصر عن المجتمعات الأخرى في التاريخ، كيف لا وهو الحامل لكل هذه الحضارات؟

ونحن نلحظ اليوم، شعوراً جمعياً يتكون منطلقاً من هذه الحقيقة، ونشهد قوة الشعور بالتضامن، ونشهد روح التحدي عند الناس، وهم يتحدثون عن سوريتهم باعتزاز، وهي بالفعل ميزة وطنية وكونية.

وقديماً، قبل بداية عصر الهزائم، قال الشاعر السوري «ملياغروس الجداري» المتوفى ٧٠ قبل الميلاد: «**إن أنا سوري فما العجب؟/ أيها الغريب، إننا نسكن بلداً واحداً هو العالم**».

سوريا، درة العروبة وتاجها. العروبة بمعناها المشرق المتحرر، وأبناؤها حراس كينونة هذا الشرق، وطليعيوه، وحاملو مشعله.

وليذهب السفهاء، ولتمض القافلة.

الثقافة المتجوّلة

رغم أننا نعيش في عصر التقنيات، وثورة الاتصالات،إلا أن خللا ما يكمن في بنيان ثقافة هذا العصر، مع توفر إمكانيات هائلة للانتشار والترويج لم تكن موجودة أو متوفرة في العصور السابقة، وهذا يثير الحيرة! إذ ما الذي يجعل رجلاً كسقراط مثلاً يصل إلى العالم عبر العصور حتى يومنا هذا وهو لم يترك أثراً مكتوباً خلفه، وكل ما وصلنا عنه عبر تلميذه أفلاطون؟! وكذلك الأمر بالنسبة لبيان ماركس وانجلز المعروف بالمانفستو الذي انتشر خلال سنوات قليلة في كل مدن وأرياف ونجوع العالم وكان له تأثيره الذي لا يستطيع أن ينكره أحد؟! اليوم نحن نعيش في عصر عولمة الثقافة، ويمكن للكتاب أن ينتشر خلال يوم أو يومين في كل لغات العالم، ومع ذلك ليست الثقافة بأحسن حالاتها، وفاعليتها لا ترقى إلى ما كانت عليه في تلك العصور الشاحبة والشحيحة بالإمكانيات، لماذا؟! يبدو لي أن واحداً من الأسباب يكمن في أن ثقافة هذا العصر هي ثقافة مكتبية تحمل في طياتها بذور فنائها وأثرها السريع الزوال، فنحن نلحظ أن أعظم رواية اليوم هي التي تنال الجوائز ويتحدث عنها الإعلام ويتلقفها الملايين من القراء لكن لا تلبث أن يتلاشى ذكرها خلال عام أو أقل وتنسى لتحل محلها رواية العام التالي، بينما القراء لا يزالون يقرأون روايات بلزاك وفلوبير وتلستوي وديستوفسكي بنفس الشهية وكأنها روايات جديدة! فالذوق العام يفترق عن التذوق الفني ويتقاطع معه أيضاً، والثقافة بمعناها وبجوهرها تتأسس على ما هو عام وثابت ومتغير، وهي بطيئة التغير ولا تعمل فيها الطفرات كثيراً. فرويد، مثلا على عكس ماركسٍ، ينفي التطور التتابعي للثقافة،

ويرى أن الوعي الثقافي لا يتغير مع تغير الوضع البشري بل يرتكس ويتراجع. ورغم انقسام الآراء حول ذلك إلا أن ثمة رأي مثير يمكن إطلاق صفة دعاة الثقافة المترحلة على أصحاب هذا الرأي ومنهم الفرنسي جيل دولوز الذي يتحمس مجازياً لبدوية الثقافة، أي حالة (البدو الرحل) أو الأدب المسافر، المتجول ويجده في الأدب الانكليزي، ويفتقده في الأدب الفرنسي الذي يطلق عليه صفة: «أدب المستنقعات ونقيق الضفادع» وياله من نقد قاس وجذاب اعتاد عليه هذا الفيلسوف الحر! ومن أنصار هذا الاتجاه الباحث الانتربولوجي جيمس كليفورد الذي ركز عل ما يسميه «الثقافات الرحالة» على أن الثقافة اقتحام وعبور دائم للمواقع الساكنة، ويرى أن الثقافة على عكس ما هو شائع ومعمم هي متحركة في جوهرها وليست ساكنة، والمعاني الفاعلة تتولد من قبل أناس متجولين في كل ثقافة يخلقون التشابكات والارتباطات بين الثقافات، هذا ما يمكن أن نطلق عليهم استعارياً صيادي المعنى في البيداء ذات الأفق المفتوح، وعليهم أن يَغيروا ويُغيّروا مكامنهم بين الحين والآخر، كبدو الصحراء وكالهنود الحمر. والذين يردون أو يعترضون بشكل جزئي على أنصار الثقافة الجوالة، يرون أن فكرة الثقافة الجوالة يمكن أن تكون مغرضة، وليس الأمر أنه يجب علينا أن نعكس الأولويات بين «الجذور والطرق» الثابت والمتغير، ويرون أن الإصرار على جوهر الثقافة كحركة هائمة لا تهدأ أمر ملتبس يمكن التعويض عنه إلى أن نرى «الجذور والطرق» باعتبارها متعايشة دائماً ضمن الثقافة، وأن كلاً منهما يخضع للتحول في سياق الحداثة العالمية.ما نذكره هنا عن الحركة والسفر والبداوة يتجاوز المعنى الحرفي إلى رحابة المجاز واللغة الاستعارية التي هي بحد ذاتهاُ تشكل حركة داخل اللغة.

وما أردت أن أخلص إليه هو الإشارة إلى فقر ديمومة الأدب المكتبي أمام الأدب المتجول في شعاب الحياة النفسية والجغرافية، ودعوة حارة لتحويل المكتبات الثابتة إلى عربات متنقلة، والخيال الخامل إلى الخيال النشط المتحفز ، وأذكر أنني كنت في صباي أنتظر عربة المكتبة المتنقلة التي كانت تجوب

القرى، كمن ينتظر هدايا العيد! ولا أنسى ما حييت عربة العروض السينمائية المتنقلة التي كانت تعرض أفلاماً كوبية إلى جانب أفلام الإرشاد الزراعي في الستينات، وما أحوجنا اليوم إلى الأساتذة المشاءين كما في عصر الإغريق الذين يلقون أفكارهم في الحدائق والشوارع وهم يمشون مع تلامذتهم وأمامهم الأفق المتد!

الثقافة والذاكرة

التماثل والتواتر، هما من طبيعة الثقافة، والمثقف الخلاق بشكل خاص، هو المعبر الأمثل عن هذه الاستمرارية التي لا يمكن للثقافة الأصيلة أن تكون من دونها. في مطلع شبابي، كانت كلمة «تراث» تستفزني حقيقة، ولم أكن ميالاً لأي شيء يمت للتراث بصلة، وكانت تستهويني كلمات مثل: القطيعة، التجاوز، النسيان، المحو... وكنت أقرأ كل ما يعزز الاعتقاد بالقطيعة! ثم اكتشفت في ما بعد أنني كمن يقف على أرض رخوة، وشعرت بالحاجة الروحية والثقافية بضرورة استدراك ما فاتني، وتبين لي بعد أن تغيرت قناعاتي، أن المشكلة كانت تكمن، من جهة، في الدعاة المتحمسين للتراث واعتباره ماض مثالي، وزمن الطهر والنقاء! وعلينا أن نحاكيه ونقدسه! ومن جهة ثانية، كان ثمة سوء فهم، عند دعاة القطيعة، لكلمة (تراث) كان الفهم الشائع لهذه الكلمة أنها تعني العودة إلى الماضي، والبحث في الكتب (الصفراء) عن مواضيع تجاوزها الزمن! والزمن يطوي كل شيء بالفناء والنسيان! بينما الثقافة لها حركية أو ديناميكية التجدد، وهي مجموعة سرديات متراكمة ومتداخلة مع سرديات أخرى، وهذه السرديات تسري في الأجيال المتعاقبة، وتمتلئ بها حياة الأفراد حتى لو لم يريدوا ذلك. إذ كيف نفسر وجود شعراء أميين ينظمون الشعر على أوزان الشعر العربية، دون أن يعرفوا بحور الشعر ولم يسمعوا بالخليل بن أحمد الفراهيدي؟! والثقافة تنهض فينا عبر آلية التذكر الإرادي وغير الإرادي، تنهض في الأحلام، وفي الخيال،

والهذيانات، والتداعيات، ووفق هذه الآلية، ليست الذاكرة ماضياً، بل هي حاضر دائم، وهي الخزان الدفاق الذي يغذي ويرفد الوعي والإبداع! الخيال القاصر نتاج ذاكرة خاملة، وربما يصح العكس! ومن تعريفات علم النفس الأكاديمي للذاكرة: هي الاحتفاظ بمعلومات الماضي، مع القدرة على تذكرها أو استخدامها. لكن الذاكرة الخلاقة تتجاوزهذا التعريف الضيق، الذاكرة الخلاقة عند برغسون هي التمذكر الخلاق، أي المخيلة الخلاقة التي تنتج الآداب والفنون. وقد ميز برغسون بين نوعين من الذاكرة: الذاكرة التي تكونها العادة، والذاكرة التي تتألف من أحداث فريدة. النوع الثاني من الذاكرة يتميز بقوة الاستحضار لخبرات مفردة وفريدة وغير متكررة، يتم فيها استعادة الزمن واستعادة الذات بتدخل المخيلة الخلاقة، كما هو الحال عند مارسيل بروست في «البحث عن الزمن المفقود». التذكر في الشعر يكون وميضاً أو طيفاً ويقول جميل بثينة:

«وإني لأستغشي وما بي نعسة   لعل خيالاً من بثينَ يزور»

ويقول المهلهل:

«ونبكي حين نذكركم عليكم   ونقتلكم كأنا لا نبالي»

أما الذاكرة في النثر، ففيها استحضار دائم وحاشد أو متدفق لتفاصيل وتداعيات، أو سرد لأحلام يقوم الخيال الخلاق بإدارة سردها وفق فن السرد القصصي. وآداب العالم حافلة بالذكريات الشخصية أو ما يعرف بالسير الذاتية أو بأدب الذكريات أو الاعترافات كما عند روسو، وإلفرد دي موسيه. وللشاعر الألماني غوته كتابه الشهير: «الشعر والحقيقة» وهو ذكرياته كما يرويها. الذاكرة، إذاً، هي علاقة الذات بالزمن وبالمكان و«الفرد يحمل ذاكرته الشخصية، وذاكرة جيله وعصره». ويحمل ذاكرة بيئته، وجنسه البشري أحياناً، دون أن يعي كنه هذا الحمل الثقيل الذي لا يخفف من وطأته سوى النسيان. فالنسيان نعمة ملازمة للعقل للحد من جموح الخيال الخلاق! ألم يقل المجنون مخاطباً قلبه: إنك وعدتني يا قلب أن تنسى ليلى.. «فما لكَ كلما ذكرت

تذوبُ؟!». الذاكرة والنسيان آليتان ملازمتان للإنسان العاقل، ويندرجان في ثقافة الأفراد والجماعات، ومن البديهي أن ثمة أحداثاً يجب أن تنسى، وأحداثاً تستحضر، يمكن أن يكون هذا ضمن آليتي الحذف والاستحضار الإراديتين. وفي مسرحية: «الذباب» لسارتر دعوة صريحة وضمنية للنسيان من أجل الحاضر.

الثقافة والرفض

في حوارات متكررة مع صديق متحوّل من الماركسية إلى اللبرالية الجديدة، وليس التحوّل في الأفكار والقناعات أمراً مستهجناً بحد ذاته هنا، وعهدي بهذا الصديق أنه كان شديد التعصب لمعتقده السابق! وهو اليوم، يبدو وكأنه اهتدى إلى دين جديد، هو فيه أشد عصبية! وكما يقول العرب: «لكل جديد لذة» لم يعد هذا الصديق، في تموضعه الجديد يؤمن بالثورات في أي مكان من العالم، وكان يردد، بإعجاب، عبارة الشاعر اكتافيوبات: «انتهى زمن الثورات، وانتهى عصر التغيير، وجاء عصر التَغيُّر». ويرى أن أمريكا على حق دائماً! وأيد احتلالها للعراق بلا أي تحفظ! و بحماسة تمنى أن تزيل القوات الأمريكية مدينة «الفلوجة» العراقية، بمن فيها، عن وجه الأرض! وحمّل المقاومة اللبنانية مسؤولية حرب تموز ٢٠٠٦ وتمنى لها أن تتمزق إرباً تحت القصف الجوي الإسرائيلي! وكذلك كان الأمر في حرب اسرائيل على غزة! وكان ينظر بإجلال صوفي إلى المحقق الدولي الذائع الصيت «ميليس» ويأمل منه الكثير! وكنت أمام هذا التبدل في منظومة أهواء هذا الصديق، أتساءل: هل هذه هي اللبرالية الجديدة؟! وأعتقد أن الرجل لم يكن مأجوراً، بل كان ينطلق من وحي معتقده الجديد! وأخشى أن يكون هذا حال معظم اللبراليين العرب الجدد!

كتب النقاد كثيراً عن سلبية المثقفين، وعن جاذبية الاعتراض والرفض.

«المثقفون يتلبسون الروح النافية دوماً وأبداً» كما يرى سارتر. وإذا كان الأمر كذلك، فيتوجب علينا أن نتفهم هذا النزوع الشائع نحو الاعتراض، وجاذبية النفي، ونرى على أنه أمر متبدل وغير مستقر. وعبر مكسيم غوركي عن هذا النزوع، قائلاً: «لقد أتيت إلى هذه الدنيا لكي أعترض». ويذهب رولان بارت إلى أن «الكتابة هي الاستقرار داخل الرفض، داخل العزلة». والرفض حالة رومانسية فيه بعض من قيم الفروسية، لكن شريطة أن يكون بشرف، منزهاً عن الارتهان والتبعية. ففي مرحلة من المراحل تواجه الدول بهجمات رفض من عدة مشارب ثقافية، ويحدث طلاق بين المثقفين والسلطة، حصل هذا في اليابان بعد عصر الميجي عام ١٩١٢. أما بعد الحرب العالمية الثانية، يقول سارتر: إنهم أمسكوا بزمام السلطة السياسية في اليابان، وأحدثوا أذى وضرراً عظيماً!

أن تعترض على الواقع التافه، وأن تقول بقوة:لا للاستبداد. هذا أمر جوهري، وهو من صميم الشجاعة. ولا تستطيع أن تقول ذلك وأنت مرتهن أو مأجور أو خائف. ليس دور المثقفين هامشياً تماماً، أو عديم الجدوى، في المراحل الحرجة. يستطيع المثقفون أن يكونوا مشاركين بالنهضة والتنوير والإصلاح والتغيير، أو مشاركين في الانحطاط والتدمير، إذا أرادوا! ويتوقف ذلك على مدى التبصر والحيطة والحذر من مصائد المال ومن أحابيل القوة والخداع.. وهنا يبرز الفارق بين المثقف الاعتباطي الذي تتحكم به الأهواء والنزوات والغرائز والأوهام، وبين المثقف النقدي الناضج المتمرس والمتعالي، والذي يمارس النقد بداية، على نفسه وعلى خطابه ولغته، ثم من الخاص إلى العام ، متسلحاً بالدراية والخبرة والمعرفة. هذا المثقف النقدي، لا يتبع لحزب أو لجماعة أو لجهة، وهو صانع أفكار أو قارئ حاذق للواقع وأبعاده، قادر على تحويل الاعتراض والرفض من السلبية إلى الإيجابية. نحن اليوم في بلدنا بأمس الحاجة إلى هذا النوع من المثقفين الذين يستطيعون أن يكتشفوا ما هو مشترك بين الناس، وكم سيكون الحال رائعاً لو أثبتت النخب السورية من مثقفين وفنانين

ورجال أعمال وسياسيين أنهم جماعة مميزة في وطنيتها وعصية على الارتهان للخارج، ولا تقبل أي أملاءات، وتعبر بصدق عن كرامة الشعب وعن آلامه وآماله؟!

وبهذا الصدد، لعله من المفيد أن نتذكر شاعرنا السوري الراحل وصفي قرنفلي وروحه النقدية العالية، و قصيدته عن المثقف المأجور، التي ختمها بهذا البيت:

«يـــا ويـــح للقلـــم الأجيـــر　　　يـــا ويـــح لـــلأدب المـــزور»

السرديات المُضيّعَة

ما يحز في النفس، حقاً، أن مواهب كثيرة من مواهب شعبنا قد ضاعت وطواها النسيان دون أن يسمع بها أحد خارج حدودها الضيقة، وهذا من جملة أشياء كثيرة نفيسة ضاعت من نفائس هذه الأمة! وهذا مدخل للحديث عن الثقافة الشعبية، والقصور في فهم أهميتها. الثقافة الشعبية حالة أصيلة ومتأصلة، وتعد ديوان معارف، ومنجم معلومات، وهي اليوم تشكل حيزاً هاماً في العلوم الانتروبولجية المعاصرة. هذه الثقافة الشعبية أقل تأثراً بالمؤثرات الخارجية، وهي مادة خام يمكن تصنيعها واستثمارها في مجالات عديدة، في: الدراما، السينما، الأدب، الموسيقى، وفي معظم الفنون، وفي التاريخ، وعلم اللغة والعلاقة بين الفصحى والمحكية. الثقافة الشعبية تتكون من عناصر عديدة، تشكل مجتمعة مجمعاً راسخاً وأساسياً في بنيان الثقافة. وليست الثقافة الشعبية مجرد الأزياء والأهازيج والأغاني، والمسكن والمأكل، وما اصطلح على تسميته بـ«الفلكلور» وهذه عناصر من مكونات المُجمّع، ويضاف إليها الأشعار، والحكايات الشفهية والمدونة، ومعظمها غير مدونة. حتى وقت قريب كان ينظر إلى الثقافة الشعبية على أنها ثقافة محلية لا قيمة لها أو أنها تذكر بالتخلف والأمية والفقر، وهي ثقافة (العوام) و نظرة النخب المتعالية أن الثقافة الحقة هي

الثقافة الجديدة وثقافة الفصحى تحديداً، ويرى البعض بوجوب القطع معها لأنها لا تمت إلى الحداثة! وباعتقادي هذا نزق يفتقر إلى النضج الثقافي. وأذكر هنا أن فرانز فانون في رصده وتحديده الشهير لمراحل تطور المثقف في البلدان المُستعمَرة جعل العودة إلى الثقافة المحلية (الشعبية) هي المرحلة الأعلى، وهي تعبير عن بداية النضج والانفصال عن المستعمِر.

وكمثال على الثقافة الشعبية المضيعة، أقدم مثالاً حياً على ذلك: الشاعر الشعبي الشهير «أسد فقرو» هذا الشاعر له مكانة أسطورية في ذاكرة الناس إلى اليوم من ريف حمص إلى حماه واللاذقية، تتناقل الألسن نتفاً من شعره وربما ينسبون إليه أشعاراً لم يقلها! وقد سمعت به مراراً في فترات وأماكن متعددة، وهو من قرية «فقرو» الصغيرة في السفوح الشرقية للجبال الساحلية المطلة على سهل الغاب، عاصر هذا الشاعر العثمانيين والفرنسيين والحكم الوطني، وهو شاهد على حياة الناس في تلك الفترة وعانى معهم ماعانوه، ولا بد أنه دوّن ذلك في أشعاره الشفهية، وكان لسان حال كل سكان تلك القرى النائية والمنقطعة عن العالم، والتي يفصل بينها وبين المدن الغابات العاصية والمستنقعات التي يشكلها العاصي قبل تجفيفها، ولأنه كان صوتهم الوحيد نظروا إليه بصفته شاعر شعب وأمة! وهذا الشاعر ضاع معظم شعره لأنه لم يدون، وروى لي صديق من أبناء منطقته منذ سنوات أن لهذا الشاعر ابنتين كل واحدة تجاوزت التسعين يحفظن شعره كاملا أي آلاف القصائد مع مناسباتهاً! وأعتقد أنهن عشن كل هذه الحياة المديدة آملات أن يأتي أحد ويسألهن عن شعر أبيهن، ولم يأت أحد! ولا أدري إذا كنا ما زلنا على قيد الحياة أم رحلن ورحل معهن تراث هذا الشاعر! يخيل لي، لو قيض لهذا الشعر أن يدوّن لكنا أمام منجم شعري حقيقي، قيمته أولاً في ذاته كشعر عفوي، ثم فيما قد يتولد عنه من أغان ومن معارف عن الإيقاعات الشعرية والأوزان للشعر الشعبي، واستخدام المفردات العامية والفصحى، والحياة اليومية والأحداث في تلك الفترة، أي كنا أمام مدونة كاملة غاية في الثراء والأهمية، وربما كنا أمام هوميروس آخر، بشكل أو بآخر. وهذا

الشاعر قد يكون مثله آخرون في مناطق أخرى من سورية. ففي كل منطقة يمكن أن نعثر على مثل هذا التراث الضائع الذي نصادف نتفاً منه تشير إليه لتستدرجنا إلى تتبعه،خسارة أن يضيع هذا الإبداع، وجمعه يحتاج إلى اهتمام من وزارة الثقافة، ومديرية التراث الشعبي.

السلالات الأدبية

يذهب بعض نقاد الأدب في الغرب إلى وضع شجرة نسب أدبية للكتاب البارزين في تاريخ الأدب، ولا يعنون إطلاقاً بوضع أصحاب المواهب المتوسطة في أي سياق سلالي أو عائلي! فهل فكرة السلالات الأدبية حقيقة يعتد بها أم هي مجرد فكرة اخترعها نقاد الأدب؟! والفكرة رغم جاذبيتها لا يوجد إجماع عليها، وهي كأي فكرة وجيهة يوجد من يؤيدها ومن يرفضها. الفيلسوف الروسي برديائيف من أبرز من يرفض السلالات الأدبية وهو يرى أن: «الإبداع لا يصدر عن شيء ما سابق، وهو لا يفسر، بل هو سرٌّ لا يشرح ولا يدرك». ويلتقي كارل يونغ مع بردیائيف بالنظرة الصوفية للإبداع الأدبي بصفته لغزاً يصعب حله، ويقول: «إن سر الخلق الفني، شأنه شأن حرية الإرادة، يعد مشكلة متعالية، ليس في وسع علم النفس الإجابة عنها، إنما بإمكانه وصفها ليس إلا..» ويرفض يونغ مزاعم فرويد في رد الإبداع الفني إلى العصاب وإلى الأوديبية، ويرى يونغ أن المبدع بالإضافة إلى كونه شخصاً عادياً يعيش كالآخرين إلا أنه إنسان جمعي، حامل لواء الروح الفاعلة اللاشعورية للإنسانية، والساكب مضامينها في قوالب مبتكرة. وكل الذين يرون أن الفن صنعة وعبقرية فردية لا يتحمسون لنظرية السلالات! وفي الحقيقة أن نظرية السلالات رغم وجاهتها لا بد من الارتياب بمقدرتها على الصمود وعلى منحنا أجوبة نهائية، فنحن حين نعثر على سلالة ما نعجز عن تتبعها حتى النهاية أو حتى نقطة البداية، فيمكن أن نعثر على سلالة روائية تبدأ من ديستوفسكي مروراً بكافكا

وانتهاء بفوكنر، لكن من هو والد ديستوفسكي ومن هم أسلافه الأدبيون، ومن هم أحفاد فوكنر؟! وكذلك الأمر بالنسبة لتولستوي الذي يبدو أن له بشكل واضح نواة من سلالة أدبية لعل فلوبير وباسترناك وتوماس مان من أفرادها ومن الصعب أن نعرف إلى من سننسب تولستوي نفسه!

أما إذا ذهبنا إلى آراء أنصار السلالات في الأدب والفن، لعلّ واحداً من أبرزهم الناقد الكندي الشهير نورثروب فراي الذي يرى أن القصيدة دائماً هي محاكاة لقصائد أخرى، وكل ما يضيفه الشاعر ليس إلا انزياحاً بسيطاًعن الأصل، ومهمة الناقد أن يتتبع الأصول ويكشف مقدار الانزياح! ولا يتوقف الأمر عند فراي على الشعر بل يرى أن كل ما له شكل يكون شكله أسطورياً ويقودنا إلى مركز نظام الكلمات. الناقد الكبير هارولد بلوم وهو من سلالة فراي في النقد الأسطوري وفي قلق التأثر، وأنساق القراءات الضالة وكلها تؤكد على علاقة الشاعر مع الأسلاف ومحاولاته المشينة لإخفاء أرومته الأدبية، فهو يرى أن المؤثرات الشعرية متاهة لم يبدأ نقدنا باستكشافها، ويستشهد ببورخيس مؤلف كتاب «المتاهة» الذي يقول: في مفردات النقاد، لامناص من كلمة «سلف» لكنها ينبغي أن تنظف من كل المعاني الملحقة بفعل المنافسة أو المناظرات الحادة. ويرى بورخيس أن كل كاتب يخلق بإرادته أسلافه الخاصين. ولكن بلوم يتقبل خلق الشاعر لأسلافه كنقطة انطلاق، لكن علاقة الشاعر بأسلافه لا يمكن أن تنظف من المناظرات والمنافسة، وأن العلاقة لا تنقطع بين الأقوياء من السابقين والاحقين. لبورخيس مقال طريف بعنوان : «كافكا وأسلافه» جاء فيه: أنه استطاع أن يرصد ثلاثة نصوص من آداب وعصور متباينة، أولى هذه النصوص: مفارقة زينون الأيلي ضد الحركة، النص الثاني لكاتب صيني من القرن التاسع يدعى «هان يو» النص الثالث من كتابات كريكجارد القصصية.

وفي أدبنا العربي يمكن أن ننسب مثلاً نزار قباني لعمر بن أبي ربيعة، وأدونيس لأبي تمام، ومحمود درويش للمتنبي، فهؤلاء الشعراء العرب «الأقوياء»

حسب تعبير هارولد بلوم لهم سلالاتهم الواضحة، والنقد الحديث يعطي أهمية كبيرة لهذا البعد في فهم مثالي للشعر.

الشجاعة من أجل الوجود

حياة الناس، حافلة بالمواقف الشجاعة، وبالرجال الشجعان التي تستحق أن تدون وتروى وتصور. وأنا أكتب هذه الزاوية، والشعب الفلسطيني الشقيق يسطر اليوم ومنذ تاريخه مع المأساة، أروع المثل في الشجاعة، ولا تستطيع الكلمات مهما كانت بليغة، أن تفي هذا الشعب النبيل حقه وترتقي إلى مستوى مآثره! ما نتحدث عنه هنا شيء آخر غير شجاعة الأمهات والآباء والأبناء والمحاربين المقدرة، بل شجاعة النخب الثقافية، وهذه لا تتعارض مع الأولى بل تستمد منها الوهج والتألق. عالم المثقفين المتنوع والمركب حافل بالشجعان كما هو حافل بالرعاديد الجبناء! الشجاعة ليست حكراً على ممارسة الحرب والقتال، بل قد تكون موقفاً في الحياة ومن أجل الحياة، موقفاً شامخاً في وجه الإغراء، وفي وجه أحابيل القوة، وفي وجه الخداع، وفي مواجهة التهافت. الشجاعة هي تأكيد للذات، على إنها ذات عصية، هي حضور للإنسان المقدام، الذي لا يخشى في الحق لومة لائم، لا ينافق ولا يرائي. قد يظن البعض أنني أدعو إلى الزهد والدروشة والتصوف.. ويقول: هذه طوباويات طوتها صفحات التاريخ، ونحن في عصر البراغماتية والذرائعية، وعصر الشطارة والتجارة، وإن هبت رياحك فاغتنمها.. كما يرددون! وقد سمعت منذ أيام أحد المثقفين يقول على الفضاء: «نحن الكتاب أجراء عند من يشغلنا ويدفع لنا، نحن كالعاهرات يبعن أجسادهن، ونحن نبيع عقولنا»! وهكذا قد يقول: الصحفي، والمطرب، والشاعر، والروائي، والناقد الأدبي، والفنان التشكيلي، والسينمائي، وعالم الاجتماع، والأستاذ الجامعي.. فأية ثقافة هذه؟! أليست ثقافة الأجراء والخدم بل العبيد؟! أبمثل هذا النمط من الحياة الثقافية التي يعمل معظم فرسانها بإمرة ممولين من

وراء الحدود، وتحت أقدام أمراء وأميرات وجوارٍ؟ أبمثل هذا تكون ثمة ثقافة؟! ألا نحصد اليوم نتائج هذه المفسدة التي بذرت وعمل عليها منذ سنواتّ؟ والتي أفسدت التراب والماء والهواء؟! ثقافة تقلب الحقائق بكل أريحية، تجعل العدو صديقاً، والصديق عدواً، وتجعل من المجرم ملاكاً ومن البريء الشريف مجرماً آثماً؟ ثقافة تجعل من الفأر بطلاً، ومن البطل حماراً؟! وبكل وقاحة وصفاقة وبلا مراجعة أو ندم! أمام كل ما يحدث، وأمام هذا المشهد الذي يُفرض علينا كليل امرئ القيس الطويل الذي أرخى سدوله، لا يسعنا إلا أن نقف مذهولين، أو نتمتم باللعنات على لعبة النرد المغشوشة التي يلعبها الفاسقون، ونصرخ في قلب الظلمات، بألم ويأس: أيا ليل العرب ألا تنجلي؟! وأين أنت يا ابن الورد، ويا ثابت، ويا طرفة، ويا مالك بن الريب، و كل الرهط الشجعان من أبناء قحطان وعدنان؟! حتى ولو كانت كصرخة في وادٍ، فلنصرخ صرختنا المعلنة أو المكتومة، التكرار يُعلّم أحياناً. حاجتنا إلى الشجعان ملحة اليوم،لسنا نحن العرب فقط نفتقد الشجعان، بل العالم كله يحتاج إلى مثل هؤلاء الذين يقفون بصلابة، ويكتبون ويتحدثون برباطة جأش دون وجل أو خوف. الشجاعة هي الكفيلة في أن تكون بوابة الخروج مما نحن فيه من تدهور ثقافي وإبداعي. وفي عالم من المثقفين الشجعان يمكن اجتراح المعجزات واختراق جمود المألوف وتجاوزه. لم يكن العالم على هذا الحال في القرن الماضي، ما لذي جعل زمننا يفيض بالمرتشين، المنافقين، السطحيين التافهين الذين ابتذلوا كل شيء ؟!

إنه عصر «الرجال الجوف» الذين وصفهم إليوت!

رغم مظاهر الوفرة عند البعض، يعيش العالم ثقافياً في الضحالة، ونهم الاستهلاك، وشراهة التملك، إنها مطحنة للنفوس يديرها طحان آشر شره، يمدحه المداحون الجبناء، فيزداد فتكاً وتدميراً وانتشاء بتدمير النفوس ونفيها خارج الكينونة. وأمام هذا المشهد، الذي لن يكون ولن ينتج فيه شيء أصيل، لا رواية ولا قصيدة ولا أغنية ولا دراما إلا وتفوح منها رائحة الزيت الأسود والغاز، أمام هذه الحقيقة المرة لابد من الشجاعة.

الشجاعة والأمل

فرضت علينا الأحداث الدامية وواقع الأمة ارتدادات متنوعة، بعضنا لم يحتمل هول ما جرى، فأودت به النوائب، وما أكثر ما شهدنا فراق الأعزاء وموت الفجاءة، ممن أهلكهم الحزن وأزهقهم البلاء! والبعض غرق بالحزن والكآبة والتشاؤم، ولسان حاله يقول؛ لقد طال ليلنا مع البرابرة أما آن لهذا الليل أن ينجلي، وبعض آخر آثر أن يلوذ بالاغتراب وبعضهم فر منذ اللحظة الأولى، خوفاً أو لغاية في نفسه، وللناس في أحوالهم شؤون! وبقي من بقي من الصابرين المحتسبين يساند بعضهم بعضاَ متعلقين بالأمل وبإرادة لا تقبل الهزيمة، مهما كانت الأثمان، ومهما بلغت التضحيات! وشتان بين هذا وذاك، بين من تجذر في الأرض، ووقف بشموخ، وقاوم عدوان الأعداء، وغدر (الأشقاء) وإرهاب الغرباء، وخيانة العملاء، واجههم مجتمعين بالأمل والثقة بالانتصار.

صحيح، لم نكن حالة فريدة في التاريخ، ولسنا الشعب الوحيد الذي يوضع في مواجهة الاختبار الصعب، ويجتاز المحن، نحن حلقة من سلسلة الحضارات التي شعوبها وأبطالها صنعوا التاريخ وصاروا أبطالاً دونتهم الأساطير و الملاحم والروايات. الشعب بصموده البطولي، أكد للعالم أنه لن ينهزم ولن يكون إلا بالمستوى اللائق لما يحمله من روح وإرث بلاده، وإن الألم يوحده ولا يفتته، والوطنية السورية، أينما كان حاملها، في الداخل أو في الاغتراب، غدت بفعل المعجزة البطولية للصمود الداخلي هوية ذات معنى كلاسيكي، وقلت في مرة سابقة، إن بإمكان السوريين أن يعيدوا للعالم بعضاً من كلاسيكيته المفقودة، أن يعيدوا له روح البطولة التي حاول الكاتب اليوناني الشبه ملحمي كازنتزاكيس والشاعر اليوناني المقاوم ريتسوس والموسيقي اليوناني تيودر راكس أن يعيدوا الكلاسيكية الإغريقية عبر اليونان المعاصر ولكن الفاشية هزمت حلمهم النبيل! كافافيس الشاعر اليوناني الذي ولد وعاش في الاسكندرية وسع دائرة التراجيديا

البطولية لتكون سوريا مع اليونان ومصر مسرحاً للحلم الكلاسيكي، وهذا ما لامسه أدونيس ومحمود درويش بشكل أو بآخر في قصائدهما.

الفاشيون الجدد، اشرأبت أعناقهم، وظنوا أن ريحهم قد هبت والفرصة سانحة الآن وعليهم اغتنامها! أجروا التحالفات، وعقدوا الصفقات، وتزيوا بالزي الربيعي وبالرؤوس الميدوزية، وأرادوا من أرض سورية أن تكون مسرح الظلمات لأرواحهم الظلامية! هؤلاء الجهلة لم يتخيلوا أن في هذه الأرض رجالاً:

«يــستعذبون منايــاهم كـــأنهم لا يخرجون من الدنيا إذا قتلوا»

الشباب السوري، متمثلاً بالجيش العربي السوري، أدهش العالم، وأثار الإعجاب في نفوس الأحرار، وقدم الأمثولة العظمى، وهو يدحر الفاشيين، ويدافع عن وحدة الدم والتراب السوريين باقتدار و شجاعة ويقدم الشهداء الأبرار والتضحيات الجسام، دون أن يبحث عن مجد أو مكافأة أو تتويج بأكاليل الغار، وهو يستحق أكثر من ذلك بكثير، بل يدافع عن وطنيته بوعيه العميق لحجم الخطر على الماضي والحاضر والمستقبل، ولأنهم أبطال حقيقيون، على تماس مباشر مع الحقيقة، لا يبالون بما يرميهم به السفهاء الفاشلون من اتهامات ومن إساءات، ولا ينتظرون من هؤلاء أي إنصاف، وحسبكم أن أحدهم نعت جورج بوش بحربه على العراق بـ«بطل الحرية» آملاً منه أن يكمل مشواره غرباً، وهذا كان قبل أن تهب أي نسمة ربيع على دنيا العرب! ربما شاء التاريخ ان يكون الجيش اليوم هو الطليعة وهو النخبة الأشد وعياً ومسؤولية، وأعرف أن هذا الكلام يجلب البغضاء لقائله، ويتحسس منه دعاة (المجتمع المدني) وتنفر جلودهم بالحكّة، ولتغفر لنا ليبراليتهم المستجدة هذه الشطحة، وليراجع هؤلاء الدعاة أفكارهم اليقينية، فالدنيا قُلَّب والعقول تائهة!:

«وحـالات الزمـان عليـك شـتّى وحالـــك واحـــد فـــي كـــل حـــال»

ربما دفع التحدي، وإمعان الآخرين بالعدوان علينا أن نواجه بكبرياء، وليس هذا بغريب، وأن نتصدى متحلين بالمزيد من الإرادة ومن الشجاعة والأمل

بهزيمة الأعداء وهذا ما يتجلى اليوم بكل صوره في تصرف السوريين المدهش في روعته!

الطبيعة والإنسان

لماذا تعنى الفلسفة، عبر تاريخها بالطبيعة وبما وراء الطبيعة؟ يمكن أن يكون هذا سؤالاً يطرحه كل منا على نفسه، ويحاول أن يجيب عليه، إذا كان من هواة الفلسفة وقضاياها.

بداية، الطبيعة مصدر المعرفة الأكبر: مصدر الخبرات، مصدر الجمال، والقبح أيضاً، مصدر الشعر والإلهام الشعري.. إن أي تماس مع الطبيعة يقود إلى التأمل وإلى النشوة، وبالتالي إلى المعرفة و إلى الإحساس الجمالي. ويرى أنصار الطبيعة، أن ثراء الطبيعة لا حدود له، ومكنوناتها لم تستنفذ بعد، بل تتجدد دوماً وتلقائياً، ويرى بعضهم أن ليس للطبيعة غاية، وعلى الأرجح ليس لها قانون. اهتم الفلاسفة اليونانيون بالطبيعة بشكل كبير، ولأرسطو كتاب: «الطبيعة» الذي تلقفه فلاسفة العرب كالفارابي وابن سينا وابن رشد، وتحدثوا كما الإغريق أو بتأثير منهم عن عناصر الطبيعة الأربعة: (النار، الهواء، التراب، الماء) وعن الحركة والزمن، و«الأين» و«الكيف» كما عند ابن سينا، و تحدثوا عن النفس كطبيعة أيضاً. وكذلك الفلسفة الكلاسيكية الغربية حتى العصر الحديث، لا تخلوا مجلداتها من صفحات عن الطبيعة. قسم ابن سينا الفلسفة إلى أجزاء ثلاثة: الفيزياء = (علم الطبيعة) المنطق = (علم طرائق معرفة الطبيعة والإنسان) الميتافيزيقا = (علم معرفة الوجود ككل) ويرى في الأخيرة مادة العلم الأسمى. ويرى ابن رشد أن الله والطبيعة موجودان منذ الأزل. وعند سبنيوزا الطبيعة هي العلة والمعلول، تتطابق مع الجوهر. والإنسان، روحاً وجسداً، جزء من الطبيعة.

وهذا ما يعرف بوحدة الوجود. كثيرون جداً في تاريخ الفلسفة الذين تحدثوا عن الطبيعة، يستحيل عرض أفكارهم هنا، وإن كنا نحتاج لأن نشير إلى بعض ما

نراه هاماً في موضوع العلاقة بين الطبيعة والإنسان. لقد ربطت الفلسفة بين الطبيعة والإنسان، وجعلتها كعلاقة الفكر بالوجود، ويرى أبو حيان التوحيدي في المقابسات: «إن الإنسان موزون بكفتي العقل والطبيعة». طبيعة الإنسان الخاصة، والطبيعة المحيطة به، أو ما يسمى المحيط الوجودي للإنسان، وعندما يتحدث القدماء العرب على أن الإنسان مكون من طبيعة وعقل، فهم باعتقادي يتحدثون عن الطبيعة الإنسانية التي هي العقل+ مجموع الدوافع والغرائز والأحاسيس.. وهذا غير الطبيعة الخارجية، وإن كان يرتبط معها بروابط عديدة. والاشتراك بين الذات والطبيعة، يطلق عليه هيجل: «الوعي» ويقول إن عالم الإنسان ينمو في سلسلة من عمليات اندماج الأضداد، ففي المرحلة الأولى تتخذ الذات وموضوعها شكل الوعي وتصوراته. في المرحلة الثانية، يظهران بوصفهما الفرد الذي يدخل في نزاع مع الآخرين. وفي المرحلة الأخيرة، يظهران بوصفهما الأمة، وفي هذه المرحلة وحدها يتم الاندماج بين الذات والموضوع. وعلى أهمية الطبيعة الإنسانية وعلاقتها بالطبيعة الخارجية، فالذي يعنيني هنا الطبيعة الخارجية التي تحيط بنا، كموضوع للتأمل، وكمصدر للأحاسيس. نحن، عندما نتأمل في الطبيعة نستدرج المعرفة الكامنة فينا وفي الطبيعة، ونستدرج الخبرة، والشعر والخيال. ويرى أحدهم أن أصل الأحاسيس هو العالم الخارجي، كما أن عالم الخيال الذي يمتح منه الفنانون هو من الطبيعة، ومن المنطقة غير المكتشفة بالطبيعة. وفي الطبيعة تعدد، واختلاف، وصراع، ووحدة، وفيها واقع وخيال، ليل ونهار، زمن ووقت ومكان، حضور وغياب، حركة وثبات، وفيها سرد ومحو للسرد، وهي مصدر اللغة والأسطورة.. وقد مزج الناقد الأسطوري نورثروب فراي بين الطبيعة والأسطورة، واشتق منهما نظريته الأدبية عن «الميثا الأولى» التي تتكرر بانزياحات عن الأصل، وتحاكي الفصول الأربعة. إذاً لا نستطيع الانفصال عن الطبيعة، أو نفي ذاتنا خارجها، فالإنسان بحد ذاته طبيعة، والبشر مكونون من عناصرها. وسبق لعبقري اتهم بالجنون في القرن الماضي أن قال: «الجسد طبيعة ثانية، كما أن الطبيعة جسد ثان. كلاهما يختزن رعشات كامنة، يمكن عن طريق التحريض عبر جهاز (الأركن) أن نجعل كلاً

منهما يهطل مطراً!..» ولم يتح لـ: ويلهم رايش أن يثبت صحة نظريته! إذ صفّي في الولايات المتحدة بسبب أفكاره التي تفسد الطلبة! بكل الأحوال، يمكننا أن نزيد على رايش ونقول: النفس أيضاً طبيعة ثالثة، ونحن مدعوون للتأمل العميق في الطبيعة الأولى والثانية والثالثة. الطبيعة والإنسان.

النفي إلى الظلمات!

تشكل قصة النبي يونس بن متى، عليه السلام، وفي القرآن الكريم يدعى: «ذو النون» حقلاً جذاباً للتحليل. وهي من منظور الدراسات الحديثة، تعادل المتاهة، وتندرج ضمن ما يسمى: «القصص العجائبية». المعروف لمن قرأ القصة ولمن سمع بها ، أن يونس ابتلعه الحوت! وتبين القصة، كما جاءت عند الرواة المسلمين، ومنهم الثعلبي، أن أكثر من حوت ابتلع يونس!: «لما وقع في الماء، وكَّلَ الله به حوتاً فابتلعه، وأوحى الله تعالى إلى الحوت: إني لم أجعله لك رزقاً بل جعلناك له حرزاً ومسكناً، فخذه ولا تكسر له عظماً، ولا تخدش له لحماً» وابتلع الحوت حوتاً آخر، فأهوى به إلى مسكنه في البحر، فالتقمه حوت آخر، وانطلق به من ذلك المكان، حتى مر به على دجلة ثم إلى نينوى! ولا بدّ أن من عجائب القصة أيضاً، عبور الحوت إلى دجلة!

من جوف إلى جوف، ثم من ظلام إلى ظلام! إنه منفى خاص واستثنائي، يليق بسيدنا يونس (بطل القصة)! نبدو، كأفراد عبر التاريخ، يتهددنا هذا المصير؛ أن يبتلعنا الظلام! وإذا كان يونس قد عاد،إلى نينوى، برعاية الله، فعودتنا غير محتومة، إذا ما ابتلعنا الظلام! وقد تبدو القصة كما يرويها الرواة بسيطة، وذات مغزى يتكفّل به المفسرون! ويمكن للخيال الحديث أن يضفي عليها أبعاداً جديدة تجعلها تبدو أكثر عمقاً! لقد تكلم الفلاسفة على مدى قرن، عن الوجود والعدم، وجاء التحليل النفسي، وتحدث أعلامه عن العودة إلى الرحم الأمومي! وتحدث مفكرو ما بعد الحداثة عن فلسفة (المتاهة) بوصفها حقلاً للتجربة والمعرفة، ومنهم من قال، المتاهة وطن المتشككين! كل هذه الأبعاد

الجديدة، قد تشع من القصة، مع احتمال وجود أبعاد أخرى لم يتم اكتشافها بعد، تضاف إلى أبعادها الوعظيّة، بصفتها قصة دينية. ومن هنا تأتي أهمية القراءة في التعامل مع النص على أنه أفق مفتوح! بينما القراءات التفسيرية التقليدية، تجعله نصاً مكتملاً ومغلقاً، وتجمده بمعان محددة.

وعلى ضوء ذلك، نجد من الخسران أن نتعامل مع تراثنا الحكائي، وفق مستواه البدئي، أو الأولي، إذا جاز القول. بل سيكون من الممتع أكثر أن ننشط خيالنا في قراءة هذا التراث بجدية أكبر.

إن عصر الحداثة استخدم الأساطير واستنفذها، والأساطير تبقى محدودة، فلكل حضارة أسطورة واحدة، أو بضعة أساطير تدور في فلك الأسطورة الكبرى أو على هامشها، وثمة حضارات تفتقر إلى الأساطير، وأذكر بهذا الصدد، أن في رواية «ملاك الجحيم» للأرجنتيني أرنستو ساباتو، إشارة ساخرة إلى أن السويسريين أخفقوا في تكوين أسطورة قديمة، فقدموا أسطورة الساعات الحديثة!

أما مطارحات ما بعد الحداثة، فهي تزدري الأسطورة، وتنقب عن الحكاية! ونحن من منطقة غنية جداً بالأسطورة، وبالحكاية معاً! وربما ليس لدينا ما نباهي به سوى ذلك! وعزاؤنا أنه؛لا يمكن للعالم أن يقفز فوق أساطيرنا وحكاياتنا! وستبدو حكاياته العجائبية، التي يستفيض امبرتو إيكو، بروعة في تأويلها الجمالي، فقيرة للغاية أمام حكاياتنا! وليس هذا تعصباً، بل دعوة للثقة بما لدينا، والاستثمار فيه، ما يخولنا أن نقول للجاحدين والمتعالين على الضفة الأخرى: انتبهوا، نحن أيضاً شركاء في هذا الزمن الذي تسمونه ما بعد الحداثة، وكما قد حبانا الله بالطاقة (البترول والغاز) الضروريان لصناعتكم ودفء أجسادكم، فقد جعلنا قوم حكايات وأساطير،ضرورية لآدابكم ولدفء عقولكم!

وبالعودة إلى قصة النبي يونس، يمكننا أن نقرأ، مجازياً، مصير العالم اليوم في أزماته المتلاحقة، وكأنه في بطن الحوت، ينادي في الظلمات! ولا يسمع إلا قهقهات الحيتان!.

العرب والأساطير

ينكر البعض وجود منظومة أساطير متكاملة عند العرب، على اعتبار أن العرب لم يعرفوا الاستقرار في المدن وحياتهم حياة بداوة، ومعتقداتهم فردية متنافرة. هل هذا صحيح أم أنه مجرد رأي يفتقر إلى التقصي والعمق؟

علم الأساطير(المثيالوجيا) علم حديث لم يعرفه الأوربيون إلا في أواخر القرن الثامن عشر، ثم أولاه الفكر الحديث أهمية كبيرة في دراسة (الأنتربولوجيا) وعلم الاجتماع، وفي النقد الأدبي تشكل تيار كبير عرف بالنقد الأسطوري، يرجع كل شيء يقوله الشاعر إلى أسطورة بدئية. وللأسطورة تعريفات عديدة، ومما ورد من هذه التعريفات في كتاب الدكتور محمد عبد المعين خان: «الأساطير والخرافات عند العرب» نذكر: تعريف زينو فانيس: الأساطير هي حكايات القدماء في الدين. وعند آخر إنها مسلك أصحاب التشبيه والمجاز، وأن المقاتلة بين الآلهة يعبر بها عن التنازع بين عناصر الطبيعة(الهواء والماء والنار والتراب) أو بين عواطف نفسانية مثل الحب والعداوة، ومنهم من قال إن الأساطير هي التاريخ في صورة متنكرة. أما ماكس ملر يقول إن الأساطير مرض من أمراض اللغة. وهربرت سبنسر يرى أنها الإدراك الخاطئ للأشياء. ويناقش خان هذه التعريفات ويخلص إلى أن: «الأسطورة عبارة عن تفسير علاقة الإنسان بالكائنات، وهذا التفسير هو آراء الإنسان بما يشاهد حوله في حالة البداوة، والأسطورة مصدر أفكار الأولين، وملهمة الشعر والأدب عند الجاهليين، وهي الدين والتاريخ والفلسفة جميعاً عند القدماء». كما يؤكد خان على التمييز بين الأسطورة والقصص والفلكلور. فالقصة هي الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل، مثل قصة سد مأرب، أو الزباء، أو داحس والغبراء، البسوس. أما الفلكلور، فهو اعتقاد القدماء الذي لا يزال مستمراً مثل قصة حاتم في الجود والسموأل في الوفاء. وبالعودة إلى موقف العرب من الأساطير، فربما كان العربي ينظر إلى الأساطير بشيء من الاستعلاء أو

الاستخفاف فهي شيء مخالف للحقائق، ويكفي أن يقول إنها أساطير الأولين أو حديث خرافة ليدير لها ظهره، وربما لأسباب تاريخية ونفسية وبيئية لم يشغل الإنسان العربي نفسه بالتفكير في أصل الأشياء، وفي التساؤل عن بداية التكوين، وليست لهم أساطير معروفة في ذلك أو أنه قد استأنس لأساطير الأمم المجاورة له في ذلك ولكنه لم يتبن هذه المعتقدات وظلت بالنسبة له عبارة عن أساطير الأولين وخرافات. فقد ظهر العرب على الساحة الحضارية في طور متقدم من الثقافة والنضج الحضاري في المنطقة وفي العالم، وكانوا قد تجاوزوا البدائية بأشواط عديدة. وتاريخ العرب عند المدونين الإسلاميين يعود فقط إلى مائة سنة قبل الإسلام، وتاريخهم قبل ذلك مجهول تماماً، رغم أن ذكرهم الأول يعود إلى ٨٠٠ ق.م في آثار الآشوريين والشعوب المجاورة لهم. وعلى الأرجح أجرى المدونون العرب في عصر التدوين في القرن الثاني الهجري وما بعده الكثير من التنقيحات على المعتقدات والأساطير (الجاهلية) وفق مصلحة الديانة الجديدة للعرب، ومع ذلك وصلنا بعض ما يشير إلى وجود أساطير ومعتقدات، وكان لهم معابد وأصنام وطقوس وإشارات إلى أساطير حول النجوم والكواكب موجودة في أشعارهم، وهذه كلها أجواء أسطورية، وحياة ثقافية، عرفها العرب بعد احتكاكهم بالأمم والحضارات الأخرى، وفي مرحلة من النضج والتنوع الثقافي عندهم. وحياة العرب لم تك كلها حياة بداوة ورعي، بل عرفوا الحياة الزراعية والاستقرار في المدن في اليمن ومصر وسوريا والعراق وفي هذه الأمصار التي سكنها العرب مع الشعوب الأخرى أقدم المدن المأهولة في التاريخ، وفيها ثقافات وأساطير ربما لم تكتشف كلها بعد. وإذا كانت حياة العرب متداخلة مع الحضارات السامية، لماذا لا تكون الأساطير البابلية والآشورية وغيرهما من الأساطير القديمة، هي أساطير المنطقة ومن ضمنها العربية، والإشارات في الشعر وفي القرآن الكريم تشير بوضوح إلى معرفة العرب للأساطير وبالتالي إلى قابليتهم لتوليدها مثل غيرهم من الأمم، وإذ لا يوجد عند العرب تأليف فلسفي إلا أن التفكير الفلسفي لا ينعدم بل هو موجود في ثنايا قصائدهم، ولنقس على ذلك الأسطورة.

العقل والخيال

العقل والخيال، هل هما توءمان أم خصمان، وأيهما كان له البطولة في الأولية وفي الفاعلية؟ أسئلة ما برحت الفلسفة القديمة والحديثة تطرحها بشكل أو بآخر. ولكن كعادتها الفلسفة تطرح الأسئلة ولا تقدم إجابات كاملة، بل تترك الأمر معلقاً في فضاء التساؤل! والخيال ليس أمراً ثانوياً، وقد شغل أذهان الفلاسفة العرب وكتبوا عنه بعمق: ابن سينا، والفارابي، وابن عربي والسهروردي وابن رشد.. ويشكل الخيال مع العقل ثنائية قديمة تتداخل وتتنافر في جدل الفلاسفة والمفكرين! ورغم تباين مواقف الفلاسفة من هاتين المسألتين ظلتا مرتبطتين بوشائج لا يمكن قطعها. كان الرومانسيون الانكليز في القرن التاسع عشر من أشد المتحمسين للخيال كقيمة مطلقة في الشعر، ووصل الأمر عند بعضهم، لاسيما وليم بليك إلى تأليه الخيال، واعتباره المنبع الوحيد للطاقة الروحية، بل هو يذهب أبعد من ذلك ويرى في الخيال عالم الأبدية اللانهائي، وهو الصدر الإلهي الذي سيضمنا إليه بعد الخلاص من جسدنا الطيني، والخيال هو الوطن الحقيقي للشعراء، وهو الذي يكشف الحقيقة التي تخفيها المرئيات. وإذا كان في موقف بليك غلو في عبادة الخيال لم يبلغه غيره من الرومانسيين، إلا أنهم أجمعوا على أن الشعر بدون خيال ضرب من المستحيل! ومع ذلك لم يغفلوا للحظة عن حقيقة أن العقل هو حجر الزاوية لكل نشاط ذهني، وأن الخيال هو ثمرة العقل العملاقة. الرومانسيون جميعاً أقروا بالعلاقة الوثيقة بين الخيال والواقع، ولكن ردوا كل شيء للخيال، ومنهم من يرى أن لا شيء خارج تصوراتنا! وأن العقل دون خيال لا يفضي إلى شيء ذي قيمة. ولا يخلو الأمر من الحرج في عرض بعض آراء المتعصبين للخيال لأنها تلامس الهرطقة أو التجديف أو الوثنية أحياناً! وربما يعود الأمر إلى نزوعهم للفردانية وتمجيد الروح الفردية، وكردة فعل على فكر القرن الثامن عشر الذي سمي بـ «عصر التحليل» أو عصر تمجيد العقل، وربما رد على فرنسيس بيكون،

وأوغست كونت والوضعيين الذين ربطوا الخيال بالميتافيزيقية وبالأوهام. ويرى بيكون أن الخيال مجرد نشاط ممتع لا ضرر فيه. وآخر يقول: «إن الخيال هو الموهبة الميتة». والفلاسفة العقلانيون محوروا نشاط الذهن وكل شيء حول مركزية الإنسان والعقل الإنساني، ودعوا بقوة للحد من سلطة الخيال وجنوحه نحو الفوضى، وأن كل شيء عقلاني واقعي، وكل واقعي هو عقلاني ولا يكترثون بما هو خارج الواقع، و بما فيه خروج على العقل. وبما أن الأمر أخذ منحى تصارعياً بين أنصار العقل وأنصار الخيال، وذهب العقليون إلى أنه لا يجوز وضع الخيال هذا الهزيل والمريض في مقارنة مع العقل المنتصر ذي السطوة والمهابة! ولا بد إذاً من جعل الخيال في مرتبة أدنى، واعترف بعضهم على مضض بأن العقل لا يعمل من دون خيال. أما عن موقف أسلافنا العرب، فقد كان لهم السبق في الخوض في هذا الصراع، لكن بالمجمل، وحسب اعتقاد الدكتور محمد المصباحي، أن الحضارة العربية الإسلامية في جوهرها هي حضارة عقل لا حضارة خيال، ويستدل على ذلك بأن اللغة العربية أوجدت ما يقارب من أربعين مرادفاً لكلمة العقل، بينما لم تعط لكلمة الخيال سوى مرادفات معدودة. الآراء في الموضوع عديدة ومتضاربة، ومهما يكن، لا يمكن تجاهل دور الخيال في انتصارات العقل وفي الاكتشافات والحقائق العلمية، والإبداعات الفنية والأدبية، والخيال الإبداعي هو الخيال الحر الدفاق المشرق، والذي يشكل قاعدة انطلاق للتفكير العقلي. أحلام الفلاسفة، التي هي ضرب من الخيال حلمت بعالم عادل وبمدن سعيدة، وخيال الشعراء منذ ما قبل عصر العلم بكثير كان قد راود الفضاء، وما رحلات لوقيان السوري من القرن الثاني الميلادي المدهشة في الفضاء، والتي سبقت كل روايات الخيال العلمي إلا دليل صارخ على أن الخيال المنطلق يتحول إلى بصيرة ثاقبة .

الفرصة السانحة

الفن المسرحي من أكثر الفنون التصاقاً بالجمهور، بل هو فن التماس المباشر بالناس، ولهذا يتمتع بميزات تجعله أكثر مقدرة على محاكاة الواقع، ونقل بعض ما يجري من أحداث، ومن أصداء هذه الأحداث إلى المنصة، وتاريخ المسرح حافل بمثل هذا الحضور الحي والفعال بين الأطروحات المسرحية والشارع. وفي عصرنا الحديث أمثلة كثيرة لمبدعين مسرحيين عالميين اتجهوا هذا الاتجاه المباشر دون حرج، ولاقوا نجاحات مبهرة، نذكر منهم برشت في بعض مسرحياته، والإيطالي داريوفو، والبريطاني بيتر بروك، والألماني هاينر مولر والعشرات غيرهم في دول العالم بما اصطلح على تسميته بالمسرح السياسي، أو مسرح الدعاية السياسية التحريضي أو الكشفي، وانتشرت هذه الظاهرة انتشاراً واسعاً بعد الحرب العالمية الثانية على شكل فرق مسرحية جوالة. وأصبح هذا الاتجاه له حيز كبير في الاتجاهات المسرحية المتنوعة، وهو مدعم بوجهات نظر معتبرة في فهم معنى المسرح ووظيفته، يرى هؤلاء أن المسرح الذهني، عمق الهوة بين المسرح والجمهور، وخاطب قطاعاً نخبوياً من الناس، وهذه الأنواع من النصوص، هي نصوص أدبية تقرأ في الكتب أكثر مما تشاهد، وهي تخاطب قراء أكثر مما تتوجه إلى عموم المشاهدين! ودعاة هذا النوع من المسرح المباشر يتمتعون بحرية الحركة، إذ لا يبالون كثيراً بالديكور، ويمكنهم أن يعيدوا النظر في أعمال كلاسيكية وتاريخية وفق رؤية جديدة، بعيداً عن الميلودرامية، واستدرار العواطف، وإثارة الانفعالات. يستطيع المسرح في نظرهم أن يدخل باب التاريخ، وأن يفتح أروقة بين الماضي والحاضر، ويطرح قضايا كبرى مع التفاصيل اليومية، وأن ينغمس في الواقع بشكل طبيعي، عبر ما كان يسميه أميل زولا: المقطع العرضي أو شريحة الحياة، والأهم من ذلك يمكن أن يؤدي ممثل واحد كل الأدوار، وأن يكون المخرج هو المؤلف والمؤدي! وفي اعتقادي هذا يمنح المسرحي حرية كبيرة في الاجتهاد والتجريب، وأن ينقل الحوار الدائر بين الناس أكثر من غيره، لأنه يستطيع أن يقول بملء الفم: أنا في قلب الواقع، دعوني أقول ما يدور في نفسي وفي الواقع، دون أن يكون ثمة

جدران بيني وبين من أخاطبهم. وهنا ليست القيمة الأدبية هي الأهم في مسرح الواقع أو في مسرح القضايا! هكذا يكون الجمهور طرفاً أساسياً في العمل المسرحي لا بصفته متلق وحسب بل بوصفه شريكاً لا معنى لهذا النوع من المسرح من دونه! هذه القضايا ليست جديدة لقد خاض فيها دعاة المسرح المعاصر منذ منتصف القرن الماضي، و حين توقف هذا الجدل وهذا الاجتهاد جعل المسرح ينزوي وتقل أهميته! قد يستطيع الروائي والشاعر لأسباب عديدة أن يهرب من الواقع المباشر إلى الخيال أو اليوتوبيا، أو الترميز، إلا أن المسرح لا يسعى إلى هذه الميزة، حيث من طبيعة المسرح أن تتقلص المسافة بين الفن والحياة، وهذه خاصيته المعادلة لما في باقي الفنون. إذاً لا بد للمسرح من التعاطي مع المعطيات الجديدة، والناس قابلة في اعتقادي لتلقف فنها الأكثر حميمية إذا نجح في أن يعود لها من جديد ما يسمونه في بعض البلدان المسرح الحي الذي يخاطب الناس بلغتهم دون حرج، هذا دون المساس بأتباع التيارات المسرحية الأخرى حتى أشدها تطرفاً في الشكلية أو الفنية أو الذهنية، فالفن المسرحي يزدهر بتنشيط أنواعه وتياراته العديدة. فالفرصة اليوم أمام المسرحيين العرب والسوريين سانحة أكثر من أي وقت مضى لاستعادة زمام المبادرة، والفرصة سانحة للمبادرات الجريئة التي تعيد لهذا الفن العظيم حيويته، وتنشط حياته، أو تنعشه، وعلى داعمي الثقافة أن يدعموا هذه المبادرات التي ألاحظ أن الشباب في سورية قد تلمسوا نقطة الانطلاق، وبادروا في العمل، وآمل أن يحظوا بالدعم اللازم من الجهات المعنية، ولاسيما من وزارة الثقافة، فلتتكون فرق تمثيل شعبية، أو فرق جوالة تقدم عروضها حيث يتاح لها ولعل مسرحية الأستاذ سامر محمد إسماعيل: «ليلي داخلي» التي عرضت على خشبة مسرح القباني مؤخراً، وهي اليوم، كما علمت، تتجول في مدن أخرى، تندرج ضمن هذا المشروع المبشر.

الفن الضائع

يثار في الإعلام الثقافي أحياناً تساؤلات حول مستقبل القصة، أو حول انحسار هذا الفن ومصيره! والمقصود هنا ما يعرف بالقصة القصيرة. وتعليقاً على ذلك وحول هذا الفن الذي خفت أشعاعه وانحسر مجده الذي استمر قرابة القرنين أو أكثر، والخوض في أسباب ذلك لا يتسع له المجال الممنوح هنا. في بلد مثل بلدنا، الذي تجاوز فيه عمر هذا النوع الأدبي قرابة القرن، ازداد عدد كتاب القصة عشرات الأضعاف عما كان عليه في العقود السابقة، وتعقدت أشكال الكتابة، وتنوعت المؤثرات والمرجعيات، ومع ذلك، وهذه من المفارقات، فإن واقع القصة ليس على ما يرام، والمتأملون في كنه الفنون قد لا يدهشهم ذلك، فالانتشار الضيق أو الواسع ليس دليلاً على قيمة الفن و مدى توهجه! في هذا النوع الحساس من الكتابة الذي ازدهرنا به وسطع عندنا أعلام كبار فيه، ويكفي أن نستذكر بعض الأسماء التي يحق لنا أن نشمخ بها، مثل: علي خلقي، مظفر سلطان، حسيب كيالي، سعيد حورانية، صباح محي الدين، جورج سالم، زكريا تامر، حيدر حيدر، عبد الله عبد، محمد حيدر... وعشرات الأسماء التي تستحق أن تذكر كلما ذكرت القصة السورية التي بلغت أوج ازدهارها في الخمسينات والستينات من القرن الماضي. وكان من الطبيعي أن يزدهر النقد القصصي ويظهر نقاد كبار يتعاملون بجدية مع ما ينتج من قصص في سورية، وأعطى هذا دفعاً للأجيال اللاحقة، التي ظهر فيها مواهب كبيرة، حتى لاح أن هذا الفن من أكثر الفنون السردية رسوخاً عندنا، لكن سرعان ما تبدد هذا الإرث المجيد! فنحن اليوم رغم أننا نكتب القصة، لا نجد لها أي مكانة، ليس لأن القصص التي تكتب اليوم هي أقل قيمة من قصص الأمس، بل على العكس قد تكون القصص الجديدة في بعض الأحيان متفوقة على قصص تلك الأيام! وهذا ما يجعلني أعتقد أن سبب انحسار القصة، وربما يكون هذا الانحسار مؤقت، لا ينحصر في التقلص الكمّي، ولا في ضياع الشكل الكتابي أو فوضى الكتابة عند كتابها، بل الأمر أبعد من ذلك، ولعل واحداً من أسباب هذا الانحسار هو أن القصة القصيرة تطورت وتعقدت، وغدت فنية أكثر من اللازم!

لقد تطورت القصة القصيرة عن الحكاية الشفهية ثم المكتوبة، وكانت الصحافة حاضنتها الأساسية، وفرضت عليها هذه الحاضنة القوية شروطاً صارمة من حيث الحجم والمضمون. فعليها من حيث الشكل أن تكون قصيرة تشغل حيزاً محدداً في الصحيفة، وعليها من ناحية المضمون أن تكون شيقة تجذب القارئ، وأن تتوفر فيها الحبكة والحكاية المؤثرة.. وحين تمردت القصة على هذه الشروط، تخلت عنها الحاضنة، وجعلتها تدفع الثمن! فانحسار القصة القصيرة ليس حالة محلية بل عالمية، هذا فن ضائع اليوم، لا مردود له من الناحية المادية، يتخلى عنه كتابه بالتدريج، بعد أن انزوى عنه القراء بلا أي شعور بالمسؤولية من الطرفين! لأنهما بالتخلي الأخرق عن هذا الفن، يفرطان بفن الخبر والحكاية الأكثر إيجازاً وتكثيفاً وعبقرية، ويعطيان الأولوية لفنون أخرى، الاختلاق والإسهاب في الوصف وسرد التفاصيل، والثرثرة، أحياناً، والتلصص على حياة الشخصيات من صلب تكوينها! إلا إذا كان الإنسان يميل بعقله وعاطفته إلى الإطالة والإسهاب! فهذا يجعل استعادة هذا الفن الخالص من بحران الضياع أمراً لا يعقد عليه الأمل.

المدن الفاضلة!..

إن عالم اليوم يسخر من الحالمين بإصلاح العالم، وتنقيته من الشرور، ويكفي أن تذكر عبارة: «المدينة الفاضلة» حتى تستدعي التهكم، وتوحي بالمدينة الحلم، المدينة المثالية الغير قابلة التحقيق! وكأن الحلم بالسعادة للبشرية ضرب من السفاهة أو الحمق! ومن كتبوا مثل هذه الكتب الخالدة رجال خيالون، وأصحاب رؤى طفولية، أو هواة شهرة! ولا أعرف كيف تسربت إلينا هذه القسوة في العداء للحلم والحالمين، ومتى كنا واقعيين إلى هذا الحد؟! ومن وجه العالم المعاصر برمته لتسفيه زبدة عقول حكماء البشرية بحجة أنهم خياليون أو مثاليون؟! وما كان هؤلاء ليتدخلوا ويقدموا تصوراتهم ورؤاهم لولا

تفشي الشرور في مدن العالم! يقال أن الفترة التي كتب فيها أفلاطون كتاب: «الجمهورية» كانت فترة تدهور في اليونان، بعد الحرب الأهلية بين أثينا وإسبارطة، وهزيمة أثينا (الديمقراطية) ومهما كانت المآخذ، وهي كثيرة، على كتاب «الجمهورية» إلا أنه لا يزال حتى اليوم يُقرأ و يثير الإعجاب، ولم يتوقف الحالمون بإصلاح العالم الأرضي من تقديم تصوراتهم المنظمة والممنهجة ربما منذ ما قبل أفلاطون إلى عصرنا، وقد رماها الماركسيون ،كلها، بوصمة الطوباوية، لإعلاء اشتراكيتهم العلمية التي لم تلبث أن وضعت هي أيضاً في سلة الطوباوية!.. عند أي حديث عن المدن السعيدة في الكتب، سيحضر بكل اعتزاز كتاب الفارابي: «آراء أهل المدينة الفاضلة» وضع فيه المعلم الثاني خلاصة فكره السياسي والاجتماعي والمعرفي، وقد كتبه في مصر تطويراً لرسالة كتبها في بغداد ودمشق، وظروف من القلاقل والاضطرابات كانت تشهدها بغداد عاصمة الخلافة العباسية، ومدن الإسلام المتقاتلة، والتي تتعرض للغزو الخارجي، وينتشر التعصب المذهبي والتطرف الفكري بين خاصتها وعامتها!

لقد أراد الفارابي أن يصلح زمنه الفاسد، وكانت محاولات «أخوان الصفا» الإصلاحية قد تركت أثرها على العقول، ولكن لم يكتب لها أن تتحقق!

المدينة الفاضلة عند الفارابي، هي المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة الحقيقية. فالسعادة لا تتحقق إلا بالاجتماع وفي مدينة تكون(فاضلة) إنْ تحققت فيها السعادة للجميع. والمدن عند الفارابي، هي أصناف: مدينة فاضلة، مدينة جاهلة، مدينة فاسقة، مدينة ضالة، وبين الفاسقة والضالة، المدينة المتبدلة. المدينة الفاضلة هي المثلى التي يصبوا إليها العقلاء والحكماء، أما المدينة الجاهلة فهي مدينة الواقع. والواقع رغم كل شيء فهو يمنح أملاً في التحسن. في «آراء أهل المدينة الفاضلة» الكثير من الأصول والتفرعات والآراء البديعة التي تصدر عن مصلح إنساني كبير، هو أبهى وأكثر حنواً من أفلاطون في جمهوريته. بكل الأحوال، عديدة هي الفراديس الأرضية التي ابتكرها الخيال البشري في حضارات الشرق والغرب،

وللأسف لم يكتب لأي منها النجاح أو الاستمرار، ولكن تعدد هذه المحاولات يُعبر عن رغبة الإنسان في الخروج من الفشل في تحقيق السعادة، وفي أن يقدم الحكماء تصوراتهم العقلية لإصلاح الشأن البشري، وكل هذه المشاريع التي توصف بالطوباوية أو بالمثالية، هي في اعتقادي، واقعية وعقلانية، ونابعة من تفكر في الواقع البشري وفي المصير! وإن الواقع سيبقى مفتوحاً على آفاق جديدة باستمرار، وعلى اقتراحات، وإن مقولة «نهاية التاريخ» والليبرالية هي سقف التاريخ، من أكثر المقولات فشلاً في تاريخ الثقافة، وأقلها قيمة، ولم تصمد في التداول بضعة أشهر، بينما ظلت مدينة أفلاطون ومدينة الفارابي الفاضلتان حيتان حاضرتان عبر الزمن كرمزين للتوق البشري القديم للإصلاح. ونحن اليوم على المستوى المحلي والكوني نحتاج إلى مصلحين حقيقيين، أفكارهم قابلة للتحقق في مدنيّة جديدة تليق بالإنسان.

المعرفة البديلة

تؤكد لنا الوقائع، أن معارفنا وأيديالوجياتنا، بما في ذلك نظرتنا للأدب وتذوقنا الجمالي، كلها باتت قديمة،عاجزة، مفككة، متنافرة، ولا توفر لنا أي حماية أو حصانة ذاتية، لا على المستوى الفردي ولا على المستوى الجمعي! تغير العالم من حولنا بسرعة الضوء، ونحن نتداعى ونتناثر! ونخبنا ضائعة في التيه الصحراوي! وفي ظل هذا التردي الثقافي والسياسي الاجتماعي، قد يبدو من نافل القول أن نطالب بالمعرفة البديلة! وربما قائل يقول: هل توجد عندنا، بالمعنى الحضاري والفلسفي، معرفة، حتى نطالب بمعرفة بديلة؟! أذكر أنني قرأت للمفكر التونسي أبو يعرب المرزوقي مقالاً نشره في تسعينات القرن الماضي، ورسخ بذاكرتي لشدة قسوته، إذ يشير فيه إلى أننا نعيش حرباً أهلية دائمة منذ «الفتنة الكبرى» وحتى حاضرنا هذا، وقد ترتب على ذلك أشياء كثيرة انعكست على شكل انكسارات معرفية، يتوجب علينا الخروج منها! إن صورة

العرب اليوم تبدو جلية، من الداخل ومن الخارج، فهم يتقاتلون قتالاً دامٍ، يشارك فيه الجميع ضد الجميع وعلى كافة المستويات، ومن المستبعد أنهم يدركون لماذا وكيف وقع الأمر وإلى متى وماذا يريدون؟! هل يريد كل طرف أن يفني الآخر؟! والأشد مرارة في الأمر أنه في هذه الدوامة من الحرب الدائرة بين العرب، والتي تتسع وتتعمق لم يخرج من بينهم من يوقف هذه الحرب! أمة تفتقر إلى الحكماء، وإلى الزعماء، بل وإلى العقلاء! في الزمن القديم الذي يصفونه بالجاهلية، برز زهير بن أبي سلمى ليوقف الحرب التي عرفت بحرب «داعس والغبراء» وليصلح بين العرب! أما اليوم، وكما يبدو، فقد ركب العرب رؤوسهم، وأغلقوا آذانهم، وقرروا الانتحار الجماعي! .. فلو كانت لدينا معارف حقيقية وعميقة ربما لكانت وفرت علينا الكثير من المعانات التي نعاني منها اليوم! ويخيل لي أننا أخطأنا جميعاً ولم نقدر بجدية كافية حجم التغير الذي طرأ على العالم عقب ما سماه فرانسوا ليوتار بـ«بالانفجار الاتصالي عن بعد» وراح معظم مثقفينا يهزأون بمقولات ما بعد الحداثة على أنها مجرد صرعة أو موديل من الموديلات الفكرية، والأمر لم يكن كذلك! فقد أشار ليوتار إلى تفكك المذاهب والنظريات والاتجاهات الفكرية الكبرى في المعرفة الأدبية والعلمية، في فترة ما بعد الحداثة. وليوتار هو منظر ما بعد الحداثة وصاحب المصطلح، ومؤلف كتاب الوضع ما بعد الحداثوي. وهو كان يصف المرحلة التي تسود العالم بعد عصر الحداثة التي قامت على سرديات أخلاقية كبرى، وعقائد شمولية تتمحور حول البطولة والصدق والعدل، وما شابه ذلك. وهذه السرديات تتمركز حول أوروبا وتؤكد نرجسيتها الزائفة، والتي جلبت للعالم الحروب والمآسي، والأيديالوجيات المتحاربة والتي جيشت العالم كله للحرب تحت رايتها العقائدية ومزاعمها الإنسانية في نشر الإخاء والحرية والمساواة! نحن، العرب، توهمنا أننا في معزل عما يجري من تغير في العالم، فلا يزال مثقفونا، العلمانيون والسلفيون، رغم إخفاقاتهم، يصرون على تلك السرديات وعلى التمتع بالامتيازات التي منحت لهم في القرن المنصرم! وإذا ما تغير هذا (الستاتيكو)

الثقافي سيذهبون مع أفكارهم ومعارفهم طي النسيان! ولا مفر أمامنا، طال الأمر أم قصر، من المعرفة البديلة. التي تبدأ بالشك بكل معلومة، وإخضاعها للتفحص والتحليل، ولمنطق الاستدلال القائم على القياس والبرهان، وهذا أمر منفصل عن أطروحات ما بعد الحداثة، وكان ممكناً أن يكون حاضراً وملازماً للتفكير منذ زمن طويل، وقد مارسه أجدادنا منذ عصر التدوين وفي زمن الازدهار الحضاري الإسلامي! وهذا ما يعرف بالسلوك العملي، وهو ما يجب أن نتدرب عليه في حياتنا اليومية والتعليمية، في البيوت وفي المدرسة والجامعة والحياة الفكرية والثقافية. ويترافق هذا التدرب مع إعادة النظر بكل المسلمات وإعادة طرح الأسئلة من جديد حول ما كنا نعتقد أننا نعرفه، مثل: معنى الدولة ومعنى القانون، ومعنى المواطنة، وماهو الشعر وما الرواية، ومن هو المثقف أو المفكر العربي الكبير؟!.

المقاومة النقدية

ثقافياً، نحن في مرحلة حرجة، وعلى أبواب انعطافة تاريخية في غاية الخطورة، فأما أن نستفيق، ونلتقط اللحظة، ونحول المأساة إلى فرصة ذات أفق. وأما إلى مزيد من التهاوي والخراب. ربما غفلنا طويلاً وتركنا الأوباش يملؤون الفراغ! حتى طفا على السطح كل هذا السوء الذي كاد يغرقنا جميعاً، لولا بقية من خير في شعبنا المعطاء، وشبابنا المنيع الذي تربى في البيوت الصالحة، وفي كنف الأمهات والآباء الشرفاء. ولا داعي أن أكرر بأننا واجهنا أعتا ما يمكن أن يواجهه شعب في التاريخ، وأريد لنا أن نُمزق إرباً، وألا يبقى لنا مستقر، هائمين على وجوهنا نقتل في الطرقات! وبما أننا عاندنا من أجل البقاء وقاومنا الفناء، فنحن نستحق بجدارة أن نوصف بـ: «الشعب المقاوم» هذا اللقب النبيل يؤهلنا لمواجهة ما هو قادم، ويجعلنا بمستوى التحدي، والتحدي كبير وعظيم، وقد يكون خطير وجسيم! وبما أن كلمة (المقاومة) تفرض جوها وفضاءها، سأحصر نفسي بالحديث

عن جانب ربما غير مطروق، وقد يبدو جانبي أو جزئي وأراه اليوم، وفي كل وقت ضرورياً، ألا وهو «المقاومة النقدية» وقد يسميها البعض الممارسة النقدية، و هذه مهمة أيضاً وتزداد أهميتها كلما تمددت وتوسعت في الحياة الثقافية. ولكن، ثمة فرق بالدرجات بين التسميتين، وأنا ألزم نفسي بالأولى لتتناسب مع الزمن الحرج والانعطافة التي تواجهنا بعد انحسار الإعصار! المقاومة النقدية، تعني أن نتقدم جميعا، كل الناسٍ، بضع خطوات للأمام أو للأعلى، لنجعل من النقد حالة شاملة، تشمل كل شيء: نقد الذات، اللغة، الكلام، المكتوب والمنطوق والمرئي، الحياة اليومية، السياسات المحلية والدولية، البنى الفوقية والتحتية، التاريخ، الماضي، الحاضر، الآداب والجماليات، والبيئة وكل شيء. في هذه الحلبة المفتوحة من الانتقاد الدائم، ننتقل من حالة الاسم إلى حالة الفعل، من الإنشاء إلى الخبر، من الخمود إلى النمو، ومن انعدام المعنى إلى المعنى، ومن الغفلة إلى الصحوة، وفيه تلتقي الذات بالموضوع، وهو فعل تحقق، وانتقال من الغياب إلى الحضور. وهو فعل حرية بامتياز، وليس محالاً بل ممكن وسهل التنفيذ. ولنتخيل للحظة أننا نمارس هذه الرياضة العقلية، بصحبة العقل، و«عندما يغفو العقل تتناسل الوحوش» إذا ما أطلق هذا الفارس المكبل، لن يكون ثمة محال. وبعيداً عن حالة الارتهان العاطفي للتفاؤل والتشاؤم، نحن خرجنا من اختبار صعب، دونه الموت الشقي، وكما يقولون: «الضربة التي لا تميتك تقويك» والشبان، الذين يختزنون الطاقات وقد حفزها التحدي والكبرياء، قادرون على خلق حياة جديدة، الثقافة هي محورها، وهي شكلها ومضمونها، والاحتفاء الدائم بالأفكار الجديدة يحتاج إلى التزود بهذه الروح النقدية التي تجادل كل شيء من أجل تصويبه. وبدلاً من الثرثرة المقيتة على وسائل التواصل الاجتماعي، فلتكن القراءة، والعودة إلى الكتاب أسلوباً جديداً للحياة الجديدة، وليقدم كل من يقرأ كتاباً عرضاً ورأياً مكتوباً فيه عبر هذه الأدوات المتاحة، ولو تقدم المؤسسات التربوية والثقافية توجهاً بهذا المنحى، وهذا ينقذ الشبان من خيبات كرة القدم وما شابهها. وأعتقد أنه كان في كل مدرسة مكتبة وأمين مكتبة، فلتفعل هذه الميزة من جديد، كأن يمنح التلاميذ علامات إضافية على نشاط

المطالعة، كأن يكون هذا محتوى مادة السلوك التي تدرج على صحيفة التلميذ. إنه مجرد اقتراح. وفي جو المقاومة النقدية لا بد من الاقتراحات والمبادرات. وتحتفظ ذاكرتي منذ الطفولة بصورة حية لا تنسى، وكأنها مقطع من فلم، شاهدته في قريتي لثلاثة رجال يقرؤون ،معاً، رواية «المصابيح الزرق» للروائي الكبير حنا مينا، يضحكون ويتحاورون بانفعال جذاب، وكانت من المشاهد التي جذبتني للقراءة منذ الصغر.

النهضة والمأساة

لم يعرف تاريخنا الفكري الحديث أنبل من الفترة التي تعرف بعصر «النهضة العربية» بكل رجالاتها وتوجهاتها وأحلامها المنكسرة، الفترة التي تمتد مراحلها المتقطعة، باعتقادي، من عام/ ١٨٠٠إلى ١٩٧٣/ لقد اعتدنا أن لا نحكم على مصير الفكر من خلال النجاح أو الفشل، بل من خلال المسار الذي ولد فيه الفكر والأحلام والأشواق والنجاحات والإخفاقات، وبهذا نضع الفكر في قلب المأساة ونجعله مؤثراً وعميقاً، ونفصله عن المهزلة التي تتكرر في نسخ مشوهة!ألم يقل أحدهم؟!: «إن جميع الأحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر مرتين، المرة الأولى كمأساة، والمرة الثانية كمسخرة». ونحن العرب بعد إقفال النهضة وتوهجاتها، نعيش في قلب المهزلة! يمكن أن نتخيل نخباً عربية، منذ القرن الثامن عشر، يحيط بها الظلام والاستبداد والجهل، من سياسيين وأدباء ورجال دين استفاقت من تحت الركام، وأرادت أن تنهض بأمتها لتكون الأمة مواكبة للحداثة، لقد لاحت لهم الفرصة سانحة فالتقطوها، واشتغلوا كخلايا النحل، فكتبوا ونادوا وانخرطوا في العمل، فكانت الكتب والصحف، والجدل الرائع! ترجموا لأمتهم الروائع والأفكار العظيمة التي اعتقدوا إنها تنير الطريق، وخلقوا المسرح ثم السينما والأحزاب والجمعيات.. وكان الطريق وعراً وتعرضوا للملاحقة والنفي والقتل! الواحد تلو الآخر، أفراداً وجماعات! اغتيل

الكواكبي في مصر والأفغاني في اسطنبول، وتحطمت أمال محمد عبده بعد انكسار ثورة أحمد عرابي، وذهب أبو خليل القباني إلى مصر، بعد حرق بيته في دمشق، كغيره من نخب بلاد الشام: يعقوب صروف، شبلي شميل، نقولا حداد، أديب إسحاق، رشيد رضا، جرجي زيدان...إلخ وامتدت الجسور بين المشرق والمغرب العربي، شكيب أرسلان مع علال الفاسي وابن باديس والخطابي، مفكرون وثوار في الآن ذاته! دون أن يقرأوا غرامشي أو لينين أو ماوتسي تونغ، والمفارقة أن هؤلاء الثوار الأمميين كانوا قد سمعوا برجالنا وأعجبوا بهم أكثر منا! لقد عبر ماو عن إعجابه بثورة الريف وقائدها عبد الكريم الخطابي، وكتب لينين عن كفاح الشعب الليبي ضد الاستعمار الإيطالي المتوحش! إن الجاحدين منا يتحدثون دائماً هازئين من النهضة! يقولون إنها أزمة في الفكر العربي، ويوجهون السهام والسواطير المسمومة إلى تلك الفترة النبيلة! إن جيل الهزيمة (المهزلة) يحاكم بخسة ذاك الجيل الذي لم يبخل بشيء! أليس هذا فصل من فصول المأساة؟! وبيننا اليوم من يتهم شهداء الحرية في سوريا ولبنان بالخيانة والعمالة للغرب! شهداء ٦ أيار ١٩١٦ نخبة الشعب في ذلك الزمن، ثمة من يهزأ منهم، ويبرر لجمال باشا السفاح جريمته! ماذا يعني أن يقتاد حاكم غريب النخبة المتنورة من الشعب ويعلقهم على أعواد المشانق، أمام مواطنيهم المذهولين من هول الجريمة؟! أليست مأساة؟!

انطوت المرحلة الأولى بنجاحاتها وإخفاقاتها أو خيباتها! وتلتها المرحلة الثانية من النهضة وكان من أعلامها الكبار: طه حسين، لطفي السيد، أحمد أمين، سلامة موسى، سليم خياطة، الياس أبو شبكة، ساطع الحصري، الأرسوزي...إلخ، وتوسعت الدائرة في المرحلة اللاحقة! ونجح هؤلاء بدأبهم الصادق أن يحدثوا نقلة نوعية في طبيعة الجدل على كافة المستويات، وخلخلت الأسس التقليدية للمجتمع والفكر التقليديين، وجعلتنا النهضة، على حد قول الأستاذ محمد كامل الخطيب، لأول مرة نتحدث ونفكر بالأمة وبالوطن وبالقومية

الجامعة. ونحن اليوم في زمن الارتكاس، نتحدث عن الجماعات والطوائف والمذاهب، وعن المزيد من سبل التفتيت!

على ضوء الواقع الذي نعيشه اليوم ينظر البعض إلى رجال النهضة على أنهم فشلوا في تحقيق ما دعوا إليه ألا وهو إصلاح الأمة وربطها بالعالم الحديث. نعم، لقد فشلوا في إصلاح الأمة وفي تحديثها، ولكنهم حاولوا، ويا لشرف المحاولة! حاولوا، ولم يلقوا الاستجابة المرجوة، فكانوا كمن يصرخ في واد، ووجهوا بسوء الفهم، ربما هذا ما دفع طه حسين ليقول: «إنني في آخر أيامي، أودعكم بكثير من الألم، وقليل من الأمل» يا لمرارة الرجل وهو يتلمس التاريخ المجبول بالمأساة!

الواضح والغامض

من القضايا التي تثيرها آلية الاستجابة للقراءة، قضية الوضوح والغموض في النصوص والمعاني والمضامين، وخصوصاً في الشعر. والجدل في هذين الحدين قديم، وقد تشعب وتحول من جدل حول الوضوح والغموض في الشعر إلى جدل فلسفي يتعلق بالمعنى- وكلا الحدين جوهرهما المعنى ببعده الوضعي والميتافيزيقي- ويتعلق بالتفسير والتأويل، والظاهر والباطن، والسطح والعمق، والحضور والغياب، وإلى العديد من الثنائيات.

في تراثنا جمع الجاحظ «البيان والتبيين» في كتاب واحد، والعرب يميلون إلى الإبانة والإفصاح، وإلى الوضوح، والقصص عديدة عن الموقف من غموض شعر أبي تمام والمولدين في الشعر العربي! وأعتقد دخل الغموض ثقافتنا وشعرنا مع دخول المؤثرات الخارجية، لا سيما الفلسفية منها، رغم الجدل الباذخ بين علماء الكلام حول التفسير والتأويل في النص القرآني، والمدارس التي تعددت حول ذلك، وما ترتب عليها من مذاهب فقهية وطرق دينية، حتى وجد من يقدس السر الغامض الذي لا يدرك إلا من خاصة الخاصة من ذوي

الألباب العرفانية المكشوف عنها الغطاء، على حد قول الصوفيين وأتباع مدرسة التأويل. وهذا الجدل القديم دفع بالمفكر الراحل محمد عابد الجابري في كتابه «بنية العقل العربي» إلى تقسيم العقل العربي إلى دوائر ثلاث، هي: العقل البياني، العقل العرفاني، العقل البرهاني، الأولى والثانية ليستا متباعدتين دائماً بل يتقاربان عند الصوفيين. وكان أستاذ الجابري سامي علي النشار قد سبقه إلى إدراج العقل العربي في خمس دوائر.

الجدل في الواضح والغامض، استغرق النقاد والشعراء والفلاسفة المعاصرون بأشكال متعددة. رولان بارت يرى عناقاً بين الطرفين، يقول: «المعنى الواضح، هو المعنى المقصود والمقنن والمحول إلى شفرة ثابتة. والمعنى الغامض، هو المفتوح على نهائية اللغة». وهو يرى أن ذات الشاعر دائماً هي ذات كثيفة، مثل عزرا باوند الذي يرى الشعر لغة مشحونة بالمعنى. والمتأمل في كتابات بارت، يجد فيها إشارات وإيحاءات عديدة حول الواضح والغامض عندما يتحدث عن المعنى، فيرى أن الأدب لغة وليس وسيلة لنقل المضامين والتمثلات.

اللغة في استخدامها الإبداعي التخيلي تتوزع بين حالي الوضوح والغموض، وأحياناً يكونان معاً في الحال ذاته وفي الشخص الواحد! يقول باسكال: «ليس هناك من هو أقل شبهاً مني سوى نفسي، فأنا أخضع لمزاجين أساسيين يتغير كل منهما داخل نفسي». كما أن الأمر في الحالين جمالي يروم الدهشة، ولكل منهما جاذبيته، يشبهان في وجه من الوجوه حالتي الضوء والعتمة، الشمس والقمر، ولنتجاوز، هنا، الثنائية (المانوية) والتعددية أيضاً. فإذا كان الحداثيون، ومنهم إليوت، يرون بأن الشعر يجب أن يستجيب للحواس، لكن الغموض من أهم الخصائص التي تميز الشعر الحديث. أما الرمزيون، ومنهم فرلين ومالارمية ويتطابق معهم بول فاليري، يرون في الغموض تحريضاً على الفهم والتأمل، وارتقاء بالشعر عن اليومي ليواجه العالم والوجود. إلا أن دعوات نقاد ما بعد الحداثة لا يولون السر الصوفي والميتافيزيقي قيمة تذكر في الفكر

وفي الشعر أيضاً، ولا حتى للمعنى، ويميلون إلى القطع مع المرجعيات، ومحو التواصل مع كل ما هو سابق، فما كلمات مثل: السر، والمعنى، والعميق.. سوى تهويمات جوفاء، وليس من مدلول للعمق سوى البعد الفيزيائي، والبنيوية تحذف من حسابها مسألة المعنى التي يثيرها التأمل الإنساني. وتلافياً للتناقض استعاض مابعد الحداثويون عن الوضوح والغموض بمعادل آخر أكثر غموضاً هو «الحضور والغياب» وهو يعني عند مفسريهم أن في الذات جانباً خفياً وسرياً لا يحضر في الوعي ولا يمكن للفكر أن يتمثله ويعكسه فيبقى غائباً. ويمكن استعراض الكثير من الأفكار التي أثيرت حول الواضح والغامض، وكل منهما له أنصاره، وإذا كان الغامض والسري والمعنى الخفي يجذب أحياناً بعض البشر، وإن السعادة تكمن في بلوغ المعرفة العصية، فالبعض أيضاً يرى أن الإنسان السعيد هو الإنسان الخالي من المحمولات ومن الذاكرة، والفن هو رفض دائم للمعنى! وهذا هو شأن الفكر البشري: صراع دائم لا يستقر

«الموسوعية السطحية»

أستعير هذا التعبير من جملة تهكمية وردت في رواية «الحمار» للكاتب الألماني غونتر ديبرون، ودفعتني للتأمل بواقعنا الزاخر بالمثقفين الموسوعيين وأصحاب الألقاب الكبيرة! وقد أنعم الله علينا بالكثير منهم، ولكن ما هي النتيجة؟! ربما نبدو قساة ونحملهم ما لا طاقة لهم به، وقد حاولوا أن يصلحوا شأن الأمة، وكتبوا، وحلموا!..

فلو أحصينا الكتب والمقالات النقدية التي كتبت في نقد التخلف والمجتمع والثقافة والسياسة في القرن الماضي وما زالت تكتب حتى اليوم لبلغت العشرات إن لم نقل المئات! وجاءت تحت عناوين شتى، منها على سبيل المثال: نقد الوعي العربي، نقد الأيديالوجيا العربية، نقد الخطاب العربي، النقد الذاتي بعد الهزيمة.. وأشهرها على الإطلاق السفر الكبير للراحل المغربي محمد عابد

الجابري: «نقد العقل العربي» بجزأين. ورد جورج طرابيشي عليه بـ «نقد نقد العقل العربي» ١٤ مجلداً! وبعد هذا كله كيف نقول إننا أمة لا تنتقد ذاتها ولا تمارس النقد الذاتي؟! بل على العكس، أرى أن كتابنا بالغوا في النقد إلى درجة تجريح الذات أو جلدها! ومع ذلك لم يتغير شيء في الواقع، ولم يتم تصحيح أي خطأ! يقول أحدهم: الاعتراف بالخطأ يساوي نصف إصلاحه. ولكن الاعتراف بالخطأ لا يكون عبر كاتب أو مفكر وحسب، ومن الخطأ الاعتقاد أن توجيه النقد من خلال بضعة كتاب، تشكل عملية نقد ذاتي كافية للإصلاح أو لإحداث شعور عام بالندم، ولعل الأمر أبعد من ذلك بكثير! حلم كتابنا الإصلاحيون بالتغيير وبإحداث نهضة شاملة ورحلوا دون أن يروها قريبة! وحلم الوحدويون بالوحدة العربية، ورحلوا وهم يرون الأمة تتمزق والأقطار تتفكك! لم يكن ينقص العرب رجال فكر وشعراء وفنانون، ومع ذلك لم يكن تقدمهم ملحوظاً أو مرضياً! لماذا؟ ولا أعرف الإجابة، وأحياناً يكون ترك السؤال بلا إجابة أكثر بلاغة! ولماذا حل بنا كل هذا البلاء؟! هل هي لعنة أبدية؟! أم كنا نياماً لقرون طويلة، وحين استيقظنا لبرهة ووجدنا أن الزمن قد عبرنا والعالم تجاوزنا بآلاف السنين فعدنا إلى الكهف، ونحن الذين أشار إلينا القرآن الكريم بـ«أهل الكهف»؟! وهل كانت ثقافتنا بكل تنوعاتها المتنافرة مجرد ثرثرة أم جعجعة بلا طحين؟! ولا نزال نمارس النقد ونصرخ، ونقدم الافتراضات والتصورات التي تخفق جميعها! حاولنا تقليد ومحاكاة نهضة الغرب، ولم يلح في الأفق البعيد مذهب أو تيار فلسفي أو سياسي، إلا وتعلقنا به معتقدين أن فيه الخلاص كل الخلاص! وأخفقنا وما من خلاص! ثم استدار بعضنا ليستعيد أمجاد الأسلاف، فكان قبض ريح! راهنا على الأصالة فلم نحصد سوى الخيبة، وراهنا على الحداثة فعدنا بخفي حنين، لماذا؟! لم ينقصنا خياليين، ولا حالمين، ولا واقعيين، فلماذا يضيع كل شيء في بحر من الرمل؟! هل كنا سطحيين رغم كل علومنا؟! هل خدعتنا الألقاب الزائفة، وكنا كمثل الحمار يحمل أسفاراً؟! عندنا اليوم وفرة بالمخططين والمحللين، ويملك بعض العرب إمبراطوريات إعلامية يطل علينا منها كل

شيء: مفكرين، وفقهاء ظلام، وتافهين وتافهات، مثل كل الشعوب! ونحن وقد تجاوزتنا الدنيا كلها! كنا نتشوف على جيراننا الأفارقة، فأين نحن منهم وقد أعلن منذ أيام أن نيجيريا تتحضر لتكون من دول الاقتصاديات الكبرى؟! أليست من المفارقات أننا نجمع كلنا منذ ١٤٠٠ عام على وصف تلك البؤرة الخلافية في التاريخ الإسلامي: بـ«الفتنة الكبرى» ولا نزال نجترها يومياً ولا نقدر على تجاوزها؟!

قد نحتاج إلى أن نخرج جماعياً من القمة إلى القاعدة لنعترف أمام الله والتاريخ بأننا كنا نياماً وسنستيقظ مهما كلف الأمر.

أما عن الألقاب، فنختتم بابن تغري البردي في كتابه «النجوم الزاهرة»، يقول: «عندما تتضاءل قوة المملوك تكثر ألقابه!».

إنسان الأمل..

فضيلتان، لو توفرتا لكانتا مدخلاً لإنسان الأمل الذي تصبو إليه العقول والقلوب في الأمم التي تريد أن يكون لها مكان تحت الشمس، هما: الإيثار، واحترام القانون.

الفضيلة الأولى تعني التضحية والفداء، والكرم والعطاء. والشهادة، أقصى حدود هذه المعاني وأنبلها. وفي الأحداث الجسام التي تشهدها بلادنا الجريحة، وحجم التضحيات التي يقدمها شعبنا الحبيب المعطاء، من يشاء أن يعي بعمق معنى «الشهادة» يمكنه الآن أن يستنبط معانيها الدفاقة من الحياة، وهي أغنى بكثير مما تقدمه القواميس والمعاجم! أرى الكلمة مليئة بالحياة، باللحم والدم والآمال والذكريات، وهذا يغطي على معنى الموت فيها ليغدو ضئيلاً لا يُلحظ! أعداؤنا الحاقدون هم عبدة الموت، لا يدركون معنى الشهادة، ولا يعنيهم سوى مراكمة الضحايا والخراب ونشر الموت في البشر والشجر والحجر، هؤلاء هم أعداء الحياة، يحولون جرائمهم إنجازات وأرقاماً للاستثمار! هؤلاء الأعداء،

صهاينة الزمان، لا يدركون معنى أن يزف الشهيد بالزغاريد، وأن يبكي الآباء والأمهات الثكالى بحرقة على فراق أحبتهم، ثم يشمخ المضحون بعزة وكبرياء وهم يقدمون أبناءهم الصناديد، فلذات أكبادهم، قرابين فداء لسوريتهم! ويغدو الشهيد، كما هو اليوم،ابناً لكل البيوت! كنا نقرأ في الأساطير عن طقوس الفداء، وها نحن اليوم نعيشها بحرارتها حقيقة واقعية أكثر وعياً وشمولاً، فالفداء اليوم من أجل وطن لا من أجل عشيرة أو طائفة أو حزب أو جماعة! فالوطن لا يكون ظالماً، بل هو مصير لكلِّ أبنائه، ومن هنا تحتاج الأوطان، عندما يستدعي الواجب، إلى الأبطال المضحين رجال الإيثار والفداء والغيرية، رجال لا يهابون الموت ولا الردى، وقديماً قال الحكيم ابن سينا في معنى الموت: «الردى ليس الموت، بل هو الخوف من الموت». لا يهزم وطن تنتشر فيه هذه الفضيلة، وهذا ما لم يدركه حتى الآن الأعداء والأوباش الذين أوغلوا في الدم الحرام، وأسرفوا في الإجرام!

أما فضيلة احترام القانون، فهي فضيلة الإنسان المتحضر، الذي يميز بين الخطأ والصواب، والذي يُحيّد أنانيته ومصلحته الذاتية إذا تعارضت مع القانون العام الذي ينظم حياة البشر، والقانون العام الذي أعنيه يصلح في كل مكان وزمان، وهو أعم من القوانين والدساتير الوضعية التي يجب احترامها أيضاً، وأعتقد أنها أسست وفق المبادئ العامة لروح القانون، والتي تم تربية الجنس البشري عليها، ويدركها الإنسان السوي بالفطرة. فالإنسان الذي يحترم القانون وفطر أو ربي على ذلك يعرف أن الرشوة والفساد والاعتداء والكذب وإلخ .. منافية للأخلاق ولقانون القيم المتعارف عليها، وعليه أن يتحاشى ممارستها لا لأنه يخاف من العقاب وحسب بل لأنه يحترم القانون، ويرى في ذلك واجب نابع من الذات بالدرجة الأولى، وهذا ما جعل سقراط يرفض الفرار الذي أتيح له لكي ينجو من الموت بالسم وفق قرار المحكمة، لم يشأ أن يقال عنه إنه تهرب من تطبيق القانون (الظالم)! إن تصرف سقراط بمثابة درس مثالي لاحترام القانون! أخشى أن أبدو هنا وكأنني واعظ أقدم نصائح، بل هي رغبة صادقة في إنسان الأمل

الموجود فينا وبيننا، إنسان الأمل الذي بوجوده تتهاوى كل النظريات السلبية والتشاؤمية التي يراد لها أن تعمم عن الإنسان! أن تندحر النظرية التي تقول لا أمل في الإنسان، وهو يثبت كل يوم أنه حيوان «ابتعد عن الغابة مسافة خطوتين ولا يزال ينظر إليها بحنين»! قد تجد النظريات التشاؤمية في تصرفات البشر وخياراتهم الكارثية ما يبررها أحياناً، لكن نظرة أكثر نفاذاً تجعلنا نرى إن النزوع نحو الإيجابية هو الأكثر حقيقية، وسعي الإنسان لكي يكون لإنسانيته معنى، هو الباعث على الأمل في إنسان الأمل.

حلم العقل

استعير هذا العنوان من المسرحي الإسباني بويرو باييخو للتحدث عن الخيال، لأن الخيال المبدع هو حلم العقل أولاً وأخيرا، وليس نقيضاً للعقل كم يحاول أن يصوره البعض! في اعتقادي لم يولِ العرب اهتماماً كبيراً بهذه المفردة (الخيال) وربما تعاملوا مع الخيال بحذر شديد ووضعوه ضمن إطار من الشطح العقلي أو الوساوس أو المس، وربما استعاضوا عنه بما يسمى التصوير البياني وما يندرج تحت عناوين التشبيه والاستعارة، إذاً وضعوا ضوابط عقلية للخيال، فالمبالغة في الخيال ضرب من الهذيان أو التوهم: «هل غادر الشعراء من متردم/أم هل عرفت الدار بعد توهم» أو الشطح، وهذا ما أطلقوه على الصوفيين فيما ذهبوا إليه من خيال في التعبير والكرامات في السلوك، كما لم يهتم العرب كغيرهم من الشعوب الشرقية في إنتاج الأساطير، وكانت أساطيرهم التي يستأنسون بها هي أساطير الأولين من قصص الأنبياء وحكايات القدماء وحكايات الجن، وقد تسرب بعض هذا إلى أشعارهم بشكل عرضي وربما تهكمي، فهذا الأعشى يقول: «وبلدة مثل ظهر الترس موحشة/ للجن بالليل في حافاتها زجل» فليس لهم أساطير في التكوين، ولا في أصل النار. نستنتج أن خيال العرب، في مراحلهم الأولى، خيال منضبط، دخل عليه روافد من الشعوب

الوافدة إلى الإسلام، ومنهم المؤرخين والمدونين. وقد يعتقد البعض أن ضعف الأساطير عند العرب يعود إلى حياة البداوة، وهذا كلام مردود بدليل أن العبريين متشابهين مع العرب في البداوة والرعي والمنشأ الصحراوي، إلا أنهم كونوا منظومة أساطير وحكايات خرافية وخيالية، لا أعتقد أن العرب الأوائل كانوا معجبين بها، فعندما يصفونها بأنها أساطير الأولين، فهذا الوصف المتقدم والمعبر، يوازي التصنيف الأنثربولوجي المعاصر الذي يعيد الأساطير إلى المستوى البدائي لحياة البشر الذين فاضوا على العالم بالحكايات الأسطورية، التي تصلح اليوم، رغم جمالياتها الأدبية والرمزية، كحكايات للأطفال! طبعاً لا يعدم وجود بعض الأساطير عند العرب القدماء، حيث كان لهم حياة دينية وعبادات وثنية، لكن منظومتهم الإبداعية عموماً أنتجت شعراً حسياً ولم تنتج أساطير كالسومريين والبابليين والفينيقيين واليونانيين.. والعرب فيما بعد، في فترات التردي والنكوص، هيمن عليهم الخيال المريض حتى خسروا الحلم والعقل معاً! وفي العصر الحديث،همشت الآداب الأوروبية الحديثة الخيال، ولعلها ردة فعل على الرومانسيين الانكليز الذين جعلوا من الخيال ديانة جديدة للشعراء كما دعا وليم بليك الذي رأى في «الخيال المحرك الأساسي للكون لكن، لا أحداً يريد أن يعترف بذلك» لقد حلت المفارقة والغرائبية محل الخيال في العصر الحديث، وفعل فرويد كما فعل العرب القدامى، إذ اعتبر الخيال ضرباً من الهذيان، وهو نتاج عصاب مرضي أو تعبير عن رغبات مكبوتة! رغم أنه اعترف بفضل الشعراء والفنانين عليه في اكتشافاته لمجاهل اللاشعور! وكان العرب قد تحدثوا عن شيء يقارب المفارقة في البلاغة أطلقوا عليه: «المؤتلف والمختلف» أو تقريب البعيد، وغريب الكلام والوصف، ويكثر ذلك في «أمالي القالي» وفي كتب نقد الشعر. لقد ربط العصر الحديث الخيال بالعقل، ولم ينكر قوة الخيال والتصورات الخيالية التي سبقت الاكتشافات العلمية الكبرى، ولهذا رأى العقليون أن الخيال ليس إلا حلماً للعقل، ووجهاً من وجوه الواقع قابلاً للتفسير. ومهما يكن الموقف من الخيال، أهو سابق للعقل أم هو نتاج له، نستطيع القول إن الحاجة

إلى الخيال الحر الخلاق ، في الفنون والآداب والابتكار العلمي، أمر ملح، وهو الذي ينقذنا من التوهم ومن الصغائر ومن الخرافات، ويطلق الطاقات العقلية، ويجعلنا نستعيد حالة العقل الحالم بعالم سعيد ووعي سعيد!

خطأ في الترجمة

لن أتحدث هنا عن أهمية الترجمة، ودورها في تمتين الروابط بين الثقافات، ولا عن الفرق بين الترجمة والتعريب، ولا عن فوضى الترجمة، والكوارث التي تحدث فيها، و يعمل فيها من هب ودب، حتى أن واحدهم إذا سافر إلى السويد أو الدانمرك (مثلاً) لمدة ثلاثة أشهر، يترجم عن السويدية والدانمركية والألمانية، ولكبار الشعراء! وضرورة أن يوضع حد لهذه الفوضى، أو ميثاق شرف للمترجمين! وإنها لكبيرة أن نقرأ كتباً وأشعاراً منسوبة إلى كتاب، على غير ما هي عليه! تحت غطاء أن الترجمة خيانة للنص! وللروائي فواز حداد رواية هجائية، بعنوان: «المترجم الخائن» بطلها نموذج للمترجم الذي يتعمد خيانة النص!

حديثنا هنا عن الخطأ في الترجمة، وما قد يترتب عليه من تداعيات، على المستوى المعرفي، وعلى مستوى العلاقات السياسية. والخطأ في الترجمة بعضه عن عمد، وآخر عن غير عمد. ومن نماذج الخطأ في الترجمة:

تذكر قصص: «أيام العرب» أن خطأ في الترجمة قام به زيد بن عدي عند كسرى الفرس، دافعه الغدر والانتقام، جعل النعمان بن المنذر (الملك) شريداً مطلوباً إلى أن مات في سجن كسرى، وأعقب ذلك حرب «ذي قار».

وفي وقت لاحق في العصر العباسي،أن أبا بشر(متى بن يونس) حين ترجم كتاب أرسطو: «فن الشعر» من السريانية إلى العربية، ترجم مصطلح: «التراجيديا» على أنها صناعة المديح. وينسب بورخس في قصته البديعة: «ابن رشد» هذا الخطأ المعرفي إلى ابن رشد، وحسب القصة أن ابن رشد، توقف أياماً

وليال، حائراً أمام تعريب هذين المصطلحين: «التراجيديا، الكوميديا» اللذين يتكرران كثيراً في كتاب أرسطو، وتوقف عن الترجمة، وخرج من بيته، وشاهد أطفالاً يلعبون، ويشكلون بأجسادهم ما يشبه حرف ألف، ومئذنة، وسهر في بيت صديقه، بحضور رجال أدب، ورحالة، وفي طريق عودته إلى البيت، جاءه عفو الخاطر، ما جعله يعتقد أنه توصل إلى حل هذا اللغز، فترجم التراجيديا على أنها فن (المدح)، والكوميديا على أنها فن (الهجاء)، وأقر بنبل فادح! أن الشعر العربي يحفل بالتراجيديات والكوميديات!..

وفي عصر النكبة العربية المعاصرة، يقال إن التباساً بين النص العربي والنص الإنكليزي، في القرار الدولي / ٢٤٢/ بخصوص العدوان الإسرائيلي على العرب عام ١٩٦٧ وضعه بدهاء، النظام الدولي المهيمن! بتجريد جملة: «الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة» من (أل) التعريف في النص الإنكليزي! وهو النص المعتمد في الأمم المتحدة! وكتب مرة الدكتور أدوارد سعيد، محذراً من جهل الوفد الفلسطيني المفاوض باللغة الإنكليزية، ومن الكمائن التي تنصب له من جراء ذلك!

وفي موضوع آخر، يروي الفيلسوف الإنكليزي برتراند رسل، أن حفلة غداء أقيمت في لندن، تكريماً لبرغسون، دعي إليها برنادشو، بوصفه أحد المعجبين بالفيلسوف الفرنسي، مع من دعي من الفلاسفة المحترفين، الذين كانوا يقفون على الجملة من برغسون موقف الانتقاد، والكلام لرسل، يقول: «أخذ شو، يعرض فلسفة برغسون على هواه، فظهرت الفلسفة في هذا السياق، بمظهر لا يرجى معه قبولها عند المتخصصين، فاعترض برغسون، قائلاً: كلا، ليس كذلك يا مستر شو! فرد شو: «أي زميلي العزيز، إني أفهم فلسفتك خير منك» فقبض برغسون قبضتيه، وأوشك أن ينفجر من الغيظ».

وثمة شكل آخر طريف، من الخطأ في الترجمة، أختم به: قام الرئيس الأمريكي جيمي كارتر، بزيارة بولندا، عند نزوله من الطائرة، ألقى خطبة قصيرة في الرسميين البولنديين الخمسمائة الذين أتوا لاستقباله. يقال، إن خطاب كارتر كان مقبولاً جداً، وإليكم ماذا فعل الترجمان: ابتدأ كارتر: «حين غادرت الولايات

المتحدة» نقلها الترجمان: «حين هجرت الولايات المتحدة». ونقل الترجمان أن رئيسه يقول، إن الدستور البولندي سخيف! وأصبحت عبارة: «تأسست أمتنا»، «حيكت أمتنا» وحاول كارتر أن يقول للبولنديين: «إنني أفهم أمالكم للمستقبل» فوصلت إليهم: إني أعرف فسقكم للمستقبل «وكانت الضربة القاضية في هذه العبارة: «لقد أتيت لأعرف آراءكم، وأفهم تطلعاتكم المستقبلية» ترجمها مترجم الرئيس: «إني أشتهي البولنديات بكل ما هنالك من شهوة».

هذه نماذج من الخطأ في الترجمة،عبر التاريخ، أوردنا بعضها لمجرد طرافتها، ونترك للقارئ أن يقدر مخاطرها!

دراما الانكسارات

كثيراً ما تتعرض الشعوب والأمم إلى أزمات تاريخية واجتماعية، ويكون على الأدب أن يتصدى، بشكل أو بآخر، لخلق رؤية أو معالجة لهذه الأزمات أو الانكسارات، بما أن الأدب ينتمي إلى المجتمع، مهما حاول دعاة الفن للفن (البرناسيون) عزله فلن يفلحوا. والدراما المسرحية بشكل خاص كان لها هذا الدور الأساسي والمؤثر في جعل الأسطورة أو الحكاية أو الخرافات بؤرة جذب يتمحور حولها الحدث الدرامي لما يمكن أن يسمى ما بعد التراجيديا أو فعل المأساة الجماعية. وكمثال على ذلك، نذكر مسرحيتين متقاربتين، إلى حد كبير، في الموضوع وفي المعالجة، الأولى: «انسوا هيروسترات» للمسرحي الروسي غريغوري غورين. والثانية: مسرحية «الذباب» لسارتر. ومن المعروف أن الروس والفرنسيين طحنتهما الأزمات والانكسارات. مسرحية غورين تقع أحداثها في مدينة إيفيس الإغريقية ٣٥٦ ق.م خلال احتلال الفرس لليونان،حين قام تاجر سوقي، من سكان المدينة، يحلم بالمجد، بإحراق معبد إرتيميدا الذي كان يُعدّ من عجائب الدنيا السبع! والشعب في المدينة يقابل فعلته هذه بغضب شديد مطالباً القاضي كليون بإنزال عقوبة الموت بهيروسترات، إلا أن القاضي يريد أن

يحاكمه. يقول هيرو إنه فعل ذلك لأنه سئم من الجلوس في زوايا النسيان، وإنه يريد لاسمه أن يُخلد في التاريخ وفي ذاكرة الأجيال على أنه تحدى (الآلهة) وحرق المعبد! في انتظار البت في قضيته، كتب مذكراته وباعها إلى مرابي بمبلغ جيد، وعمل من أجل قضيته بوقاحة ودهاء، وجذب إليه الدهماء، وأعجبت به أميرة المدينة وزارته سراً إلى السجن! كماأعجب به أمير المدينة واشترى لنفسه، سرّاً، خمس عشرة نسخة من المذكرات ليهديها إلى أمراء المدن اليونانية الذين راحوا بدورهم يتواصون عليها. ويدب الصراع بين القاضي كليون المتمسك بالقانون الذي يريد أن يفي بوعده لشعب ايفيس بمحاكمة هيرو وثم نسيانه، وبين الأمير والأميرة اللذين يريدان إنقاذه. المسرحية الثانية: الذباب، أولى مسرحيات سارتر، وليست الأهم، لكن عند سارتر دائماً الكثير من الأفكار !. دراما في ثلاثة فصول، كتبها عام ١٩٤٣ أثناء الاحتلال النازي لفرنسا، حين تعاون قسم كبير من الفرنسيين مع المحتل، وتعالت الدعوات بين الفرنسيين للاستسلام وإعلان الهزيمة والرضوخ للمحتل، فكانت بمثابة رد على هذه الدعوات، وهي كباقي مسرحيات سارتر من مسرح المواقف، وتقوم فلسفة سارتر في المسرح على (الالتزام) ووجوب أن يتفاعل الإنسان مع مجتمعه ومع العالم الذي يعيش فيه. تبدأ المسرحية بعودة أورست ابن أجاممنون إلى مدينة أرجوس، المدينة التي طرد منها في الثالثة من عمره بعد اغتيال والده على يد أوجيست عشيق أمه (كلمنسترا) وزوجها فيما بعد. يعود أوريست إلى المدينة، وهو في العشرين، بلا ذكريات، يقول: «إني لا أزن أكثر من خيط وأعيش في الهواء». مدينة أرجوس يعاني شعبها من داء الندم، بعد أن سلط عليها الآلهة ذباباً ينقل هذا الداء، عقاباً على جريمة اغتيال الملك أجاممنون.الكترا شقيقة أوريست، التي بقيت في القصر المغتصب، تحولت إلى خادمة لزوج أمها، كانت تنتظر عودة أخيها للثأر والانتقام، وعندما التقته راحت تحثه على ذلك، ويقول لها جوبيتر: إن رغبتها بالانتقام والقتل هي قناع لعبوديتها. وبما أن أوريست متحرر من الذاكرة ومجرد من العواطف الطبيعية حيال أهل ارجوس الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه،

فهو يستطيع أن يذهب في الانتقام إلى الحدود القصوى!(قتل أمه وزوجها) وكأنه يمارس فعل حرية، والحرية هنا منفى موحش وقاس، والمخرج من هذا المنفى هو الرحيل نحو الذات! والتحرر من الندم. إن سارتر يضع الإنسان في المأزق ويجعله يكتشف المخارج للخروج من هذا المأزق بعيداً عن الأمل والتفاؤل الساذج! ويرى صديقه فرنسيس جونسون: «إن الرؤية الواضحة للموقف الأشد حلكة، هي بذاتها فعل تفاؤلي». ويرى سارتر أن الناس لا يكونون عاجزين إلا حين يعترفون بذلك. إن دراما الانكسارات،عادة، تثير الجدل الأخلاقي حول كيفية الخروج من المأزق إلى ما بعد المأزق.

دروس كريشنا مورتي

إن ترجمة كتاب لكريشنا مورتي إلى العربية، يعد حدثاً بحد ذاته!.. كريشنا مورتي واحد من حكماء القرن العشرين، وهو الرجل الذي وصفه هنري ميلر بأنه أجمل رجل في العالم! الصوفي العميق الذي ربطته صداقات مع معظم رجال الفكر في العالم، على اختلاف توجهاتهم! لا سيما بعد أن تحول من زعيم جماعة إلى مفكر في أفق العالم. ولد جودو كريشنا مورتي عام ١٨٩٥ في الهند، ووصف هناك بـ: «المعلم العالمي» وهذا ما رفضه فيما بعد.

وقف كريشنا مورتي، مرة، أمام أتباعه البوذيين في أوروبا، قائلاً لهم: «دروب الحقيقة متعددة، وأنا لا أملك طريقاً إلى الحقيقة». وبهذا حرر نفسه من الأتباع، وحرر الأتباع من الانقياد له! وأعلن للعالم سنة ١٩٢٩ حلَّ المنظمة الضخمة والممولة التي كانت تتبع له. واليوم بعد أن ترجم إلى العربية كتابه: «الحرية الأولى والأخيرة» يتاح لنا لأول مرة أن نطلَّ على أفكار هذا المفكر الذي عني بإصلاح الإنسان أينما كان، بعدما كنا نطلع على أفكاره عبر ما يكتبه الآخرون!

الكتاب الصادر عن دار بدايات السورية، ترجمه أسامة اسبر، يبدأ بمقدمة كتبها الروائي الانكليزي الشهير الدوس هكسلي، يقدم فيها إضاءة موشورية، على أفكار كريشنا مورتي التي هي واضحة دوماً! وتذهب إلى هدفها كالسهم الذي يصيب الذهن بشرر وقاد!

كريشنا مورتي لا يقدم نصائح، ولا يقدم دروساً لأحد، ويبدو هذا متناقضاً مع عنوان هذه الزاوية! إنه يحاور، دون استعلاء العارف، يتحدث كمن يتريّض في الصحو، أو يسبح في الصمت!

صوفية كريشنا مورتي، تختلف عن الصوفيات المعروفة، التي تعنى بالكليات لا بالجزئيات. صوفيته تهتم بالإنسان، وبحياته اليومية، بالعلاقات الروحية والتواصل بين البشر. وباعتقادي تتقاطع صوفيته مع صوفية الشيخ محي الدين، من حيث توق ابن عربي للإنسان الكامل، وتوق كريشنا للإنسان الذي يصل. يصل إلى معرفة الذات، الإنسان الذي يعرف نفسه أولاً، المتحرر من المواقف المسبقة، والمتحرر من قلقه ومن مخاوفه! هذه الحجب، إذا ما اجتمعت في إنسان، تجعله شقياً، مشوشاً، يعيش في خضم الفوضى، وضجيج العالم، و بالتالي، يخفق في أي حوار، لأنه لا يجيد فن الإصغاء! وهذا يخالف الصيرورة التي قدمها الشيخ ابن عربي، حين صار قلبه، قابلاً كل صورة!

نحن في حياتنا اليومية، نختلف، نتخاصم، نتحارب.. وحين ننهك، نتداعى للحوار، وقد تدرع كل منا بمنظومة من المواقف المسبقة، ومن الأوهام التي تشكل مقاومات لإمكانية نجاح إي حوار! وهكذا ندور في دوامة لن تفضي بنا إلا إلى المزيد من التعاسة والفوضى الشاملة! فنحن نُضيّق على أنفسنا، ونُعمّق مأزقنا الذاتي بأيدينا!

إن وجودنا النفسي برمته، على المستوى الفردي والجماعي، وعلى مستوى العالم، مشوش، وإن قلقنا من هذه الفوضى واللايقين والشواش، يجعلنا نهرع إرادياً أو لا إرادياً إلى مرجعيات نضفي عليها القداسة، ونلوذ بها، لكنها تزيدنا إرباكاً، وتعثراً، وخيبة!.. يحدث هذا، حين ننشد الحقيقة خارج كينونتنا. «إن

الإنسان الذي ينشد الحقيقة لن يعثر عليها أبداً، ذلك أن الحقيقة هي في ما هو موجود، وهنا يكمن جمالها!». يقول كريشنا: «تبدؤون بالصراع، والإنسان الذي يصارع لا يستطيع الفهم. لهذا يجب أن نكون هادئين، ومراقبين، وواعين بشكل هادئ»..

علاقة الفرد بذاته، علاقة الفرد بالمجتمع، بالعالم، بالمنظومات المعرفية والاجتماعية والدينية، علاقة الإنسان بالرموز، ومنشأ الرموز ودورها في صياغة الإنسان وسلوكه، كلها من المسائل التي يتحاور معها كريشنا مورتي! كل جملة هنا تحمل في طياتها التساؤل، وبالتالي تفتح أفاقاً للصحو من الكسل والبلادة والخوف. كريشنا مورتي داعية للإنسان الحر، وحسب.

روح الزمن ومعنى الحياة

أعترف، أنني كنت أنوي أن أكتب هنا، بروح هجائية عن حال المثقف العربي، من حيث انعدام التجانس أو التوافق حول القضايا المصيرية، ومن حيث انعدام الفاعلية، وتردي الخطاب. إلا أنني بعد أن بدأت، شعرت بالحرج، وأن من غير الشهامة أن نسحب السكاكين ونضرب بالجثة، وتذكرت ما درج عليه القول، عن إكرام الميت. ثم قادني الأمر إلى مكان آخر، هو: الانتظار ومعنى الحياة، وإن بدا الموضوع بعيداً عن الأول، إلا أنه يتشابك معه بمنافذ وتقاطعات.

تشكل حالة الانتظار بؤرة في الزمن، تستحق التأمل والدرس، وكأن قدر الإنسان المعاصر أن ينتظر، ويقضي شطراً من حياته في هذه الحالة التي عبر عنها المسرحي الأيرلندي الشهير صموئيل بيكيت في مسرحية: «بانتظار غودوت» أقسى تعبير عن عبثية الحياة! تبدو حياتنا اليوم وكأنها متتاليات من (الانتظارات) المؤتلفة والمتنافرة أحياناً! ننتظر الفرج بعد الشدة، ننتظر ما هو قادم؛ مؤتمر جنيف٢، التوافق الدولي، وأن تقبل المعارضة الحوار، والبعض ينتظر ولادة شرق أوسط جديد، وأشياء كثيرة! ثم ننتظر عودة التيار الكهربائي

إلى المنازل كل يوم، وهذا أهم مما سبق! نحن نعيش الانتظار وكأنه قدر ليس أمامنا غيره، ولا ينفع أن يكون لنا موقف سلبي أو إيجابي من هذه الحالة، فخلاصنا وأملنا يكمن في انتظار ما هو آت! لكن ماذا لو لم يأت هذا الذي ننتظره، وربما لن يأتي، كما حدث في مسرحية بيكيت؟! الانتظار هو الذي يطغى على روح الزمن عندنا، وهذا دليل عطالة وخمود وتقاعس عن التكيف الإيجابي الذي يبرز عادة في المحن والصعاب! كان المفكرون الغربيون في القرن الثامن والتاسع عشر يتحدثون عن روح الزمن ويعنون به العمل والتطور والتقدم العلمي نحو المزيد من الاكتشافات. والمفارقة هنا، أن المثقفين العرب يتجادلون بحمية حول «ربيع عربي» مخضوضر! في زمن الانتظار الشامل لا يوجد إقدام ولا بطولة، بل خيبة وتعب، وهذا مناف لمعنى الحياة الجليل الذي يقوم على الإرادة والفعل والحركة. أن نخترق، فرادى ومجتمعين، الانتظار المفروض علينا وكأنه حصار وحشي، ولكن كيف؟! تكمن الإجابة عند كل منا إذا ما تأمل قليلاً ما يجري عليه ومن حوله، وأن يبدأ من حقيقة أن حياته ذات معنى وذات قيمة، وحياة الآخرين أيضاً، ونحن جميعاً ولدنا في هذا الكون الحاضن للحياة، لكي نسعى، ونسعد بالزمن الذي وهب لكل منا، ليس بالانتظار، بل بمتعة الوقت الذي يقضيه الناس عادة بالعمل واللعب، بالجد والهزل. الحفاظ على الحياة، وتدعيم الحس الاجتماعي، يعد انتصاراً على الانتظار. وأي ثقافة أو فكر أو جماعة تعتدي على هبة الحياة، وتعمل على إفناء البشر، عائلات وأفراد، وترفع راية الموت والفتك، وتنشر الدمار والخراب، والسرقة والخطف والاغتصاب، وتستهدف كل أشكال الحياة حتى البهائم! مثل هذه لا ينفع معها حوار ولا تصالح، وخطرها المتحقق على أرضنا يستوجب منا المزيد من التلاحم والوحدة، والوقوف خلف القوة الوطنية الجامعة، المتمثلة بالجيش العربي السوري، والثقة به إلى أبعد حدود، دون تريث ولا انتظار. هذه الجماعات زاحفة، لا تعيش الانتظار، كما يعيشه عامة الناس، بل هي تقتحم على الناس حياتهم ووداعتهم لقهر معنى الحياة ووأدها بشكل عنيف، متوحش

إلى أقصى الحدود! و هي لا تكترث بالإدانة، ولا اعتبار للسنن والشرائع والأعراف في حركتها! وما يزيد الأمر غرابة أن خلف هذه الجماعات ممولون ومبررون، ومدافعون، لم يغير بهم وضوح الجريمة واكتمالها، وهم أيضاً ينتظرون المزيد من دمار الأوطان حتى ينعقون كالغربان فوق الأنقاض!

سوء النية

بدأ شغفي بالفلسفة منذ مطلع شبابي، وكنت أقرأ كل ما يتاح لي في هذا المجال، وأعترف، أنني حاولت مراراً أن أفهم بشكل كاف المفهوم السكيالوجي الذي أطلقه سارتر في كتابه الصعب: «نظرية الانفعالات» ثم راح يتردد بكثرة، ألا وهو«سوء النية» وكان المثال الذي قدمه سارتر عن المرأة التي تضرب موعداً مع رجل وتدعه يلمس يدها.. إلى آخر المثال المعروف، زاد الأمر التباساً! وخيل لي أن سارتر وقع هو نفسه في مطب «سوء النية» إذ أراد، في اعتقادي وقد يكون اعتقاد خاطئ، أن يتحدث عن المتقفين فقدم مثالاً توضيحياً ضحلاً، بعيداً عما أراد التحدث عنه، فضيق به على نفسه ولم يكن مقنعاً! رغم إدراكي أن ثمة خطاً فاصلاً بين الكذب وسوء النية، إلا أنني لم أستطع أن أتبينه بوضوح، وظل المفهوم السارتري هذا يدور في تصوري ضمن المعنى الشائع له، وأذكر أنني التقيت مرة في تلك الفترة برجل قدم لي على أنه من المولعين بالوجودية السارترية وإنه قارئ حاذق لها، ما جعلني أستوضحه عن الكيفية التي يفهم بها مقصد سارتر من سوء النية، إلا أن الرجل تكلم كثيراً ولم يقدم جديداً، وأعاد علي المثال الذي قدمه سارتر عن المرأة. ثم عثرت على أفضل تفسير للمفهوم قدمه المفكر السوري الراحل أحمد حيدر في كتابه: «في البحث عن جذور الشر» الصادر عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٩٧ ولتكن مناسبة أن نحيي روح هذا المفكر الذي عاش بيننا مجهولاً ورحل مظلوماً لم يلق ما يستحق من القراءة، وقد قدم كتباً عديدة، منها: نحو حضارة جديدة، طريق الإنسان

الجديد، العطالة والتجاوز... يرى حيدر أن سوء النية والكذب يقفان على أرضية واحدة هي رؤية الواقع على غير ما هو عليه، ويقومان على إنكار الحقيقة واختراع صورة زائفة عنها. لكن، الكذاب يحتفظ بالحقيقة لنفسه ويحجبها عن الآخر، ويخترع صورة زائفة بدلاً منها يقدمها للآخر، فنحن في الكذب أمام ثنائية الخادع والمخدوع، الحقيقة والزيف. في حين أن سيء النية ينكر الحقيقة وينكر هذا الإنكار عن نفسه، فالصورة الزائفة تحل عنده محل الحقيقة التي حجبها عن نفسه. إن سوء النية تقوم على تزوير الواقع، وتجعله مناسباً للرغبة الانفعالية أو الرغبة في انعدام التوتر، يلجأ إليها صاحبها لكي يتخلص من الحقيقة المناقضة للرغبة أو التنكر لها وتجاهلها أو قراءتها بطريقة تنسجم مع هذه الرغبة. ويرى حيدر أن سلوك سوء النية عام جداً في الحياة، يتجلى في جميع مجالاتها الإنسانية. ويبدو لي أن أكثر ما تظهر تجليات سوء النية عند السياسيين والمثقفين، لاسيما عندما تواجههم استحقاقات حاسمة ومصيرية، وتحتاج مواقف شجاعة. لقد وقع سارتر نفسه في موقف سوء النية في تعامله مع القضية الفلسطينية، فقد ظلت مواقفه ملتبسة إلى أن ووجه في مصر من قبل مثقفين مصريين كبار طالبوه بموقف صريح من الصراع العربي الإسرائيلي، بعد حرب حزيران ١٩٦٧ فتذرع بجهله لحقيقة الصراع، وقال إنه عازم على تخصيص عدد من مجلته «الأزمنة الحديثة» عن هذا الموضوع، ودعا الكتاب العرب والإسرائيليين للمشاركة وأن يقدم كل طرف وجهة نظره فيها. وبالفعل صدر العدد الخاص من مجلة سارتر، وكان أكبر أمثولة لسوء النية! إذ أوكل سارتر لسكرتير التحرير فرانسيس جونسون اليساري اليهودي، الذي أظهر سوء نية لا نظير لها، ويقال أن سارتر كان ألعوبة بين يديه، فقد أهمل جونسون المقالات العربية التي تتمتع بالحجة المحبكة، ونشر المقالات الإنشائية مقابل مقالات لأهم الكتاب الإسرائيليين حتى تبدو وجهة نظر العرب هزيلة إذا ما قورنت بوجهة نظر أعدائهم! وقد أجهر سارتر وصديقته سيمون بوفوار تأييدهما المخيب لإسرائيل أثناء حرب تشرين عام ١٩٧٣ بشكل سافر لا مواربة فيه.

عالم التفكير

في محاورات فلسفية أجراها أستاذ الفلسفة المصري مراد وهبة مع فلاسفة سوفييت في موسكو نشرت في كتاب عام ١٩٦٩ استوقفني تعريف جديد للفلسفة على أنها: «علم التفكير» ويضاف هذا التعريف المقتضب إلى تعريفات عديدة للفلسفة. وبمقدار ما يبدو التعريف بسيطاً يمكن إدراكه بسهولة، لكن عند التأمل سنكتشف كم هو مكثف ومركب ومحير أيضاً! إنه يجمع بين حدين أحدهما خاص وهو العلم والآخر شمولي هو التفكير. فكل إنسان له دماغ سليم وجهاز عصبي، يملك نعمة التفكير، ولا بد له من التفكير، و«التفكير مطية الفلسفة» أما العلم، فليس كل إنسان عالم بالمعنى الأكاديمي، ولكن كل إنسان يعلم أشياء ويجهل أشياء!كما قال أبو نواس: «قل لمن يدعي في العلم فلسفة/ حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء» فالعلم والجهل يخضعان للنسبية. يقودنا التعريف المذكور إلى أن بإمكان كل إنسان أن يفكر في فضاء فلسفي رحب وقد يكون غير محدود، ولكي لا يعتقد البعض أن في هذا ابتذال للفلسفة وجعلها مشاعاً لكل من هب ودب، لا بد من التوضيح أن تفكير الناس فلسفياً لا يعني أن كل الناس فلاسفة، وإذا ما سلمنا بذلك عندها لا نجد ضيراً من الدعوة العامة للتفكير، بل يكون في ذلك فائدة إذا ما تفاعل الناس مع الفضاء التنويري الذي يمنحه التفكير الفلسفي والذي ينمو ويزدهر على يد الفاعلين من فلاسفة ومفكرين. وكان غاستون باشلار يرى في التفكير العام عائقاً أمام التفكير العلمي، ويلحظ ثلاثة مستويات تميز الناس في التفكير العام، المستوى الأول: مستوى النفس العامية أو العادية، المتحركة بدافع حب الاستطلاع الساذج والمصابة بالدهشة أمام أدنى ظاهرة آلية. الثاني: مستوى النفس المُعَلّمة، وهي فخورة جداً بمعتقدها، متحجرة في تجريدها الأول، تستند مدى الحياة على نجاحات شبابها المدرسية، وتخصص كل شيء بالاهتمام التربوي. المستوى الثالث: النفس التي تعاني من

مصاعب التجريد والاكتناه، وهي وعي علمي متألم يسترسل في الاهتمامات الاستقرائية الناقصة باستمرار. أما عند شبنهور، فقبل كل شيء يجب أن تتوفر إرادة التفكير، وهو يربط التفكير بالفلسفة، ويرى أن الإرادة تصفو بالفلسفة، وينبغي أن نفهم الفلسفة على أساس أنها تجربة وفكر، لا مجرد قراءة ومطالعة ودراسة. ولشبنهور موقف سلبي من لجوء العلماء والفلاسفة للقراءة! ويرى أن ميل معظم العلماء للقراءة هو نوع من امتصاص الفراغ، وذلك لأن إجداب عقولهم يدفعهم إلى سحب أفكار الآخرين رغماً عنهم، ومن الخطأ، من وجهة نظره، أن نقرأ عن موضوع قبل أن نكون قد فكرنا فيه بأنفسنا، فنحن عندما نقرأ لغيرنا يكون غيرنا يفكر لنا، وإن الشخص يفقد تدريجياً مقدرته على التفكير إذا قضى أيامه في قراءة غيره و«أن كتاباً واحداً من عبقري يساوي ألفاً من كتب المعلقين». والحقيقة أن القراء عندنا، على قلتهم، يعانون من هذه الحالة، فنحن عادة نلجأ إلى المفسرين والمعلقين والنقاد لنستعين بهم في فهم النصوص أو المتون، حتى ننسى الأصل ولا يعلق في الأذهان إلا ما قاله عنها أصحاب الشروح!

ما نريد أن نخلص إليه أن التفكير أمر شائع بين الناس والخطوة التالية أن يرتقي هذا خطوة أخرى ليغدو تعلماً ثم علماً وتأملاً واستكشافاً وبالتالي تفلسفاً، يمتلكه كل الناس بالدرجة التي يحتاجونها أو يرغبون بها. فيكون لكل إنسان أفكاره عن نفسه وعن مجتمعه وعصره، وعن الكون والحياة، ودوره في هذا العالم، وتأملاته في الأشياء والمفاهيم وله أحاسيسه وتطلعاته وطريقته في التعبير.. وحين يكون كل شيء خاضع للتفكير، وهذا ليس صعب المنال، نشعر بانتظام المشاعر، وتناغم الخاص بالعام ولذة المعرفة، وأن الناس دخلوا زمناً سعيداً غدوا فيه فلاسفة وحكماء دون أن يستثقل أحد منهم ذلك.

فاعلية الإعجاب

قد يعجب الشاب بفتاة ويهيم بها، وقد يعجب القارئ بشاعر أو بكاتب، وقد يعجب الجمهور بقائد أو زعيم أو موسيقي كبير.. هذا الإحساس الغامض، ليس مهماً كيف يتكون وما هي أسبابه، المهم أنه موجود ولا بد منه لإحداث التفاعل، وباعتقادي هو سابق للتذوق وللفهم، وهو أعم واشمل لأنه فردي وجمعي. والإعجاب الجمعي، في حدوده القصوى، هو الذي يخلق الأساطير. ربما بعضنا يتذكر الليدي ديانا زوجة الأمير تشارلز التي توفرت لها كل الظروف لتكون أسطورة رومنطيقية، في عصر غير رومنطيقي ويفترض أنه لا يحتمل هذا النوع من الأساطير! لقد كان قطاع كبير من الناس في بريطانيا والعالم معجباً بها، رغم أنها ليست جميلة إلى هذا الحد، ورغم تصرفاتها المبتذلة، وهي زوجة وأم لطفلين! وعادة لا يغفر الناس في كل المجتمعات لمثل هذا الشطح، ولكن كان ثمة غموض في معرفة سر هذا الإعجاب، الذي تضاعف ووصل حدوده القصوى في مصرعها الغامض والمفاجئ مع عشيقها محمد الفايد (دودي)! ولو أن المأسوف على شبابه دودي لقي مصرعه وحيداً ربما لما نال من الاهتمام أكثر من خبر صغير في ذيل صحيفة، لكن رفعته الليدي معها إلى مرتبة البطولة! هل كان العالم يحتاج إلى أسطورة جديدة، أم هي قصة صنعتها الميديا لتستثمرها في السينما والدراما؟! والميديا تصنع العجائب! الأساطير عادة لا تتمتع بالعمق الكافي للإقناع، ولو خضعت للتحليل أو للتأمل، لتبين مقدار بساطتها إن لم نقل مقدار تفاهتها! فنتأمل قصة هيلين وحرب طروادة، على سبيل المثال وهي التي نشأت عنها حرب كبرى، ثم أكبر ملحمة إغريقية تلقفتها الثقافة الأوربية واستأثرت بها، وقس على ذلك باقي الأساطير التي كانت أقل منها تأثيراً! فأين هي هذه الأسطورة من أسطورة كلكامش البابلية؟! من حيث العمق والسمو! ولكن الأمور لا تقاس وفق هذا المقياس، فللناس في شؤونها عجب! ونحن نتكلم عن الإعجاب. قد يتسم الإعجاب بطابع طفولي، هذا ما يجعله يفلت من التحليل ومن المنطق بعض الشيء، وربما هذا ما دفع كارل ماركس إلى وصف العصر الإغريقي ب«طفولة

البشرية» وهو بلا شك (العصر الإغريقي) مثير للإعجاب. والإعجاب يتحول بقوة الحماس والإثارة إلى تعصب شديد يصل في ذروة هيجاناته إلى القتل والتدمير ويتحول إلى عدوانية جماعية، ولعل أقرب صورة إلى الذاكرة ما نشهده في بعض مباريات كرة القدم، وهل ننسى نحن العرب ما جرى بين مصر والجزائر منذ حوالي سنتين أو أكثر بقليل، وكادت أن تنشب حرب بين البلدين الشقيقين، وربما لم يمنع ذلك سوى البعد الجغرافي، والمذهل أن الحماس الغوغائي امتد ليشمل فنانين ومثقفين وإعلاميين وسياسيين!.. وقد حدثت حوادث شغب عديدة في أوروبا على خلفية الحماس لكرة القدم، وذهب فيها ضحايا! وهذا يؤكد وجهة نظر فرويد، ومن يذهب مذهبه في النظرة المتشائمة للإنسان، والقائلة، إن وعي البشر رغم التقدم التقني، لم يتطور عن وعي الإنسان البدائي، وقد يكون الإنسان القديم أكثر وعياً ومسار الوعي الإنساني ارتكاسي! وما يقوي هذا الاعتقاد هو أن الإنسان لايزال حتى الآن يرتكب حماقات كارثية وحروباً مدمرة مبنية على أوهام أو غرائز أو أساطير أو خرافات، لا تقل تفاهة عن أسباب حرب طروادة أو حرب داحس والغبراء!هل قادنا الحديث عن الإعجاب إلى هذا التشاؤم، أم هي فوضى المشاعر؟! إن الواقع الذي نعيشه ،على المستوى المحلي والعالمي، لا يقود إلا إلى فوضى المشاعر وإلى التشاؤم! وما نريد أن نخلص إليه، أن الإعجاب فاعلية إنسانية تعبر عن بدائية الوعي بالأشياء، وهو علاقة بين الذات ولموضوع، وهو في حالاته الجمالية يكون فردياً، وقد يكون خطيراً في الحالات الجمعية حين يستثمر في التعصب والتهييج.

فضيلة الإصغاء

يقول أحد شخصيات قصة «المتشرد» لعبد الله عبد: «لقد نسي الناس في هذه الأيام جميع الفضائل، حتى فضيلة الإصغاء» هذه الجملة عثرت عليها منذ

أيام في دفتري الخاص، وأعتقد أنني قرأتها منذ أكثر من عشرين سنة. قادتني الجملة إلى التساؤل: هل الإصغاء فضيلة؟ هنا لا شأن لي بالبعد الفقهي لمعنى الفضيلة، بل بالمعنى الأخلاقي الوضعي والوجودي. لنقارب المعنى من مدخل الدعوات الملحة للحوار، وما يترافق من مفردات تغدو شائعة لكثرة ما تردد، مثل: الاعتراف بالآخر، والحوار مع الآخر، ومائدة أو طاولة الحوار... والناس ترى في الحوار خلاصاً، وقد يكون. ولكن، قد يفشل الحوار، وتعود الأطراف المتحاورة إلى الحالات القصوى، إذا لم يتحلّ المتحاورون بفن الإصغاء. وأنا هنا لا أريد خلق التباس بين فضيلة الإصغاء وفن الإصغاء! مجازياً يمكن أن يكونا الشيء ذاته. ولنتعدى البعد السياسي لكلمة حوار والدعوة للحوار، أرى ثمة علاقة بين الإصغاء والصمت. لكي يصغي الإنسان إلى ذاته أو إلى الآخر أو إلى الطبيعة، عليه أن يصمت بعض الشيء، أن يتوقف عن الثرثرة والصخب والعدوانية، أي أن يصفو، ويتهذب، ويدرك أنه في مقام الإصغاء، منفتح إيجابي، ممتلئ بالحكمة! قد يكون الإصغاء فناً صعب الممارسة، لا يتقنه إلا المتمكنون من ذاتهم! المدربون على الإصغاء، أو من هو فيهم فطرة وسجية، وهؤلاء من الحكماء والصوفيين، قدماء وجدد، متعلمين وغير متعلمين، منهم على سبيل المثال: زهير بن أبي سلمى، لاوتزو الصيني صاحب كتاب التاو، المعري، والشيخ الأكبر محي الدين، وجلال الدين الرومي، وكريشنا مورتي، وأريك فروم الداعي الكبير في هذا العصر لإنسان الكينونة والجوهر، وعشرات بل مئات غيرهم من الفلاحين المجهولين الذين يتقنون الصمت والإصغاء، ويعبرون هذا العالم دون أن يدري بهم أحد! بين الصمت والعزلة علاقة ما، أما الإصغاء فهو نفي للعزلة، حضور قوي للأخر. فالإنسان الذي يصغي، حتى لو كان وحيدا، هو إنسان تواصلي، يتواشج مع العالم بعقله ووجدانه، إنسان لا تحده أناه أو فرديته، بل كأنه يقول مع الشاعر العربي: «أقسم جسمي في جسوم كثيرة»... أو مع شاعر آخر يقول:

«خيالكَ في عيني وذكرك في فمي ومثـواك فـي قلبـي، فـأين تغيـب»؟

ولعله من الطريف أن أذكر بما قاله الإمام الأوزاعي، وإن كان لا ينطبق على ما نذهب إليه، يقول: «العافية عشرة أجزاء: تسعة منها صمت، وجزء منها الهرب من الناس» وفي موازنة طريفة بين الصمت والكلام، قال أبو تمام الطائي: تذاكرنا في مجلس سعيد بن عبد العزيز عن الكلام وفضله، والصمت ونبله، فقال سعيد: ليس النجم كالقمر، إنك تمدح السكوت بالكلام، ولا تمدح الكلام بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبر منه. وقال الجاحظ في الموضوع: كيف يكون الصمت أنفع من الكلام؟! ونفعه لا يكاد يجاوز صاحبه، ونفع الكلام يعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين!». ويقول الحكيم التاوي لاوتزو:

«في قلـة الكـلام تنـاغم مـع الطبيعـة الطبيعة لا تعبر عن نفسها بالكلمات»

الصمت الذي نقصده هنا هو الذي يستوجبه الإصغاء، وليس الخرس أو السكوت عن الحق، وليست دعوة ضد الجدل أو المحاورات، بل على العكس من أجل الوصول إلى ذلك، ونحن نصغي أو بعد أن نكون قد أصغينا بما فيه الكفاية. في إتقاننا للإصغاء أو التدرب عليه ليكون طريقة حياة، نواجه فيه كل أشكال الإغواء الاستهلاكي، وكل أشكال التحريض والتهييج، وأنواع الفتن، والانفعالات الغرائزية، لأننا ونحن نصغي نجري أفضل المحاكمات العقلية، وأفضل قياس واستنباط ، وأفضل تواصل بين الذات والموضوع.

في أدب الأطفال

إن أي متحدث عن أدب الأطفال ممن يمارسون هذه الكتابة لن يتردد في أن يبدأ حديثه بالقول إن الكتابة للأطفال صعبة للغاية وتحتاج إلى موهبة وحساسية كبيرتين. وهذا صحيح بالتأكيد، ويترتب عليه الحذر والشعور بالمسؤولية. والواقع أن

المتابع لما يكتب للأطفال اليوم من قصص وشعر وروايات وحتى الدراما والسيناريوهات المصورة يلاحظ استسهالاً ما بعده استسهال، والكل يضع يده في هذا المجال، حتى وكأنها خوض في حقل تجارب، ويغيب عن البال حساسية الموضوع. ولعل واحدة من أولويات الكتابة للأطفال، في اعتقادي، ألا يغيب عن بال الكاتب أن عليه أن يكتب فناً متقناً ونظيفاً وممتعاً، مستنفراً العقل والخيال، وبهذه الشروط والأدوات يمكن أن تتحقق القاعدة الأساسية للكتابة الطفلية. الشائع عندنا أن الكتابة للأطفال تستلزم تقديم معلومة تربوية أو نصائح أخلاقية بطريقة تعليمية، وهذا النمط من حسن النية لا يكفي لتقديم أدب جيد للأطفال، بل على الأغلب يؤدي للنفور من قبل الأطفال، وغالباً ما يكون هذا النمط من الوصاية سطحياً وغير مقدر لذكاء الطفل ومدى استجابته لمتعة القص أو جماليات الفن الصادرة عن العقل والخيال، ولعل هذه الوصاية المقحمة واحدة من أكبر مشاكل أدب الأطفال عندنا. وأتباع هذا النوع يتعنتون في موقفهم وهم يجهدون أنفسهم في استحضار حكم وأمثولات أخلاقية مستهلكة ولا تلقى أي تجاوب عند الأطفال. ولذلك لا بد من الخروج من هذا القيد وإدراك أن متعة الفن يجب أن تتحقق بدرجة كبيرة في أدب الأطفال، ومن المهم جداً أن ينجح الكاتب في خلق تحفيز وتنشيط وتفعيل الخيال عند الطفل وعدم التعامل معه على أنه خامة بيضاء أو عجينة قابلة للتصنيع أو للتوجيه، كيفما اتفق. وفي اعتقادي،أن عالم الأطفال أكثر ما يستجيب للمرح وروح اللعب الخلاق، شريطة أن يقدم له أدب حقيقي، بلا ابتذال وبلا مبالغات، ولا يمنع من وجود أدب أخلاقي شريطة أن يقدم بقالب فني وبأسلوب شيق وواضح ومقنع. والأدب العالمي يقدم، أحياناً، نماذج عظيمة وراقية، مثل الأمير الصغير، وأليس في بلاد العجائب، والعديد من الأدب الروسي في المرحلة السوفيتية. ولكن ليس كل ما يترجم الآن من أدب الأطفال يمكن اعتباره نموذجاً قابلاً للإقتداء، بل على العكس توجد ترجمات لأدب الأطفال تثير العجب إن لم نقل الاستنكار ويحتار المرء من ترجمتها ولاسيما بعض قصص المغامرات المليئة بالضجيج والصراخ، والأخطاء العلمية والتناقضات المنطقية التي يجب أن تراعى

في هذا الحقل المحفوف بالمخاطر. أما عن القصص السحرية التي يمكن أن تكون للكبار وللصغار، فهذا النمط يمكن أن تمرر فيه أفكار وحكم وأمثولات أخلاقية، وسحريته تسعفه أحياناً وتتحقق فيه الجاذبية والتشويق، وللأسف هذا مالم ينجح فيه كتابنا المعاصرون، وأغلب ما ينتج من هذا النوع هو من أدب التأثر والتقليد. وقد يأخذ البعض على قصص الأطفال التي تتحدث شخصياتها بلسان الحيوانات أو الكائنات الحية، على أنها أصبحت مكررة واستنفذت جاذبيتها، وأنا لا أرى ذلك. وهذا النوع من الكتابة قديم وتراثي، والابتكار فيه مفتوح، ولا يزال كتاب العالم يستخدمونه بأساليب شتى، وهو مما يسترعي انتباه الطفل حتى ولو كان يعرف أنه خيالي أو أن الكاتب يحتال عليه من أجل الفكاهة أو الإضحاك، وسينتبه الطفل بفضول عندما يجد الديك مثلاً يتحدث عن الموسيقى، أو الريح تحاور حصاناً في المروج.. إلخ وهو أي الطفل يعرف أن هذا غير ممكن. هذا هو تفعيل الخيال وخلق الاستجابة عند الطفل واللعب معه، على أرضية أن كلنا أطفال، أو تبادل الأدوار بين الكاتب والطفل. هذه بعض الانطباعات الخاصة حول الكتابة للطفل التي تتضمن دعوة غير مباشرة لأخذ الأمر بجدية كبيرة.

قرابة الأدب

يمكن أن يختلف رجال الفكر، وأصحاب وجهات النظر السياسية، والآراء الفلسفية، ونقاد الأدب، فالأفكار تتصارع، وهذا أمر مألوف. عادة الأفكار الأصيلة تتجادل، ولا تهادن، تتصارع ولا تنافق لبعضها، وهذا كان حال الفكر عبر التاريخ. إلا أن الأمر مع الإبدع الأدبي والفني يختلف، ويجب أن يختلف، فالإبداع له خصوصية فردية، وهو نتاج أفراد، يختلف إبداع كل شخص عن الآخر في الرؤية وفي الأسلوب، حتى لو كانت المواضيع متقاربة، فكل شخص يقدم أسلوبه وبالتالي شخصيته، والأدباء في كل أمة هم قلة دائماً، في أحسن الحالات لا يتجاوزون المئات، وبالرغم من كل ما يقال عن التشاحن والغيرة، أو عداوة أهل الصنعة الواحدة فيما بينهم، أو حسد الكار، كما يقولون، بين هؤلاء

القلة، إلا أنهم أسرة واحدة، تجمعهم قرابة الأدب، وقديماً كان بعض العرب يقولون: «الأدب نسب» وهي باعتقادي مقولة رائعة! عاشها الأدباء في كل العصور وفي كل الثقافات، فالأدباء مهما اختلفوا في الحياة اليومية، ومهما تنافرت أمزجتهم، يجمعهم نسب واحد هو الأدب، فلنذكر بشعراء النقائض الثلاثة في العصر الأموي: الفرزدق وجرير والأخطل، قد بلغ التهاجي بينهم حدوده القصوى، إلا أنهم كانوا أصدقاء، يلتقون في البلاط ويتمازحون، ويتفقون ضد وافد جديد كعدي بن الرقاع العاملي! وتوجد قصص عديدة تؤكد المودة فيما بينهم، ومثل هذا جرى في الثقافة الفرنسية بين رامبو الشاعر الشاب القادم إلى باريس من «شارلفيل» المدينة الهامشية، وأدباء باريس المشاهير مثل: فرلين، وفكتور هيجو وغيرهما، والأمر كذلك في مصر في زمن أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم، وخليل مطران، والبارودي، وعلي الجارم...، وكذلك شعراء المهجر، والأمثلة تطول، وكلها تؤكد هذه القرابة بين الأدباء، حيث في هذه الأسرة الفريدة يتعايش الآباء والأبناء المجازيون بمودة أو بتنافر، حسب كرم النفس أو وضاعتها! قرابة يرى أبو تمام أنها أقوى من قرابة الدم! وهو الداعي إلى أخوة الشعراء، يقول لصديقه الشاعر علي بن الجهم:

«إنْ يُكدِ مُطّرَفُ الإخاء فإننا ... نغدو ونسري في إخاء تالد

أو يفترق نسب يؤلف بيننا ... أدب أقمناه مقام الوالد

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا ... عذب تحدر من غمام واحد»

وكان أبو تمام هذا الشاعر الكبير النفس، يمدح أصدقاءه من الشعراء، ويعبر عن فرحه بهم : «فرحة الأديب بالأديب». ومما يروى عن ابن المقفع بهذا الصدد؛ أن صديقه عبد الحميد الكاتب المطلوب للقتل لجأ إليه ليختبئ عنده، وحين علم الجند جاؤوا يطلبونه، فخرج لهم ابن المقفع، فقال: أنا عبد الحميد الكاتب، فخذوني. إلا أن عبد الحميد خرج ليثبت لهم أنه هو المطلوب، فأخذوه. وكان ابن المقفع ينفق من ماله على المحتاجين من إخوته الأدباء،

ليحفظ كرامتهم. ومما يروى أيضاً أن الشيخ محمد عبده بعد أن لمس فقر الشاعر حافظ إبراهيم، قدم له رواية البؤساء لفكتور هيجو التي كان الشيخ قد ترجمها، لينشرها الشاعر باسمه ويستعين بما يرده منها! القصص كثيرة بهذا الصدد، تعزز نظرية قرابة الأدباء. ففي عصرنا هذا رغم ما نراه من شقاق وتنافر على المنابر وصفحات الجرائد، وعلى رؤوس الأشهاد! ما يوحي وكأن الجماعة من أسرة متفسخة فاسدة! إلا أن حقيقة الأمر قد تكون غير ذلك! فالأدباء يلتقون في المقاهي، وفي الندوات والمناسبات الثقافية، وقد يذهب ما بينهم من جفاء ويتبدد في لحظة صفاء أو في الملمات! ليتصرفوا على أنهم أخوة يجمعهم نسب واحد هو الكتابة، وهذا هو الأصيل في الأمر، وعكسه هو العارض الذي يذهب كالزبد!

قصص الفلاسفة

من حق القارئ أن يتساءل: لماذا يكتب الفلاسفة قصصاً وروايات؟! ألا يكتفي واحدهم بأن يكون فيلسوفاً؟! ولماذا يتم محو الحدود بين منظومتين سرديتين لكل منهما ملامحها؟ هل في ذلك ضرورة، وإلى أي حد نجحت القصص التي كتبها فلاسفة في تقديم إضافات نوعية على فن القص؟!

كتب فولتير رواية «كنديد» وكتب قصص قصيرة، كما كتب ديدرو روايات وقصص قصيرة، وأشهر رواياته: «جاك القدري» وفي الفترة نفسها كتب رابلية: «غرغانتوا» و«بانتاغرونيل» وحظيت هذه الروايات بتغطية جيدة، ولاقت شهرة واسعة، ويمكن أن نضيف إليها «اعترافات» جان جاك روسو. والحقيقة أن الروايات التي كتبها الفلاسفة ليست كثيرة، وهي غير الروايات التي عالجت بعض القضايا الفلسفية، أو تطرقت لمفهوم الزمن والديمومة، والحلم والذاكرة وفق الرؤية البرغسونية، نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي برغسون، ومنها رواية: «البحث عن الزمن المفقود» لمارسيل بروست، وروايات جيمس جويس، وتوماس مان، وبعض روايات نجيب محفوظ.. فهؤلاء روائيون وليسوا فلاسفة. يمكن أن تصنف روايات الفيلسوف

الوجودي الأسباني «أونومانو» وروبات سارتر والبير كامو تحت عنوان: روايات فلاسفة. أما الفيلسوف وعالم الرياضيات وداعية السلام الإنكليزي الشهير برتراند رسل ولد عام ١٨٧٢ وتوفى عام ١٩٧٠ البعض، ربما، لا يعرف أن رسل أديب قصصي، وقصصه من النوع الفلسفي المحض كتبت بأسلوب أدبي غاية في الوضوح والإمتاع، وله مجموعة قصصية، ترجمت إلى العربية بعنوان: «أحلام المشاهير وقصص أخرى» وله: «شيطان الضواحي» عاصر هذا الرجل الحربين العالميتين في القرن العشرين، وكان في حياته كلها من أنشط دعاة السلام، انتقد الشيوعيين بعد زيارته للاتحاد السوفييتي أثناء حكم ستالين، ووقف ضد الرأسماليين ودعواهم الزائفة بالديمقراطية، وكافح ضد الاستعمار، وقاد المظاهرات حافي القدمين احتجاجاً على الحرب الأمريكية في فيتنام. وفق مواقفه هذه، ضد عصره الحربي، وتطلعه لعالم مغاير، كان رسل يصبو إلى «إنسان المستقبل» وكان عليه أن يسخر ويتهكم، كصديقه برنادشو، من قادة الغرب ونخبه،لاسيما السياسية منها، وهي التي دمرت أوروبا، وخلفت ما يقارب المائة مليون قتيل حصيلة الحربين، وخرج بعضها متباهياً بالنصر على بعضها الآخر! عبر رسل بقصصه عن سخطه من جهة، وعن آماله المستقبلية. وقصته: «زهاتو بولك» مثال على ذلك، وهي قصة ساخرة مثل معظم القصص التي كتبها الفلاسفة قبله، تتحدث القصة عن صراع بين وثنيات اجتماعية وعقائدية حدثت في الماضي، أي في القرن العشرين، والقصة تروى على لسان بروفسور يحاضر أمام نخبة بعد ثلاثمائة سنة من القرن العشرين! الذي يعده البروفسور عصراً غارقاً بدياجير الظلمات والفوضى والتعصب، عصر: «البروسو– سلافية» االتي قامت على أنقاض الإغريقية واليهودية! وهو يشير هنا إلى الشيوعية متمثلة ب: «ستالينوس» أي ستالين، وإلى النازية ثم تنهار ويأتي على أنقاضها نازية مضادة قائمة على تفوق العرق الأحمر في البيرو وارثة حضارة الأنكا ضد البيض. هذه القصة التي أعتقد غير جازم، أن الأرجنتيني بورخس، وهو أديب وشاعر كتب قصصاً فلسفية، قد بنى قصته الشهيرة: «تيلون أوكبار»... على منوالها أو تأثر بها، وقصة رسل أكثر وضوحاً وتشويقاً. هذه القصة التي يستحيل تلخيصها لكثرة ما فيها

من مشوقات وأفكار ورموز، تتجلى فيها رؤية رسل الشاملة للعالم، بشرقه وغربه وقاراته الخمس، واطلاعه على حضارات العالم القديمة والحديثة! وفق هذه القصة وقصص أخرى، كتبها فلاسفة، نخلص إلى أن معظم قصص الفلاسفة يتحكم فيها شيء من المنطق، لكنها تنحو إلى المبالغة في التهكم والسخرية لتمرير الأفكار بشكل شيق، والأولوية فيها تكون للأفكار والتصورات الذهنية والرموز، وفي قصص الفلاسفة، غالباً، الزمن الذي تروى فيه الأحداث هو المستقبل، والحاضر هو ماض مسفّه!

قلعة العزلة

لعلَّ أطول عزلة فرضها شاعر على نفسه، هي عزلة أبي العلاء في بلدته معرة النعمان، حيث امتدت ما يقارب الخمسين عاماً، كتب فيها الشيخ الضرير أعظم ما كتب: لزوم مالا يلزم، وعبث الوليد، وغيرهما من الكتب الخالدة التي فقد منها الكثير! دخل أبو العلاء منزله، واعتزل الناس، لم يخرج إلا مرة واحدة، حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم عند القائد العسكري أسد الدولة صالح بن مرداس، صاحب حلب، ليطلب منه فك الحصار عن المعرة، وكان له ذلك، وقال له صالح: «لقد وهبتها لك يا أبا العلاء» ورحل عن المعرة إكراماً لأبي العلاء! ولم يكن أبو العلاء يطمح في ملك ولا مال ليأخذ بلدته الفقيرة هبة من أحد! وعاد إلى محبسه، راداً اعتراف قومه له بالفضل وإنقاذه لهم من براثن صالح، قائلاً: «ما كان لي فيها جناح بعوضة».. في عزلته هذه التي عزم عليها في بغداد، أو في طريق الإياب من بغداد إلى المعرة، أغلق أبو العلاء على نفسه، وأراد الاعتزال التام، أن تكون عزلته بمثابة قلعة لا يصلها أحد، إلا أنه لم يفلح، فاقتحم الناس عليه عزلته، وقصده طلاب العلم من كل ديار الإسلام! كان يرى: «في الوحدة الراحة العظمى، فأحنى بها / قلباً، وفي الكون بين الناس أثقال». لكن مع ملاحظة أن عزلة أبي العلاء ليست نابعة من عدوانية أو استعلاء، وهو القائل:

«ولو أني حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا»

لقد أزهرت عزلة المعري القاسية، روائع شامخات. ولم يكن فريداً في تاريخ العزلة المبدعة، إذ يتحدث الرواة عن عزلة هوميروس، وعزلة جون ملتون، والثلاثة عميان! وثمة شعراء كثر كانوا ينشدون الوحدة، والسكينة! وفي التجليات الحادة لدعوات الانفصال عن الناس وتجنب الاختلاط بهم ما قد يؤدي إلى الجنون كما عند الألماني «هلدرلن» وهو القائل: «لماذا، في صدري لا تنام الشوكة أبداً»؟ وبدرجة أقل عند «ريلكه». في الشعر العربي القديم، أختار الشنفرى، في لامية العرب، حيوانات البرية أهلاً وأصدقاء! وسمع شاعر آخر يقول:

«عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وَصوّت إنسان فكدت أطير»

وبورخس أيضاً، الذي كرس صورة الأعمى المنسحب من العالم، كان يمجد العزلة، ولا يرى الذات خارج المتاهة! وعاش ردحاً من عمره منطوياً في مكتبة عامة، ويبرر ذلك، قائلاً بتواضع، إن السمة الغالبة على شخصه، هي أنه قارئ أكثر مما هو كاتب. ويروى أن الكاتبين الأرلنديين الشهيرين: جيمس جويس، وصموئل بيكيت كانا يلتقيان يومياً في مقهى باريسي، يجلسان أربع ساعات على طاولة واحدة، دون أن يتكلما بشيء! أما الشاعر الانكليزي بايرون فكان يقول: «أنا لم أحب الدنيا/ ولا الدنيا أحبتني... وما استطاعت الجماهير أن تعدني في عدادها/ لقد وقفت بينهم وما كنت منهم/ تلفني أفكار ليست أفكارهم..».

هذا الانفصال بين الشاعر وبين الناس، لا يعني الانعزالية الناتجة عن التشاؤم، بل على العكس يمكن أن يكون هؤلاء أشد حنواً على البشر، وداعين لإصلاح مصيرهم! لكن، حين يضج العالم بالثرثرة، والتفاهة، والكذب، ويصخب بالفوضى والجنون! يكون الصمت والعزلة ملاذين لمواصلة صوت التهكم

والسخرية! وتكون قلعة العزلة التي شيدها الشعراء والمبدعون مجرد هيكل من كلمات، سرعان ما يتداعى، ولنكتشف أيضاً أن كائنات العزلة هؤلاء هم صوفيون مقنعون بالقسوة، وربما علينا أن نغفر لهم إذا ما صدقنا مارسيل بروست، حين قال: «تولد الكتب الهامة في الظلام والصمت، وليس في وضح النهار، وفي مساحات الثرثرة اليومية».

قوة الأفكار

نحن قوم، نعاني ثقافياً من ركود الفكر النقدي، وبأمس الحاجة إلى تنشيط الأفكار في كل المجالات، في قراءة النصوص، وقراءة المجتمع، والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والسياسة والقانون..وأهم آلية في ذلك في اعتقادي هو التأليف والنشر، ويبقى الكتاب هو الطريق الأسمى للمعرفة بعد أن أخفقت الأدوات الأخرى في حمل الرسالة أو انحرفت نحو الترويج والتهريج والإثارة! ولذلك يكون لزاماً علينا أن ننوه بالكتب التي يكتبها كتابنا ويطرحون فيها آراءهم بجرأة وثقة، وليس الأهم أن تكون الأفكار التي تطرح صحيحة أو متوافقة مع أفكارنا، بل الأهم أن تكون آراء جدية قابلة للجدل والمناقشة وإثارة التفكير، وبهذه الطريقة تتسع دائرة الجدل وتتفتح منافذ لخروج الآسن والراكد من الأفكار. ومن هذا المنطلق أحببت أن أنوه بكتاب الناقد السوري الدكتور صلاح الدين يونس الذي حمل عنوان: «النقد بين المثاقفة والمقاربة» ولعل العيب الأكبر في هذا الكتاب، يكمن في الحشد الهائل من الأفكار التي تثقل على القارئ المتعب! ولهذا جاء في مقدمة طيب تيزيني له: «إنه يقدم لوحة غزيرة لألوان من الآراء والنظريات والسجالات حول مسألة النقد الفكري».. بالمجمل يتألف الكتاب من مقدمتين الأولى بعنوان: «مقدمة في عمل جاد» للدكتور تيزيني، والثانية للمؤلف بعنوان: «ثقافة النقد بين خصوصية التجريب وعمومية التنظير» وهي بمثابة توطئة للدخول في الكتاب المتشكل من فصول ثلاثة، تحتوي عدة عناوين، هي: النقد من المفارقة إلى المقاربة، النقد والنقد البديل/ تعايش

الأضداد، استراتيجية الرؤية بين المحلي والعالمي. في البداية يفصل الناقد بروح أكاديمية بين المنهج النقدي بوصفه ظاهرة أيديولوجية، وبين عملية النقد نفسها بوصفها ظاهرة ابستمولوجية (معرفية) وبناء على هذا الفصل يقدم نقده الابستمولوجي للخطاب النقدي العربي، وعلاقة التشابك بينه وبين الخطاب النقدي الأعم أو المركزي (الغربي) ويرى أن النقد بوصفه ظاهرة من ظواهر المثاقفة، يمكن أن يؤسس بثقافة نوعية منتزعة من الأصيل القومي ومن الوافد الأممي. والنقد، كما يرى الدكتور، ظاهرة مركبة من الداخل والخارج، من الأصيل والدخيل، ومن الأدبي والثقافي والأيديالوجي، والمعرفي، ويتطلب لفهم هذه الظاهرة المركبة والمتشابكة، تفكيكها إلى عناصرها ومكوناتها، لكشف سياقاتها الداخلية وخطوطها الظاهرة والخفية. وهذا التشابك يمكن أن يشكل مشهداً ثقافياً متكاملاً واعياً لذاته وواعياً لغيره يمكن أن يواجه الفوضى والانفلات، وضمن هذه الصيرورة يزداد مناعة وأصالة. ويشير، بعين الناقد، إلى المخاض الثقافي العربي منذ القرن الهجري الأول إلى ما بعد هزيمة ١٩٦٧ وكيف نشأ مفهوم المثاقفة، وكيف تجدول المخاض في الظاهرة الأدبية على هيئة مناهج نقدية، وكل منهج هو معبر غربي على الشرق وله تجلياته في ثقافتنا العربية المعاصرة، وأهم هذه المناهج: الواقعي، الماركسي، النفسي، البنيوي.. وحول أطروحة الحداثة هل هي انقطاع أم تواصل؟ أدخلنا الدكتور يونس في إجابة طويلة ومتشعبة، ما كانت تحتاج إلى كل هذا التقعير، ويلحظ المؤلف هنا أن الثقافة العربية منذ العقد الأخير من القرن العشرين تشهد تحديات من النظام العالمي الجديد، ولكن الثقافة العربية لم تكن بمستوى التحديات لأمرين: الأول، يتعلق بالتراث والتعبير عنه والاختلاف على امتلاكه بين السلفية الدينية والخصوصية القومية. والثاني،يتعلق بمشروع الحداثة ومشروعيتها التي لم تستطع أن تنجز أفاقها إلا عبر النخب التي عملت بجهود فردية على توطين ثقافة الآخر دون أن تنجز في القاعدة المجتمعية أساساً لتقبلها. نظريات عديدة في الثقافة يعرضها ويناقشها ويتقصى تأثيراتها في ثقافتنا، وكثيرة وكثيفة الأفكار المطروحة في

هذا الكتاب وهي تستحق أن تثير الجدل الواسع، فالكتاب كتاب فكر ونقد ومن سوء الحظ أنه أتى في زمن انعدام القراءة.

التراث المُضيّع

كان المبشّر بن فاتك، حكيم زمانه، من العارفين بالأخبار والتواريخ، وهو صاحب كتاب: «مختار الحكم ومحاسن الكلم» أول كتاب عربي في تاريخ الفلسفة، ترجم إلى معظم اللغات الحيّة، لأبي الوفاء (المبشّر) الذي ولد في دمشق، وعاش في مصر حكاية طريفة ومؤثرة، يقول عنه ابن أبي أصيبعه: «إنه كان كثير الاقتناء للكتب، مكباً على الاطلاع عليها، بيد أن كثيراً منها قد وجد وقد تغيرت ألوان الورق الذي له بغرق أصابه» ويفسر ابن أبي أصيبعة كيف أتلفت كتب الرجل، وكيف غرق القسم الأكبر منها، قائلاً: «إن إدمانه على مطالعة الكتب قد جعله ينصرف عن زوجته، وكانت له زوجة لها شأن في الدولة المصرية في القرن الخامس الهجري، فلما توفى، رحمه الله، نهضت هي وجوار معها إلى خزائن كتبه، وفي قلبها غلٌّ شديد على الكتب، حيث كان ينشغل بها، فجعلت تندبه وترمي الكتب في بركة ماء كبيرة وسط الدار، هي وجواريها، ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها. فهذا سبب أن كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهي بهذه الحال». إن زوجة المبشر فعلت ذلك وهي في عنفوان حزنها على زوجها! ولعلها كانت تنتظر الفرصة لتعبر عن غضبها على الأشياء التي غوت زوجها وجعلته ينشغل عنها، فأتتها الفرصة في اللحظة الحرجة، لحظة موت الرجل، لتفجر الغضب والحزن في آن! وهذه اللحظة الحرجة، هي التي أعطت للحادثة قيمتها الحكائية، والتي لولاها لما كانت تستحق أن تروى. وأنا أشك بهذه الحكاية التي فسر بها ابن أبي أصيبعه فقدان وإتلاف كتب المبشر، ولا أستبعد أن تكون الضغائن السياسية في مصر آنذاك هي وراء ما جرى لتراث المبشر وغيره، على يد المتعصبين. وإن تكن مشكلة المبشر مع زوجه أو مع جهة أخرى، فهي قد حدثت

بعد وفاته! وأضاعت هذه الحماقة جزءاً من مؤلفات هذا الكاتب والمؤرخ الكبير! وللأسف لم يكن المبشر هو الوحيد في تاريخ ثقافتنا قد تعرض للعدوان، فقد سبق للمؤرخ الشهير أبو جعفر محمد بن جرير الطبري أن تألب عليه أعداؤه من المتعصبين الحاقدين، وعلى رأسهم الفقيه أبو بكر محمد بن داود وحوصر من الغوغاء الذين رجموه بالحجارة وبسفيه القول، وهموا بحرق منزله وهو حبيس فيه! وقد أثرت الحادثة على الطبري إلى أن قضى بعد أيام، ودفن ليلاً ولم يؤذن به أحد خوفاً من العامة! إلا انه اجتمع على جنازته من لا يُحصي عددهم إلا الله، وصُلّي على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، وقال عنه صديقه ابن دريد راثياً:

«إن المنيــة لــم تتلــف بــه رجــلاً   بـل أتلفت علمـاً للـدين منـصوبا»

وقال أبو بكر الخصيب: «وما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير». وهاهو أبو حيان التوحيدي يحرق كتبه وهو في التسعين من عمره، بعد أن ضيّق عليه الوزيران البطران: ابن العميد والصاحب بن عباد، إذ راحا يتقاذفانه من بلاط على بلاط، ويماطلانه، ويهزأان به. ومثله فعل عمر بن العلاء الذي دفن كتبه في باطن الأرض فلم يعثر لها على أثر، وكذلك داؤود الطائي الملقب: بـ (تاج الأمة) طرح كتبه في البحر، وقال يناجيها: «نعم الدليل كنتِ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول وبلاء وخمول..» وأما أبو سليمان الداراني، فقد جمع كتبه في فرن وأحرقها، ثم قال: «والله ما أحرقتك حتى كدت احترق بكِ». وفعل هذا أبو سعيد السيرافي النحوي الجليل الذي خصه أبو حيّان التوحيدي ببطولة الليلة الثامنة من ليالي «الإمتاع والمؤانسة» في المناظرة الشهيرة مع المنطقي أبي بشر متّى بن يونس. وكان قد فعل قبلهم جميعاً التابعي الجليل سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، والبسطامي.. فلم يصلنا منهم سوى نتف تروى من سيرهم وقد اختلطت بخيال الرواة! وهكذا قد ضاع الكثير من التراث العظيم، بفعل حماقات الكتّاب، أو حماقات نسائهم أو حكامهم أو فقهائهم! فيا لحرقتنا على هذا التراث المضيّع!

السرقة والتأثر

منذ أيام قليلة مضت، أنهيت قراءة كتاب مترجم يتجاوز السبعمائة صفحة، اشتبهت بترجمة الكتاب، وتذكرت أن في مكتبتي طبعة قديمة للكتاب بجزأين لمترجم آخر من بلد آخر، وأن الترجمة مسروقة مع بعض التضليل، وهذا مشين لا سيما أن الترجمة المسروقة صادرة عن مؤسسة نشر رسمية قد تفقد مكانتها إذا ما استمرت في التهاون بهذه الأمور. السرقات الأدبية أمر شائع جداً في التاريخ الأدبي، وقد أفرد لها النقاد العرب القدامى صفحات عديدة في كتبهم، ويكاد لا يخلو كتاب نقد قديم، بقليل أو بكثير، من ذكر هذا الداء، وابن رشيق يتحفنا بأنواع عديدة من السرقات في كتاب «العمدة» منها: «الاصطراف، الاجتلاب، الانتحال، الاهتدام، الإغارة، المرافدة، الاستلحاق، وكلها قريب من قريب» في باب السرقات. ومنها عند بعضهم: الاختلاس، والعكس، والمواردة (التوارد) والتلفيق والالتقاط وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب. وابن الأثير جمعها في ثلاثة أقسام: نسخ، أخذ اللفظ والمعنى. وسلخ، أي أخذ بعض المعنى. ومسخ، أي إحالة المعنى إلى ما دونه. وبعض النقاد خفف من قسوة المصطلح وقال ابن قتيبة بـ«الاحتذاء أو الأخذ». ورأى ابن رشيق أن اتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سُبق إليه جهل، وخير الحالات الوسط، والمخترع له فضل الابتداع، غير أن المُتبع إذا تناول معنى فأجاده في أحسن كلام فهو أولى من مبتدعه، وله فضيلة حسن الاقتداء. وثمة من رأى منهم أن من أخذ معنى عارياً، فكساه لفظاً من عنده، كان أحق به. إلا أن عبد القاهر الجرجاني يرفض هذا لانعدم وجود معنى عار من لفظ يدل عليه، ولشكه بإمكان أن يأتي أحد بلفظ من عنده لمعنى من المعاني، وأن التغير في اللفظ يتبعه تغير في المعنى والعكس أيضاً. في النقد الحديث كان لهارولد بلوم مصطلحه الذي يتقاطع بشكل أو بآخر، في الجوهر، مع النقاد

العرب القدامى، وهو في كتابه قلق التأثر، يستخدم مصطلح «ديالكتيك التأثر الشعري» ويرى أن الشعراء الأقوياء (الفحول) يصارعون أسلافهم حتى الموت، ويخفون ذلك عبر آلية الانحراف والتكتم، وأن الشاعر الواعد عندما يدرك لأول مرة أن الشعر يكمن داخله وخارجه معاً، فإنه يبدأ مسيرة لا تنتهي إلا عندما ينضب الشعر من أعماقه، وبعد أن يكون امتلك القوة على اكتشاف هذا الشعر خارج ذاته ثانية، يتم اكتشاف الهوية، وتكون ولادة ثانية. وشعراؤنا الأقوياء جلهم اتهموا بالسرقات! من امرئ القيس، مروراً بأبي نواس وأبي تمام والبحتري، والمتنبي، وحتى أدونيس. لابد أن نميز بين السرقة الأدبية المذمومة، وبين التأثر الذي تتوالد منه السلالات الأدبية وتتفاعل، رغم تداخل الحالتين أحياناً، ويكون الخيط الذي يفصل بينهما واهياً! وفي نصوص الحداثة وما بعد الحداثة، يأخذ التفاعل بين النصوص أشكالاً متعددة من التضمين أو عملية ابتلاع وهضم نصوص أخرى في نص واحد، والبعض يعتبر هذا سرقة. في ذاكرتي عشرات الشواهد التي عاصرتها وسمعت بها عن سرقات أدبية تبلغ وقاحتها حد الطرافة! وأنا تعرضت لحالتين مختلفتين من هذا التماس بين السرقة والتفاعل لا مجال ولاجدوى من الخوض فيهما، إلا أنه لا يشغلني كثيراً موضوع السرقات الأدبية، ولا توجد ملكية خاصة للأفكار، و كما قال الأسلاف؛ المعاني مطروحة في الطرقات لمن يشاء، إلا أنني أرى أن على الكاتب أن يكون مخلصاً لمخيلته ولشخصيته. وأعتقد أن السرقة بشكلها البشع والوقح شائعة اليوم في عالمنا الصفيق، العدواني إلى هذا الحد،حيث كل شيء فيه مباح بما في ذلك الحياة ذاتها!.

لمسة ميداس

تشير أسطورة «ميداس» اليونانية إلى حماقة الملك ميداس، ملك فيجيا (بلاد الزهور) الذي ورث ثروات طائلة وبددها بحماقاته! فكان يبدد كل ثروة تقع بين

يديه، وحكاية هذه الأسطورة باختصار كما وردت في كتاب «التحولات» لأوفيد، أن حدائق عظيمة كانت قرب قصر هذا الملك، ضاع فيها مرة العجوز السكير سيلينوس، وعثر خدم القصر على هذا العجوز مخموراً نائماً في عريشة من الورود، فربطوه بإكليل الورد وشكوا في رأسه الزهور، وحملوه إلى الملك لإضحاكه. إلا أن الملك رحب به كضيف ملكي واستضافه عشرة أيام ثم أخذه بنفسه إلى باخوس (إله الخمر) الذي سُرَّ بعودته، وقال لميداس إن أي رغبة يطلبها ستنفذ له، فما كان من هذا الطماع إلا أن يفكر بالذهب، وأن يطلب من باخوس أن يحول له كل شيء إلى ذهب. وكان له ذلك، وحين عاد إلى قصره وشرع بتناول تفاحة لم يستطع قضمها، وكذلك الطعام والماء فقد تحول كل شيء إلى معدن أصفر، وكاد المسكين أن يموت جوعاً وعطشاً، فأسرع إلى باخوس ورجاه أن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه،فطلب منه باخوس أن يذهب إلى نبع نهر باكتولوس ويغتسل ليتخلص من الهدية القاتلة. وتوجد حكاية أخرى تؤكد حماقة ميداس، حين أقحم نفسه في تحكيم مباراة موسيقية بين أبولو كبير آلهة اليونان وبين «بان» الإله الريفي البسيط، وميداس هذا لا يفقه بالموسيقى شيئاً!.. عزف بان على شبابته القصبية، وعزف أبولو على قيثارته الفضية، ومن شدة حماقته حكم لصالح بان وخالف أعضاء اللجنة دون أن يراعي قوة أبولو وخطورته وقد عاقبه هذا بأن غيّر أذنيه إلى أذني حمار. إلى نهاية هذه الحكايات الأسطورية الشيقة عن ميداس. هذه الأسطورة البسيطة تتداخل فيها عدة طبقات رمزية، منها: الحماقة وتبديد الثروة، الطمع، التطهر بماء النبع وفي الحكاية الثانية، جزاء من يحشر نفسه فيما لا شأن له به. و في ذيول الحكاية، عناصر أخرى توحي بها تفاصيل الأسطورة. هذه الأسطورة لها مكانة في النقد الأدبي ويستحضرها نقاد الأدب،لا سيما تيار النقد الأسطوري الذي أسسه الناقد الكندي الكبير نورثروب فراي، وأعلى من شأنه تلميذه النابغ «هارولد بلوم». واستخدم الناقد الماركسي البريطاني كريستوفر كودويل هذا التعبير في كتابه الشهير: «دراسات في ثقافة محتضرة» في ثلاثينات القرن الماضي، وكان يشير بهجائية إلى ثقافة الغرب الميدوسية التي تقود السفينة بقوة نحو

الصخور! والتي تجلت فيما بعد بالحرب العالمية الثانية، و«إن كل اكتشاف، على الصعيد العلمي، يؤدي إلى خيبة أمل جديدة»! هذا من جانب الغرب. أما من جانبنا نحن العرب، يبدو لي أننا لم نسلم من لمسة ميداس هذه في الكثير من جوانب حياتنا. من الناحية الثقافية، فقد تخيل قسم منا أن الماضي كله من ذهب! وقسم آخر رأى أن كل شيء قادم من وراء البحار هو المعدن الأصيل، وتبدد كل شيء بين يدي القسمين، ولم نقبض لا على أصالة ولا على معاصرة، ونحن اليوم في خضم الفوضى الثقافية التي أوشكت أن توصلنا إلى اليأس المطبق! أما عن واقعنا السياسي العربي، فنحن أمام لعنة ميداس كاملة الأوصاف! فالحماقة عند ملوك وأمراء (عرب) بلغت حدودها القصوى، وتبديد الثروات، حدث ولا حرج، وبين أيديهم كل ذهب الأمة، يبددونه تحت أقدام أعدائهم! وادعاء الحكمة والمعرفة، رغم الجهل البين، لم يبلغه ميداس القديم، حتى عوقب بتحويل أذنيه إلى أذني حمار! فأي عقوبة يستحقها هؤلاء إذا ما قيست حماقتهم بحماقة الملك ميداس، وفي نبع أي نهر علينا أن نتطهر من ثقل الآثام، ولنخلص من هذه الهدية القدرية التي ابتلينا بها؟!

«مجتمع التجار»

عبأتنا الثقافة المعاصرة، أحياناً عن حق، وأحياناً عن غير حق، بالريبة بالتجار، وتكونت لدى الكثير منا مواقف مسبقة وسلبية من هؤلاء النشطاء الذين يديرون رحى الحياة اليومية، بمهارة على الأغلب لأن العملية تحتاج إلى حساب الربح والخسارة، وإلى الاستدراج والجذب، والتنبه في عملية الشراء والبيع، وهي بالتالي عملية عقلية، تحتاج إلى ذكاء بعيد المدى وسرعة بديهة، يخرج منها الخامل ذهنياً بالخسارة. والتجارة مهنة قديمة وعريقة، والتجار أساسيون في حركية المجتمع وبنيانه، وفي بنية الدولة واستقرارها، يقودنا ذلك إلى معنى السوق والمدنية والحضارة والتاريخ والثقافة والترابط الذي بين هذه الجزئيات والكليات. المجال الحيوي للتجار هو الأسواق التي تزدهر في الاستقرار والنمو الاقتصادي ومقدرة الناس على الشراء. ويدرك التاجر العريق أن المصداقية مهمة جداً في سلوكه وسمعته، وفي خلق الثقة

بينه وبين المستهلك، وهنا نتحدث عن التجارة بالمعنى التقليدي للكلمة، وليس عن نوع مستحدث من المضاربين والباعة الذين يظهرون فجأة مستفيدين من الفوضى ومن الأزمات، الفئة الأولى وطنيون بحق، والثانية طفيليون مطعون في شرفهم وفي وطنيتهم، هؤلاء لا أخلاقيون، ويحتاج المجتمع إلى تدخل الدولة السريع لوضع حد لجشعهم المدمر والذي يفتك بالمجتمع ويعرضه للتقويض! وعلى التجار نفسهم أن يساعدوا في كشف هؤلاء الذين يلحقون ضرراً كبيراً بالجميع وبالتجار بشكل خاص! وقد عرف التاريخ الإنساني هذين النمطين من السلوك التجاري، وعمليات الاحتكار والغش والسرقة موجودة أيضاً، وكانت الأمور تحتاج لتدخل الدولة والتجار، معاً، عندما يئن الشعب، لوضع حد لهؤلاء المحتكرين، ففي الدولة الفاطمية في مصر، في عهد المستنصر، يذكر المؤرخون الذين عاصروا تلك الفترة، ما يعرف «بالشدة المستنصرية» التي تتخلع من هولها القلوب وتذهل منها العقول! لكن كما يقولون: «لو خليت الدنيا من الأخيار لخربت» ففي بلدنا الصامد عرفنا النوعين الذين لا يستويان معاً على الإطلاق. الفئة الثانية يجوز أن يطلق عليهم صفة: (الفجار) وكل الصفات الذميمة، وأن ينالوا الحكم العادل من الدولة والشعب. من المؤكد أن الربح في التجارة مشروع، والتاجر الجيد يعرف حدود الربح الذي يجعله يشعر بالرضا وراحة الضمير، فهذا النوع من الربح ليس نهباً ولا غصباً ولا سرقة، بل هو مقدر جداً في الأوقات العصيبة، حين يحتاج الناس إلى التضحية والإيثار، ومداواة الجراح. ولا يجب أن نشك بوجود هذا النمط الطيب من تجار بلدنا العريق الذي هو بالأساس مشهود له تاريخياً بالتألق في المبادلات التجارية وعملية التصدير والاستيراد، وعراقة مدنه كانت التجارة أبرز معالمها، والإساءات التي يمارسها البعض من الطارئين لا يجب أن تحجب الدور الوطني وروح المسؤولية العالية التي أظهرها التجار محافظين على أخلاقهم الدينية والاجتماعية وعلى عراقتهم المتوارثة والأصيلة. وهنا وتأكيداً على عنوان هذا المقال، وعلى وضعه ضمن الإطار الثقافي، أسوق رأياً لفيلسوف عقلاني معاصر هو أميل شارتييه ١٨٦٨ – ١٩٥١عرف باسم «آلان» يقول: «إن البيع والشراء هم أساتذتنا للعقل السليم.

ومرتكزات كل حياة إنسانية، هي مرتكزات اقتصادية. والأنماط عن السلام والعدل والحق هي المبادلات الراضية المرضية، الواسعة الانتشار والتي لا تلفت الانتباه إلا قليلاً، والتي يؤوب منها البائع والشاري وقد رضي كل منهما عن الآخر». ويرى هذا الفيلسوف أن الذهن المتيقظ باستمرار للادخار والاقتصاد يتوافق مع أمتن وأرسخ الفضائل، من دأب، وتقتير، واعتدال، ويقين صالح، وتعقل، وكرامة، وشجاعة. ويرى بالمقابل أن المسرفين ينجرفون مع الشهوات والآمال المجنونة، وصنوف الهوان والذل والعبودية. والمسرفون هنا من التجار ومن المستهلكين الذين يسرفون بكل شيء؛ بالربح الجنوني بلا أي رادع، و الفوضى إلى حد البطر، والتفلت من القانون..

التجار الحقيقيون الذين يشكلون «مجتمع التجار» الذين تجمعهم رابطة مصلحية وأخلاقية واعية ومسؤولة، هؤلاء يعول عليهم، ويتطلب منا أن نعيد النظر بأفكارنا المسبقة عنهم!

مدن الحضارات

المدن، تعبير عن المدنية، والعمران، والاستقرار، وهذه المدن الحضارية التي تنتظم في جغرافيتنا، معظمها مدن قديمة تأسست فيها الحضارات واحدة فوق أخرى، هي اليوم مستهدفة، بكل أشكال الخراب والدمار، يستهدف فيها الحجر والبشر، وفق منهجية معلنة وغير معلنة!

لماذا تستهدف مدننا الحضارية في المشرق والمغرب العربي؟! قد يكون للسؤال عدة إجابات، ولكن الحقيقة واحدة، هي أن المدن العربية الواحدة تلو الأخرى، تهب عليها رياح السموم العاتية! مدننا مرت عليها الأحقاب وعرفت الحروب والغزو وعرفت السلام والهناء، وكل واحدة منها تاريخ وحكايات، ومعالم، وقلاع، وأسواق، وحيوات، وشعراء، آداب وفنون، وأحياؤها القديمة الباقية رغم عاديات الزمن، هي هوية إنسانها المثقل بالتاريخ، ومدننا، بعجرها وبجرها، بحسنها وقبحها، وما بين هذا وذاك، تشبهنا! كما كل المدن القديمة،

لماذا تمتد أيد من وراء البحار وتعبث فينا؟! هل استضعفونا، أم علينا أن ندفع ثمن أننا ورثة حضارات، ومدننا مقصد للسياح، أم هي تصفية حساب بين الحضارة الجديدة والحضارات القديمة؟!

الزائر لأمريكا إذا أراد أن يزور المتحف القومي في واشنطن، وهو بناء كبير جداً من بضعة طوابق، ماذا سيجد؟! في أحسن الحالات سيجد جناحاً للعاديات التي تعود إلى أول عربة ترام أو عربة قطار بخاري، وسيجد ركناً للأسلحة النارية لسكان الجنوب الأمريكي، وبندول فوكو، ربما مُهدى إليهم لإغناء المتحف، وسيجد جناحاً لفساتين زوجات رؤساء أمريكا المتعاقبين، وعدد كبير من الأشياء المملة، والأبلغ من كل هذا، هو الاعتذار اللبق والملغوم وكأنه تهديد من الدليل السياحي الذي يعتذر منك إذا عرف أنك من سورية أو العراق أو مصر، قائلاً: «نحن بالنسبة لكم أطفال نحبوا في الحضارة»! أليس في هذا القول تعبيراً عن عقدة الحضارة، إذا جاز القول؟! يخيل لي أن بعض الأمريكيين يتميز غيظاً في أن يكون لك حضارة تتباهى بها! أن يقول العراقي مثلاً: «أنا من بلد أول تشريع في التاريخ ومن عندي خرجت لفظة حرية لأول مرة»! ويقول السوري: «أنا من بلد أول أبجدية، واكتشف أجدادي» الفينيقيون «هذي الأرض التي تقيمون عليها قبل ألفين وخمسمئة عام»! ويقول المصري: «أجدادي بنو الأهرامات والمسلات المصرية التي تضعون واحدة منها هنا في واشنطن، سرقتها فرنسا من بلادي وأهدتها لكم»! وقس على ذلك، قد يقول الليبي واليمني والهندي والصيني وحتى الأوروبي..

ربما يهز الأمريكي رأسه موافقاً ومخفياً غيظه بابتسامة، ويقول في نفسه: «أنا العالم الجديد، وأنا القوة»! وإذا انفرد مع شيطانه سيقول له الأخير: «لا تقلق، أنت القوة الأعظم على الأرض، وإذا كان من المتعذر أن تغير الجغرافيا، فبالإمكان العبث بالتاريخ، وخلق بعض الانزياحات في الخرائط،، وتدكيك المدن، وتغذية الانشقاقات، وما عليك إلا أن تلعب في الظلام، بل في الليل

وفي النهار..». مدن فلسطين اغتصبتها إسرائيل ذراع أمريكا، واجتاحت بيروت، وصيدا، وصور، واحتل الأمريكيون كامل العراق، ويستهدفون اليوم حلب ودمشق والمدن السورية، وعينهم على الإسكندرية والقاهرة وصنعاء والحبل على الغارب! تحطيم الدول بعمرانها وجيوشها، وتحويلها إلى مدن تفتقر إلى المركزية، ثم تقطيع أوصال المدن المركزية، وتحويل الجيوش إلى قوة شرطة وحراسة، ويزعم البعض أن الهدف من ذلك العودة إلى فوضى ما قبل الحضارات. يكتب منظرهم البريطاني المستشرق المتأمرك برنارد لويس في كتابه «الهويات المتعددة»: حافظت بعض الدول العربية على نفسها «بسبب وجود مؤسستين عميقتي الجذور، هما الدولة والجيش». ألا يغري هذا باستهداف هاتين المؤسستين؟ ومن المعروف أن برنارد لويس يقدم نصائح شفهية للأمريكيين حول المنطقة من منطق العارف!

مصنع الأفكار

لعل تصارع الأفكار بين الفلاسفة والمفكرين عبر العصور هو دليل واضح على أن اليقين الفلسفي كان دائماً ينقصه اليقين، فلم يستقر العالم على فكرة واحدة لزمن طويل، حتى ولو توهم العالم حقيقة ما، في عصر ما، كان يوجد من ينقضها أو يشكك بها، ثم يقوم الزمن بتقويضها، وقد تقوضت نظرية إقليدس، والمنطق الأرسطي، ومثالية إفلاطون، ونظرية بطليموس حول مركزية الأرض، وسفهت الميتافيزيا، والهيجلية، والماركسية، والوجودية، والبنيوية، وعلق الصراع بين المادية والمثالية دون أن يحسم! كل هذا الجدل الشيق أدرجه وليم جيمس تحت عنوان: «جدل في الجماليات» وقلل من جدواه في الحياة العملية للإنسان. وليم جيمس، عالم النفس الأمريكي (١٨٤٢-١٩١٠) واضع النظرية البراغماتية، والذي صب جام غضبه على (المطلق) الهيجلي وعلى كل مطلق، وسعى إلى إقامة منهج فلسفي يقوم على التجربة الإنسانية وعلى التفكير العملي، وهو يرى

أن البراغماتية اسم جديد لبعض الأساليب القديمة في التفكير، وللحق يستطيع المرء أن يلمح عند فلاسفة العرب والمسلمين براغماتية مبثوثة في كتاباتهم، مثل الأمام الشافعي، وابن حزم الأندلسي وغيرهما. والبراغماتية رغم أنها مذهب إنساني، خلطها الأمريكيون بالذرائعية، وغدت نمط حياة في مجتمعهم، وأسلوباً سياسياً ممقوتاً في العالم، وأعتقد أن وليم جيمس وجون ديوي بريئين من هذا الفهم الأيديالوجي لفلسفتهما البسيطة والواضحة، التي تدعو إلى الفكر الواضح وإلى تجنب الغموض وعدم الدقة، ودعيا إلى المنهج العلمي الذي يحتوي على تجميع لكل الحقائق الممكنة بعقل مفتوح. والمنهج العلمي الذي يشدد عليه وليم جيمس يعتمد على الملاحظة والتحليل الدقيق للحقائق. وأكد أن محك التجربة هو الفيصل بين الحقيقة والزيف. وهو يرى أن كل الحقائق من صنع الإنسان. ويلاحظ ،كاتب سيرة وليم جيمس، جان ولسن آلن أن جيمس كان يرى بأن الإنسان هو السبب الكامن وراء كل الحقائق المتعلقة بالعالم، وبأن الفارق الضخم بين العقلاني والبراغماتي يكمن في أن الواقع عند العقلاني جاهز مسبقاً وكامل إلى الأبد، أما بالنسبة إلى البراغماتي فإن الواقع ما زال جاري الصنع، وبعض ملامحه بانتظار المستقبل لكي تكتمل. من الناحية الأولى يبدو الكون آمناً تماماً، ومن الناحية البرغماتية ما زال يمارس مغامراته! و يرفض وليم جيمس الميتافيزيقيا، لأنه لا يمكن اختبار صلاحيتها بالبرهان الموضوعي. ويعتبر أن البراغماتية هي الفلسفة التي لا تنطوي على أي خداع، لأنها تقوم على التجربة والاستنباط العقلي من التجربة. ويقول: «إنني أومن بعمق بأن تجربتنا الإنسانية هي أسمى أشكال التجربة التي في الكون». وعن دور الأفكار يرى جيمس أن ليست وظيفتها تصوير الأشياء أو موضوعات التفكير بل تحقيق وتطوير المواءمة بين الإنسان وموضوعات تفكيره. وأن ما يوجد حقاً هو الأشياء المحسوسة، والعقول، ثم تيار متدفق من تجربة العقول للأشياء. إذاً مصنع الأفكار يشاد عند البراغماتيين من مادة الواقع، والعقل والتجربة التي تصحح وتعدل نفسها نحو الأفضل. أما عن النفعية، التي منها نشب سوء الفهم، يتحدث

جيمس عن النفعية باعتبارها معياراً للحقيقة. وأن الحقيقي هو النافع والمفيد في منهج تفكير وليم جيمس وجون ديوي الذي جاء بعده، ويرى الاثنان أن الإنسان الذي يستطيع أن يتحكم بمصيره، يستطيع التأثير في النتائج العملية لحياته اليومية وأن يميز عبر الخبرة والعمل ماهو نافع وماهو غير مفيد ومقدار فائدته أو ضرره. وهذا يجعله لا يرتهن إلى الاتكالية ولا إلى العاطفية ولا إلى التصورات والأوهام. الأمريكيون يمجدون وليم جيمس وجون ديوي وتشارلز بيرس، ويعتبرون النظرية البراغماتية مأثرتهم الفكرية العظمى، لما تتمتع به من واقعية ومراعاة للمصالح، ويضيفون عليها الكثير من حماقاتهم بالسياسة. بكل الأحوال، البراغماتية في جوهرها ليست رديئة أو فاسدة، وهي، باعتقادي، تطوير للميكيافلية، وقد يحتاجها المخططون في إدارة أي دولة تتوخى النجاح والمصلحة.

مطارحة في فن القول

طالما أن الصحافة الورقية باقية، والجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والنصف شهرية والشهرية تصدر، سيبقى متابعو الصحافة يترقبون المقال الجيد، ويُخيّل لي أننا نفتقر إلى المقالات الجيدة، وهي نادرة أكثر من أي وقت مضى من تاريخ الصحافة، رغم أن الكتاب كثر، لكن أين هي المقالات التي تذكرنا بعراقة الصحافة ونكهتهاّ؟! ولا يستطيع أحد أن يغفل الدور الذي لعبته الصحافة في مدنيتنا وحياتنا المعاصرة. أزعم أنني من المهتمين إلى حد ما بقراءة تاريخ الصحافة، ومن المتابعين للمقالات القديمة والجديدة، وأكثر ما يهمني في المقال هو طريقة كتابته أو أسلوب المقال، وهذا يعني الشكل والمحتوى معاً. قد لا يصنف المقال كفن من الفنون الإبداعية، وربما لأنه إنشاء صناعي في الكتابة يسير وفق منهج وتخطيط، ويخاطب العقل، من خلال التحليل، أكثر مما يخاطب الحس الجمالي، وهو ينمو بالمراس والثقافة. إلا أن المقال من ملكات فن القول، والمقال الناجح لا يجيده إلا أصحاب الأساليب في الكتابة، وهم قليلون اليوم! والمقال ليس مجرد موقف أو رأي

نكتبه كيفما اتفق أو بزج الاقتباسات والمعلومات المقتطعة، وهذا هو الدارج في الصحافة العربية، ولا هو بحشد مجموعة من المشاعر الوجدانية أو الإنشائية، بل هو طريقة عرض رشيقة وواضحة لفكرة أو لقضية أو مناقشة لرأي في الأدب أو التاريخ أو الفكر الفلسفي أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، فالمجالات التي يمكن أن يتناولها المقال عديدة ومتنوعة، و معروف للمتمكنين أن المقال يختلف عن الزاوية الصحفية، وعن المتابعة أو العرض الصحفي. وما يرد هنا للمزيد من التأكيد على ضرورة الفصل بين هذه الأبواب التي يشكل كل منها خصوصيته القائمة بذاتها، ولعل التذكير بالبديهيات يكون ضرورياً أحياناً! ولا رغبة لدي في التنظير، ولست في موقع إعطاء الدروس في طريقة الكتابة، ولكن المقالة الجيدة تدل على نفسها، وقد لا يمتلك زمامها الأكاديميون الذين يُدرّسُونها أو يضعون شروطاً ومعايير لكتابتها!

عرفت الصحافة العربية فرساناً في مجال كتابة المقال على أصوله، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: طه حسين، أحمد أمين، العقاد، المازني، أحمد الشايب، إسماعيل مظهر، زكي نجيب محمود، لويس عوض، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، رئيف خوري، شاكر مصطفى، محي الدين صبحي، وغسان الرفاعي، وغالب هلسا، وهاني الراهب.. والقائمة تطول، هؤلاء من كبار المثقفين والأدباء، وللأسف كلهم رحلوا وتركوا فراغاً! لقد احتضنت صحافة الأمس هؤلاء الكتاب وازدهرت معهم، ونجحوا في أن يرفعوا من سوية الكتابة، حتى كان المقال الجيد، يستدعي ردوداً ومجادلات طويلة، وظل هذا سارياً حتى وقت قريب! لكن التساهل في النشر، والتراخي، وضعف المهنية، والطوفان الإعلامي الكبير، وزيادة عدد صفحات الجرائد، حتى باتت تستوعب كل شيء، وربما أسباب أخرى، كلها تركت أثراً سلبياً على مستوى ونوعية الكتابة! توجد صحف عربية يومية، تتجاوز صفحاتها الملونة الثلاثون، مجرد النظر إليها يجعلك تتحسر على الورق والحبر والجهد المضيع! قد يكون من الصعب العودة إلى التشدد في استيفاء الشروط، بعد هذا التمادي في التراخي، وكما يقولون في الاقتصاد: «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة» لكن

المفارقة، أن كتاب المقالات أغلب الأحيان هم أدباء معروفون، وليس كل الأدباء الكبار يجيدون كتابة المقال، وبعضهم لم يمارس الكتابة خارج مجاله! بكل الأحوال، فإن نقطة البداية لكتابة مقال مقبول، كحد أدنى، أن يعرف كاتبه ماذا يريد أن يقول، ما المقولة المركزية التي يريد أن يقولها بوضوح، دون تشويش أو تزاحم أفكار، وبشكل رشيق غير ممل، وما هو دون ذلك فهو ضار بسمعة الكاتب وبالصحيفة وبالفكر عموماً وبالقراء.

مكانة المثيالوجيا العربية

تشكل الأساطير والحكايات الشعبية والفلكلور، مادة هامة لمعرفة جذور وجسد الحضارات وتداخلاتها. الأساطير والحكايات والفنون هي المخزون الجوفي لثقافات الشعوب، يحملها الناس في لا وعيهم وتظهر ملامحها في عاداتهم وسلوكهم وفي لغتهم وإشاراتهم. ويذهب فرويد ، في وعي الإنسان، إلى أبعد من ذلك، إلى الأزمنة السحيقة التي تشكل فيها العقل البدئي، وتشكلت الثقافة، ويرى أن العقل البدئي مستمر في الأفراد وغير قابل للفناء، والأفراد عند فرويد ينتمون إلى رهط قديم يقوده زعيم. ويرى يونغ أن اللاشعور الجمعي الذي يعود إلى الماضي السحيق هو المخزون الثابت الذي يتشكل منه الوعي الفردي والجمعي، ويظهر في الأحلام وفي السلوك وفي الفنون. إن البشرية تمتلك الخيال الذي ينتج الحكايات والأساطير والمعتقدات، وعالم الشرق القديم مميز بهذا الأمر، وربما هو المخزن الذي فاض على البشرية، بهذا الكم الهائل والنوعي من الأساطير والحكايات والعقائد المقدسة البسيطة والمركبة. وقد لامس بعض المؤلفين والمؤرخين أو المدونين العرب المسلمين أهمية هذه العلوم، فصنفوا فيها ما يعد اليوم مراجعاً عظيمة للباحثين في هذا المجال، نذكر من المؤلفات العربية القديمة، كتاب «الإكليل» للهمذاني، وكتاب «الأصنام» لمحمد بن هشام الكلبي، وكتابات وهب بن منبه وكعب الأحبار، والقزويني والطبري وابن مسعود والعشرات من الإخباريين العرب. مع التأكيد أن علم الأساطير من

العلوم الحديثة، وقد ظهر هذا العلم في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر، وبشكل خاص في هلسنكي على يد يوليوس كرون وابنه كارل كرون ١٨٣١ ثم توسع الأمر على يد علماء مثيالوجيين من بلدان أوروبية أخرى مثل الموسوعي البريطاني جيمس فريزر صاحب الكتاب المشهور: «الغصن الذهبي» وهو في ١٤ مجلداً. وظهر عندنا نحن العرب بوادر اهتمام محدود في تاريخ الأساطير والحكايات، لا سيما في مصر، ويرجع ذلك إلى الأربعينات وما بعدها من القرن الماضي، فبتشجيع وإشراف من الدكاترة: أحمد أمين، وطه حسين، ومنصور فهمي، ومصطفى عبد الرازق، وبعض المستشرقين الذين كانوا يدرسون في القاهرة مثل: الدكتور شخت والدكتور جفري، قام الهندي الدكتور محمد عبد المعين خان بتأليف كتاب: «الأساطير والخرافات عند العرب» ويذكر أن وزارة الثقافة بدمشق أعادت طباعته ضمن السلسلة الشهرية «أفاق ثقافية» عام ٢٠٠٧ وبعدها توسع العمل في الأساطير والفلكلور في العديد من البلدان العربية، ولمعت أسماء كبيرة نذكر منها: جواد حسني وطه باقر من العراق، عبد الحميد يونس، لويس عوض سيد عويس، شوقي عبد الحكيم وكتابه المذهل: «أساطير وفلكلور العالم العربي» وسيد القمني من مصر، أسد الأشقر وكمال صليبي ويوسف حوراني من لبنان، وسليم الحوت وإحسان عباس من فلسطين، وبديع بشور، وأحمد داؤود، ومفيد عرنوق، وفراس سواح من سورية. هؤلاء الأعلام الكبار مع غيرهم بحثوا في التاريخ القديم وفي أساطير الشرق الأدنى. ولا بد، أن ثمة فرق بين الأسطورة والفلكلور والقصة، وليست مترادفات لكلمة واحدة. وللأسطورة تعاريف عديدة، واستوقفني منها تعريف يورده عبد المعين خان لماكس ملر يقول فيه: «إن الأسطورة مرض من إمراض اللغة»، ويرى آخر أن الأساطير تروي أحوال الأصنام وأخبارها، والفلكلور يتكون من اعتقاد القدماء الذي لا يزال مستمراً إلى هذه الأيام، مثل قصة حاتم في الجود والسخاء، والسموأل بالوفاء بالعهد، أما القصة، فهي الحكاية التي تتعلق بمكان واقعي أو بأشخاص حقيقيين، نقلت بالتواتر من جيل إلى جيل، مثل قصة سد مأرب،

وقصة حرب البسوس، أو قصة الزباء، أو داحس والغبراء.. ويجمع الباحثون على أن الأساطير والحكايات والعبادات والطقوس تهاجر وتتنقل من مراكز نشأتها إلى فروع بعيدة وقريبة من المستوطنات البشرية، وإذا كان البعض يمنح الهند الموطن الأعظم للحكايات العالمية، فإن البعض يرى أن الشرق الأدنى، ونحن العرب الفاعل الأكبر فيه، يحظى بأهمية قصوى باعتباره المعبر الأساسي الذي عن طريقه تسربت كل الكلاسيكيات الهندية من الشرق إلى الغرب، وكما هو طريق الحرير القديم، هو أيضاً طريق الحكايات، وهذا ما يؤكد تشابك جذور الحضارات بين الشرق والغرب، ويكفي هنا أن نذكر بحكايات ألف ليلة وليلة وحضورها المدهش في الخيال الأوروبي حتى يومنا هذا.

نحن والتراث

ما هو التراث؟! أيصح أن نقول إن التراث هو كل ما ورثناه من الماضي؟ لنفترض ذلك، فكيف نتعامل مع هذا الماضي الموروث بكل ما فيه من شوائب؟ حاول كتاب عرب خلال القرن الماضي أن يتعاملوا مع هذا المعطى وفق تصوراتهم الأيديالوجية، وانقسموا في طريقة قراءة التراث والاستفادة منه وفق المصلحة، البعض من متطرفي الحداثة رفض التراث جملة وتفصيلاً ودعا إلى قطيعة شاملة مع الماضي! وإلى تنقيح الذاكرة من هذا الماضي ورفض التجاوب الإيجابي مع الحاضر بالمطلق، وأن ما يبدو في هذا الماضي من لمحات إنسانية لا تتعدى أن تكون مجرد نقاط مضيئة تشبه الومضات الإنسانية الموجودة دائماً في تاريخ البشر، والباقي من التاريخ بمجمله لا يلائم عصرنا بل العصر الذي ولد فيه، ولكل عصر رجاله وأحداثه. أصحاب هذا الرأي الداعي إلى القطيعة، قابلهم المتحمسون للماضي الذين يرون أن أمجاد العرب، وعصرهم الذهبي كان في الماضي، وأنهم في مرحلة ما من الشيخوخة والترهل أخلوا الدور لغيرهم وخرجوا من التاريخ، ولا بد لهم لكي ينهضوا من أن يعودوا إلى التاريخ ويعوا الدرس ويستفيدوا من تحديد أين أخفقوا وأين أفلحوا، ولابد لهم من المحافظة على هذا الإرث المجيد لكي

يستضيئوا به في حاضرهم ومستقبلهم، وأصحاب هذا الاتجاه هم المحافظون، وهذين الاتجاهين قديمين في تاريخنا الثقافي، بما عرف بالجدل بين دعاة التقليد والتجديد وربما تعود جذوره إلى العصر العباسي الأول حين تمحور الجدل حول الشعر، وتجاوز الخلاف فيما بعد حدود الشعر ليتوسع في العصر الحديث ويشمل مجالات الحياة والرؤية حول المجتمع والدولة وطرق الحكم. وكان هذا الجدل يؤجج أواره حالة التخلف والاستبداد العثماني، وبروز الأفكار الأوروبية حول القوميات. وبلغ الجدل في هذا أوجه في ما عرف بعصر النهضة، مع دخول الأوربيين إلى المنطقة، وحملة نابليون وما ترتب عنها، ثم فترة حكم محمد علي وطموحه في التحديث، وتلاقي النخب العربية من بلاد الشام و المغرب العربي في نقطة جذب واستقطاب هي القاهرة. وظل الجدل حول التراث قائماً حتى يومنا، وربما سيظل إلى ما لانهاية، وهو اليوم يتخذ أشكالاً مادية شديدة الخطورة، فلم يعد مجرد جدل ثقافي وحوارات بين مفكرين، بل يتخذ منحى خطراً إذ يتحول إلى هويات وعقائد ومذاهب، لكل منها رصيده من التاريخ، وفهمه الخاص للتراث تشكل له منظومة متكاملة من الأيديالوجيا التي تجعله يتوهم أن منظومته وحدها على حق وأن الآخرين عائق في طريق تحقيق أهدافه، وعليه أن يزيلهم من الوجود من أجل انتصار منظومته! وهكذا تحولت الأوهام بفعل عوامل ذاتية وخارجية إلى أيديالوجيا قاتلة ومدمرة، وتؤدي إلى التفتيت والفتك! فهل كان التراث لعنة، أم أن فهمنا للتراث هو اللعنة؟! لا تنفع هنا إجابة شخص واحد على هذا السؤال، الذي أضيف إليه سؤال آخر هو: هل هذا الواقع هو ما كان يريده لنا الأسلاف، ويريده لنا العقل بما يعنيه من سمو وتعال؟! مهما تكن الدعوات وردود الفعل من التراث، فنحن لا مفر لنا من التاريخ ومن ماضينا، هما ذاكرتنا الجمعية الواعية وغير الواعية، الفردية والجماعية، وسواء أكان التراث لعنة عند البعض، أو رحمة وخلاصاً عند آخرين، فالحالة التي انجرفت فيها المنطقة، بفعل العوامل الذاتية والخارجية، هي حالة سياسية مقنعة وسافرة إلا أن عقول البعض من الموتورين لا تريد إلا أن ترى القناع وحده على أنه حقيقة! ربما وعلى الأرجح لم تعد الدعوات إلى التعقل تنفع في لجم الثوران الهائج، وأن الأمور لابد ذاهبة إلى نهايات محتومة، ولكن

هذا لا يمنع أن يقول الواحد رأيه في هذا التراث . على أن التراث ليس الدين، وليس الحقيقة الكاملة والمقدسة، وليس شيئاً سهلاً ومستتقعياً يمكن تجفيفه والتخلص منه، بل هو يسري فينا، في أحلام نومنا وأحلام يقظتنا، في حركية الثابت والمتحول فينا، وهو تاريخ كل الأمة، جرى كما جرى، ولم نعد نستطيع أن نغير في مجرياته مهما حاولنا، وكله، بكل تياراته ورجالاته، ملك عام لكل من يريد أن يقرأه على أنه سردية واحدة أو مجموعة سرديات صغرى أوكبرى، وكل محاولة لاستحضاره على أنه قوة صلدة في مواجهة العالم والزمان والمكان، فيها قسر وعدوان، سيكون مصيرها خائباً ومأساوياً!

نهضة جديدة

هل من إمكانية لنهضة جديدة؟ هذا سؤال لا يطرح فقط عند مثقفين من العالم العربي، بل هو سؤال عالمي، فالعالم كله يحتاج إلى نهضة جديدة، وقد بعدت المسافة بين فكر النهضة والتنوير الأوروبي وبين فكر الفوضى الشاملة التي تسود العالم على عدة مستويات. أبرز معالم عصر النهضة الأوروبية ونهضات الثقافات الأخرى هو إعلاء شأن الإنسان، وتأكيد مركزيته على العالم. واليوم يسيطر الاقتصاد والمصالح على الإنسان وعلى ثقافته، وتسود في العالم، مراكزه وأطرافه، آلية نفعية تعطي الأولوية للمردود النفعي، ولا شيء يعلو على هذه التوجهات التي توظف كل شيء، بما في ذلك الثقافة، ودون أية أقنعة، لصالح التخطيط الشامل للمردودية التي تعود، حصراً، لصالح الشركات العابرة للحدود. ومن هنا يجد مفكرون عالميون ومن باب الحرص على الإنسانية، أنه لا بد من مخرج يعيد للثقافة صوتها المسموع وعبر نهضة ولو كانت من نوع آخر إذا استحالت العودة إلى تلك النهضة القديمة والمجرحة، والتي فقدت هيبتها إلى الأبد على أيدي أبنائها. وبما أن الثقافات الكبرى لا تزول نهائياً، ويبقى دائماً ما هو عميق ومؤثر ويتمتع بديمومة ما، فإن العودة إلى إحياء تلك

الومضات والأصوات سيكون مهماً في سياق نهضة جديدة، وطبعاً هذا ينطبق علينا نحن العرب حيث كان لنا نهضة أيضاً، جمدت أو وئدت، وتراكم فوقها الكثير من الرميم، والحطام بفعل الهزائم والنكوص، والغرور والراديكالية، ثم ما لحق بها من أذى الفوضى الشاملة التي نعيشها اليوم. وإن أي حديث عن نهضة جديدة في أي مكان من العالم نجد أنفسنا تلقائياً معنيين بالأمر وسرعان ما يستيقظ فينا هذا الحنين إلى زمن الحلم الذي حلمه أجدادنا الأقربون في القرن التاسع عشر والعشرين. ولا تعني الدعوة لنهضة جديدة إلى ماضوية، بل على العكس، فإن القطيعة مع النهضة، هي عودة إلى الماضي، وهي استسلام للسائد وللفوضى والفراغ الثقافي، ومهما تقنعت دعوات القطيعة بأقنعة الحداثة والعصرنة. النهضة الجديدة تعني ولادة الثقافة من جديد كنسق متحكم بذاته، ولا أدري، هل يتعذر ذلك؟ والعالم كله يفصح عن حاجته إلى الثقافة! أي، أن يكون الشاعر والمسرحي والروائي والفنان والمفكر والفيلسوف، والناقد وكل من ينتج ويستهلك الثقافة موجوداً على مسرح الحياة الراهنة، وألا تتأتى أهمية المبدعين عبر قنوات مفتعلة وكاذبة وغير جديرة في الترويج أو في منح شهادات وجوائز ثقافية، الغاية منها التدجين. فهل الدعوة إلى ذلك هي تبسيط، وأمرغير قابل للتحقيق؟! وإذا كان الأمر كذلك، فلمن تكون الثقافة ومن تخاطب؟ وما قيمة ثقافة لا تعنى بالإنسان، واقعه ومصيره، وغير معنية بحضارته ومدنيته، وبعلاقته مع الآخرين؟! ومهما بدت الدعوات للإحياء والتجدد، ولإعادة الاعتبار للثقافة وبالتالي لصانع الثقافة (الإنسان) على أنها ضرب من التبسيط، وقد يكون، إلا أن هذا التبسيط لا مفر منه، والعالم الأدنى والأقصى يفقد كل شيء، ويفرغ من محتواه، ولم يبق من أعلامه سوى الغربان المتفرقة في الأمكنة والمتشابهة إلى حد التطابق في الصوت والمحتوى الواحد. علماً أن عمليات تطويع الثقافة قديمة إلا أن الثقافة ظلت على مر العصور وفي زمن الدويلات والإمبراطوريات قيمة كبرى، وأي قيمة أخرى عليها أن تتماهى معها لتنال المصداقية. كان القائد العسكري والإمبراطور، وحتى الحاكم أو الوالي بحاجة

للشاعر أو للمسرحي أو للفيلسوف ليمجد انتصاراته ومشروعه، على عكس ما نشهد اليوم فان أكبر مفكر وأعظم شاعر أو مبدع لن يمر إلا عبر قنوات لا علاقة لها بالثقافة! ولم تشهد الثقافة في تاريخها هذا التهافت الذي تعيشه اليوم ومن هنا ضرورة الدعوات المتعددة، من كل حدب وصوب لنهضة جديدة، حتى ولو لم يتم حتى الآن الاتفاق على شكلها ومحتواها والسبل إليها، وبماذا تتفق أو تختلف عن النهضات السابقات.

الأخلاقي..

تعيدنا حقائق الحياة، بين الفينة والأخرى، إلى المعاني الأخلاقية الكلاسيكية، التي كنا نظن لوهلة أنها مضت إلى غير رجعة، وتثبت لنا التجربة صحة المقولة التي تقول: «شجرة الحياة دائمة الخضرة والنظرية رمادية اللون». كُتب الكثير عن إنسان ما بعد الحداثة: الإنسان التقني، النفعي، اللاعاطفي، وخرج علينا متفقهون عرب بكتب حظيت بترويج منقطع النظير تدعو إلى الفردانية ضد الكلياني أو ضد الشمولي، أي الإنسان المنفصل عن الجماعة والذي يعمل لمصلحة ذاته، وبلغة فلسفية : لا يوجد أحد خارج الأنا! وجاءت هذه الأفكار التي يعتقد البعض أنها هامة ومبتكرة، ضمن سياق تبرير الارتدادات، والتفلت من أي مسؤولية أو التزام، وعلى أنها من صميم الليبرالية الجديدة التي تصرفت في العقدين الأخيرين على أنها ثقافة منتصرة ومهيمنة لا يقف في وجهها أي فكر، وعمدت بسطحية شديدة ولا أخلاقية إلى تسفيه كل فكر إنساني أنجزته البشرية، يقوم أبطال هذا التيار بذلك وابتسامات الظفر لا تفارق محياهم، بل وجوههم الكالحة! هؤلاء يرون أن قيمة الإنسان تكمن في كونه مستهلكاً! هم لا يصرحون بذلك عادة إلا من هو شديد الوقاحة بينهم، بل على العكس يكثرون من الدعوات إلى حقوق الإنسان، وعلى رأسها: زواج المثليين، عبادة صناديق الاقتراع ولو أتت بكل أشكال المافيا!ثم تأتي حقوق الأقليات، ويبحثون في الزوايا المهملة وينقبون تحت الجدران عن بقايا قوميات نسيها أبناؤها! وتأتي المسائل الهامة تالياً، تتقدم أو تتأخر حسب المكان

والزمان والمصلحة، ولا شيء هنا أعظم من المصلحة! فما أكثر ما يروجون لإنسان المصالح، ولا يعجبهم في تاريخ العالم سوى عقيدة واحدة، من يتبعها فهو الإنسان السعيد، الإنسان الصالح! ألا وهي (البرغماتي). ولا يشعر أصحاب هذا الاتجاه التبريري بالمأزق، ولا يرف لهم جفن، حتى وهم مهزومون ينتظرون الربح! وهم يتحصنون بالجمعيات الحقوقية والمنظمات الدولية، المهيمن عليها، ويطلقون عليها صفة: «المجتمع الدولي»! وحقيقة الأمر أن هذه الدعوات، هي قناع يخفي المصالح، وفيها ازدراء مبطن للفكر وللإنسان! فالعالم في نظر هؤلاء،هو: أسواق ومستهلكون! وقيمة الإنسان تكمن في مقدرته على الشراء والاستهلاك، والمجتمعات هي مجموعة أفراد من المستهلكين، ومدنهم وقراهم ليست سوى أسواق ناشطة، وعند الضرورة إذا لزم الأمر، يُحاصرون، ويُصدّر لهم الأفيون والسلاح، ليفتكوا ببعضهم، ثم يعاد تشكيلهم من جديد، وبناء ما هدموه من حساب ثرواتهم الطبيعية التي لا يستحقونها! وبعد الحصار الطويل يأتي: (الغذاء والدواء مقابل النفط)! وهذه الثقافات تؤدي بالعالم إلى الهلاك، وبالبشرية إلى العبودية الشاملة، والخاضعة أفراداً ومجتمعات إلى منظمة التجارة العالمية، والبنك الدولي، وسياسات الهيمنة الدولية! وبالتالي في هذا العالم الجديد، عالم الإنسان التقني الشيئي، المغترب عن إنسانيته،لا مكان للذاكرة وللأخلاق! لكن الإنسان الذي يعي إنسانيته، يدرك دائماً أن أخلاقاً كلية تربطه بالعالم، ولا بد من أن يتصرف كإنسان أخلاقي مع ذاته ومع الآخرين ومع الطبيعة. هذا الإنسان مهما احلولكت الأجواء، بقي حاضراً عبر الزمن، ولولاه لصار الإنسان حيواناً، بل وحشاً خطراً يمعن في الفتك والتدمير!

الإنسان الذي يعي إنسانيته، هو إنسان أخلاقي، ممتلئ ، سمح، مرتاح الضمير، يعمل وفق الواجب، وهو بهذا لا ينتظر مكافأة ولا جزاء. وعندما ترسخ ثقافة الواجب، وعلاقات الثقة بين الناس، يسير كل شيء وفق السياق الحضاري لمعنى الإنسان الذي ما فتئ يقاوم كل محاولات تفريغه من المعنى، وتسفيهه، والنظر إليه على أنه زائد عن اللزوم. الإنسان الأخلاقي، يشعر دائماً بالمسؤولية حيال إنسانيته، فيتحاشى العدوان والتدمير، ويحترم حياة الناس

وعاداتهم ومعتقداتهم دون أن يدعي ذلك، وهو ثقافياً لا يرضخ للمقولات السلبية الشائعة في ثقافة التشاؤم التي تقول إن الإنسان ليس إلا فرد في قطيع، تحركه الغرائز الحيوانية، بل على العكس يرى أن الإنسان صانع حضارات، ووريث قيم كونية أعمق من أن تزول.

الأدب والحياة اليومية

كثر الحديث في العقدين الأخيرين عن الحياة اليومية في القصة والشعر والرواية، وبدا وكأن الأدب يحاول بكل السبل أن يتملص من ثقل الأفكار التي ترد على لسان الشخصيات، وحتى التملص من الشخصيات نفسها، ومن كل شيء عدا ضمير المتكلم وصدى الأشياء التي نحتك بها في التسكع، و يراها البعض في الصالونات والفاترينات، وغرف النوم والأسرة والشراشف وحبال الغسيل، وخيم المعسكرات السياحية، وغير ذلك من هذا القبيل! وكأن التوق إلى الأسطورة، والجدل حول الزمن والمطلق قد انتهى من فردوس الأدب، كما انتهت اليوتوبيا والحلم بالسعادة إلى غير رجعة! وأرخت السردية المنفلشة بسدولها على الشعر وعلى كل شيء! وغدونا أمام أدب جديد يكرس دكتاتورية الأشياء التافهة! حتى ليجرؤ البعض، من كتاب اليوم، ويقول بصوت جهوري: وداعاً لتوماس مان ودستوفسكي وكافكا وجويس وفوكنر وشتاينبيك، وكل هذا النسق الذي أفنى نفسه في سبيل جماليات الرواية، وما كان عليه أن يفعل ويحمل الأمور أكثر مما تحتمل!. والحقيقة، أن الأدب، منذ العصور الكلاسيكية الأولى، لم يغفل الحياة اليومية ووصف الأشياء، لكنه لم يجعلها هدفاً بحد ذاتها، بل كانت توظف أحسن توظيف لتدخل في الجماليات المكونة للنص السردي أو الشعري، ولم تغب السردية عن قصائد الشعر المطلق، ولكنها كانت توظف في السياق العام للنص الشعري، كما كان الحال في ملحمة جلجامش، ونشيد سليمان، وعند أمرئ القيس، وردذورث، وكولريدج، وبايرون، وبول فاليري..إلخ.

كما لم تتكر الفلسفة في تاريخها، قيمة الحياة اليومية، بصفتها حالة حضور ووجود في مواجهة العدم. فالوجود موجود دائماً في حاضر أبدي، حسب بارمندس. وفي العصور الحديثة، منذ عصر الأنوار إلى يومنا هذا، تسلط الأنظار على الحياة اليومية باعتبارها الكيفية التي يمارس فيها الكائن حياته كفرد أو جماعة، في التاريخ أو في الوسط الاجتماعي. لكن، ظل بعض الفلاسفة على حذر، من منطلق أن الاستغراق في صيغ الحياة اليومية يجعل وجود الكائن يعوم في بحران الثرثرة، و«ليست الثرثرة سوى تبادل الأقوال الجاهزة حول كل شيء».

في الأدب أخذت الحياة اليومية حيزاً أكبر، وغدت المادة الدفاقة التي تغذي الشعر والروايات والسينما، يعبر عنها في الشعر بالقصيدة الحاشدة بالتفاصيل الحكائية، وفي الرواية المليئة بالحدث، وحشد الأشياء.

وفي عصرالأدب الواقعي، بولغ كثيراً في الاستغراق في التفاصيل، ووجد من لا يرى أي حرج في الإعلاء من شأن التفاهة! حتى أصبحت الأشياء غاية في حد ذاتها! والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل الحياة اليومية هي فقط الأشياء؛ من فناجين القهوة وكؤوس الشاي والحصاة في الشارع، أم ثمة سوء فهم للمصطلح؟! لقد بشر رامبو منذ ١٨٧٠ «بيوم يصنع فيه شعر يستجيب للحواس الخمس جميعها، شعر يذاق ويقرأ ويشم ويشترى بالأرطال» ويقول: «لقد أحببت الرسوم السخيفة، ونقوش الأبواب، والديكور والملابس في المهرجانات، والإعلانات التجارية، والنقوش الشعبية، والأدب المهمل» ودعا في مكان آخر إلى هلوسة بالكلمات بدلاً من السفسطات الخيالية. وبعيداً عن كلام رامبوا الذي يؤخذ كاستدلال للسلبية وللروح الراديكالية التي كان لها ما يبررها في موطنها وفي زمنها، ألا تفرض علينا الحياة اليومية المعنى الثقيل للحياة بما فيها من تقلبات؟. إن الأدب الذي سخر من الكمالية اللفظية وقع بما هو نقيضها، وساق اللغة نحو الشيئية، حتى غدت لغة تضيق على نفسها وسط هذا الانبهار المستمر بالركام من الأشياء، لكأننا أمام نيكروفيلية (العبث بعظام الموتى) جديدة تعم خارطة الأدب!

اليوم يتحدث بعض النقاد عن: جماليات الملل، جماليات التفاهة، وإله الأشياء الصغيرة، وأدب اللاأدب، ورواية اللا رواية، أو الرواية المضادة! ويذهب بعض المنظرين إلى أن المفاهيم والمفردات التي تحمل أبعاداً ميتافيزيقية يجب أن تخرج من التداول لتحل محلها مفاهيم أكثر حسية، فالوقت محل الزمن، فالوقت يجتذب الأشياء والثرثرة والتراكم، بينما الزمن يطرد الأشياء أو ينفيها، والزمن مطلق بينما الوقت نسبي، فليحل النسبي محل المطلق، واللا معنى محل المعنى.. طبعاً لا ضير، وقد لا يستطيع أحد أن يوقف التيار، ولكن من حقنا أن نتساءل إلى أين ستذهب بنا الأمور، إذا ما سلمنا أمرنا للتفاهة إلى هذا الحد من التسليم؟!

البذاءة

إذا كان النقاد والمؤرخون قد أطلقوا على القرن التاسع عشر اسم عصر التحليل والبحث، وعلى القرن العشرين عصر النقد والنظريات الأدبية، فبماذا يتسم هذا القرن في عقوده الأولى؟ إنه عصر البذاءة بامتياز، وأهم سماته الفساد والكذب! حتى بات البشر وكأنهم قد وجدوا لأنفسهم دين جديد غير معلن، هو البذاءة، التي لا يحب الناس أن يعترفوا بوجودها، إلا أنها تحاصرهم من كل جانب، في زمن يبدو فيه الأخلاقيون وكأنهم كائنات نادرة أو من عالم آخر! وإذا كانت هذه الحالة عامة يعاني منها العالم كله رسمياً وشعبياً، فهي عندنا، نحن العرب، مضاعفة وخطيرة للغاية، وتبدو منفلتة بلا حدود، حتى أن الأمل بالخلاص منها يتضاءل يوماً بعد يوم، لا بل هي تنمو وتتفشى حتى تلوثنا جميعاً، ويصير واحدنا يتساءل كالممسوس: إلى أي حد أنا ملوث، ويعلق بي هذا الدبق المستشري؟! فمن المستحيل أن نعيش في مجتمع ونكون في معزل عن تأثيره. فالبذاءة اليوم تختلف عن تلك التي عرفها البشر عبر تاريخهم، وتناولها النقاد على أنها أفعال صادرة عن عناصر الشر والعدوان في الجنس البشري، فهي ليست مجرد استخدام للألفاظ

النابية، أو المقولات والأشعار الهجائية والسباب، بل هي تأخذ منحى أبعد من ذلك، وتغدو سلوكاً يتجلى في كل الأنشطة الإنسانية، في الحياة اليومية وفي العلاقات المتبادلة بين الأفراد والجماعات والمؤسسات، وتتمدد لتزهو وتزدهر في النتاج الفني والأدبي والثقافي! حتى بات الفاسدون والكاذبون لا يحتاجون إلى أقنعة! ومما يزيد الطين بلة، أننا نعيش هذه البذاءة المعاصرة إلى جانب العنف الصريح، تغذيه وتتغذى منه! وهي بحد ذاتها عنف رمزي كافية وحدها لتلوث الحياة! وما لنا حيال ذلك إلا الصبر على البلوى، على حد قول الجواهري. عرف الشعر العربي الهجائي وغير الهجائي صنوفاً من الكلمات النابيات ومن السفاهة أحياناً، وكانت تتعرض للنقد والملاحقة القانونية في بعض الأحيان، كما حدث للحطيئة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وفي بعض الأحيان كانت تؤخذ أنها ضرب من ضروب التفكه كما عند أبي نواس وأبي دلامة وغيرهما، وكتب الأخبار حافلة بمثل هذه التنويعات التي تتوازى وتتنافر مع الأخلاق الصارمة للمجتمع. وعرف الغرب مثل هذا الأدب البذيء على مر العصور وبنسب متفاوتة، لاسيما في الشعر وفي كتب الاعترافات، ولم يكن مسموحاً بها دائماً، بل كانت تعرض صاحبها للملاحقة والازدراء أحياناً، وقصة الفرنسي جان جينيه مع القضاء الفرنسي، حيث حكم عليه بالسجن لستة أشهر، بسبب مشهد عرض في أحد مسرحياته، ينال فيه من الجنود الفرنسيين في الجزائر، ودافع عنه سارتر ومالرو وآخرون حتى أفرج عنه، وكان لسارتر وهربرت ماركوز فلسفتهما في الدفاع عن البذاءة ضد الأخلاق البرجوازية. ولكن أياً كانت الفلسفات المدافعة، عميقة أم سطحية، لا تستطيع أن تبرر هذا الطوفان من البذاءة التي لم تعد سمة برجوازية، بل هي مجتمعية شاملة١ ونحن اليوم لا نكاد نقرأ رواية لروائي عربي إلا ونجد أنها دس فيها كلمات بذيئة و مشاهد لإثارة الانفعالات، ولا يهم حتى ولو بدا ذلك خارج عن السياق، ولا مبرر فني له! بل يبدو أنه جاء لتلبية رغبات الناشرين، وهذه قمة البذاءة و قلة الشرف الفني، وضعف في الخيال، فالبذاءة لا تنتج أدباً متألقاً بل تنتج تفا هات، حتى لو تذرع الروائي بذرائع الواقعية وشدة حرصه عليها، فلغة الأدب ليست مطابقة للواقع ولا تستطيع أن تكون. وأذكر

أن ستيفن ديدالوس بطل رواية يولسيز لجيمس جويس، يقول: «المشاعر التي يثيرها الفن البذيء، مشاعر حركية (أما الرغبة وأما النفور) والفنون التي تثيرنا هي فنون بذيئة» وذلك بعكس الانفعال الجمالي الذي يرفع العقل فوق الرغبة والنفور، ويؤدي إلى انسجام المشاعر.

هذا الطفح من التردي في مستنقع البذاءة اللفظية التي نراها سافرة بلا حياء على الشاشات، وفي الكتابات مضاف إليها السلوك البذيء المنفلت بلا أي ضوابط، تؤكد إننا في حالة بؤس، وكبت، وكأننا أطفال فقدوا البراءة أو أولاد شوارع، وبلغة فرويد، إننا لا نزال في المرحلة الفموية من مراحل النمو! فهل هذا يليق بمجتمعات حضارية عمرها آلاف السنين؟!

البنيوية العربية

لماذا لا يتحدث أحد اليوم عن البنيوية، لا في الشرق ولا في الغرب؟! ألا يثير هذا الاستغراب؟! كيف انتهى هذا المذهب الأدبي الذي سيطر على التفكير الأدبي لبضعة عقود من الزمن؟! انطوت صفحة البنيوية في الغرب قبل انتهاء القرن الماضي ببضعة سنوات، إلا أنها نهضت عندنا نحن العرب في الوقت نفسه الذي تم فيه دفنها هناك، وتلقفها مثقفونا من نقاد أدب، وأساتذة جامعيين، ورؤساء الصفحات الثقافية في الإعلام العربي، وكأنها اكتشاف (لحجر الفلاسفة) حتى لم يخلو بحث أو كتاب أو حديث، إلا وتكررت فيه كلمات مثل: البنية، النسق، الدلالة... إلخ مرات عديدة حتى صارت هذه المفردات ممجوجة مملة. وظهرت كتب عديدة عن النظرية السحرية في العلوم الإنسانية، ومن منطلق إعلان «موت الإنسان» انتشرت الدراسات «اللا إنسانوية» في كل مجالات وصنوف الأبحاث! وبين «البنائية» و «البنيوية»، اختلف المثقفون العرب، كالعادة، في ترجمة المصطلح! ولم تكن المرة الأولى التي يقع فيها كبار المثقفين العرب في (المطب الفرنسي) ألم يحصل الأمر ذاته مع الوجودية السارترية والكاميه؟! وكانت البنيوية، التي استندت على النظرية الألسنية للعالم

اللغوي السويسري: «دي سوسير» فرنسية الولادة والموت، ويا للمفارقة! المفكرون الفرنسيون أعلنوا ولادتها، وهم ذاتهم أعلنوا موتها! لكن إعلان الموت تأخر كثيرا ليدق أسماع المستلبين العرب، وأوقعهم هذا في مأزق معرفي، لم ينقذهم منه إلا النسيان وقلة المساءلة.

كان يمكن للبنيوية أن تكون نظرية أدبية مقبولة مثلها مثل غيرها من النظريات الأدبية العالمية، تسهم في إغناء الجدل، وفي إضاءة النصوص الأدبية، إلا أن الحماس الشديد جعل منها نظرية شمولية، مطلقة، تتحدث في كل شيء وعن كل شيء: القصة، الرواية، الشعر، الفلسفة، التاريخ، ثم الفرد والمجتمع.. وجعل منظروها من اللغة محركاً لكل شيء، وما الإنسان، في نظرهم، إلا بنية أو أداة صماء تتصرف به اللغة كيفما تشاء! الإنسان يبدو في البنيوية أقل قيمة من «الفونيم» الذي هو، على ما أذكر، أصغر علامة صوتية في علم اللسانيات السوسري! لقد ابتذلت هذه النظرية في الاستخدام الشائع، وتشظت بعد أن انتشرت في الولايات المتحدة والعالم، وتحولت إلى ما يقارب الثلاثين طائفة ومذهب وطريقة! وكان على مثقفينا المساكين أن يحمل كل منهم على كاهله كل هذه النظريات الفقهية، بكل مسمياتها، التي ينفي واحدها الآخر. وصار عندنا: البنيوي، ما بعد البنيوي، التفكيكي، ما بعد التفكيكي، التركيبي، الأركلوجي، الابستمولوجي، والسيميائي... ويطول العد، والحقيقة لم يكن عندنا شيء من كل هذا، ولم يشهد تاريخنا الأدبي مرحلة أشد بؤساً من تلك المرحلة التي كثر فيها نقيق الضفادع، واللغو، وبهلوانيات المهرجين، وألاعيب السحرة، وكثر من «يهرف بما لا يعرف».

لا يستطيع أحد أن ينكر قيمة الجدل الذي أثارته النظريات الأدبية التي سبق ذكرها هنا، والتي انبثقت عن البنيوية وتفرعت منها، لقد أسهمت هذه النظريات في إدخال مصطلحات جديدة، وفي إرساء نظرية الشك بالبديهيات، وزعزعة اليقين، وشبكّت الأواصر بين الأدب وعلم اللغة من جهة، وبين اللغة والنظريات الاجتماعية والنفسية من جهة ثانية. إلا أنها مع ذلك، أخفقت في ملامسة مأساة الإنسان المعاصر كفرد وجماعة، وتقدمت منه باستعلاء، وبروح تشاؤمية، وأعلنت موت

الإنسان بمثابة شماتة، وتشفي بتاريخه المرير، وأخرجته بصلافة من تاريخ الفاعلية، واختزلته إلى مجرد بنية في نسق، وأحلت اللغة مكانه في الفاعلية! ولم تطرح أي بديل واضح. ولذلك كانت فلسفة عابرة قصيرة العمر، ولم تستحق الرثاء من أحد! وتركت أتباعها العرب كالأيتام بلا عزاء، و بلا ندم!

التأثر الأدبي

لم يضع النقد الأدبي القديم نظرية منهجية حول التأثر الأدبي أو الشعري، رغم أن نقاد الشعر والبلاغيين العرب قد لاحظوا ببراعة هذا التشابه بين شاعر وآخر، وكانوا يدرجون ذلك ضمن ما يعرف بالسرقات الأدبية أو الإغارة، أو الأخذ، فكانوا يقولون: «أخذه عن فلان». وفي صيغ ملطفة كانوا يغطون هذا التشابه الذي يبلغ أحياناً حد التطابق بما يعرف بالتعارض، أو التضمين، أو الإعارة. ويكفي أن يصرح الشاعر بمعارضته لشاعر آخر حتى تسقط عنه تهمة السرقة أو الإغارة! ولعل المتنبي من أكثر الشعراء الذين اتهموا بالسرقة والإغارة على أشعار أو صور أو معاني الآخرين، وتوجد روايات وتصنيفات عديدة حول ذلك، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب: «الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى» للعميدي، و«المنصف للسارق والمسروق من المتنبي» لابن وكيع. وكان بعض العرب يقول عندما تتشابه المعاني: «المعاني يستدعي بعضها بعضاً». لكن من المؤكد أن التأثر الأدبي يختلف عن السرقة الأدبية أو الإغارة على أشعار الآخرين، ونلاحظ الكثير من اللغط حول السرقة الأدبية، ولا نجد عند القدماء من يذكر التأثير الأدبي أو تأثير شاعر على آخر! إلا أن الجرجاني كاد يقارب نظرية التأثر بين شاعر وآخر، يقول: «السرق في الشعر داء قديم وعيب عتيق، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته، ويعتمد على معناه ولفظه..». ويمكن أن يكون التقليد أو المحاكاة شكلاً من التأثر. ومن باب الطرافة هنا نذكر بعض ما قاله أبو تمام في شاعر سرق شعره:

«من عدت خيله على مسرح شعري وهو للحين راتع في كتابي
غارة أسخنت عيون القوافي واستحلت محارم الآداب
يا عذارى الكلام صرتن من بعدي سبايا تبعن في الأعراب»

جرير والفرزدق وبشار وأبو تمام والبحتري وأبو نواس وغيرهم، اتهموا بالسرقة! ولعبد الله بن المعتز كتاب «سرقات الشعراء» وللنقاد القدامى آراء متباينة في أنواع السرقات الأدبية، وما يعد من باب السرقات وما لا يعد سرقة. لكن، علاقة التواشج والقرابة بين شاعر وآخر شغلت النقد الحديث، وأن التشابه بين نصين لشاعرين من نفس العصر أو من عصرين مختلفين، يتعدى مسألة السرقة، إلى ماهو أبعد من ذلك، وعلى هذا تمت صياغة نظرية التأثر في النقد الحديث، وأكبر أعلامها في الغرب اليوم الناقد الشهير هارولد بلوم صاحب نظرية «قلق التأثر» وهي نظرية في الشعر. يرى بلوم أن التأثيرات بين الشعراء الكبار ليست عيباً بل هي من سمات الشعراء الأقوياء! والشعراء الكبار هم الذين يصارعون أسلافهم ليشقوا طريقهم الخاص. وهم بذلك يخلقون أنفسهم ويعيدون خلق أسلافهم، إنها خدمات متبادلة على أرضية الصراع! ماركيز قال مرة: منذ بداياتي أخذت على عاتقي أن أحطم تولستوي. والناقد الكندي الشهير نرثوب فراي صاحب نظرية النقد الأسطوري يرى أن النصوص الأساسية القديمة لا تموت بل تتناسخ في نصوص الشعراء عبر الأجيال حتى العصر الحديث، ونصوص الشعراء الكبار هي رجع وتكرار للأساطير الأولى! لكن الشاعر الأصيل يضيف بعض الانزياحات وعلى النقد الحديث، بحسب فراي، أن يكتشف هذه الانزياحات عن النص الأصلي. فقصة الطوفان مثلاً هي (ميثا) أولية، تتكرر بأشكال مختلفة عند الشعراء الرومنتيكيين الانكليز! إذاً، الشعراء الأقوياء يؤثرون ويتأثرون، ولا داعي للخوف من تهمة التأثر، والشاعر الخائف والضعيف هو الذي ينكر تأثره بشعراء سابقين أو مجايلين. ومن الصعب جداً أن يكون ثمة شاعر بلا مرجعيات، حتى بعض الشعر الهذياني، الذي يكتب اليوم عندنا وفي العالم، له

مرجعيات وهو نتاج تأثر ربما رديء أو غير موفق. وما يقلقنا هنا، أن نبقى متأثرين لا مؤثرين.

-٤-

الرمز والتأويل في قراءة النص

الذروة الدرامية في حياة المعري!..

قد لا يختلف اثنان، على أن أبا العلاء المعري شخصية فريدة في تاريخ الثقافة العربية، ولو أنصفه تاريخ الثقافة، لوضعه في المرتبة الأولى من حكماء الإنسانية!

إن المعري من العباقرة الخالدين الذين تضيق عليهم التحديدات السريعة! فهو ليس مجرد شاعر، وليس مجرد فيلسوف، وعالم لغة، وليس مجرد ساخر، أو متشائم، أو حكيم له بعض الآراء في المجتمع والعقل والدين! إنه يجمع في شخصه الفريد المتواضع، كل هذه الصفات ويفيض عليها! مؤلفات المعري كثيرة، وللأسف، لا يزال معظمها مفقوداً، وكتب عن المعري الكثير ولا يزال يكتب، وهو معروف في الثقافات العالمية، وشغل به المستشرقون، واحتفوا بتراثه الخالد، نذكر منهم: المستشرق الانكليزي: «نيكلسون» والاسباني: «بلاسيوس» الذي أكد تأثير «رسالة الغفران» على دانتي في «الكوميديا الإلهية» واهتم به الانكليزي «مرجليوث» والروسي: «كراتشوفسكي» وربما لولا اهتمام هؤلاء المستشرقين لطواه النسيان والجحود من أمته!..

قد نقرأ كتب المعري، ونقرأ الكثير مما كتب عنه، ونعتقد أننا تبحرنا بما فيه الكفاية، لكن سرعان ما نكتشف، أنه لا يزال مجهولاً! ليس لأن المعري غامضاً، وهو ليس بغامض، بل ربما لأن عالم الفكر الأصيل، العبقري، له استثنائية التجدد والديمومة! ولا يصح أن نعتقد أن المعري ينتمي إلى الماضي، وكفى! كما يظن دعاة القطيعة! وإلا لماذا نقرأ بمتعة؛ هوميروس، اسخيلوس أوفيديوس، لوقيانوس

السوري، دانتي، وملتون، وغيرهم؟! يؤكد منظروا الحداثة الكبار من أمثال إليوت، ثم الشاعر المكسيكي اكتافيوباث، أن الحداثة حملت وجهين متناقضين، هما: التواصل والقطيعة. هذا البعد التواصلي، هو الذي يجعلنا نتوق دائماً إلى هذه الحالات (الكلاسيكية) العالية، ولا نستطيع القطع معها.

ورغم كل ما أولف عن المعري، لا يزال قابلاً للمزيد من الاكتشاف والقراءة الجديدة. وللعلامة عبد الله العلايلي كتاب اسمه: «المعري ذلك المجهول» هو بالفعل، كما جاء على غلافه الأول، رحلة في فكره وعالمه النفسي. وحياة أبي العلاء، مؤثرة للغاية، وهي مثيرة للتأمل، وكان لها تأثير على عبقريته الخالدة، ولا تأتي أهميتها فقط؛ من أن حكيمنا كان أعمى البصر، وأن حياته المديدة كانت زاخرة بالعزة والكبرياء! وكان نموذجاً فريداً بسلوكه الشريف، وإبداعه الحر! بل، باعتقادي أن حياة المعري في العصر الذي عاشه، كانت حياة حافلة باللحظات الدرامية، التي يجب أن تؤخذ بالاعتبار، لتحقيق المزيد من متعة اكتشاف هذه العبقرية! ولعل الذروة الأبرز في حياة المعري، هي زمن عودته من بغداد إلى المعرة، والأفكار التي انتابته بالطريق، بعد تلقيه خبر وفاة والدته، والرسالة التي أرسلها إلى أهل المعرة، وقراره بالتزام بيته، والعزلة التي دامت قرابة الخمسين عاماً، ألف فيها أعظم كتبه: «اللزوميات» و «الفصول والغايات».

هذا الإياب، أو العودة، أو الرجوع من بغداد إلى البلدة الفقيرة «معرة النعمان» أسبابها شغلت الدارسين أيضاً، وكتب عنها الكثير، وأفردت لها كتب، تناول ذلك طه حسين، والعقاد في كتابه: «رجعة أبي العلاء»، ومعروف الرصافي، وبنت الشاطئ، وكثر! هذه الذروة الدرامية، التقطها بعبقرية منقطعة النظير، الشاعر الأرمني: «أوديك اسهاقيان» ولد في أرمينيا عام ١٨٧٥ وقدمها برؤية ملحمية، تحت اسم «عروج أبي العلاء» في عام ١٩٠٣ ترجمها إلى العربية العلامة الراحل «خير الدين الأسدي» و«بارسيخ تشتويان» عام ١٩٤٠ وترجمت هذه الملحمة إلى معظم لغات العالم، وهذه واحدة من مآثر الحياة، وعزاء لنا، نحن محبي أبي العلاء، أن يأتي، من حيث لا نحتسب، من ينصف هذا المبدع، ويضعه في أفق البشرية، بصفته ملكاً للبشرية

جمعاء! ورغم إعادة طباعة بعض الكتب التي لا قيمة كبيرة لها، في الهيئة العامة السورية للكتاب، لا أدري، لماذا لا تسعى الهيئة، إلى نشر هذه الملحمة على نطاق واسع! فإذا كان للأمم أن تفخر بأعلامها ومبدعيها، فأبو العلاء هو حتى الآن مفخرتنا الأعظم التي يمكن أن نقدمها للإنسانية.

المؤلف، النص، القارئ

لعلنا نتذكر الكتابات الكثيرة التي كتبت عن موت المؤلف! ورغم أن المقولة غامضة وملتبسة! إذ، كيف نتصور نصاً ليس له مؤلف؟! لكن، الذين طرحوا هذه المقولة ليسوا من الخفة بمكان في عالم الفكر، ويبدو أنها ليست مجرد عبث في الكلام، مما يستهوي المفكرين! لاسيما، أن جدلاً عميقاً، وردود أفعال كبيرة أثارتها هذه المقولة، وانخرط فيها فلاسفة من النسق الأول على مستوى العالم المعاصر، بين مؤيد ورافض!

لا بد أن زلزالاً أفقياً وشاقولياً، قد حدث على مستوى الفكر الغربي، في السنوات العشرين الأخيرة، لا يزال البعض يتجاهل تأثيراته! وقد برزت نخبة من المفكرين العالميين البارزين، وصاغت مقولات ما أسموه عصر «ما بعد الحداثة» يعلن أعلام هذا التيار، إن مشروع الحداثة الغربي الذي حمله ما يسمى فكر عصر التنوير قد انتهى، وسقطت معه النظريات الكبرى أو ما يسمونه: «السرديات الكبرى» وإرهاصات هذا الفكر غير المستقر تعود إلى ستينات القرن الماضي، مع ميشيل فوكو، وكلود ليفي شتراوس، ورولان بارت، ثم توسعت، وانتشرت أفكار هذه الجماعة في الولايات المتحدة الأمريكية، وغدت تياراً كاسحاً، قاده الفيلسوف الفرنسي جان فرانسوا ليوتار، لاسيما في كتابه الصغير: «الوضع ما بعد الحداثي» وانضم إلى هذا الجدل بقوة جاك دريدا وأخرين من أمريكا والهند وباقي العالم، ومنهم المفكر المصري «إيهاب حسن وهو واحد من كبار منظري ما بعد الحداثة! ركزوا هجومهم على مقولات عصر التنوير الأوروبي وسخروا

منها، سخروا من مركزية الإنسان ودوره في التاريخ، وأعلنوا موت الإنسان كفاعل في التاريخ، وسخروا من فكرة التقدم المطرد للإنسانية، ومن فكرة الحتمية في التاريخ وفي الطبيعة، ومن فكرة العقلانية. وهذه كلها مقولات مركزية عند الأوروبيين، تمحورت عليها تيارات كبرى في الثقافة الغربية، تعرف بالتيارات الإنسانوية، وهذه المقولات كرست مركزية الغرب ووصايته على العالم، باعتباره حاملاً للواء التقدم والعلم، رغم الجروح النرجسية التي وجهها له نقاده الكبار؛ الجروح الثلاثة الكبرى، التي أشار إليها فرويد، ثم أكدها ميشيل فوكو. أما بالعودة إلى مقولة موت المؤلف، يرى أتباع هذه النظرية، أن المؤلف ينتهي دوره بعد كتابة النص، ولا تعنينا سيرة حياته وميوله الشخصية، وبانتهاء دور المؤلف يأتي دور القارئ، الذي عليه أن يأخذ المبادرة التأويلية، بصفته شريكاً في كتابة النص من خلال تأويله، والنص يصبح ملكاً لقارئه! لقد جرد المؤلف من الملكية المطلقة للنص، فلا يحق له أن يدعيه أو يحدد معانيه، وليس هو كاتبه الوحيد، وإذا فكر غير ذلك فهو واهم، فالنص، ينوجد عبر التناص، وفق ما يراه هؤلاء، وهو نتاج عملية تفاعل بين نصوص متعددة، يستحضرها المؤلف، عن وعي أو عن غير وعي! المعتدلون من هؤلاء المفكرين، مثل الكندي «نورثروب فراي» وهو لايعد من صفوف هؤلاء المابعد حداثيين، يرى أن الكتب بمثابة نزهة، يشارك المؤلف فيها بالكلمات، ويأتي القارئ بالمعنى.

وبعد أن نال هؤلاء من المؤلف حتى أماتوه، جاؤوا ليتوجوا القارئ والنص، وبالتالي بحثوا في نظرية الاستجابة الجمالية، كلازمة من لوازم استراتيجيات القراءة. إن قيمة أي نص، تأتي من انفتاحه على الاحتمالات الممكنة للقراءة، وأوجه التأويل. ولم يعد يصح أن نصف القارئ بالمتلقي، الذي يتلقى رسالة من المؤلف! والنص يبث إلى امرئ جدير بتفعيله.

والمؤلف، كما بين لنا ذلك المفكر المصري «سيد يسين» في كتابات عديدة حول الحداثة وما بعد الحداثة: «لا ينبغي له أن يقدم نصاً مغلقاً محملاً

بالأحكام القاطعة، زاخراً بالنتائج النهائية، والتي عادة ما تقوم على وهم، أن المؤلف يمتلك اليقين، ويعرف الحقيقة المطلقة» أي انتهى دور المؤلف كمشرع في المجتمع، كما قدمه عصر الأنوار! فقد انتهى نموذج: مونتسكيو، وفولتير، وروسو، وسارتر! انتهى جيل الأساتذة، وجاء عصر التشكيك واللايقين، انتهت الأحادية والحتمية، وانتهى التمركز، وتحققت نبوءة الشاعر الأيرلندي «بتلر يتس» حين قال في مطلع القرن الماضي: «الأشياء تتفكك، والمركز لا يصمد/ والخيرون يفتقدون أي يقين/ بينما الأسوأ ممتلئون/ بتوتر محموم».

«المجيءالثاني»

قد يتساءل المرء، ومن حقه أن يتساءل، ماذا بعد كل هذه الفوضى الشاملة، بعد هذا التيه وانعدام اليقين، بأي شيء؟! وبما أن العالم ذهب بعيداً في الشيخوخة، والجنون، وفقدان الفاعلية، وبعد أن وصل العالم بخطوات حثيثة إلى الجدار، لابد من الارتداد، لابد من أفق نطل عليه أو يطل علينا. تبدو في العالم اليوم، ملامح وإرهاصات عودة ما، إلى موقع ما، إلى منازل بيضاء، أو حجرات آمنة، تطل نوافذها على الكون، حضن أكثر حنواً نؤوب إليه سعداء مثل الأطفال! بعد كل ما جرى، يبدو أن لا بد من وصول ما، فليصل المجنون إلى مصحة، وليصل العاقل إلى عقله، وليصل الميت إلى مقبرة، وليصل الصياد إلى البراري والشطآن، وليصل الفلاح إلى الحقل، وكل إلى مبتغاه.. لا بد أن يستقر الناس على شيء: التائهون، والمنفيون، والضالون، والأخيار والأشرار.. بمعنى آخر، لا بد من خروج من هذا الجحيم!إذا كانت الأساطير القديمة تتحدث عن (ميثا) الخروج والتيه، فإن واحدة من الحقائق، الما فوق مثيالوجية، هي الوصول، والعودة إلى المنزل، مع التأكيد هنا على مابعد حرفية الكلمات. هذه العودة، بما أنها ارتداد ورجوع وارتكاس، فهي مناقضة لمفهوم «التقدم» الذي شكل وسواساً قهرياً مسلطاً على إنسان القرن التاسع عشر والعشرين! فكلمة الرجوع، تشير، بما لايحمل

اللبس، إلى الرجعية، ولا نريد أن نوصم بهذه الرذيلة! فلنكن، إذاً مع الشاعر أودن، ونقول: «المجيء الثاني». المجيء إلى الكلاسيكية الجديدة!. وتبدو ملامحها تنبثق من قلب السلبية والعدمية والتشاؤم!لكن، ما هي هذه الكلاسيكية الجديدة التي نرومها؟ إنها لا تتطابق تماماً مع الكلاسيكية الأولى، ولا تنعدم الأواصر بينهما. هذه الجديدة، هي من صلب الأولى، ومن رحم الحداثة. والحداثة كانت تواصلاً بمقدار ما كانت دعوة متطرفة للقطيعة. لقد عبر الفيلسوف الفرنسي هنري لوفيفر في كتابه: «ماالحداثة؟» عن هذه العلاقة، إذ يرى أن الوعي الحديث يحتوي على عناصر، من اليقين ومن اللايقين، متساوية في حدتها، ومتفاوتة في نزقها أيضاً. ويقول في السياق نفسه: «يبدو الوعي اليوم، كما لو كان صالة انتظار لمجيء الكلاسيكي.. إن ما هو دائم في الجديد يصبح كلاسيكياً». وفي الجملة الأخيرة، بيت القصيد! (ما هو دائم في الجديد...) لم يترك لوفيفر مجالاً للمزاودة في شعارات «التقدمية» بل على العكس، ثمة هنا اتهام بالعجز عن فهم معنى الحداثة، في ربطها بجانب واحد راديكالي، يقوم على الرفض الدائم، يقول،استكمالاً: «لنستعد، هنا، ثيمة سبق طرحها، ولنلج عبرها على المسيرة المدهشة للكتاب الروائيين والشعراء والمسرحيين المعاصرين، فهم يبدأون عادة بالنقض، ولا يستطيعون أن يبدأوا إلا بالنقض: المسرحية المضادة، الرواية المضادة، الشعر المضاد... ودون أن يعرفوا دورهم الحقيقي، ولا قانون نشاطهم الحقيقي، تراهم يتطوعون هكذا بإيصال الفن إلى تفككه، وهم يغذون السير في البدء في الوجهة التي تقود إلى إتلافه، مساهمين دون أن يعرفوا، بطرح المسألة الأساسية؛ (التجاوز) من كل من اليومي والفن» . ويرى لوفيفر إن هذه السلبية لا تدوم عند الكتاب، فسرعان ما يأتي النجاح، ومعه التقدم في السن، حينها يصبح الفنان إيجابياً وخلاقاً حقيقياً، فيعزم الأمر على كتابة مسرحيات وروايات وأشعار حقيقية. يكون قد قهر السلبي، اهتدى، وانتصر على المبدأ الشيطاني، صار يرى بوضوح أكثر، لقد أصبح نفسه، وتعمق شعوره بالتوافق والالتقاء بالعالم. على هذا النحو، يقول لوفيفر: «نرى حداثويتنا وهي تحتوي، بتناقض مكشوف، ملمحين

يمكن اعتبارهما غير قابلين للالتقاء للوهلة الأولى: شغف مبالغ به بالحالية المتغيرة، وكلاسيكية جديدة!». إذن، فلتكن كلاسيكية جديدة، شاملة لكل المجالات في الحياة: سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، تعيد الاعتبار للإنسان، وللمعنى، وتعيد التوازن والاتساق للعالم. وأكاد أزعم، أن الثقافة الكلاسيكية الأولى انطلقت من هنا، من هذه الجغرافيا التي نعيش عليها اليوم، ويمكن للكلاسيكية الجديدة أن تنبثق من الأرض السورية، وهكذا يكون الوصول، أو المجيء الثاني.

المناظرة وفن الحوار

المناظرة الشهيرة التي نقلها لنا عبقري الأزمان أبو حيان التوحيدي في كتابه الشهير: «الإمتاع والمؤانسة» وتعرف بالليلة الثامنة، واحدة من روائع التراث الإنساني، ويحتار المرء تحت أي باب من أبواب الفنون يصنفها! فلو أن أبا حيان كتبها على أنها قصة، وقد استوفت كل عناصر القص الفني، لاستحق أن يحسده عليها بورخيس، وأخمن أن الأخير قرأها وتشبع في قراءتها، وأظن أن القاص العربي الذي لم يقرأ أبا حيان مقصر بحق نفسه. ولو أنه كتبها بمنطق الصحفي المتمرس لكانت تستحق أعظم الجوائز التي تمنح للتغطية أو للتقرير لما فيها من دقة ووقائعية واستيفاء دون إملال، إما وإن كانت مجادلة في الفلسفة والأبستمولوجيا فهي قمة في ذلك، وإن كانت تصلح لكل هذه الأبواب فهي أيضاً مادة يمكن الاستفادة منها في السينما أو الدراما، والأهم من ذلك يمكن أن تعد أمثولة لمنهج الحوار والمجادلة والمحاججة بين المثقفين التي كان يزدهي بها ذلك العصر «القرن الرابع الهجري» وهو بحق عصر أنوار سابق لعصر أنوار الغرب وفاعل فيه. فما الذي تقوله المناظرة في الليلة الثامنة من جلسات الإمتاع والمؤانسة في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات؟

بعد المقدمة التي يعرض فيها أبو حيان غلو أهل المنطق وأتباع فكر اليونان في التعصب لمذهبهم، يقول انعقد المجلس سنة ست وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير للجماعة، وفيهم: الخالدي، وابن الأخشاد، والكتبي، وابن أبي بشر، وابن رباح، وأبو عمرو قدامة بن جعفر، وعلي بن عيسى الجراح، والمرزباني وآخرون من أعلام ذاك الزمان: ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة «متّى» في حديث المنطق، أي أبو بشر متّى بن يونس، رأس المناطقة في عصره، الذي يقول: «لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر، والشك من اليقين، والحجة من الشبهة إلا بما حويناه من المنطق وملكناه من القيام به..» فأحجم القوم وأطرقوا عن مناظرة متّى، فقال الوزير مشجعاً: والله إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه، وإني لأعدكم في العلم بحاراً وللدين وأهله أنصاراً وللحق وطلابه مناراً. وهنا رفع النحوي الكبير أبي سعيد السيرافي رأسه فقال: اعذر أيها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس، وبين السيرافي أنه يحجم عن المناظرة حياء ودفعاً لكسر الهيبة، ورأى أن جماعة المنطق يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، يعلمون أشياء ويجهلون أشياء.. ورداً على منطق أبي بشر في تعصبه لليونان بالمطلق، يقول أبو سعيد: «وليس واضع المنطق يونان بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمن قبله كما أخذ عنه من بعده..» ويقول مخاطباً متى: وأنت لو فرّغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها، وتشرح كتب يونان بعبارة أصحابها، لعلمت أنك غني عن معاني ولغة يونان. وأعتقد أن أبا سعيد أراد أن يقول إن المنطق موجود في لغة العرب، ويبين له بالحجة والدليل قوة المنطق في بنيان العربية، ويفند آراءه، ويطرح عليه الأسئلة ويخطئه في كل ما ذهب إليه. وكم كنت أود أن أستل بعض الأمثلة من المناظرة للتدليل على الشكل والمحتوى الرفيعان؟! وإذ احتدم الجدل في هذه المناظرة، وطرحت فيها مسائل عدة، دون أن يشطح أحدهما أو يسف، أو

يخرج عن أدب الحوار! فالجماعة الحاضرة، كل واحد منهم يعرف مكانة الآخر، وهم رجال علم وفكر في حضرة الوزير الذي كان يتدخل أحياناً ليحث المتحاورين، ويظهر انحيازه للنحوي أبي سعيد وانبهاره بقوة حججه التي جعلت المنطقي يغص ويعك أكثر من مرة! وقد هتف الوزير لأبي سعيد، قائلاً : «ما بعد هذا البيان من مزيد، وقد جل علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار». وما كنت أتمنى أن يحرج محامي المنطق، وهو عظيم الشأن في طبقته! إلا أن لكلا الرجلين منطقه، وقد فاز منطق النحوي على منطق أبي بشر اليوناني، ولم يفترق الرجلان على عداوة، كما يحدث في أيامنا هذه بين المختلفين!

فأر الحضارات!

تكمن أهمية الحكايات القديمة من الناحية الأدبية فيما تختزنه من معان ورموز، أكثر من حقيقتها التاريخية، فالأدب يوثق جمالياً ولا يوثق تاريخياً، ولعل واحد من التعريفات الشافية للحكايات القديمة على أنها : «بقايا المعتقدات الشعبية، وبقايا تأملات الشعب الحسية، وبقايا قواه وخبراته، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى، وحينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها» ويعلق صاحب التعريف، على معنى تعريفه : «معنى هذا أن الحكاية الخرافية ليست بثرثرة عجائز لا منطق لها، ولا هي اختراع صرف، وإنما هي ملك للشعب ونتاج قواه الشاعرية». من هذا التعريف ندخل إلى حكاية سد مأرب، بكل تقدير وبعيداً عن أي تشكيك بحقيقتها. تقول الحكاية أن فأراً قد هدم السد العظيم! الحقيقي في الأمر، أن «مأرب» مدينة يمنية قديمة وموجودة حتى اليوم، وتشير المرويات والدلائل الآثارية إلى وجود سد بناه السبئيون، كانت تتجمع فيه مياه السيول من الجبال البركانية، بغية تخزين المياه وري الأراضي، وتحويل المكان الأجرد إلى جنائن خضراء! وليس هذا بغريب عن حضارة اليمن العظيمة. ويعتقد أن السد بني في القرن السابع قبل

الميلاد، ويرجعه البعض إلى الألف الثالث قبل الميلاد. بكل الأحوال يعتقد اليمنيون ومعهم العرب والمسلمين أن السد قد هدم بفعل فأر واحد أو نوع من الفأر لا يهاجم ضحيته من الإنسان والحيوان، بل هو ولد فقط ليهدم، ويخرب الحضارات، ويعتقد أنه «الخلد» وهو فأر كبير، يقال إنه أعمى، بارع في حفر الأنفاق، قلما يخرج فوق الأرض. وتحدثوا عن فأر من نوع خاص يهاجم ضحيته حين يكون نائماً، حيث يظل هذا الفأر ينفخ في الجزء المراد التهامه من جسم الضحية حتى يتجمد ذلك الجزء وعندئذ يبدأ في التهامه دون أن يشعر الضحية بذلك، أي يمارس تخدير ضحاياه بالتبريد. في القصص الأسطورية التراثية أن الله تعالى عاقب قوم سبأ، بأن أرسل إليهم فأراً كبيراً هو الخلد، له أسنان ومخالب من حديد، قرض جدران السد الحجرية حتى تداعت، فانهمر السيل ودمر قوم سبأ وممتلكاتهم. أكثر ما يعنينا هنا هو هذا الفأر العجيب الذي دمر حضارة، هو بطل سلبي في الحكاية، وسيستمر دوره الرمزي في الذهن البشري بصفته مخرب ومدمر للبناء البشري. والحكاية رغم بساطتها، لها تأثير رمزي كبير، ليس فقط من حيث المفارقة، بل من حيث المصير المأساوي لشعب شيد حضارة، ولسبب ما ذهبت أدراج الريح وبفعل فأر! وفي الحكايات القديمة ذهب عرش بلقيس بفعل طائر الهدهد، كما أن النمل أهلك ممالك وقرى! وتحمل حكاية الفأر الكناية والتوريات والرمزية المتعددة التي تجعل منها حكاية أصلية سارية المفعول وجذابة في الخيال والوجدان إلى يومنا هذا. إذاً عنصر الشر هنا هو الفأر الكبير، وبما أن الحكاية ليست حكاية اجتماعية، ولا عن الجنيات بل عن الحضارات المندثرة، وهذا النوع من الحكايات محدود العدد بحدود الحضارات التاريخية، فالحضارات تنتهي عادة أسطورياً، بحلم ملكي أو برؤيا متنبئ أو نذير شؤم كطائر البوم أو ما شابه، يحدث بعده طوفان أو حريق كبير أو غزو خارجي. وبالعودة إلى الفأر المدمر، فإن الخيال الجمعي قد سجل لهذا الكائن (الفأر) هذه الخاصية الخسيسة، وجعله دائماً حتى في اللغة اليومية رمزاً للفساد وللفاسدين الذين يقرضون كل شيء، ويدمرون حياة الأحياء وهم متخفون، والقصص والروايات الحديثة عن

الفئران التي تنشر الطاعون كما عند البير كامو وغيره كثيرة، ولعل من الروايات التي لا تنسى بهذا الصدد الرواية السياسية الشهيرة: «فئران الأنابيب» للفرنسي ميشيل كليرك التي اشتهرت في سبعينات القرن الماضي، وتتحدث عن فساد عائلة آل سعود وشركات النفط في جزيرة العرب. وهذا ما يستدعي التنبه والحذر من فئران الحضارات التي تناسلت من الرمز إلى الحقيقة.

منظومة الرموز

باعتقادي، أن اللغة منظومة من الرموز، متفاوتة الكثافة، واللغة بتطورها وتراكماتها، ولدت رموزاً على الرموز البدئية، حتى باتت اللغة مع رموزها تعيد تشكيلنا، فنحن كائنات رمزية داخل اللغة، وبهذا المقدار وهذه المتاهة وهذا الغموض يدور تفكيرنا وننتج نصوصنا، ونواصل صياغة الإشارات والصور التي تختزن دلالات أو يراد لها أن تختزن دلالات. وحين تطبق علينا المنظومات الرمزية بإحكام، نجد أننا نحتاج إلى التفسير والتأويل وفك الرموز بالقراءة والتأمل!

قد يبدو الإنسان، على المستوى العام، بسيطاً للغاية، ويتوق إلى التعقيد، وربما يكون العكس هو الصحيح، أي أنه معقد ويتوق إلى البساطة التي تعادل الحرية! لقد لجأ الإنسان منذ القديم إلى الرموز، ولم تفلح النزعة العلمية الناتجة عن الفكر الوضعي، رغم كل الحملات المركزة على الرموز والتفكير السحري، من زعزعة هذا الجبل الراسخ في كينونة الإنسان، إلا لفترة قصيرة، وتبدو اليوم النزعة العلمية مدحورة أمام المستوى السوقي من الرموز التي تغلف بعناوين، مثل: علم الطاقة، والطاقة الخفية للإنسان، والأشكال العديدة من الشعوذة والتنجيم! وهذه تختلف عن البعد العرفاني في الرموز الذي نقصده هنا.هذه الرموز هي جزء من الواقع، لايمكن فصلها أو فصل الواقع عنها، وأي تطرف في فصل الواقع عن الرموز أو العكس يوقعنا في سوء الفهم. فنحن نحلم في النوم وفي اليقظة، و الأحلام أكبر مخزن واقعي للرمز، وهذا ما يفسر الانتشار الواسع لتفسير

الأحلام،على المستوى العام والخاص. بعد الأحلام، تأتي النصوص؛ من أشعار وحكايات وأساطير وملاحم ورسومات ونقوش وأشكال هندسية وأرقام لتشكل طغماً رمزية كبرى، يطيب للإنسان أن يفسرها أو يؤلها أو يفككها، حسب مصطلحات أي عصر. إن الرموز، حسب بول ريكور، تمد جذورها المتينة في أصقاع الحياة والشعور والعالم، ولأن لها ثباتاً استثنائياً فإنها تفضي بنا إلى التفكير بأن الرمز لا يموت بل يتحول فقط. إذاً يواصل الإنسان صياغة رموزه. وتكون اللغة أو الصور رمزية حين تدل على ما هو أكثر من معناها الواضح والمباشر. ويرى كارل يونغ، أنه مع اكتشاف العقل للرمز، يجد نفسه منقاداً إلى أفكار تقع ما وراء قبضة المنطق. وكان علماء الخطاب قد ميزوا بين مستويين في استخدام اللغة، الأول أسطوري يشمل الفنون والآداب، ولا يخضع للمنطق، والثاني منطقي يشمل العلوم بشتى فروعها. وإذا صح هذا الكلام فلا بد أن يلتقي المستويان في ارتباط كل منهما بالواقع، فلا خيال خارج الواقع، ولا نستطيع فصل المجاز والرمز عن اللغة، ومن يضع المستويين كحدين متقابلين متنافيين يقع في التطرف والقسرية، وسبق لماكس فيبر أن دعا إلى إزالة السحر عن العالم. وسبق لآخرين أن دعوا إلى نفي الميتافيزيقيا عن التفكير العلمي وعن الشعر أيضاً، وهذا لم يلق نجاحاً في اعتقادي، إذ في لحظة ما، سرعان ماتسربت خزانات اللاشعور حتى كادت أن تغرق الكون، وقفزت إلى الواجهة كل أشكال التفكير الخرافي وكأنه جاء لينتقم من أعدائه العلمويين! ومن هنا تأتي أهمية التوازن، والاعتراف بوجود الرموز التي تتوالد بشكل يومي، تتوالد من أصل ثابت وقديم، يمكن أن يكون خاضعاً لمنطق التحليل. وهذا ما أكد عليه كارل يونغ حين قال: إن خافيتنا (الأوروبية) حافلة بالرمزية الشرقية، ولا يمكن الوصول إلى الخافية أو التعبير عنها إلا بالرموز، فالرمز هو التعبير البدئي عن الخافية، لكنه في الوقت نفسه يتطابق مع أعلى مستويات الحدس الذي تنتجه الواعية. وفي تراثنا المنفتح على ثقافات الشرق القديم كان للرموز حضوراً في النصوص وفي التأويل، ولا يتسع المجال لذكر نماذج من الفكر الصوفي لاسيما عند الشيخ الأكبر ابن عربي، وله رسائل في

معنى الدائرة وغير ذلك. ويروى، أن في زمن الرسول ظهر رجل يدعى «حيي بن أحطب» كان يؤول المصحف وفق الأرقام، فنهاه الرسول عن ذلك وزجره.

-٥-

وقفات مع الروايـة والسرد

الروايات الافتراضية

هذا النوع من الروايات، يفترض واقعاً خيالياً مغايراً للواقع، وينشأ على نقيضه. درجت العادة عند النقاد أن يطلقوا على هذا النوع من الروايات أسم: «رواية اليوتوبيا» وإذا كانت اليوتوبيا تقوم على تخيل مدينة سعيدة، عادلة، مثالية، مدينة حلم، مثل جمهورية أفلاطون، ومدينة الفارابي، ويوتوبيا توماس مور. لكن، هذه الروايات قدمت تصوراً تهكمياً مناقضاً تماماً للمجتمع السعيد، وعرفت بالروايات الـ «ضد يوتوبيا». من أشهر هذه الروايات: روايات الانكليزي «ج.ويلز» مثل «رحلة في عالم الغد» و«في بلاد العميان» و«الغذاء السحري» وهي روايات خيالية اختلط فيها الخيال بالرؤية العلمية والفلسفية لويلز. ومن هذا النمط الويلزي يمكن أن يكون الدوس هكسلي في روايتيه: «الجزيرة» و«عالم طريف» وبرز في هذا النسق البريطاني جورج أورويل صاحب رواية «١٩٨٤» كتبت عام ١٩٣٩ وله الرواية الشهيرة جداً« مزرعة الحيوانات». ورواية الألماني توماس مان «الجبل السحري» و«لعبة الكريات الزجاجية» لـ «هرمان هيسه» وكل هذه الروايات لحسن الحظ ترجمت إلى العربية. أما رواية: «نحن» للروسي يفجيني زمياتين المولود عام ١٨٤٤ والمعاصر لعمالقة الأدب الروسي مثل تولستوي وديستوفسكي، وغوتشاريف، وغوغول وتورجنيف.. وعاصر الثورة

البلشفيه وتجاوب معها في البداية. اختط هذا الكاتب لنفسه أسلوباً خاصاً مفارقاً لأقرانه. كتبت رواية «نحن» عام ١٩٢٠ ويقال إنها نالت شهرة كبيرة في دول الغرب عند صدورها، حيث ترجمت إلى الانكليزية وصدرت في لندن عام ١٩٢٤ قبل أن تطبع في روسيا لأول مرة عام ١٩٥٢ حيث احتفت بها الأوساط المعادية للسوفييت إلى أن صدرت رواية أورويل التي غطت على رواية زمياتين وحجبت عنها الأنظار! ويذكر أن زمياتين بعد خروجه من بلاده عام ١٩٣١ لم ينخرط في نشاطات معادية للسوفييت واستنكر النظرة السياسية لروايته من نقاد الغرب على أنها أهجية سياسية للبلاشفة: وقال رداً على ذلك: «لم ير النقاد القصيرو النظر في هذه الرواية أكثر من أهجية سياسية، وهذا غير صحيح بطبيعة الحال. فهذه الرواية نذير بالخطر الذي يتهدد الإنسان والإنسانية جراء السلطة المتزايدة للآلة وللدولة أياً كانت هذه الدولة». رغم أن رواية زمياتين سابقة على رواية أورويل إلا أن هذا النمط من الروايات عرف باسم أورويل:« الأورويلية» وأعتقد في هذا ظلم لزمياتين الذي لحق به الظلم مرتين أو أكثر، في المرة الأولى حين اتهم في بلاده بالهرطقة، ومنعت روايته من النشر حتى عام ١٩٥٢ والمرة الثانية من النقد الأدبي الأوروبي الذي جعل من أورويل المبتدأ والخبر في هذا المجال، وهذه كذبة كبيرة، وما رواية زمياتين وتاريخ كتابتها ونشرها إلا شاهد على هذه الكذبة! والتشابه الذي يصل إلى حد التطابق أحياناً يجعلنا نعتقد أن أورويل كان قد قرأ رواية زمياتين وانفعل بها أيما انفعال! وبكل الأحوال، الروايتان استحقتا أن تصنفا في أرومة الروايات العالمية في القرن العشرين. تتحدث الرواية عن دولة واحدة يحكمها العلماء، سكانها ليس لهم أسماء بل أرقام، والرواية هي مذكرات الرقم: (د.٥٠٣) أحد العلماء الأساسيين في الدولة، وهو باني «الانتغرل» المركبة الفضائية إلى الفضاء الكوني! سكان هذه الدولة قطعوا مع عالم البشر وفلسفتهم وكل منظوماتهم، وينظرون إليهم بعدائية، ويفصل بينهم وبين البشر سور أخضر وأسلاك كهربائية، سكان الدولة يرتدون زياً موحداً ويسكنون حجرات جدرانها من الزجاج الشفاف يحظر استخدام الستائر إلا يومين في الأسبوع لقراية الساعتين! الطعام أيضاً في توقيت موحد والغذاء

من النفط تحديداً! وتعتبر الأحلام حالة مرضية خطيرة لأنها رومانسية وتمت بصلات إلى العالم القديم! ولذلك توصل العلماء عندهم إلى استئصال الخيال. إنه العالم الآلي، هذا العالم لا يتراخى ويدب فيه الفساد وتتسرب إليه مؤثرات العالم القديم، سيما وأن عدداً من الأرقام خانت العقل وتواطأت مع أعداء السعادة. وتنتهي الرواية بالرجاء والأمل من الرقم ٥٠٣ بأن ينتصر العقل دائماً!..

الروايات الجديدة جداً

مالذي تقوله الروايات الجديدة، في أحدث دعوات منظريها؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال لنتذكر الروايات الكلاسيكية الكبرى ذات الطابع الملحمي الاجتماعي التي كانت تحرص على أن تكون تعبيرا عن شريحة واسعة من المجتمع، مع الحفاظ على أقصى حالات التشويق، هكذا كان الأمر مع بلزاك وتولستوي وغوركي وأمادو وآخرين، وهذا ما جعل الناقدَ الماركسي الشهير جورج لوكاش يعتبر الرواية ملحمة البرجوازية الكبرى. إلا أن انزياحات نوعية حدثت في الرواية عند جويس وبروست ثم آلان روب غرييه قادت إلى مرحلة التنظير لموت الرواية كجنس ملحمي معبر عن المجتمع واليوم نحن في الموجة الثانية أو الثالثة من عمر الرواية الجديدة ما بعد الملحمية، وفي أحد آخر تعريفات الرواية الجديدة (جداً) بأنها معبرة عن صوت الأقليات! والمقصود هنا بالأقليات كما فهمت: الهامشيين من المشردين وفاقدي الهوية وغير المندمجين في مجتمعاتهم والمنبوذين من عامة الناس وبشكل خاص المثليين ومن لف لفهم. وهذا التعريف الغريب للرواية لاقى صدى عند عدد غير قليل من كتابنا العرب وبعض النقاد الجدد ومنهم من تبناه بالمطلق، وراح يفتعل حالات افتراضية أو متخيلة أو موجودة على نطاق ضيق ليكون معبراً عن هذا النوع من الأقليات الاجتماعية، وهو لم يعرفها ولم يعايشها، متأثراً بهذه الموجة الجديدة من دعوات الرواية.

مما لاشك فيه أن السرد نال اهتماماً إضافياً من قبل علماء الاجتماع باعتباره تصويراً واقعياً للمجتمعات في مرحلة معينة، وعلماء الاجتماع هؤلاء ليسوا معنيين بالفن السردي كفن أو بلعبة التقنيات السردية أو بجماليات السرد ولا بالتجريبية أو المساعي التجديدية في أشكال الفن السردي، كما يفعل نقاد الأدب، بل أكثر ما يعنيهم أن تقدم الرواية تصويراً واقعياً (توثيقياً) يمكن اعتماده كمرجعية في تأكيد نظرتهم أو نظرياتهم حول مجتمع ما، أو حول نظرة الأدباء المحليين لهذا المجتمع ونظامه السياسي وتقاليده وعاداته وردود فعله ودور المرأة فيه أحياناً. إذاً بين هاتين النظرتين الغربيتين للأدب الروائي يقع الروائي الجديد في خيبة كبرى، ويتم عزل الروايات خارج هاتين الدائرتين وتهميشهما فلا ينال أصحابها الترجمة إلى اللغات الأخرى ولا أمل في الحصول على الجوائز. وربما هذا ما يفسر لجوء بعض كتابنا المحليين الجدد إلى أدب فضائحي أو هجائي والوقوع من قبل هؤلاء الروائيين في مطب الاستجابة لما هو مطلوب للترجمة، وفي أحسن الحالات الوقوع في تأثيرات الفكر الاستشراقي حول المجتمعات الشرقية، والبناء على أساطير مفتعلة وزائفة لترسيخ الفكرة المهيمنة وتعزيزها، وهذا أدب نابع من سوء نية بالمعنى السارتري يكذب فيه الروائي على نفسه وعلى مجتمعه، والآخر الذي يلاقيه في الضفة الأخرى مرحباً يعرف أنه يكذب. وهنا في ذهني العديد من النماذج الروائية الجديدة لكتاب وكاتبات عربيات، تسنى لي أن أقرأها، مكتوبة وفق رؤيا استشراقية مبالغ فيها وبعضها لا يخلو من البراعة ومن بعض الواقعية. وهذا ترسيخ للتبعية السيكيالوجية أو الدونيه عند الكاتب المستعمر في مراحله الأولى أي ما قبل النضج وفق فرانز فانون. للأسف هذا النوع من الروايات العربية الجديدة هو السائد اليوم وهو الذي يروج له، وهو لا يحمل أي قيمة ذات ديمومة، وخطره أنه يغطي على الأصوات الحقيقية والأصيلة والجادة التي قد لا تلقى سبيلاً للنشر، وإذا ما نشر لا يحظى بأي اهتمام! والسؤال الذي يفرض نفسه؛ هل هذا النوع السائد من الروايات الجديدة هو رواية الحلم في أن يكون لنا

نتاج روائي له سمات وملامح مستقلة تعبر بنضج عن المجتمع وتناقضاته، مع مواكبة التجديد والتفاعل مع الرواية العالمية؟ وأعتقد أن هذه وظيفة السرد وإلا لن يكون له قيمة، ولن نحظى بشرف أن يكون لنا مكان على خارطة الرواية العالمية، ونحن بذلك نتراجع عما أنتجه الرواد وحلموا به، حتى ولو اعتقد كتابنا الجدد أنهم يحققون مالم يحققه الأولون، وأن كتبهم تترجم وينالون جوائز تشجيعيه للاستمرار في ابتكار الفضائح!

الروايات المرحة

«رحلة القس صليو إلى السماء» رواية من الأدب السرياني، تأليف شموئيل بيت كليا، ترجمها إلى العربية يكدان نيسان، تحكي الرواية قصة قس يصعد إلى السماء على ظهر حمارة بيضاء. يحاول القس دخول الجنة، للقاء السيد المسيح، ليشكو له أحوال العالم والظلم القائم على الأرض،إلا أن حراس بوابات الفردوس ألاثني عشر، من أنبياء العهد القديم، يمنعونه من الدخول! وتجري بينه وبينهم مجادلات طريفة في اللاهوت والأخلاق. كاتب هذه الرواية ابن البيئة السورية والعراقية، بأسلوبه التهكمي هذا، يذكر بأسلافه السرديين العظماء: هيلادور الحمصي، ولوقيانوس السميساطي، وأبو العلاء المعري، ولكل من الأخيرين قصة عروج إلى السماء. بعد أن أنهيت قراءة هذه الرواية الممتعة، تساءلت باعتباري قارئ روايات: أين هي الروايات الممتعة أو المرحة في خارطة الروايات العربية اليوم؟! لقد مضى قرن كامل من عمر الرواية العربية الفنية، منذ صدور رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل عام ١٩١٣ إلى يومنا هذا، وعلى كثرة ما أنتج من روايات خلال المائة عام، وبعضها رائع، لماذا نفتقر إلى هذا النوع من الروايات، أهي متطلبات الأدب الجديد، أكان على الروائيين العرب أن يكتب معظمهم على طريقة ألان غروب غرييه، أو على طريقة أميل زولا، أو الطريقة

البلزاكية، أو الكافكوية، أوالفوكنرية، أوالبروستية، أو يبحثون عن الزمن المفقود، أو يجهدون لكتابة رواية تجري أحداثها في يوم واحد؟! وإذا كان بروست قد اجترح المعجزة، فلما لا يعفي الروائي العربي نفسه ويعفي القارئ من هذه المشقة ومن تبعة التقليد؟! وعلى ذكر كافكا وبلزاك، فجلّ رواياتهما مرحة، رغم كابوسية الأول، والوصف التفصيلي، عند الثاني! لكن للأسف، فالروائي عندنا ، وهو يقلد أو يحاكي، لا يجذبه إلا الوجه المتجهم العبوس! حتى حين يريد أن يكون واقعياً، ويقرر أن يكتب عن الظلم والفساد والهزيمة، فلا يستطيع إلا أن يجعلك كقارئ تتجرعها وكأنها العلقم، أو كمن يزدرد الحصى!وما يجعلنا نزداد ضيقاً، أن روائيين آخرين في لغات أخرى، يكتبون عن نفس المواضيع برشاقة ومرح وتهكم! لماذا عندنا تتشابه الروايات، ويمكن أحياناً للواحدة أن تحل محل الأخرى؟! لماذا كلما تهادت موجة من بعيد، أكانت مرتفعة أو منخفضة يغرق فيها كتابنا، إلى أن تجرفهم إلى الشاطئ، ويظلون في سبات فوق الرمل؟! موجة الواقعية الاشتراكية، ثم الوجودية، ثم رواية المكان، وعبادة التفاصيل، والحياة اليومية.. كلها تقودنا إلى التشابه في الشكل وفي المضمون! الروايات الذكورية متشابهة، وحتى الروايات النسوية متشابهة! إذا قرأت رواية من المغرب أو العراق أو السودان أو مصر أو لبنان، تكاد كلها أن تكون واحدة! حتى بات، على كثرة ما ينشر من الروايات، من الصعب التمييز بين روائي هاو وروائي محترف!

ربما قائل يقول: إن الرواية العربية في حالة ازدهار، ودليله؛ أننا نلنا نوبل في الرواية، ثم الجوائز العربية والعالمية، التي تنالها الروائيات والروائيون العرب بمختلف أجيالهم! من المؤكد، توجد استثناءات باذخة في الإبداع الروائي العربي، ورحم الله نجيب محفوظ، وعبد الرحمن منيف، وطوال العمر ودوام العافية للروائي الكبير حنا مينه. أما عن الجوائز، ففي عالم يفيض بالفساد، لا يستبعد أن تكون جوائزه ولجانه فاسدة! وأعتقد، أن الجوائز كانت ضارة أحياناً،إذ جعلت البعض يسعى وراءها، أو وراء الترجمة، وهذا أيضاً يقود إلى التردي والاتضاع وإلى التشابه أيضاً. كان بالإمكان أن تكون مكانتنا في خارطة الإبداع الروائي أفضل

مما هي عليه بكثير لولا الانسياق وراء التقليد، والانجذاب للتأثر، وتضخم الأوهام، فالروائي عندما يتوهم أنه سيقول كل شيء في الرواية، سيخفق في أن يقول أي شيء، فما قيمة أن يتوهم الروائي أنه فيلسوف، ويسرد وفق تصورات ماركس أو نيتشه أو فرويد أو برغسون، وينسى أنه فنان على عاتقه أن يمنح الفرح للعالم؟!

الرواية والمكان

يميز بعض النقاد الغربيين بين فئتين من الفنون: «الفنون القائمة على التواجد في المكان، والفنون القائمة على التعاقب في الزمان» الفنون المكانية تشمل: الرسم والنحت والعمارة، أما الفنون الزمنية تشمل: الأدب والموسيقى. الرواية فن زمني بالدرجة الأولى وهي أيضاً فن مكاني، و قلّما غاب المكان عن الروايات الأساسية منذ الكلاسيكية الأولى وحتى أيامنا هذه، فالمكان هو أرض الذاكرة، وأرض الحلم، والإنسان عموماً لديه إحساس بالمكان الذي يألفه وله فيه ذكريات وحكايات، وفي الأمكنة والحواضر التاريخية، كما في بلداننا، دائماً نعثر على ما يذكرنا بأن أنساناً سابقاً مر من هنا، وترك لنا ما يذكرنا به من رسوم وكتابات وآثار، ونحن نتشوق لهذه اللقى مهما كانت ونضفي عليها القيمة، وهذا النزوع الإنساني قد يفسر لنا لماذا يأتي الناس من شتى بقاع الأرض ليشاهدوا الخرائب والآثار القديمة! وهذا الإحساس بالمكان عبر عنه الشعر العربي القديم، بما يعرف بالشعر الطللي، أروع تعبير! وفي العصر الحديث يستمر هذا النزوع بالتعبير عن المكان في الرواية. وربما قليلة هي الروايات التي تخلو من المكان، لاسيما الروايات الواقعية، إلا أن الاهتمام بالمكان عند بعض الروائيين العرب ازداد في مرحلة ما وبلغ حدوداً قصوى من المبالغة حتى صار الأمر نوعاً من الأيديالوجيا أو الهوس بالمكان، وغدا الاستغراق في وصف الأمكنة غاية بحد ذاته، أو جعل المكان له الحيز الأكبر ودور البطولة! وانبرى نقاد وروائيون يدعون لكتابة المكان، أو للرواية المكانية! وكما هو معروف؛ إن كل شيء يزيد

عن حده ينقلب إلى ضده. فبإمكان الروائي الناجح أن يجعلنا نحس بالمكان الواقعي دون الإسهاب في وصف مدخل الحي أو بوابة الخان أو القلعة أو البحرة...و إلا، أين هو الإيجاز والاقتصاد في اللغة المطلوب في الكتابة الحديثة؟! الاستفاضة في الوصف قد تجعلنا نفقد الألفة مع المكان ومع الأشياء الموصوفة، عدا عن أن هذا قد يكون باعثاً على الملل، وفي كثير من الأحيان لا يعكس ولا يعبر عن أصالة وسجية بل هو تقليد وافتعال، وقد يقول قائل أن الروائي الأمريكي هيرمان ملفل في رواية «موبي ديك» أفرد ما يزيد عن مائتي صفحة في وصف الحوت الأبيض، والرواية واحدة من الروائع العالمية! قد يكون هذا استثناء وليس قاعدة. إن رواية ما يمكن التخلي عن مشاهد أو عدة صفحات منها دون شعور بالخسارة أو النقصان، يعني أن عيباً يعتور الرواية، أقله الحشو! من المؤكد أن معظم الروايات المؤثرة لها جغرافية يمكن تتبعها أو الإحساس بها، ومن الصعب تخيل رواية بلا حدث يجري على الأرض أو في بيئة ما، هل يعقل أن تكون رواية بيئتها هي العالم كله مثلاً؟! بل على العكس، إن معظم الروايات العالمية والتي حظيت بهذه السمعة الكونية تنطلق من خصوصية قومية أو محلية، فرواية الألماني توماس مان: «جبل السحر» من الروايات الذهنية، فيها جدل الأفكار، رواية هرمسية، كما يسميها الكاتب نفسه في نهاية الرواية، تجري أحداثها في مصح برغهوف في جبال الألب، جغرافية المكان فيها واضحة للغاية، وكذلك رواية جيمس جويس: «يولسيز» ويقال إن جويس قبل البدء بكتابة هذه الرواية زار مدينة دبلن عاصمة بلاده واستعان بالمساحين لقياس الجسور وطول الشوارع، واستغرق أشهراً لدراسة المكان الذي ستنبثق عنه الرواية المحيرة! هذا يقود إلى القول إن عمارة الرواية لابد أن يكون لها مكان تبنى عليه، ولا يكون مجرد إنشاء لغوي، مهما حاول الشكلانيون إضفاء الحياة على النظام اللغوي، إذ يقول أحدهم: «اللغة بحد ذاتها تتمتع بوعي خاص». ما أردت أن أقوله هنا إن البعد المكاني، وهو بعد عقلي، تتطلبه الرواية مهما كانت متطرفة في مراودة التجديد، إلا أن بعض روائيينا يقعون أحياناً بين تغييب المكان أو المبالغة في

استحضاره! وأختم بما قاله ميلان كونديرا عن الرواية: «الرواية هي المكان الذي يمكن للخيال أن ينفجر فيه، مثلما ينفجر في الحلم».

التاريخ و الرواية التاريخية

يكثر الحديث عن الرواية التاريخية وعلاقتها بالتاريخ. و يغدو الحديث مبرراً بعد أن أصبح عندنا وفرة في الروايات التاريخية. وأعلام كبار ممن أجادوا في هذا الفن، حتى أن الروائي الفرنسي جليبرت سينويه الذي يكتب الرواية التاريخية، وله: «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان» اعترف بفضل روايات جرجي زيدان عليه.

وماذا عن التاريخ وعن الرواية التاريخية؟

يكاد يجمع المؤرخون العرب، عند تعريفهم للتاريخ، على أنه (علم) يعنى بالوقت والأزمان، وبالإنسان، والحوادث والوقائع والأخبار والحروب والصناعات والمهن..إلخ، ومن هؤلاء المؤرخين نذكر: ابن خلدون، الكافيجي ٧٨٨ –٨٧٩ هجري، وله:« المختصر في علم التاريخ» السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هجري. يعرف الكافيجي التاريخ، كما يورد الدكتور وجيه كوثراني، كالتالي: «التاريخ في اللغة، تعريف الوقت، وفي العرف والاصطلاح، هو تعيين وقت ينسب إليه زمان، سواء أكان قد مضى أو كان حاضراً أو سيأتي.» ومن هذا المنطلق اللغوي والاصطلاحي خلص إلى القول: «وأما علم التاريخ، فهو علم يتحدث فيه عن الزمان وأحواله، وأحوال ما يتعلق به، من حيث تعيين ذلك وتوقيته». ويذكر أن التاريخ، انطلق عند العرب مع انطلاق عصر التدوين، وتطور في ما بعد. وأما الغربيون، فقد انشغلوا بجدل طويل حول مفهوم التاريخ، وهو لم يتوقف حتى الآن! في القرن التاسع عشر، نشأ ما يسمى تقديس الحقائق، ثم في ما بعد، تقديس الوثائق، باعتبارها بوابة للحقائق التاريخية. ويورد المؤرخ الإنكليزي أدوار كار في كتابه:« ما هو التاريخ؟» ما جاء في قاموس أكسفورد الوجيز، هذا التعريف الذي يصفه بالتقليدي، أو النظرة الفطرية للتاريخ: «التاريخ يتكون من مجموعة كاملة

من الحقائق المؤكدة، التي تكون متوافرة للمؤرخ من خلال الوثائق والنقوش وما إلى ذلك. يقوم المؤرخ بجمعها، ويصطحبها إلى منزله حيث يقوم (بطبخها) ومن ثم يقدمها بالأسلوب الذي يروق له!». وهاهو تعريف آخر، يعود إلى القرن الثامن عشر، أكثر بساطة، يرى أن مهمة المؤرخ أن يظهر كيف كانت الحالة. وما أكثرالتعريفات الهامة التي لا يتسع المجال هنا لذكرها.

عندما نقرأ المؤرخين العرب والغربيين، وما يدونون، حول العصور الغابرة، عصور ما قبل التاريخ، نستمتع بخيالهم الزاخر الدفاق! إلاأنها ليست حقائق! والمؤرخون الذين يعاصرون الأحداث، لا يستطيعون الإلمام بكل ما جرى. ولنأخذ مثالاً قريباً، الكتاب الرائع: «حوادث دمشق اليومية» للشيخ أحمد البديري الحلاق ١٧٦٢م إنه يقدم صورة جزئية عن الحالة في تلك الفترة من خلال يومياته في الحي الذي يعيش فيه، وعلى ما يسمعه من خارج الحي!. والذين يعتمدون الوثائق، على أهميتها، يقرؤونها وفق أهوائهم، وينحّون منها ما يرونه غير مناسب. وما يميز مؤرخاً عن آخر، يكمن، في القدرة على الإيهام بالحقيقة، من خلال البراعة في العرض والتفسير والتأويل. ونحن حين نقرأ التاريخ نتوهم أننا قبضنا على الحقيقة! إلا أن الحقيقة، على الأغلب، هي في مكان آخر.

ونخلص، إلى أن التاريخ بحر متلاطم من الاختلاقات والتخيلات، والأكاذيب التي يخترعها المؤرخون. وهذا يجعل الادعاء بالدقة والإحاطة الكاملة بالزمن التاريخي، أو الحقيقة التاريخية، ضرب من الكذب. ويقول هاوسمان: «الدقة واجب عند المؤرخ وإنما ليست فضيلة». ومهما يكن، فإن هذا النوع من الكذب هو ما تنتعش فيه الروايات التاريخية! المؤرخ يراوغ في نشدان الدقة، بينما الروائي ليست الدقة هدفاً عنده. وبناء على هذه التقاطعات، يمكن أن نقول، إن التاريخ والرواية التاريخية، فنان سرديان، ايديالوجيان، يتشابكان في وشائج عديدة.

الراوي والرواية

تبرز أهمية السرد الروائي في العصور الحديثة بشكل كبير، ليس بصفتها تاريخاً أو توثيقاً لحقبة زمنية، أو مجرد شكل فني للتعبير عن حكاية ما، حقيقية أو مختلقة، كما يعتقد بعض روائيينا الذين باتوا يقدسون التقنيات ويجهدون أنفسهم في ابتكار أشكال جديدة، ولكن للأسف لم يكونوا إلا كالدجاجة التي تحاول أن تقلد نسراً في الطيران، وواقع الرواية العربية باستثناء بعض الاختراقات، يثير الشجون، فرغم فضاء السرد وتعدديته، وتراكم المنجزات عبر العصور، تبقى المشكلة كبيرة ومعقدة، و الإخفاق يبعث على الخيبة، فلم نفلح أن نكون لا صوت ولا صدى في هذا المجال! والمفارقة أننا لم نتمكن من الحفاظ على الإنجازات التي حققها رواد الرواية العرب، مثل نجيب محفوظ وحنا مينا وعبد الرحمن منيف، إذ نجح هؤلاء، لفترة معينة، في أن يجعلوا من الروايات فناً مقروءاً على نطاق واسع، وهاهو، هذا المنجز، يتبدد اليوم مع المجتهدين والمجتهدات! وربما لهذا أسباب عديدة لا يسعنا هنا الخوض فيها.

إذا كانت الحكاية قديمة قدم الإنسان، وربما هي النواة التي تطور عنها فن السرد الروائي، فالرواية كفن كتابي هي أيضاً قديمة، ووصل إلينا من هذه الروايات ما يجعلنا نعتقد أن الحضارات القديمة لها رواياتها الحكائية والملحمية التي كانت قد قطعت شوطاً من التطور لا يستهان به، نجد هذا عند البابليين والمصريين والسوريين والإغريق وفي الصين والهند.. والدليل المادي على وجود تراكم سردي قديم، وجود روايات متطورة وصل إلينا بعضها، مثل روايات السوري الساخر لوقيان ١٢٥م، وروايتي الفينيقي من ليبيا ابوليوس المداوري: «تحولات الجحش الذهبي» و «مصنع الأكاذيب» وقد كان لهذين السرديين تأثير معترف به عند الأوروبيين، وتحدثنا الأخبار عن روائي سوري من مدينة حمص يدعى: كرونثيوس السردي تنسب له رواية «الحبشيات» التي لم يتم العثور عليها حتى الآن، والأثر المفقود يصلح أن يكون مادة لرواية جديدة عند روائيي ما بعد الحداثة، مثل أمبرتو إيكو وأمين معلوف وكويلو وغيرهم، الذين يُشغلون خيالهم السردي في البحث عن المخطوط المفقود! كما أن تراث العرب حافل بالحكايات، وأشكال سردها، والتي لا

تعد ولا تحصى! لكن برزت الرواية كفن حديث في أوروبا، ويرى النقاد أن رواية «دون كيشوت» لسرفانتس هي الرواية الأولى الحديثة، وتأتي بعدها رواية «روبنسون كروزو» لـ «دوفو» وتتزامن وتأتي بعدها روايات أخرى مثل روايات رابليه ثم فولتير وديدرو. لكن، ذروة تطور الفن الروائي كانت في نهاية التاسع عشر والقرن العشرين، حيث غدت الرواية فناً عالمياً حاضراً في لغات العالم، وغدت،لاحقا بعد أن ظلت أوروبية ردحاً من الزمن، فناً تبادلياً تتناقلها الثقافات فيما بينها. ومع التطور التاريخي للسرد الروائي تعددت الأنماط والأساليب، كما طرأ فيما بعد تبدلات على المفهوم الروائي من داخله، فبدل أن تكون الرواية فناً ملحمياً للأمم الحديثة، صارت الرواية على يد كتابها المجلين مجرد سرد يجذب اهتمام الجمهور عن طريق إثارة أسئلة في أذهانهم، وتأخير الإجابة عليها، كما يرى الناقد والروائي البريطاني ديفيد لودج الذي يلاحظ أن الأسئلة هذه في عموميتها تنقسم إلى نوعين: الأسئلة المتعلقة بالسببية: (من فعل هذا؟) والأسئلة المتعلقة بالزمنية: (ما الذي سيحدث بعد ذلك؟!). ونماذج هذين النوعين في أبسط شكل هي على التوالي: القصص البوليسية التقليدية وقصص المغامرات المعروفة. ومثل تلك الحكايات السردية تتوخى وضع البطل أو البطلة في مواقف تحفها المخاطر الشديدة فيما يثير في القارئ انفعالات الخوف والقلق من النتائج المحتملة، فيتعاطف مع الشخصيات. ويرى لودج أيضاً أن أبسط طريقة لرواية قصة هي حكايتها بصوت الراوي الذي يمكن أن يكون ذلك الصوت المجهول في القصص الشعبي: (كان يا ما كان) أو بصوت شاعر الملاحم، مثل فرجيل، أو صوت المؤلف الذي يستودع القراء السر، ويصطحبهم في قصته، ويصدر حكمه ومواعظه، كما هو الحال في القصص الكلاسيكي. أتوقف هنا مضطراً، وأعتقد أن الموضوع شائق ولم يستوف حقه، ويحتاج إلى استكمال لاحقا.

الراوي والمؤلف

تتردد في رواية «الصخب والعنف» لوليم فوكنر العبارة الشكسبيرية التالية: «الرواية يرويها أبله»! وتبقى هذه العبارة غامضة ومفتوحة على التخمين. والحقيقة أن التداخل بين الراوي والروائي تظل من الأمور التي تحير النقاد الجادين. وتجعل الروايات تتداخل أو توهم القارئ أن ما يقرأه هو سيرة ذاتية للمؤلف أو للروائي. وكان تاريخ الأدب السردي قد عرف عبر العصور نمطاً بديعاً يروى على لسان الحيوانات، إذ يقوم الروائي ببث وجهة نظره على ألسنة الحيوانات في حواراتها الفلسفية والتأملية وحتى العلمية، والأمثلة كثيرة على هذا النوع من الأدب، أذكر منها: «رسالة تداعي الحيوانات على الإنسان» لأخوان الصفا، و«حوار الكلبين» لسرفانتس والقائمة طويلة. وهذا النوع القصصي لا يزال يلقى استجابة كنمط من الأدب الرمزي التخيلي.

إذا كان الروائي يريد أن يوحي للقارئ أن الرواية معقدة، وأن عليه أن يصحو لاكتشاف المعنى أو الجوهر أو الكنز، فإن النقد الحديث جرد المؤلف من هذا الامتياز، فمنذ بداية القرن العشرين، تتويج عصر الواقعية في آداب الغرب، غدا المؤلف المتطفل غير مرغوب فيه، بسبب انتقاصه من وهم الواقعية، وتقليله من الكثافة الانفعالية للتجربة التي يتم تقديمها عن طريق تشتيت الانتباه إلى عملية السرد، وكأن الروائي هنا، يدعي مقدرته على إمكانية التواجد في كل مكان في الوقت نفسه! وفي رأي لودج، أن عصرنا الذي ساد فيه الشك والنسبية، لا يتقبل من أي شخص مهما علا شأنه أن يخلع على نفسه هذه المعجزات. ولذلك نحت الروايات على كبت صوت المؤلف أو إزالته من اللعبة أو على الأقل تواريه خلف ألف حجاب وحجاب! والبديل عن صوت المؤلف المتواري أن يتم تقديم الحدث من خلال وعي الشخصيات أو إسناد مهمة السرد ذاتها إليهم. وإذا كان لابد للمؤلف المتطفل من أن يحشر نفسه أو يطل برأسه فيكون غالباً بشيء من الحرج الساخر أو عبر تعليق سريع. ولكن هل يعني هذا أن المؤلف أو الروائي لا قيمة له في الروايات الجديدة؟! أعتقد أن من يزعم ذلك، يجافي الصواب، وهل ننسى، تحت تأثير الآراء النزقة للنقاد ما بعد الحداثوين، ان المؤلف قد مات وتم

دفنه دون مراسيم أو وداع! هذه أوهام وتجديف يفتقر إلى الواقعية! فالروائي لايزال صانع اللعبة، ولكن ليس وحده هذه المرة بل بمشاركة القارئ المفترض، فالكتابة السردية تفترض قارئاً لا مندوحة عن ذلك، حتى لو ادعى الكاتب أنه لا يكترث بالقراء بل يزدريهم، فالقارئ موجود وشريك في أي لعبة سردية. والقارئ هذا ليس مجرد متلق أو مستهلك، بل هو الموشور والمعيار الذي تكتمل فيه ومعه فنية السرد ومعناها. وهذا القارئ المنشود هو الذي يملأ الفراغات ويردم الثغرات ويتجاوز التفاصيل ويعلي من شأن العمل ويجعله مشعاً، وهذا النوع المتعدد من القراء لايقلل من أهمية شريكه الخفي على الطرف الآخر، الروائي، بل يقلل من شأن الناقد التقليدي الذي لم تعد له أهمية تذكر في هذه المعادلة الجديدة. ومن هذا المنطلق تكون الإجادة والتشويق مطلوبين من المؤلف، عبر كل أنواع السرد وفضاءاته المتعددة. ويحصي الناقد والروائي ديفيد لودج أنواعاً عديدة من أشكال السرد التي عرفها تاريخ الرواية الحديث، لعله من المفيد أن نذكر منها: الرواية اللغز، رواية الرسائل، رواية تيار الوعي، الرواية التجريبية، الواقعية السحرية، الرواية الكوميدية، رواية التصوير والتقرير، الرواية الخيالية... وكل هذه الأنواع لها أعلامها من الروائيين، ولن يكون لها قيمة تذكر إذا انفض عنها القراء الجدد المتمتعين بالاستجابة الجمالية والمعرفية.

الوثائقية في السرد

تعد الرواية ظاهرة سردية كبرى في العصر الحديث، ونستطيع من خلال الرواية الواقعية أن نتلمس ونستخلص الكثير من الإشارات المعرفية. و يتعايش اليوم في المشهد الروائي العالمي ماهو واقعي مع ماهو خيالي، والواقعي التقليدي مع السرد الحديث، ومع كل ما طرأ من مستجدات على أساليب الكتابة الروائية لا تزال الروايات الواقعية العظيمة مثل روايات تولستوي وفلوبير وبلزاك وديستوفسكي، وديكنز، تحظى بأهمية عند القراء والنقاد وعند الروائيين أنفسهم.

صحيح أن الإيمان بالواقعية قد اهتز في مطلع القرن العشرين، وحاول الروائيون أن يجدوا بدائل جديدة مثل: الواقعية الإيجابية، السحرية، النقدية، ما فوق الواقعية، وواقعية بلا ضفاف، ثم الرواية الجديدة، أو الرواية المضادة، أو رواية اللارواية، وغير ذلك، وكل هذه المحاولات التي نوعت المشهد وأثرته إلا أنها لم تستطع أن تصمد أمام قوة ورسوخ الواقعية. حتى الوظيفة الفنية للرواية التي أثيرت عند نقاد القرن العشرين وانقسام النقاد حول دور الرواية، وما أثاروه من نظريات في الأساليب والأشكال، لم تنجح كل هذه الجهود في وضع كتاب الرواية الكلاسيكيين على الرف! وأذكر منذ سنتين أو أكثر نشر استطلاع عالمي في أوساط الكتاب والقراء حول الروايات الأكثر قراءة في العالم، وكان تولستوي هو الأعلى في الترتيب. الواقعية الرومانسية ذات المسحة الإنسانية والمقترنة مع النظرة الأخلاقية للروائيين في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، كانت قد اهتزت وبدت سطحية وضيقة الأفق، ومشكوك في حقيقة واقعيتها، أمام نزوع الإنسانية نحو التدمير الذاتي الذي قاد إلى حربين عالميتين في أقل من خمسين عاماً وخلفتا ملايين الضحايا والمنكوبين!

الروائيون الكبار في القرنين السابقين للقرن العشرين، تركوا أثراًعلى السلوك ونمط التفكير، والأكثر من ذلك على الفلاسفة ورجال الفكر! ومنهم استوحى المفكرون والفلاسفة والموسيقيون أس اكتشافاتهم، وهذا ما عبر عنه فرويد حين عزا اكتشافاته السيكيالوجية للشعراء وللروائيين. بينما روائيو القرن العشرين كانوا يجسدون تأثرهم بالنظريات المعاصرة في أعمالهم الروائية!فصرح كبار الكتاب عن تأثرهم: بماركس، أو فرويد، أو نيتشة أو هوسرل.. ففي رواية: «جبل السحر» لتوماس مان توجد شخصيات ترمز لنيتشه، وفرويد وجورج لوكاش..! واليوم تنتشر، ومنذ عقود، في سياق أنماط السرد العديدة طريقة يسميها الناقد البريطاني ديفيد لودج: «الوثائقية الجديدة» كضرب من ضروب الواقعية «المابعد حداثوية». والحقيقة أن بعض الروائيين العرب استخدموا هذه الوثائقية مقلدين لا مبتكرين! واختلاق الوثائق طريقة قد تكون مبررة في الكتابة السردية، وقد تكون ممتعة عند

القراء إلا أنها ضرب من الكذب، إذا ما ووجه به الكاتب يسارع إلى القول : أنا لا أكتب تاريخاً بل أكتب رواية. كأنه يقول: نعم أنا أكذب عليكم، ويجب أن تعذروني لأني روائي! ربما دون أن يعي أنه خائن للحقيقة وللتاريخ وللفن الروائي الواقعي، ويخدع الناس أيضاً، فهو في موقف لا يحسد عليه. وأنا أعتقد أن الروائي المختلق متعب ومتحذلق أيضاً، وهو غير قادر على التعامل مع الواقع ومعطياته، فيوهم الآخرين أنه يمتلك من الوثائق مالا يملكون ولا يعرفون، والسؤال هنا هل الروائي الجديد، من يمتلك القدرة على قراءة الواقع الحي، أم من يستمد مادته من فهارس الكتب والأرشيف وصفحات الجرائد؟! هل يمكن أن يكون هذا النوع من الروائيين بديلاً عن واقعية بلزاك وتلستوي أو نجيب محفوظ وحنا مينه؟! الواقعية هي المحك الأساسي والأصعب، وأجازف بالقول: إن تكون روائياً، عليك أن تتشبع بالواقع وبمعرفة هذا الكائن الإنساني المحير والذي ما انفك يفعل الأفاعيل على هذه الأرض!.

«بنات آوى وعرب»

هذه القصة لفرانز كافكا من أكثر القصص رمزية، فهي تقول الكثير في ثلاث صفحات، تحمل أكثر مما تتحمله أي قصة، بأسلوب كافكا ألإعجازي الذي لا يترك القارئ يتخلص من آثارها ولو لسنين! قرأت هذه القصة مرات ومرات، ولا أزال أعود إليها بين الفينة والأخرى بكثير من الشوق. نشرت هذه القصة في مجلة المعرفة منذ ما يزيد عن عشرين عاماً ترجمة الدكتور صالح حاتم. كما كنت قد قرأت بعض التعليقات العربية عليها، وهي غير مقنعة، إذ سرعان ما يخلص المعلقون من خلالها إلى اتهام كافكا بالصهيونية، وإن كان للاتهام ما يبرره، إلا أنني لا أرى ذلك في هذه القصة. كانت المسألة اليهودية تتفاعل في الغرب في زمن كافكا، وهو من بيت يهودي، والصهيونية في ذروة نشاطها، وكانت قريبة منه بل في عقر داره عبر زوجته و صديقه الأكبر ماكس برود، ومن المؤكد كان لهما

تأثير كبير عليه. على كل حال صهيونية كافكا أثير حولها لغط كبير، وقد أصر الصهاينة بحماس على تأكيد انتسابه لهم وقدموا أدلة على ذلك. والرجل توفى عام ١٩٢٤ بمرض السل، ولم يشهد اغتصاب فلسطين ليتأكد موقفه من هذه الجريمة، رغم أنه كان يرى ذلك في الأفق كما يبدو من هذه القصة. بالعودة إلى القصة، تبدأ: «خيمنا في الواحة ونام معشر الرفاق. مر بي عربي طويل القامة بلباسه الأبيض. كان قد زود الجمال بالعلف ومضى إلى النوم». هذا هو المقطع الأول الذي يظهر فيه العربي الطويل القامة بلباسه الأبيض، دون أي نعوت صريحة. في المقطع الذي يليه تظهر بنات آوى، تقترب من الأجنبي وهي تعوي عواء ممزوجاً بالنحيب، ثم يأتي من الخلف أحد بنات آوى ويلتصق بالأجنبي، ويقول: «أنا أكبر بنات آوى في قاصي الأرض ودانيها، ويسعدني أنني أستطيع أن أرحب بك هنا في هذا المكان. وقد أوشكت أن أقطع الأمل، إذ أننا انتظرناك زمناً طويلاً. فأمي انتظرتك، كما انتظرتك جدتي وأمها أيضاً وأم أمها حتى أم بنات آوى كلها، صدق هذا. ». ثم في مكان آخر يقول ابن آوى: «نحن نعلم أنك آت من الشمال، وعلى هذا علقنا الأمل. فهنالك العقل الذي لا أثر له في أوساط العرب. وأنت تعلم أنه لمحال أن تنطق ذرة عقل من هذا الكبرياء البارد. فهم يقتلون الحيوانات لكي يلتهموها كما يحتقرون الميتة.» ويحذره الرجل القادم من الشمال: «لا ترفع صوتك، فثمَّ عرب ينامون على مقربة منا» ويرد ابن آوى: «أن أحدنا ما خشي عربي قط في تاريخ البشرية... ألا تكفي المصيبة أننا منبوذون في ظل شعب كهذا الشعب؟ ». ويرد الآخر: «هذا جائز، وربما كان الأمر هكذا. أما أنا فلا أجرؤ على الحكم في أشياء بعيدة مني ولا تمت بصلة إلي. ويبدو أن النزاع جد قديم. ولهذا فهو يجري في الدماء، وقد لا ينفض إلا بالدماء» وهنا يبدو الاحتيال عند الآخر، الذي يرمز إلى البريطاني، يتظاهر بالموضوعية، ويغذي النزاع الدموي ويلقى استجابة عند ابن آوى (كبير الحاخامات) الذي يبدأ بحملة تشهير على العرب، ويمتدح حكمة الأجنبي لأنه يطابق تعاليمهم القديمة. ويقول ابن آوى بناء على إيحاءات الأجنبي: «إذن نمتص دماءهم، وبهذا ينفض

النزاع!» وحين ينوي الأجنبي أن ينهض ليغادر يمسكون به ليبقى في مكانه، ويشرعون بالنحيب والتذلل، يقول كبيرهم:« ما نحن إلا حيوانات بائسة، وليس لنا سوى هذه الأسنان. فهي وحدها كل ما تبقى لنا لما نريد أن نفعله من خير أو شر» ويستجدون مساعدة الأجنبي ليخلصهم من العرب! وتقول القصة في الأسطر الأخيرة أشياء كثيرة إلا أنه لا يوجد فيها إساءة مباشرة للعربي بل على العكس هو قائد القافلة، ويتمتع بالتفكير السليم وهو الذي يصف بنات آوى بالحمقاوات، وأملها بالمخلص الأوروبي بالأمل السخيف. والعربي حاضر بقوة على هذه الأرض على عكس ما تدعي الصهيونية.

«عين الغيب والحلم بماكوندو»

يروى، أن أبا العلاء وهو يسمع قصيدة المتنبي التي يقول فيها: «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي...» علق قائلاً: «لقد كان يراني بعين الغيب». ويا لعين الغيب هذه، كم هي نافذة البصيرة؟! فبعد ما يقارب الخمسين عاماً، جاء أعمى، وأي أعمى؟! لينظر في أدب المتنبي، وليكتب فيه «معجز أحمد» وهو شرح استثنائي لديوان المتنبي من قبل الحكيم الضرير، رهين المحبسين! تكاد تتكرر الحادثة بشكل آخر، شديد الطرافة، في العصر الحديث، على الشكل التالي: حين نال الكاتب الكولومبي غابرييل غارثيا ماركيز جائزة نوبل، على روايته العظيمة «مائة عام من العزلة» وصلته رسالة من مجهول، ومن بين مئات رسائل التهنئة، استوقفته هذه الرسالة، التي تلمس فيها الدهاء البورخيسي، وأسلوب أستاذه الأعمى بورخيس! ولأن الرسالة بحد ذاتها حدث كبير، يعادل أعظم الجوائز، إذا ما تأكدت شكوك ماركيز! سارع ماركيز، بإرسال الرسالة إلى أكبر أسبوعية أدبية برتغالية، مع طلب التثبت من هوية كاتب الرسالة. نشرت المجلة نص الرسالة، مذيلاً برأي الناقد الأدبي غونساليس، الذي أعلن بشكل قاطع أن بورخيس هو صاحب الرسالة!..

مما جاء في الرسالة: «ذات ليلة صيفية حارة من عام ١٩٣٨ رأيت في الحلم» مائة عام من العزلة «رأيت الرواية بتفاصيلها وجزئياتها، لدرجة أنني أدركت أنه لا يحق لي أن أكتبها، ويجب أن يقوم بذلك إنسان آخر. ولما لم يكن الكاتب القادر على وصف هذا الحلم موجوداً آنذاك، فقد بدأت أصف المواضيع القريبة جداً، وإن كانت صلتها بموديل مائة عام من العزلة، الذي رأيته في الحلم، تقوم على مبدأ النبذ. وهكذا فقد كتبت أقاصيص: «حديقة الدروب المتقاطعة» و«تلون أو كبار» و«موضوع الخائن والبطل» وغيرها، ولكن فكرة ماكوندو ظلت تعذبني».

نذكر، أن «مائة عام من العزلة» نشرت عام ١٩٦٧ ونال ماركيز جائزة نوبل عام ١٩٨٢ ومن المؤكد قرأ هذه الرواية منذ ترجمت إلى العربية آلاف القراء العرب، وقرأها الملايين في العالم، وأثرت في أساليب معظم روائيي العالم!.

وفي الرسالة، التي، باعتقادي، تعد وثيقة أدبية خالدة، نقتطف: «كان على خرافة ماكوندو أن تنفي الزمن التاريخي... ومن شأن بونديا الأخير، وهو يقرأ الرق القديم، أن يبعث بداية الزمن الحاضر» ويقول كاتب الرسالة المتخفي: «حينما سيطرت عليَّ فكرة ماكوندو سيطرة تامة، قررت، رغبة مني في التخلص منها، تكريس نفسي لكتابة مقالة ضد الاستعارة... وقد هنأني الكثيرون على تلك التخمينات، التي أطلقتها على هذا الأسلوب الأدبي، الذي أسميه: «خطأ جمالياً» لكن أحداً لم يعرف، أن ذلك كان مجرد محاولة للابتعاد عن ماكونداي، عن بوينديا‌ي، وهكذا ففي الواقع كان يجب أن تكون جائزة نوبل من نصيبي أنا، ولكن طالما أن الأمور لم تجر على هذا النحو، فذلك أفضل؛ إنك إذ كتبت الرواية، ونلت جائزة عليها، قد حررتني من عبء ثقيل، من ضرورة كتابة رواية عن ماكوندو. ومن يدري، فلعلك قد حلمت منذ سنوات عديدة بأقصوصتي: «إنسان من المقهى الوردي» وقد يكون كل إبداعك محاولة يائسة للهرب من موضوعها... اسمح لي أن أشعر أنني الملهم البعيد لتنقيباتك».

قد نسأل، ما هي الدوافع التي دفعت بورخيس، الأكثر شهرة، لكتابة هذه الرسالة إلى ماركيز بعد نيله الجائزة؟! أهو من مرارة الحسد، أم الإعجاب المكبوت الذي انفجر فجأة، أم هي واحدة من ألاعيب بورخيس الحادة؟! التي قد تذكرنا بـ «عبث الوليد» للمعري. وبين عين الغيب، والحلم بماكوندو، العبقريات تتلاقى، وتتعانق، في نقطة كونية ما، تتخطى الزمان والمكان التاريخيين!.

ضد الزورباوية

أنهيت قراءة رواية «نساء الخيال» لممدوح عزام بشعور الغبطة، لقد أثارت فيَّ بعض التساؤلات، فيما يتعلق بالشخصية الروائية، ومفهوم السرد الروائي. بداية، لا بد من التوضيح أنني هنا لا أكتب نقداً للرواية، فالنقد يحتاج إلى لغة أخرى ومنهج آخر. الشخصية الزورباوية، نسبة إلى رواية زوربا للكاتب اليوناني الكبير نيكوس كازنتزاكيس، رواية نالت شهرة واسعة جداً، وقدمتها السينما فلماً رائعاً، وضع موسيقاه (السمفونية) أو التصويرية الموسيقي اليوناني الشهير تيودوراكس. وكتب الروائي البرازيلي الكبيرجورج أمادو رواية أخرى باسم «زوربا البرازيلي». شخصية زوربا أثرت ببعض الروائيين السوريين، وظهر ذلك في أعمالهم، وأثرت على سلوك بعض الأدباء والمثقفين. من أبرز سمات الشخصية الزوربوية الاحتفاء بالحياة احتفاء دنزيوسياً، يمجد النشوة والرقص والموسيقى، وهي شخصية استلها الكاتب الكبير من الواقع، وهي منسجمة مع التراث اليوناني، وتراث منطقة البحر المتوسط، وغدت شخصية نمطية يقاس عليها أحياناً. تقدم رواية نساء الخيال شخصيات مغايرة لشخصية الزوربا، ولا أعرف إذا كان الروائي قد قصد ذلك، رغم أن في الرواية إشارات توحي بذلك، منها في الصفحة ٢٤: «لم تكن لديّ أي دوافع بطولية» وفي الصفحة ٢٦٥: «لم تكن لديَّ في أي يوم جرأة عاشق، أو شجاعة أزعر، أو همّة شهواني..». الراوي في هذه الرواية كأنه من فصيلة العناكب التي «تجعل أوراق التين تصفر» : «سمعت الموظف الأول يدمدم: «يستأهل الرش

بالمبيدات قبل العناكب!». كائن عنكبوتي إذاً! إنسان منكمش، ضئيل، حتى لو كان يحمل ثقافة عالية تؤهله لأن يتهكم على العالم، وتسوغ له الانفصال عنهم، وأن يقول كل شيء ضدهم، ويزهو فرحاً لأنهم لم يسمعوه! إنه مغاير لزوربا. ولكن، الضد يحمل الكثير من ضده، والضد يظهر حسنه الضد، كما يقال. في عملية التعاكس والتناظر تحدث تشابكات وتقاطعات بين الضدين، فحين يقول الزوربا؛ جوهر وجودي يكمن في إرادتي، في أن أعيش الحياة وأنال ملذاتها حتى عصارتها الأخيرة. يقوم اللازوربوي بهجاء الذات، وتجريح الأنا، والتباهي بالا تضاع! والعزلة، ومراقبة الناس من وراء ظهورهم! يقول أحد شخصيات الرواية: «رواياتك عنا، تخريصات مقلدة تتغذى على النمائم والفساد ونهش الحياة» ص٣٤٦ تشبه الشخصيات اللازوربوية شخصيات دستوفسكي، وكافكا، وبورخيس، وهي قريبة من هذه السلالة الأدبية في بعض الجوانب، من هذه الجوانب الهروب إلى الأرشيف، المخزون السري لعيوب الواقع، فالبشر هنا هم ملفاتهم، وهم كائنات تحت المراقبة! كأن الروائي يقول؛ إن نسيج روايتي من الأرشيف، وليس من الواقع، ونساء روايتي من بنات الخيال، ولسن من لحم ودم! هذه الرواية ليست من روايات النسق الاجتماعي، بل النسق الفني، وشخصياتها العديدة، شخصيات سيكالوجية، ملامحها نلتقطها من الكلمات التي تقولها، أو يقولها عنها الراوي، إنه صوت الأفراد، أفراد عصبة أو «عصابة الكف الأسود». للراوي هنا حرية التنقل من موضوع إلى آخر، ومن زمن إلى آخر! في هذا النوع من السرد يتم فك الارتباط مع التصورات المسبقة ومع اليقين، إنها عملية نزع جلد مستمرة، وإطلاق الذكريات و اللاشعور. إن الشخصيات وهي تستغرق في السرد تكف عن أن تكون واقعية، بل شخصيات لغوية رمزية، شخصيات مجزأة، تتحول إلى ضمائر غائبة ومتكلمة، حتى الراوي الأساسي اسمه« زيدون» لا يظهر الاسم إلا في هامش الصفحة الأخيرة! قوة هذه الرواية وجاذبيتها تكمن في الكلمات، وفي المتاهات الداخلية والسرية لعالم مؤرشف ضمن ملفات سرية! وفي الختام أقول: إن الروايات التي تستحق الاحترام هي التي تثير فينا شهية التفكير.

مفترق المطر

قد يكون من الصعب اليوم على المرء أن يقرأ رواية عربية ٦١٤ صفحة من القطع الكبير دون أن يصاب بالإرهاق والملل! لقد قمت بهذه المجازفة في الأيام القليلة الماضية، وقرأت رواية «مفترق المطر» للأديب يوسف المحمود وهي من منشورات اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٨٣ وكان علي أن أقرأها منذ صدورها، وكنت قد قرأت شهادة نبيلة بهذه الرواية من الروائي الكبير الطيب صالح، إذ اعتبرها الطيب من أهم الروايات العربية، وقال إنه لم يسمع باسم كاتبها من قبل. ما أخرني عن قراءتها أن أحداً يومها قد جافى الحقيقة، وقال لي إن الرواية فيها الكثير من المفردات العامية المقعرة، مما جعلني أنفر منها دون التحقق من ذلك، وسبق لي أن صدمت برواية العراقي فؤاد التكرلي، إذ حاولت فيها أكثر من مرة ولم أتممها بسبب المحكية العراقية، وأنا لا أحبذ طغيان اللهجات المحكية في الأدب. والأمر مختلف تماماً في رواية مفترق المطر، فقد استخدم المحمود بعض المفردات المنسية المفصحة بخبرة عالية، حتى تناسجت اللغة مع المتتاليات السردية وكانت من مكوناتها التي رفعت من فنية هذه الرواية النادرة، وأصر على كلمة النادرة لأنني لا اعتقد أن لهذه الرواية شبيه في الروايات العربية، وهذه الرواية سيكتشفها القراء المحترفون بالمصادفة على الأغلب، لأنها لم تنل، ولن تحظى بالحفاوة الإعلانية التي لا يسعى لها ولا يجيدها كاتبنا المحترم يوسف المحمود، ولمن لا يعرف يوسف المحمود، فهو أديب سوري صدرت مجموعته القصصية الأولى: «المفسدون في الأرض» عام١٩٥٨ ومن أعماله القصصية: «سلامات أيها السعداء» و«حارة النسوان» وله ترجمات أدبية عن اللغة الإنكليزية نشر معظمها منذ السبعينات في مجلة «الآداب الأجنبية» السورية، وعمل طويلاً في الصحافة السورية، بعد أن عاد من التدريس في الجزائر، حتى تقاعد من جريدة الثورة منذ قرابة عقدين أو أكثر. وبالعودة إلى رواية مفترق المطر، تروى هذه الرواية بضمير المتكلم، الذي يصير هو واللغة شيء واحد؛ يسرد ويصف.

السرد والوصف والراوي معاً محور حجر الرحى في هذه الرواية، والمكان في الرواية يضيق ويتسع مع حركة دوران الرحى التي تطحن كل شيء أو مثل حركة النورج التي تصفها الرواية بإسهاب ودقة، إذ «تصير الحياة، كما شعرت بها، مجتمعة في هذا المكان» تقدم الرواية تفاصيل حياة الناس والمكان في قرى جبال الساحل ما بين الحربين العالميتين. تفاصيل ربما لا يحتملها ضيقوا الأنفاس من كاتب مغمور، ولو قرؤوها عند كاتب كولونيالي لاحتفوا بها، كعادتهم، على أنها غاية الغايات في الفن السردي! هذه الرواية تنتمي إلى نفس السلالة التي لرواية جيمس جويس «صورة الفنان في شبابه» هذا النمط السردي يدعى في مصطلحات النقد الأدبي: «السرد الشفهي» يكون بضمير الأنا ويتم فيه استخدام اللغة الدارجة، والأمثال والأشعار الشعبية والمروية، ونكون مع هذا النوع من السرد، وكأننا نستمع إليه ونحن نقرأه! الروائي فيه لا يتفلسف، بل يطلق البصر والبصيرة والذاكرة، وتستبعد العاطفة والانحياز، ولا نلمح فيه هفوة وعظ، وهو نتاج جهد محسوب بدقة وكتابة متأنية قام بها المؤلف على قاعدة الصدق والأصالة. وأهمية هذا النوع من الكتابة انه أدب واقعي لصيق ببيئة الكاتب، ونابع من تجربته وخبرته، واعتقد هذا ما دفع الطيب صالح للإشادة بهذه الرواية! الرواية تتحدث عن كل شيء عن الفقر والكدح والطبيعة والشعر والموت والحياة، والشك واليقين، وحياة الفلاحين ومعتقداتهم وعلاقتهم بالأرض... كل هذا يرد بسخرية غامضة وتهكم شفاف، وأعتقد أن من أجمل متتاليات الرواية، كان في المفصل الذي يتحدث فيه الراوي عن شاعر من مجايليه دون أن يذكر اسمه، وكيف اصطفته الطبيعة من وسط الفقر والحرمان وقلة التعليم لتضع فيه هذه الطاقات، وأظنه يتحدث عن الشاعر حامد حسن! وقد فعل قبله لورنس داريل في «رباعية الاسكندرية» إذ كتب فصولاً بليغة عن شاعر المدينة ويقصد كفافيس دون أن يسميه! إن رواية مفترق المطر تستحق أن تنتصف من الكتاب ومن قراء الروايات العرب، في أن تقرأ بجدية.

هاجس كافكا

فرانز كافكا، صرخة حادة في تاريخ الرواية، توفى عام ١٩٢٤ قبل أن يشهد شهرته لأته لم يكن يجرؤ على نشر قصصه، فنشر أكثرها بعد وفاته، وكانت وصيته إلى صديقه ماكس برود أن يحرق أعماله ولا ينشرها إلا أن برود مضى حاملاً قضية كافكا إلى العالم وله فضل كبير في تعريف العالم على كافكا، فبعد عشرين سنة من وفات كافكا انطلقت شهرته ولا تزال تجوب العالم، ويتناوله كبار النقاد والأدباء بجدية عالية، ويذكر إلى جانب بروست وجويس كأكثر ثلاثة روائيين في القرن العشرين أثاروا جدلاً لم ينته حول الرواية. نواة القص عند كافكا بسيطة، وهو لا يعنى بالإشكالات السردية المعقدة كجويس وبروست، إلا أنه من أكثر كتاب العالم تلغيزاً بمنظومته الرمزية المحيرة، الصعبة التفسير والمتعددة التأويل! وقد انقسم كبار النقاد والكتاب حول أدب كافكا وطبيعة هذا الأدب، هل كانت رواياته دينية، وهل كان كافكا يهودياً في الصميم كما رآه بول كلوديل؟! رغم أن رواياته تخلو من إشارات توراتية أو رموز يهودية صريحة! ورأى البعض أنه لم يكن دينياً بالمطلق، بل أنه ممثل لثقافة عصر الشك واللاأدرية في بعض الأحيان تكون شخصيات كافكا جزءاً من شخصيته، ولعل أكثرها أصالة وتأثيراً تلك التي تشبهه. إنه الكائن الخائف من أبيه ومن العالم الخارجي، كان أبوه قاسياً، وهو تاجر تحف وخردوات يحكى أن أول رواية طبعها، وكان سعيداً بها، ذهب بها إلى أبيه ليقدم له نسخة، وليريه أن ابنه ذو شأن، وكان الأب يلعب الورق مع أصحابه، فنظر إلى الرواية ورماها بوجهه! وقد أثرت هذه الحادثة على كافكا، وأشعرته أن لاقيمة له، وقد ذكر ما يشبه ذلك في رسائله إلى ماكس برود. يرى الشاعر الانكليزي أودن أن أدب كافكا يضعه بمرتبة دانتي وشكسبير وجوته. بالفعل لقد تحمس له نقاد بحدة، وهاجمه نقاد بنفس الحدة! اعتبره البعض إعجازاً سحرياً بوضوحه الأخاذ، ومقدرته على التأثير بالقراء من مختلف المستويات، وعده آخرون ميتافيزيقياً مملاً، وأن أدبه أدب إحباط! شخصيات كافكا لا تنتصر أبداً في أي قضية، وهي دائماً ضحية؛ ضحية وشاية

ما أو ضحية وجودها الإنساني، أو ضحية حدث غامض أو واضح، وهي متهمة ولا تجيد الدفاع عن نفسها، ولديها إحساس أنه يوجد عدل على هذه الأرض، بل تكتفي بوصف ضعفها وانقيادها إلى المصير الذي دبر لها! إنها تدور في متاهة الاتهام الذي لا فرار منه ومن الحكم المبرم فيه! فالفرد الأعزل من يواجه؟ يواجه قوى غامضة، أشبه بمافيا ميتافيزيقية، قوتها مطلقة حيال الفرد، لا يثق كافكا بالديمقراطية، ولا يكرس خلاصاً للإنسان، أو فردوساً موعوداً لا أرضياً ولا سماوياً، هذه كلها خدع بالنسبة له، بل يؤكد رؤية شبنهاور الذي يرى أن العالم كله مستوطنة عقاب، ولكافكا رواية بهذا العنوان. إذن الإنسان محكوم عليه بالعقاب الدائم، لا لأنه ارتكب أثماً، بل لأن إرادة خفية حكمت عليه بذلك! وما عليه، أي الإنسان، إلا أن يتفرج مبهوتاً كحيوان فوق حجره على مصيره مستمتعاً بهذه التجربة! إنها المأساة المبكية والمضحكة كما عبر عن ذلك توماس مان. إن كافكا يضعنا أمام سؤال مرير: ما هو الحقيقي في هذا العالم؟ ولكل منا أن يجيب حسب معتقداته. لعل عبقرية كافكا تكمن في تحويل ضعفه إلى مادة حكائية أخاذة وإلى سرد رشيق، فهو حسب الناقد فيليب زاف: «سيد من أسياد النسق القصصي، أسلوبه دقيق ذو تحفظ ساخر، وهو يجمع في رواياته بين الحقيقي وغير الحقيقي، بين ذاتية المضمون الخالصة وأشكال غاية في الموضوعية، بين صورة صحيحة ودودة عن العالم الخارجي والتحلل الحلمي لهذا العالم.» وبالفعل أطلق الناس على كافكا صفة الكاتب الكابوسي، وإن أي قصة مخيفة أو كابوسية توصف عادة بأنها كافكوية! إن هاجس كافكا هو الخوف والضعف، وهذا ما كرسه في رواياته وقصصه الخالدة، وهذا ما يجذبنا إليه نحن الكائنات الضعيفة والخائفة.

«الأخت كاري»

هذا عنوان رواية ضخمة للكاتب الأمريكي تيودور درايزر(١٨٧١-١٩٤٥) صادرة عن وزارة الثقافة بدمشق ترجمة عيسى سمعان. الأخت كاري،

التي احتلت بطولة رواية من ٧٢٢ صفحة، ليست راهبة أو تنتمي إلى جمعية أخوية، بل هي إنسانة عادية من فقراء الناس، تشبه كل الشابات الفقيرات في هذا العالم، اللواتي يسعين للعمل والكدح من أجل العيش الكريم، ومن الصعب أن يبلغن ذلك في عالم الجشع والتوحش وانعدام الرحمة، إلا أن حسن كاري وخفرها وأنوثتها التلقائية جلبت لها بعض الفوائد وحولتها من متشردة إلى عاملة في مصنع أحذية دون خبرة أو مهارة إلى ممثلة مسرحية وتوسعت دائرة المعجبين بها. واللافت أن هذه الرواية الهامة كتبها روائي فقير الحال، غير متعلم، وغير واثق من نفسه، حتى أن بطلة الرواية تشبهه في جوانب عديدة! وحال الكاتب هذا سمح لأيدي عديدة أن تمتد للتدخل في العمل، بدء من رب عمله إلى زوجته حتى عاملتي الآلة الكاتبة اللتين تبرعتا لصف حروف الرواية تدخلتا وحذفتا وأضافتا! ووضع ناشر انكليزي عنواناً آخر للرواية هو «الجسد والروح» إلا أن الروائي هذه المرة لم يقبل وأصر على العنوان الأصلي! والرواية بحالتها التي هي عليه الآن زيدت ست وثلاثين ألفاً من الكلمات عن النسخة الأصلية التي نشرت لأول مرة عام ١٩٠٠ وهذا أمر غريب للغاية في عالم الكتابة! وتأكيداً على واقعية الرواية صُدِّرت بأسماء: محرري المادة التاريخية، ومحرر النص، والمحرر العام وهذا يشي بأن العشرات ربما كان لهم يد في هذا العمل الأدبي الهام الذي يعد أنموذجاً للروايات الواقعية الطبيعية التي أرساها أميل زولا، وقد كتب عنها ناقد أمريكي: «من المسلي أن يرى المرء تلك اللغة القديمة الفقيرة، تلك الواسطة لإيصال الأفكار المعتدلة، وقد انتبشت أحشاؤها كلية مثل كرة قدم فقدت هواءها، وانتثرت فوق كل الحقول..». ووصفها البعض بانها تحفة فنية، وقال ناقد آخر عن الروائي والرواية: «إنها تحفة لا تخلو من عيب، لكنها تفرض الإعجاب بها. ذلك أنها كتاب كتبه رجل غريب الأطوار، مهزوز، افتقر إلى كل شيء ما عدا العبقرية». وأياً تكن التدخلات التي قبل بها الكاتب، وهذا يعود لشخصيته، فالرواية بالتناغم بين الوصف والسرد والحوار والشخصيات، مؤثرة، وعميقة، وعلامة فارقة كنمط في الواقعية الأمريكية. أبرز معالم الرواية هنا هو دقة

الوصف وواقعيته الشديدة، الصادقة والمشحونة بالحقيقة التي تتجسد أمام الحواس دون أي ارتهان أو اختلاق لميلودراما أو تشويق مفتعل كما يحدث في روايات اليوم! وإذا كانت شخصية كاري هي المحورية في الرواية من أولها حتى نهايتها فإن هذه الرواية رواية مجتمع، تتوفر فيها شخصيات أخرى إلى جانب كاري وتصف حياة طبقات المجتمع الأمريكي في شيكاغو ونيويورك وعالم الرأسمالية، وإضرابات العمال والتقلبات في مصائر الناس المرهونين لمعيار الربح والخسارة، والعمل أو فقدان العمل، كل ذلك يجري وصفه بحياد دون إطلاق أحكام أو إظهار انحياز عاطفي مباشر من الروائي في تعامله مع هذه العينة من الواقع. بل يقوم السرد بتقديم وصف تفصيلي للشخصيات وللمكان وللملامح، ويتقدم الحوار الطبيعي والعادي بملء الفراغات التي قد تقلق القارئ. لقد قدمت الرواية شخصية لا تنسى أبداً ولشدة واقعيتها يخيل لنا أننا نكاد نلمحها في فتيات نعرفهن ويعشن بيننا، وهذا يؤكد قوة الواقع وغناه وأنه المصد ر الأكثر ثراء للسرد الروائي الحديث. وتشبه كاري في عفويتها و فقرها وإذعانها ونجاحها وعبورها لمكائد الطامعين بها وأخيراً دهشتها من كل ما يجري تشبه زرافة أو غزالة تعبر عفو الخاطر من أمام الصيادين! وأخيراً يمكنني القول، من باب المعابثة،إنها رواية، رغم ضخامتها، تصلح لأن تكون وصفة لمواجهة سأم انقطا ع الكهرباء، وأن تقرأ ولو على ضوء الشاحن.

-٦-

حول الشعر

عالم بلا شعراء!..

سألت نفسي منذ أيام، كيف حدث، خلال بضع سنوات، أن خرجت من فرنسا موجة عدمية في الفكر وقوضت منظومات «إنسانوية» كبرى؟! حيث انهارت الوجودية بشقيها الإيماني والإلحادي، وبلمح البصر غابت السارترية وأخلت مواقعها للمفكرين الجدد! ولم تلبث أن تقوضت الماركسية بكل فصائلها وصارت بقايا متناثرة من الماضي، وكذلك الأمر مع علم النفس الفرويدي! ألان الموجة الجديدة كانت قوية جداً وكاسحة لم تصمد أمام حججها تلك القلاع، أم لأن تلك المنظومات كانت نخرة ومتفسخة وتحتاج إلى من يعلن موتها؟! لقد كانت البنيوية صريحة وجريئة حين أعلن كبار دعاتها (موت الإنسان) كفاعل في التاريخ، وجرّوا مفكري العالم إلى جدال طويل ومتشعب. والطريف أن هذه الموجة الجديدة لم تلبث أن تقوضت بالانشقاقات المتتالية، وكأنها لم تخلق إلا لتقوم بدور وظيفي هو إسدال الستار عن إي فكر يعتبر الإنسان محوراً في التاريخ، والوعي الإنساني مركزياً في تغيير العالم، لتحل محلهما «البنية» و«النسق». أي نهاية فصل طويل في الفكر، وبداية فصل جديد يخرج فيه الإنسان من الحلبة أو من البطولة! كان من أبطال هذه الموجة الكاسحة: ليفي شتراوس، ميشيل فوكو، ألتوسير، وبعدهم جاك دريدا ثم موجة مابعد

الحداثة التي غزت أمريكا عبر الجامعات، ربما لتنهي آخر أثر للماركسيين في الجامعات الأمريكية! بينما قاومتها ألمانيا وبريطانيا وكندا. كان لهذه الموجة أثرها الكبير على النقد الأدبي وعلى الفنون ومجالات أخرى في الحياة الثقافية. واعتبرها البعض موجة جديدة من الوضعية، أو المرحلة الرابعة من الوضعية التبريرية ضد التقدمية. والنقاد البنيويون يبحثون عن جذور لهم عند الشكلانيين الروس وعند «فرديناند دي سوسير» ونظريته في الألسنية في مطلع القرن الماضي، وبعضهم يذهب بعيداً إلى الرواقيين الذين ينفون الحركة والتقدم في التاريخ، ويرون أن كل شيء ثابت في مكانه ويعود ويكرر نفسه، وهذا ما يعرف بنظرية: «العود الأبدي» التي تمسك بها نيتشه. رغم رشاقة هذا الفكر وبراعة دعاته إلا أنه ظهر في مرحلة سياسية شهدها العالم في فترة الحرب الباردة، نتجت عن انتقادات خروتشوف لستالين بعد رحيله، والانشقاقات التي نتجت عن ذلك في المعسكر الشيوعي، وأبرزها الخلاف الصيني السوفييتي، ثم التدخل العسكري السوفييتي في المجر وتشيكوسلوفاكيا، ثم هزيمة اليسار بعد ثورة الطلاب في أيار ١٩٦٨ ربما تكون هذه من الأسباب التي أدت إلى بروز مظفر لهذه التيارات الفكرية، ولكنني أعتقد ثمة سبب آخر لا يقل أهمية، قلما ينتبه له النقاد، وهو غياب الشعراء الكبار عن الوجود! إذ بحلول عقد الستينات من القرن الماضي كان قد رحل عن العالم أمثال: أبو لينير، مايكوفسكي، لوركا، إيلوار، بول فاليري، أنطونان أرتو، واندريه بريتون وناظم حكمت وفي مطلع السبعينات رحل نيرودا و سان جون بيرس وأرغون وعدد من الشعراء الأفذاذ الذين كان كل منهم يشكل مركز استقطاب وجذب ثقافي كبير سواء وعوا ذلك أم لم يعوه! ولم يتوفر للعالم شعراء بنفس الوزن يملؤون الفراغ الذي تركه هؤلاء برحيلهم! وحل شعراء النسق الثاني والثالث وليس لها الحضور ذاته، ومعظم هؤلاء رضخوا لموجة الفكر الجديد ولم يواجهوها. عندنا نحن العرب يمكننا أن نتخيل كيف ذوت الحياة الثقافية برحيل شوقي ومطران وجبران وأبوماضي، وأبو شبكة، وكم كانت حياة العرب الثقافية مزدهرة بوجود شعراء عظام كأبي تمام ثم المتنبي الذي طغى على عصره بكل ما فيه من أعلام! خلاصة القول؛ إن وجود

الشعراء الكبار هو ضمانة للإنسانية، وبغيابهم يغيب النقد العظيم، ويختفي الفلاسفة الكبار! والشعراء، كما يقول أحدهم، هم الجسر بين (الهنا والهناك) بين الأرض والسماء. ولا فكر عظيم ليس الشعراء محور إشعاعه.

الشعر الساذج والشعر العاطفي

في رسالة شهيرة أرسلها شيللر إلى صديقه غوته، توقف عندها مطولاً الدكتور عبد الغفار مكاوي في كتابه «البلد البعيد» وعدها من أنبل وأجمل ما عرفه الأدب الإنساني، والشاعران كبيرا الشأن متباينان في المزاج والطبيعة، ويقول الدكتور مكاوي: «كانت تفصل بينهما هوة يصعب عبورها، هي تلك الهوة التي تفصل بين الشاعر الدرامي الخطابي المتحمس، وبين الشاعر الهادئ المتزن الذي يتحدث من القلب إلى القلب» قبل أن يتعارفا كان كل منهما يبطن للآخر مشاعر غير ودية. لكنهما التقيا وتصادقا صداقة خالدة، وقد يلتقي الشتيتان بعدما يظنان أن لا تلاقيا! وقد عبر شيللر في رسالته هذه عن حاجة كل منهما للأخر، إذ يقول: «يبدو من النظرة الأولى، وكأنه ليس هناك تعارض أشد من التعارض الموجود بين العقل التأملي الذي يبدأ من الوحدة، وبين العقل الحدسي الذي يبدأ من التنوع. الأول يبحث عن التجربة، والثاني عن القانون، ولن يعدم العقلان أن يلتقيا في منتصف الطريق». ولم يكن يغيب عن بال شيللر حين كتب رسالته عن الشعر الساذج والشعر العاطفي النمط النموذجي لشعره ولشعر غوته، دون أن يسمي غوته في هذه الرسالة. وهو في هذه الرسالة يميز يبن نموذجين من الشعر يصدران عن نموذجين أساسيين للشعراء، كلا النموذجين ينبع من علاقة محددة تربط الشاعر بالوجود والطبيعة والحياة الإنسانية، كما يقول الدكتور عبد الغفار. يرى شيللر أن الشعراء هم «حفظة الطبيعة» تلك هي رسالتهم، وجوهرهم الأصيل. وواجب الشعر أن يعطي للإنسانية أكمل تعبير ممكن عنها، سواء أكان الشعراء سذجاً أو عاطفيين، وبغير ذلك لا يمكن أن يسموا شعراء على الإطلاق. ذلك هو

واجبهم الطبيعي الذي لا يستطيعون أن يفتعلوه، وهو الذي يعبر عن ضرورة باطنية يحسونها في نفوسهم. هذه ماهية الشعر وجوهره سواء وعى الشاعر ذلك أم لم يعِ. إنه دور عظيم تمنحه الطبيعة للشاعر حتى ولو كان هذا الشاعر خرافياً هزيلاً أو شيطاناً عربيداً، ولهذا لا يجوز إلا في عالم الحمقى أن يُهزأ بالشعراء وينكل بهم، وحكمة الناس العاديين تسجل في وجدانها هذه المكانة الاعتبارية للشعراء الحقيقيين. الشاعر، في رأي شيللر يحمل في ذاته كل الحياة، ولا يستطيع أن يكون شاعراً إلا إذا كان يمثل وحدة القوى والطاقات الإنسانية كلها. وموهبة الشاعر تقوم على الانسجام بين ملكة الخيال وبين العقل، بين المادة وبين الشكل. والشعراء يؤدون هذه الوظيفة الاستثنائية على طريقتين تختلفان باختلاف الطبيعة والفطرة التي تجعل أحدهما شاعراً ساذجاً والآخر شاعراً عاطفياً. والسذاجة هنا ليست أقل عظمة من الوجه الآخر، تعني هنا الفطرة. أما الشاعر العاطفي برأي شيللر فهو الشاعر التأملي، المفكر، الواعي الصانع. الشاعر الساذج يصدر من شعوره الطبيعي، ومقياس الإنسانية الذي يحمله في ذاته كامن فيه لا يفارقه ولا يصل إليه عن طريق التأمل، وكأنه وسيط أو أداة تعبر الطبيعة الخلاقة عن نفسها من خلاله، والطبيعة تملكه ولا يملكها. ولكن الشاعر الساذج، رغم أنه عبقري، لا يبدع أشكالاً نموذجية، وهو لا يعمل وفقاً لمبادئ معروفة، بل طبقاً للمشاعر والأحاسيس التي يضخها الكون في سليقته المتأججة. أما الشاعر العاطفي، يبدع عن وعي بالطبيعة، يحلل ويركب، يصدر عن شجرة المعرفة، وعملية المقارنة الواعية بين الواقع والمثال. والشاعرالعاطفي ليس عبقرياً مثل الشاعر الساذج، بل عليه أن يدق أبواب العبقرية بالفكر والتأمل. غير أن الأمر عند شيللر ليس مجرد تفريق حاد بين نموذجين، بل هو قبل كل شيء أمر تقييم لشاعرية كل منهما تمهيداً لإقامة الجسر الذي يقرب الهوة الفاصلة بينهما، إذ لكل منهما قيمته وأحقيته. وتنطبق نظرية شيللر هذه على كل شعر في أي لغة أو أمة وأعتقد أنها نظرية مناسبة لنا لفهم جانب من شعرنا العربي في كل عصوره، وفيه النمطان: الساذج والعاطفي.

الشعر والفلسفة

في تراثنا الشعري العربي نفور من الفلسفة، وقلة هم الشعراء العرب الذين تفلسفوا، ويمكن أن يعدوا على أصابع اليد، إذا استثنينا الصوفيين منهم! ولعلّ المعري وحده تفرد في هذا المقام! وهو لم يعد نفسه فيلسوفاً ولا حكيماً، بل سمي فيما بعد بشاعر الحكمة، والحكمة والفلسفة شيء واحد في التعريف الكلاسيكي للفلسفة! وسبق لأبي تمام وللمتنبي أن أدخلا في شعرهما مفردات فلسفية، لكن لم يرتق أي منهما إلى مرتبة الفيلسوف، ولست متأكداً أن أياً منهما كان يطمح لنيل هذا اللقب، حسب كل منهما أنه شاعر، ملأ الدنيا وشغل الناس عبر السنين المتلاحقات، واعتقد أن ثقافتنا كانت تعطي الأولوية للشعر، وترتاب بالفلسفة! ولعل من أشهر الكتب وأوسعها انتشاراً حتى الآن كتابي أبي حامد الغزالي:« المنقذ من الضلال» و« تهافت الفلاسفة» وهما لتفنيد الفلسفة والفلاسفة!. والغريب أن الضلال يمكن أن يكون مشتركاً بين الشاعر والفيلسوف! ألم يطلق لقب: «الضليل» على امرئ القيس أقدم الشعراء العرب وأشهرهم، حسب المأثور؟! وسبقنا أفلاطون في ازدراء الشعر، ويرى أنه (الشعر) يفسد أي فضيلة!

رغم هذا التنافر بين الشعر والفلسفة في ثقافتنا، إلا أن ثمة من يرى أن الفعل الفلسفي قريب من الفعل الشعري، وأن الشاعر والفيلسوف كلاهما يتعاملان مع المدهش، ويكاد الشاعر الكبير أن يكون، بالعمق، فيلسوفاً حتى ولو لم يقرأ جملة واحدة في الفلسفة، ويجوز الأمر أيضاً عند الفيلسوف. لقد مجدت الحداثة الأدبية في الغرب الفلسفة، وأوجدت مشتركات بين الأدب بكل أجناسه وبين الفلسفة، لاسيما بين الشعر والفلسفة، وكانت نقطة التلاقي هي في الفضاء الغائم والغامض للميتافيزيقيا! وبهذا الصدد يقول الشاعر الكبير سان جون بيرس: «عندما يهجر الفلاسفة العتبة الميتافيزيقية، يتعين على الشاعر أن يتعهد دور الميتافيزيقي، وفي أوقات كتلك يكون الشعر وليس الفلسفة الابن الحقيقي للدهشة»

ويتحدث هايدجر عن «ينابيع الأبدية» حين يكتب عن الشعر وعن الشاعر هولدرلن، ويرى ان الشاعر يقف كدليل بين البشر وبين السماء، أي إنه جسر بين عالمين. ويرى بول فاليري، وهو من الشعراء الفلسفيين، أن الشعر هو ملحمة العقل ووجدانياته، لكنه يميل على فك الارتباط بين الشعر والفلسفة، بما أن الشعر فن من الفنون، بينما الفلسفة تنتمي إلى نظام آخر من الكلام والجدل. ومن المعروف أن فاليري ينكر على هيجل، وهو صاحب كتاب: «علم الجمال» أن يفقه شيئاً في الفنون! وتلحظ الكاتبة الإسبانية ماريا ثامبرانو أن كلاً من الفلسفة والشعر ينطويان على نقص، فلا نعثر على الإنسان الكامل في الفلسفة، ولا نعثر على كلية الإنسان في الشعر: «في الشعر نعثر مباشرة على الإنسان الملموس والفردي، وفي الفلسفة نجد الإنسان في تاريخه الشمولي». الشعر عصي على التعريف بينما الفلسفة، والاندهاش أصل التفلسف، منهج ورؤيا وشكوك. الشعر يمضي في الغامض والمدهش، والفلسفة يمكن أن تتجول في هذا الحقل إلى حين، أو لبرهة قصيرة، لكن بما أنها حكمة لا تستطيع كما الشعر أن تستقر في الغامض، وإلا تكون تهويمات، كما يريدها اليوم فلاسفة ما بعد الحداثة! وخلافاً لأفلاطون، يرى البعض أن الشاعر قادر على أن يلهم الفيلسوف، والشاعر العظيم وظيفته أن يحدث التوازن في العالم التي يسميها البعض: «العدالة الشعرية». وإذا كان النقاد العرب القدامى قد ميزوا بين شعر الفطرة وشعر الصنعة، فقد كتب شيللر فيما بعد عن الشاعر الساذج والشاعر العاطفي، مبيناً عظمة كلّ منهما ودوره في هذا العالم. فكلاهما الشاعر البسيط والمعقد يخلقان الدهشة عبر الصور والاستعارات والرموز والغموض واللغة المشحونة بالتوترات.

الشعراء

في أيّ ظلام دامس نعيش اليوم؟! حيث ينتشر السفهاء في الفضائيات من كل حدب وصوب، ويتكاثرون مثل بيض النمل! إنها والله لكارثة تلوث حياتنا وتلطخها بالعار! أصبح كل شيء جائزاً في الإعلام العربي، والدنيا كلها فوضى على

ما يبدو! أخطاء وخطايا وإثارة فتن وأكاذيب وبذاءة وثرثرة وتهريج، وكل شيء يعبر عن جهلنا وانحطاطنا! ارتكابات بل جرائم موصوفة ترتكب على الفضائيات بوقاحة و دون أي ندم! الأمم المحترمة، تحترم مبدعيها، وتحتفظ لهم بمكانة تليق بهم، أما عندنا، يصر السفهاء منا أن يثبتوا كل يوم للعالم وللتاريخ أننا أمة لا تحترم هويتها ولا ثقافتها ولا مبدعيها!

لقد أثار فيّ الغضب أن أسمع إعلامياً مهرجاً ثرثاراً يتطاول على الشاعر الكبير أدونيس بأتفه الكلمات، وأن يذهب لينام مرتاح الضمير! أعرف أن لأدونيس خصوماً كثر يتطرفون في العداء له، وتستفزهم أفكاره ووجوده أيضاً! ولعلها ضريبة يدفعها المتميزون في ثقافتنا دائماً وعبر التاريخ! لكن أن يصل الأمر إلى هذا الحد، باعتقادي، يكون اعتداء على الشاعر وعلى الأمة وعلى الثقافة برمتها، ولا أظنني أبالغ فيما أقول. من حق أي إنسان أن يحب أو لا يحب شعر أدونيس أو أي شاعر آخر. لكن، عندما ينال الشاعر هذا اللقب المكتمل(الشاعر) يتحول إلى قيمة ثابتة في وجدان البشر، أينما ذهب في السياسة، وكيفما كانت حياته الشخصية. وليس في ذلك تقديساً ولا تصنيماً. مسيرة أدونيس طويلة في الإبداع، وفي الكفاح داخل الثقافة العربية المعاصرة، حتى صار، عن جدارة، رمزاً من رموز التجديد في هذه الثقافة، ومكانته تجاوزت حدود أمته ليغدو واحداً من شعراء العالم الكبار، وفي النسق الأول دائماً، وقال عنه اكتافيوباث« إنه من أعظم الشعراء في الربع الأخير من القرن العشرين» أليست هذه شهادة عظيمة من شاعر عظيم؟! وأدونيس عندما يقدم رأياً في قضية ما، فهو من أصحاب الرأي في هذه الأمة، مفكر كبير مضى من عمره عقوداً طويلة وهو يكتب ويجادل في قضايا الثقافة والمجتمع، وكانت دائماً آراؤه تؤخذ على محمل الجد، وتثير الجدل على عدة مستويات بين مؤيد ورافض. وبعد، أيصح أن يقال عن أدونيس إنه شويعر؟! ماذا تبقى إذن؟! ويتباهى الإعلامي الوقح بأنه لم يسمع به ولا يعرف اسمه! «والعرب تعرف من أنكرت والعجم». لندع هذا السفيه ينعم بجهالته، فلا يضير أدونيس أن ينكره مثل هؤلاء، ولنخرج من الخاص إلى العام، ولنتحدث عن معنى المبدع ومكانة الشاعر في ثقافات العالم. إن الشاعر المبدع هو

إنسان جمعي، حامل لواء الروح الفاعلة اللاشعورية للإنسانية، والساكب مضامينها في قوالب مبتكرة، كما يرى يونغ. ويرى أيضاً أن العمل الخلاق يترعرع وينضج قي أعماق اللاوعي، وأن العمل الفني العظيم يلامس أعماق أعماقنا، وأن عمل الشاعر، سواء أدرك ذلك أو لم يدرك، مولود في نفسه، وينمو في أعماقه، وإن حاجات الشعب الروحية نجدها تتحقق قي عمل الشاعر الذي يحقق في كلماته الانسجام الكوني، مهما كانت سيرته الشخصية، فهذا أمر ثانوي غير جوهري بالنسبة إلى كونه شاعراً. والحديث هنا عن الشاعر بالمعنى المكتمل، الذي تمنحه الأمة هذه الصفة التي لا يستطيع أحد أن ينتزعها منه مهما غضب عليه أو كره مواقفه. إن الشاعر والفنان المبدع على حد سواء، كائن خرافي، مكانته تسري في وجدان شعبه بشكل غامض ومدهش! وكأنه ابن الكون، أكثر مما هو ابن أمه وأبيه. إنه يمنح العالم نبض الكلمات الساحرات! هكذا كان ينظر إلى الشاعر الكبير في الثقافات الناضجة، ومن جميع الناس حتى الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، واعتقد من الصعب تفسير هذا البعد الميتافيزيقي في العلاقة بين الشاعر والعالم. حتى لو كان الشاعر فقيراً معدماً أو مريضاً أو مجنوناً أو أعمى، أو عدوانياً أو شرهاً أو زاهداً، كله لا يهم، فهو الشاعر الذي اصطفته الطبيعة ليكون رسول الحضارة ومهندس الأرواح البشرية، والجسر القديم والمتجدد بين الهنا والهناك. هكذا نظر الإغريق إلى هوميروس، والروس إلى بوشكين، والألمان إلى غوته، والأسبان إلى لوركا ونيرودا! أما نحن العرب، أمة الشعراء، كنا دائماً نختلف حول شعرائنا ونبحث لهم عن الهفوات والسقطات لنحكم عليهم بالموت أو باللعنة!

الموسيقى

قد يعتقد البعض، خاطئاً، إن الكتابة عن الموسيقى اليوم هي نوع من الترف، زائد عن اللزوم! وأرى في هذا الاعتقاد كلّ السلبية والسطحية في فهم معنى الموسيقى. إن الحاجة للموسيقى تزداد كلما ازدادت الآلام، فهي تشفي وتغسل القلوب. الموسيقى أعمق من كل الفنون، وتأثيرها كبير على الناس، حتى

ولو لم يعبروا عن ذلك، ولو لم تتوفر لهم إمكانية سماع الموسيقى في الصالات أو في الحجرات الواسعة، فهي موجودة داخل كل إنسان بشكل غامض يصعب تفسيره! وليست الموسيقى مجرد تعبير عن رقي أو مقياس حضاري، حسب، بل هي أيضاً حاجة للذات وتعبير ملح عن الذات. والموسيقى موجودة في الطبيعة، في الجماد وفي الحيوات، في الشجر والحجر والطير وصوت الريح وفي الأجساد البشرية جميعها، ساكنة أو متحركة، هذا ما سمعته مرة من أمير البزق محمد عبد الكريم. الموسيقي الملهم هو من يكتشف ثم يبدع من ينابيع هذا الاكتشاف. والموسيقى تحقق الانسجام الداخلي للفرد وللجموع، وهي مقياس للانحطاط وللسمو، وتعبير عن قانون عظيم ينتظم فيه الإحساس بالعدل والحب والسلام! ومن الكلمات المعبرة، أسوق ما قاله الأستاذ الكبير سمير الحاج شاهين في كتابه الفريد (روح الموسيقى): «الموسيقى هي دائماً علاقة بين ذاكرة ونسيان، بين حسرة ورغبة، بين حنين وأمل، بين تملك وانتظار، وواسطة العقد بين ما انتهى وما لم يبدأ بعد». ويستشهد شاهين بما قاله أرسطوكسين: «إن فهم الموسيقى يخضع لشرطين: الالتقاط والذكرى. يجب أن نلتقط ما هو في حالة الصيرورة؛ يجب أن نتذكر ما مضى». ويرى شاهين أن عودة اللحن ليس مجرد تكرار شكلي، لكنها جوهر الذكرى، تأمل الماضي بخشوع، وهي أيضاً انتظار حصل على بغيته، سعادة ان نحصل مرة أخرى على هذا الصوت الذي أسفنا على فقدانه، وأن نفهمه ونحبه أكثر. كم ينطبق هذا على صوت فيروز؟! وهذا ما يقودني للحديث عن الغبطة التي انتابتني، وجعلت عينيَّ تدمعان وأنا أشاهد وأستمع للسهرة الموسيقية الرائعة على شاشة قناة «سما» السورية ليلة الأربعاء ١٢/٢٦ /٢٠١٢ لجوقة الفرح الدمشقية التي تعد مفخرة وطنية، أسسها ويديرها الأب والمفكر المحترم إلياس زحلاوي، أطال الله في عمره. كانت السهرة بعنوان: «فيروزيات وسع السما» بقيادة المايسترو السيدة الفاضلة رجاء الأمير شلبي، قدمت بانوراما شاملة (غناء، مسرح، اسكتشات، سهرات..) لتراث المغنية العظيمة فيروز، وإحياء لذكرى ما مضى من أمجاد الرحابنة، وملحنين آخرين من سورية

ولبنان، منهم: زكي ناصيف، فيلمون وهبي، محمد محسن، وتألقت الفرقة كلها في الأداء، وكانت السيدة رجاء كائناً يفيض بالموسيقى، كأي موسيقار عظيم، ذكرتني بقول أحد الحكماء: «وحده الموسيقار حقاً ذاك الذي يستطيع أن يرتفع من الموسيقى الحسية إلى الموسيقى فوق الحسية والقابلة للإدراك» وهذا بالفعل ما استطاعت أن تقدمه المايسترو رجاء، ولا بد من التنويه بالأداء الرائع للفنان اللبناني جوزيف عازار. وبالعودة إلى السيدة في فوضى النظام الدولي.

فيروز، نجمة هذه السهرة الدمشقية، الغائبة والحاضرة بأطيافها السحرية، والتي تقصر الكلمات عن الإحاطة بمقامها، وبهذه المناسبة، أقول: كثيراً ما راودني حلم طفولي، كنت ولا أزال أتمنى أن يتحقق، ويلح علي في هذه الأوقات قبل وبعد أن شاهدت هذه السهرة، وهو أن تطلق أغاني فيروز، عبر أجهزة صوت مناسبة، في ربوع البلاد كلها، بسهولها وجبالها ووديانها، وأن يسمعها كل الناس والكائنات. هذا الصوت الذي تسمو فيه الكلمة واللحن والأداء بشكل لا نظير له، أعتقد أن الجمال فيه يلامس الكمال المطلق! وكم أتمنى، عندما نخرج من البلاء الذي حلّ بنا، أن نحيي الشهداء ونستقبل الأبطال بهذا الصوت الذي يتوحد مع الموسيقى! ولتعيننا الموسيقى على مواجهة كل الفظائع التي لحقت بنا من جراء العدوان الفاجر علينا، وكم هو نبيل وعميق وعريق وجدير بالحياة، هذا الشعب الذي رغم آلامه لا يزال قادراً على إنتاج موسيقى عظيمة؟!

الصورة والمعنى

بداية، ليس الحديث هنا عن الصورة الأدبية، بل عن استخدام الصورة البصرية في عصر الميديا، مثل استخدام صورة «تشي غيفارا» كدعاية إعلانية وكإيقونة. وتكون مناسبة للحديث عن هذا الرمز الذي تتعلق به أجيال الشباب حتى في هذه الأيام التي تبتعد قيمها كثيراً عن روح هذا الثائر الأممي الذي جعله كفاحه المتنقل، ومقتله، أسطورة من أساطير العصر الحديث تزداد بهاء مع الزمن!

من باب التداعي، أذكر في مطلع السبعينات أنني كنت سمعت باسم غيفارا، وخبر مصرعه الذي تم في بوليفيا عام ١٩٦٧وقتها لم أكن أعرف عنه أكثر مما قد تلتقطه أسماع صبي من أفواه الآخرين أو من الراديو، بعد مرور حوالي بضع سنوات كنت أمضي في طريق وعر بين الأشواك اليابسة، وقع نظري على ورقة مكتوبة بخط حسن، مددت يدي والتقطت الورقة، رحت أقرأها بفضول ثم برغبة، كانت قصيدة تتحدث عن موت غيفارا، قصيدة سهلة وإيقاعية مثل أغنية، وعرفت فيما بعد أنها قصيدة الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم، ربما سمعها أحدهم من الراديو ونقلها على دفتره ثم رماها للريح التي ساقتها إلي، ولا تغيب عني هذه الحادثة، تستحضرها الذاكرة كلما رأيت صورة هذا الرجل الحافلة بالمعاني والدلالات. من المؤكد أن تشي لم يكن فوضوياً أو مغامراً أو هاوي شهرة، كما صورته الدعاية الأمريكية وقدمته في السينما، كان رجل أفكار، يتحدث عنه بابلو نيرودا في مذكراته بأنه قارئ شعر ويهتم بالرياضيات، وهو طبيب، وعنه قال الفيلسوف الفرنسي سارتر بعد أن التقى به مع سيمون دو بوفوار: «إنه أكثر الرجال كمالاً في عصره». الإنسان الجديد، الحر، الممتلئ بالإنسانية هو الأفق الذي عمل من أجله غيفارا، وهو القائل عن الثوري بأنه قديس وبأن الثورة محبة. ملأ الرجل عصره بجدارة، لا كرجل سياسة أو كمسؤول في حكومة الثورة الكوبية، ورفيق لكاسترو وحسب، بل كرجل فكر له أفكاره ونظرته المستقلة عن الأحزاب الشيوعية، وله جاذبيته، حتى عند كبار المثقفين في عصره، كقائد ثوري يدعو إلى تحرير الوضع الإنساني من قيوده التي تكبل طاقاته. يقال، عندما زار الجزائر في عهد صديقه أحمد بن بيلا ، هب إلى هناك المئات من الشبان والشابات الأوروبيين ليروه عن قرب أو يصافحوه، والبعض طلبوا أن يوقع لهم على أكفهم أو أجسادهم قال لهم بحياء: «أنا لست نجماً من نجوم السينما». بعد مصرع غيفارا بسنوات قامت شركات تجارية عالمية باستخدام صورته كدعاية لمنتجاتها، ك: المشروبات الكحولية، والسيجار، وبعض الملابس. وإن كان اختيار هذه الشخصية يبعث على الارتياح للوهلة الأولى، إلا أن فيه الكثير من العدوانية وانتهاك للمعنى من جهات لم يكن غيفارا يكن لها أي ود! واليوم بعد مرور ما يقارب الخمسين عاماً لا

تزال الشركات تستخدم هذه الإيقونة كإعلان تجاري لترويج منتجاتها، وتلقى رواجاً واستجابة عند الشباب، ونلمح،عندنا وفي أماكن عديدة من العالم، هذا الوله الشبابي بصور غيفارا، وبعضهم لا يعرف إلا القليل عن الشخص الذي يحملون صورته على صدورهم، أحياناً لا تتعدى معرفة اسمه! هل هذا الإغواء عفوي أم مقصود يهدف إلى تفريغ الشخصية من مضمونها، أم الهدف هو استثمار للصورة لترويج البضاعة أم استثمار للرمز؟! ورغم أن وجه غيفارا معبر وجميل إلا أن له صوراً يبدو فيها شاحباً وقد هده مرض الربو. فيلسوف مابعد الحداثة بودريار يرى أن الصور التي تقدمها الميديا، يتم فيها خلق هويات جديدة، تصبح واقعاً جديداً يتجاوز الأصل. ومن المؤكد لا يزعجنا أن نرى صور غيفارا على رايات الشباب وعلى صدورهم، ويبعث فينا هذا نبضات الأحلام المخنوقة في نهايات القرن الماضي، والأمل أن يبقى الرمز في العقل وفي الوجدان.

البحث عن الروح المبدع

يحدث أحياناً، أن نقرأ قصيدة تهزنا من الأعماق، أن نرى لوحة تخطف أبصارنا، وتنبه حواسنا، يحدث أن ننتشي طرباً، ويعمُّ فينا فرح للحظات أو لساعات.. ما هذا السر؟! ما هذا الدافع الغامض الذي يرعشنا ويمنحنا هذا الفرح العظيم؟! فرح ينشلنا من حمأة الواقع، يجعلنا نشعر بالعظمة وبالامتلاء وبالسمو؟! إنه ما يسمونه: «الروح المبدع »قد مسنا أو أصابنا، واخترق بسهمه الناري بلادة حياتنا. نجد الروح المبدع، في كل الفنون: في الشعر، في الموسيقى، في الرقص، في القصة، وفي الرواية، والديكور، وهندسة الحدائق، وفي تشكيلات الطبيعة.

نجد الروح المبدع، في قصائد الشعر العربي، في بعض نصوص الصوفيين، نجده في قصائد بدوي الجبل، وسعيد عقل، وأدونيس، ومحمود درويش، في أغاني فيروز، وعبد الوهاب، وأم كلثوم..وفي موسيقى محمد عبد الكريم، وربيع مطر، وجهاد عقل، وفي قصص زكريا تامر. نجده في الروايات

العظيمة: ديستوفسكي، بروست، جويس، كافكا، جورج أمادو، ماركيز.. وللأسف، نفتقده في الروايات العربية! نجده في الرقص الذي هو دعوة إلى الفرح والحرية، وانبثاق للطاقات الجسدية.

هذا الروح المبدع الذي تحدث عنه نيتشه، وهو يستمع إلى موسيقى فاكنر: «الروح الدنذيوسي» عاشه نيتشه في حدوده القصوى، وموجود في كتاباته، وفي حنينه إلى العدم. تحدث عنه لوركا، بحماس شديد في محاضرة ألقاها في كل من هافانا وبيونس آيرس، وكانت بعنوان: «مقالة في الروح المبدع وعمله» يقول: «ليس لنا من خارطة ولا من نظام، عن الروح المبدع، كل ما يعرفه الإنسان عنه، أنه يحرق الدم مثل زجاج مطحون، يهب إحساساً بالنضرة جديداً كل الجدة، كوردة تخلق حديثاً، كمعجزة!..» يقول أيضاً: «عند العرب، في موسيقاهم أو رقصهم أو غنائهم، يحيا تجلي الروح المبدع بصيحات تهتف: الله، الله» ألا يذكرنا هذا بانفعال الجمهور وهو يستمع إلى كوكب الشرق (أم كلثوم)؟

الروح المبدع، هو الدم الحار للفن، ومن دونه اليباس والبرودة. الفن زهرة الحياة، والتفتح الأكمل لكل ما هو موجود، حسب شبنهور. الفن هو الذي يضرب فينا فساد الحياة. الروح المبدع في الفن، هو الذي جعل لينين، ذو البصيرة الحاذقة، يصرخ: «يا لسحر الفن!.. إنه أعظم فرح يمنحه الإنسان لنفسه».

هذا الروح المبدع، عندما فقده رامبو، تحول إلى نخاس وضيع! وعندما يفتقده أي فنان، أو شاعر، أو سارد، يتحول إلى مهني، بأحسن الأحوال، أو يتحول إلى ثرثار..

الروح المبدع، هو الذي يجعلنا نسمع دقات قلب الإرادة الكونية، يجعلنا نحس أن خيولاً من ريح، تسكن فينا وفي الكلمات، وهو الذي جعل المتنبي، يقول: «على قلق كأن الريح تحتي..».

لكن، أين هو هذا الروح المبدع اليوم؟!

يا للخسران!..إننا نفتقدك أيها الروح المبدع، ونحن نقرأ هذا الكم الهائل من الكتابات الباردة، المتحذلقة، المبتذلة!.. كتابات بلا طعم ولا لون ولا رائحة،

كتابات مجتها النفوس الحرة، رغم كل ما تردف به من ترويج زائف، وجوائز ملتبسة! أين هي الجياد الأصيلة؟! إنهم يقتلونها، أليس كذلك؟! حتى لكأننا أمة كتابها وفنانيها يهذون ويهزرون! ما يجعلنا نقول مع حكيمنا الأعمى:

« أرى هذياناً طال من كل أمة يضمنها إيجازها وشروحها»

وليس بعد كلام المعري من ختام.

نحن وشعرنا القديم

في زيارة لصديق من محافظة حمص، وبعد الحديث في الشجون وتداعيات الأحداث، وجدت نفسي أخوض جدلاً مع ابنتي صديقي الشابتين المتفوقتين في الدراسة والموسيقى، وكنت أحاول جاهداً أن أقنعهنَّ مع أبيهما بجماليات الشعر القديم وإمكانية التواصل معه وتذوقه إذا ما تخلينا عن الوهم السائد في أوساط الشباب وغير الشباب، باستحالة ذلك. ولا أعرف إذا ما استطعت أن أترك أثراً إيجابياً لصالح هذا الشعر الذي أحبه وأحاول دائماً أن أتذوقه وأفهمه، وأنا في هذه المرحلة من العمر بت متحمساً جداً لهذا الشعر وهذا نابع من حبي للشعر في مطلق الأزمنة والأمكنة. والحقيقة ليست المرة الأولى التي أخوض فيها جدلاً حماسياً حول الموضوع ذاته، بل خضت مثل هذا مع أصدقاء من الشعراء الجدد لهم موقف ساخر ورافض للتواصل مع هذا الشعر وبعضهم لا يعرفون منه إلا ما نالوه على مقاعد الدراسة، ومن بيننا من يتدرّع بالشعارات الراديكالية الثقافية، ويدعو للقطيعة مع هذا الشعر! وهذا أمر مؤسف وأعتقد أنه نزق غير مبرر وغير ناضج ثقافياً. لكن من أين يتأتى هذا الموقف الاغترابي من شعرنا؟! قد يكون لذلك أسباب عديدة تتعلق بعلاقتنا بالزمن وانقسامنا في فهم هذه العلاقة بين رجعيين وتقدميين، وانسحاب ذلك على الذائقة وعلى فهم اللغة، وإشكالية اللغة الفصحى واللغة المحكية، والعلاقة بالتراث..إلخ وهذه أمور متشابكة ولم تحل وربما لن تحل في المدى القريب! إلا أن نصيباً كبيراً من المسؤولية يقع على

عاتق الأساتذة الأكاديميين وواضعي مناهج الدراسة، الذين رغم جهودهم ومحاولاتهم الطيبة، أخفقوا في خلق التواصل الدائم مع إبداعنا القديم، وربما جعلوا بطرقهم غير الموفقة الأمر أكثر وعورة! وربما كان لآراء الدكتور طه حسين الاستعلائية حول الشعر «الجاهلي» دور سلبي جعل معظم الدارسين لهذا الشعر يدورون في حلقة الرد عليه والدفاع المستميت عن شعرهم الذي هو جزء أساسي من هويتهم الوطنية والقومية، ونسوا في غمرة ذلك إبراز الجماليات الموجودة في هذا الشعر، وتسهيل إيصالها إلى الأجيال! فشعرنا القديم ليس مجرد تاريخ لحياة العرب في البوادي والحواضر وتسجيل لحروبهم وترحلهم وحسب، وليس مجرد مدح وهجاء ووصف للناقة وفخر ورثاء ونسيب وتشبب بفتيات القبيلة، ولا يتوقف الأمر في ما يخوض فيه النقاد القدماء حول هيكل القصيدة وعمود الشعر العربي وشرف المعنى ودقته.. بل الأمر يتعدى ذلك إلى أن هذا الشعر فيه كل معاني الشعر وجمالياته، ففيه: الموسيقى والسبك والتصوير والخيال الحر والبعد القصصي والدرامي، وفيه الحسية والفرح والحزن والحب والكراهية وفيه الموقف من الوجود، مثله مثل كل إبداع في تاريخ الأمم، بالإضافة إلى أنه شعرنا الذي تجلت فيه قوة لغتنا على التعبير الجمالي.. وبعد، هل نفرط بكل هذا الشعر الذي هو كنزنا الدائم؟! أما قضية الألفاظ الوحشية أو الغريبة التي يتذرع بها رافضو هذا الشعر جملة وتفصيلاً، فهذه يمكن حلها، ولم تكن عائقاً عند الأمم الأخرى في الحفاظ على مكانة شعرهم والتواصل معه، فلغة شكسبير ودانتي ليستا لغة الانكليز والإيطاليين اليوم، فما بالك بلغة هوميروس وفرجيل وأوفيد التي يتواصل معها العالم بقوة لم توهن أبداً وهاهي تتجدد بالسينما والأعمال الدرامية؟! ليس صعباً التواصل مع شعرنا القديم، لو أردنا، وإن احتاج الأمر أحياناً إلى الاستعانة بالمعجم أو بالأستاذ المختص، والمطلوب هو التخلي عن الوهم السائد بأن هذا الشعر يستحيل التواصل معه، وحين ننخرط بإيجابية في قراءة شعرنا سنكتشف أن معظم الألفاظ التي يصعب علينا إدراكها هي أسماء لأمكنة أو مسميات لأشياء قد يكون من الممتع معرفة مسمياتها وحل لغزها. ولمن يبحث في شعر العالم عن قصائد الحب سيجد في شعرنا

أجمل ما قيل في الحب وبعذوبة وسلاسة وصدق، وسيدرك الجاحدون عن قصد أو غير قصد أن لا مبرر لكل هذا الاغتراب، وتذوق الفنون القديمة والحديثة يتجاوز بالتأكيد الابتذال السطحي في تصنيف الناس بين تقدميين ورجعيين.

المعنى المنفي فوق التل

إن كنت تبغي المعنى، أو تصطاد فراشاته، فاذهب إلى التل، وإذا لم تجده هناك، تربح هذا الصعود، والخروج من قيعان الوادي! هذا الشعر المرح «معنى على التل» لصقر عليشي، يستدرجنا للصعود. في رحلة الصعود مع الشعر، نتخفف من أحمالنا، من المفاتيح التي لا تناسب الأقفال ولم يعد لها لزوم، وما من باب ليفتح بها وما من يقين، مجرد من الأشياء، إلا من «أناك »الفرحة، المتخففة، من الذات الخائبة والمتعالية أيضاً التي قررت أن تعبر نحو التل متخففة من محمولاتها، أتريد مفتاحاً للمعنى؟ إذن، يقول لك الشاعر: «خذ المفتاح وادخل في الضباب/ وعبَّ من الغموض على حسابي/ وحتى لو عثرت على جواب/ فلا تأبه/ وعفه هناك/ وارجع خفيفاً/ ليس عندك من جواب».

الصورة الشعرية الأنيقة، وموسيقى الكلمات، واللفظ والمعنى، وكل المكونات الجمالية للشعر هي تحصيل حاصل في شعر صقر عليشي، وتمسكه بهذه المقومات الشعرية، بلا تفريط نابع من الروح الكلاسيكية الحساسة جداً حيال بهاء الشعر وصفائه وعذوبته. وديوانه هذا «معنى على التل» غير منقطع عن خطه الشعري الصاعد بإصرار نحو أعلى التل، جهراً وفي وضح النهار. والبحث في جماليات القصيدة عند صقر، هو أمر مغر، وربما يحتاج إلى زمان ومكان آخر. وما أنوي الإشارة إليه بعد الانطباع الأولي عند قراءة هذا الشعر، هو البهجة لهذه السلاسة ولهذا الوضوح المشرق، والعناق مع الضوء، والحركة تحت شمس لا تغيب، ما يشبه حركة السهم المنطلق نحو الضوء إذ لا ليل، لا عتمة، لا ظلام، لا غيم، ولا حتى سحابة صيف تعكر صفاء هذا الضوء! الليل متروك لشعراء العتمة. هنا التوهج حيث لا خطيئة ولا ندم، لا مكبوتات، لا أسرار بل لذة الحياة

بصراحتها بوضوحها الجلي، حيث الإنسان يهزأ، يسخر، يضحك، يحب، يندهش، يفعل ذلك في الضوء في السطوع الدائم لنهار الشعر، رغم أن الشاعر لا يتفلسف، ولا يراود أفكار الفلاسفة، ولا يجعل شعره رجع صدى لمقولاتهم. بل يراود الضوء أو يتجول في الضوء، ولا شيء أفضل من ذلك ولينتج عن هذا التجوال، ما ينتج: أطياف أو موشورات ضوئية، شهب ومذنبات. لكن، هذا ليس هدف بحد ذاته، ولنُذكّر بالمعنى فوق التل، والدعوة للصعود دون ضمانات بالعثور على أي صيد!

في شعر صقر عموماً كما في هذا الديوان، لا يعبر الشعر عن قلق الوجود ولا عن عبثيته، وكل المفردات الوجودية التي تتلبس الكثير من الشعراء، حتى ممن يدعون خلو شعرهم من المعنى، يقعون في المطب الفلسفي وتبعية الشعر للأفكار أو أن يكون صدى للمقولات العميقة! هنا الشعر يمرق هازئاً من هذه المعمعة، بما يشبه الانبثاق، والشمس هنا ساطعة لا تغرب، وإذا ما استنكر أحد خشية أن يقف الزمن، فالشعر هنا أيضاً لا يكترث بفلسفة الزمن، لا بالحركة ولا بالثبات الفيزيائيين، فللشعر زمنه المرح، في هذا الزمن المرح الذي تبثه القصائد تكون الدنيا في حالة استيقاظ، ونشاط يدب في الكائنات كما يدب في اللغة، أليست اللغة كينونة أخرى، على حد قول أحدهم؟ أنشط الكائنات في شعر صقر: الثور، ثم الجدي أو الماعز الجبلي، والغزال، والإنسان الذي تسكنه كل هذه الأشياء على رأس هذه اللائحة الإيروسية وهي عفوية تنبض في شعر صقر، أما البغل فهو رمز للبطء، وهذه «ثيمات» ربما يعثر عليها القارئ دون أن يتقصدها الشاعر! وهذه حالات أجمل ما تكون في الشعر حين لا يختارها الشعراء بإرادتهم، وكأنها هبة تمنحها لهم الطبيعة لأنهم شعراء حقيقيون! هنا لا يوجد تجهم، بل أسارير منبسطة، وحافز حيوي على المضي مع الضوء، وهذه الحالة النهارية الطاغية، تجعل القصيدة تحتمل أن يقال فيها كل شيء، وعن كل شيء مما قد يقوله اليوميون، والعشاق والهازئون، في الشوارع والأقبية وفي القرى، وفي حافلات الركاب، أو أن تتكلم الأشياء الصماء: الدائرة، الإبرة، البصلة، النبيذ، المرآة، الغيمة، والسر، وهذه عناوين قصائد في الكتاب، وهي كلها مجتمعة تنويعات في

إيقاع «القصيدة العالية» في مقطع من هذه القصيدة، يقول: «ليس قليلاً ما سرت على الطرقات/ وليس قليلاً ما جاب فضائي/ من غيم وحنين/ دون معين/ أرسي أعمدة الآمال/ وأعلي قوس البهجة/ دون معين».

هذا السير على الطرقات المتعرجة صعوداً، مثل مسير الصيادين، ربما، وبلا أي يقين، يمكن العثور على هذا الساطع فوق التل، أهو المعنى أم هدهد الحكاية؟ :« حتى لو كان الصيد غزالاً/ أو طيراً/ أو أرنباً/ أو حتى نجماً، لنقل هذا جدلاً، هذا ليس مهماً../ من قال بأنا نبحث عما صاد الصياد؟». هذا التشابك المموسق المبني على التساؤل واللايقين، والتهكم على ما هو مكتمل ويقيني، والتقاطع بين المتباعد من الأشياء، والمفارقات التي تومض في لغة القصائد القصيرة والطويلة نسبياً كضربة فنان حاذق في دوحة الشعر، يجعل الحضور الشعري المتفرد لصقر يزداد رسوخاً: «سترى هنا الآفاق تنشر حيرة/ وترى السراب أمام خيمته/ وراء المنحنى../ أما اليقين/ فما تدلت خصيتان له هنا».

الصوت الأفريقي في الشعر العربي

أراد الفيتوري في مرحلة ما أن يكون صوت القارة الأفريقية في الشعر العربي، وكان هذا طموحاً مشروعاً إلى أبعد حد، فهو أولاً أفريقي من السودان وهو عربي يكتب بلغة العرب، وربما كان يطمح إلى ماهو أبعد من ذلك أن يزاحم شعراء القارة الأفريقية، من أمثال: سنغور، وداؤود ديوب، وإيمي سيزير وغيرهم في أن يكون المعبر عن هذا الصوت الأفريقي. ولو تحقق له هذا الطموح كاملاً لكان له وجود كبير على خارطة الشعر الإنساني في القرن المنصرم، وإن لم يبلغ كل ما طمح إليه لأسباب عديدة منها وجود شعراء أفارقة كبار آخرين صدحوا مثله بصوت أفريقيا لكن تميزوا عنه أنهم، بالإضافة إلى مكانتهم الشعرية، كتبوا مباشرة بلغة المستعمرين، ووصلت صرختهم الحارة مباشرة إلى أسماع هؤلاء ممن أرادوا أن يسمعوا أنين الآخر وصوت عذاباته، أو ليروا أنفسهم في المرآةالأفريقية. وإذ لم يحالف الفيتوري النجاح في هذا الجانب، فقد نجح في الجانب الآخر، من

جهتنا، في أن يصل إلينا نحن العرب على أنه الصوت المنفرد للأفارقة في الشعر العربي بلا أي منازع، ولم يتصد أحد من الشعراء العرب لهذا الدور غيره، رغم تحدر عدد كبير منهم من القارة الأفريقية، فهو صاحب «أغاني إلى إفريقيا» و«اذكريني يا أفريقيا» و«عاشق من أفريقيا» وظل الفيتوري محتفظاً في وجداننا بهذه المكانة حتى رحيله أو ربما بعد رحيله. وهذا بحد ذاته على المستوى الشخصي إنجاز كبير يحسب للشاعر. الفيتوري في أذهاننا شاعر الصوت الغنائي، أو الصرخة المأساوية، أو البكائيات التي نسمعها بحنين وبحرقة عند كل فاجعة تلم في الأمة، وهو مثله مثل شعراء جيله العرب الرومانتيكيين الثوريين، هو شاعر موقف، وشاعر مصير في سياق مرحلة متألقة من الشعر العربي الحديث، ولهذا يؤخذ شعره بشموليته وبمجمله وبسياقه التاريخي على أنه شاعر مخضرم بين الكلاسيكية والتجديد، وظل طوال حياته يحافظ على هذه المكانة بين الطرفين، وفي شعره حضور لهذين الملمحين المتناقضين، ولكن هويته الغالبة كشاعر هي هوية حداثة، ومضامين شعره مضامين حداثة، فهو داعية حرية وتمرد وتحرر وطني واجتماعي. خرج الفيتوري إلى العالم العربي، تنقل وعاش في أمصاره شرقاً وغرباً ووسطاً: الاسكندرية والقاهرة، وبيروت وتونس وطرابلس الغرب وأخيراً في المغرب العربي، وكان حاضراً بقوة في الحياة الثقافية العربية، فاعلاً فيها ويحيا في خضمها منذ خمسينات القرن الماضي، وانطباعي الشخصي عنه من خلال شعره ومن خلال لقاءاته التلفزيونية، أنه ليس شاعر عزلة، بل تواصلي حميم ومرح رغم الألم والحزن، وهو منبري، وله حضور آثر في نفوس مشاهديه من محبي الشعراء. أذكر أنني سمعته مرة يروي بطريقة آسرة في حوار تلفزيوني عن لقائه بالسيدة أم كلثوم في منزلها، بصحبة أنور السادات، نائب الرئيس آنذاك، حاملاً، بطلب من السادات، قصيدة له لتغنيها،عندما قرأتها الست، تبرمت من جديتهاأو بعض تجهمها وطلبت منه أن «ينغنشها شويه »أي يخفف من ثقل دم القصيدة، لكنه لم يفعل رغم تأكيد السادات على ذلك.

أما وقد رحل الشاعر الكبير في هذه الأيام التي يزدحم فيها الموت ويجرف في طريقه الكبير والصغير، ورحيل أي شاعر هي خسارة فادحة! كان من حق الفيتوري قبل رحيله أن يقول باعتداد أو بألم: أشهد أنني قد عشت زمني بالحلم والأمل، وشاهدت الكثير من الزيف والهزائم والخيبات، ولأنني شاعر أزف وقت رحيلي ألوح لكم مودعاً بقصيدتي الأخيرة:« وأنت على صخور الموت تزدهر».

الماغوط بين شعرية الفطرة وقوة التجربة!

منذ ظهرَ الديوان الأول للشاعر محمد الماغوط: «حزن في ضوء القمر» عام ١٩٥٩، ثم ديوانه الثاني: «غرفة بملايين الجدران» ١٩٦٠، و«الفرح ليس مهنتي» عام ١٩٧٠، كان الماغوط قد رسخ بقوة أسلوباً شعرياً جديداً من حيث الشكل والمضمون.. لقد كتب الماغوط المسرحية، والزاوية الصحفية، وكتب للسينما وللتلفزيون كما كتب رواية «الأرجوحة» إلا أنه في كل كتاباته ظلّ الشاعر الذي لا يمكن النظر إليه إلا من جهة الشعر!..

لم يكن شعره أنيقاً ولا متأنّقاً، بل كان شعراً غاضباً، شرساً، معفّراً بالحزن والقساوة ومغمساً بماء الحياة الآسنة والعذبة، لقد صور الماغوط نفسه في شعره مرّة كطفل متشرد جريح أو كفأر مذعور، ومرّة كوحش قادم من بيداء موحشة أو من خرائب لا وجود فيها سوى للعواء ونداءات الضواري. شعر الماغوط مليء بالمفارقات والمتناقضات سواء على مستوى الصورة الشعرية، الذهنية أو السيكولوجية للشاعر. ولكن الصورة الآخاذة التي تستهويه دائماً هي صورة البدوي أو الهمجي غير المتحضر الذي يهزأ بالمتحضرين أو الفلاح الساذج البريء القادم إلى عالم المتمدنين بارتباك حيناً وبصلافة حيناً آخر... وبين هذا وذاك برزت صورة المتسكّع على الأرصفة والعابر أمام واجهات المحلات والمقاهي وكأنه وباء يهدد بلادة الأثرياء والميسورين، فكان هجائياً، متهكماً، نافراً:

«نزرع في الهجير ويأكلون في الظل

أسنانهم بيضاء كالأرز
وأسناننا موحشة كالغابات
صدورهم ناعمة كالحرير
وصدورنا غبراء كساحات الإعدام
ومع ذلك فنحن ملوك العالم..
بيوتهم مغمورة بأوراق الخريف
في جيوبهم عناوين الخونة واللصوص
وفي جيوبنا عناوين الرعد والأنهار».

الأعمال الكاملة – الفرح ليس مهنتي – قصيدة الظل والهجير – ص٢٦٣.

ظهرَ الماغوط في الفترة التي ظهر فيها شعراء جيل الغضب في الولايات المتحدة في الخمسينات والستينات، وذلك دون أن يعرفهم، وكان صوته يشبه صوتهم، إذ الغضب والصفاقة والرفض، والدعوة إلى البراءة والتطهر في الأرياف وبين أحضان الطبيعة البكر، أو الثورة على الزيف والنفاق، كلها توجهات الشعر الأساسية عندهم، وكذلك كان الماغوط. ومن جهة أخرى كان الشعراء العرب يخوضون جدلاً حول الشعر، حول ماهيته ووظيفته، ويتحاورون حول المذاهب أو الاتجاهات الأدبية التي كانت تصطخب في تلك الفترة على مستوى العالم، والشعر العربي الحديث يشقّ طريقه وتتنازعه تيارات واتجاهات شتى، لكن رغم تعددها كانت متقاربة بشكل أو بآخر لاسيما في نشدان شكل جديد للشعر، يعبر عن التوق إلى معانقة الحداثة العالمية والانخراط فيها «ورفع مستوى الذهنية العربية إلى مستوى الحداثة العالمية» على حد قول يوسف الخال، آنذاك، وهو مؤسس تيار مجلة «شعر».

وإذا كان الرواد آنذاك قد نجحوا في وضع العربة على السكة بعد أن خاضوا معارك جدلية حول دور الشعر ووظيفته الجمالية والاجتماعية، ظلت الخلافات تنمو فيما بينهم على شكل انقسامات داخل تيار الحداثة نفسه، عبرت

عنه كل من مجلة «شعر» ومجلة «الآداب» البيروتية. وداخل كلا التيارين أيضاً برزت الخلافات والانشقاقات والتنقلات المتبادلة من موقع إلى آخر..

وكل هذا أثرى الحياة الأدبية وأضفى عليها حيوية لم نشهد مثلها فيما بعد!.. في هذا الجو الحيوي ظهر الماغوط كصوت متميز وتمَّ الترحيب به على تميزه وقد عدّه شعراء مجلة «شعر». بمثابة اكتشاف وقوة جديدة تضاف إلى قوتهم في مواجهة التيار الوجودي والقومي الذي كانت تحتضنه مجلة «الآداب»، ومن اللافت أن الماغوط لم يشارك في هذا الجدل النظري حول الشعر، وربما لم يكن يمتلك الأدوات ولا الإمكانيات الثقافية التي تؤهله لذلك، ولهذا آثر أن يجعل شعره هو المعبر عن طريقته الخاصة في الكتابة، ولأنه شاعر مبدع بحق، فقد كان شعره على بساطته، مولداً للأفكار، ومبشراً بنوع جديد من الشعر، أي أنه فتح أفقاً جديداً لما يسمى «قصيدة النثر». وكان نموذجياً في هذا المجال.

خرج الماغوط من معطف مجلة شعر – إذا جاز القول – وكان بالإمكان أن يظهر من تحت المعطف الآخر (الآداب) لو شاءت الظروف ذلك. فالماغوط لم يكن تابعاً لتيار، ولم يكن معنياً بالنظريات الأدبية أو إيديالوجيا الأدب حتى في كتابة الشعر، وما وجوده بين هؤلاء الشعراء المثقفين أو النخبويين سوى ضرب من المصادفة.. كما كان دخوله إلى الحزب القومي السوري هو أيضاً ضرب من المصادفة، لأن مقر هذا الحزب في السلمية كان قريباً من بيته ويوجد فيه «صوبا» على حد قوله. إذاً ترك الماغوط للمصادفة والقدر أن يقودا خطاه على المستوى الشخصي والأدبيّ.. وبناء على ذلك تحددت حياته ورسم مصيره الشخصي والإبداعي، وصار إلى ما صار إليه، شاعراً كبيراً، وشخصيته لوحقت وسجنت في فترة ما ونالت من الشهرة ما يفوق التصوّر، فيا لعبقرية المصادفات!!..

المهم أن الماغوط وجد نفسه مصادفة وسط جماعة أو تيار يجمع أصواتاً شامخة التقت على أهداف عامة وتباينت مواقفها في بعض التفاصيل والتوجهات، وما لبث هذا التيار أن تعرض للانقسام والتشظي بسبب تراكم الخلافات بين مكوناته أو بسبب الاختلاف حول العلاقة مع التراث الشعري العربي، فكان أدونيس أول من

خرج على جماعة شعر واختط لنفسه طريقاً خاصاً ومغايراً ومؤثراً وأكثر التصاقاً بالشعرية العربية المنفتحة على العالم. وجسّد أدونيس في التنظير وفي الإبداع الشعري الاتجاه التواصلي الجدلي في الحداثة العربية في مواجهة الحداثة الراديكالية التي دعت إلى القطيعة مع التراث ونحت نحو التطلع المنبهر بالنماذج الغربية. وقد رحبت مجلة الآداب بخروج أدونيس إلا أن أدونيس شكّل تياراً ثالثاً وأسس مجلة «مواقف» التي التفّ حولها عدد غير قليل من الشعراء الجدد.

ورغم دور أدونيس في تقديم الماغوط واكتشافه، فإن الماغوط لم يذهب إلى حيث ذهب أدونيس، وقد يكون وجد نفسه أقرب إلى تيار «الخال» وأنسي الحاج، وشوقي أبي شقرا، وبالمصادفة أيضاً، إلا أنه لم يظهر تأييده لهم بقوة، وهم الذين أخذوه على محمل الجد أكثر مما أخذ نفسه!.. فقد نأى عن هذه التيارات النخبوية التي لا يحتملها، وظل صوتاً نافراً وشريداً وحافظ على براءته الشعرية المميزة والتي ميّزته عن الجميع، ومن المؤكد أن ذلك لم يتم وفق مخطط مرسوم من قبل الماغوط، بل لعلَّ فطرته أو سجيته الطليقة تحصّنت بآلية دفاع لا شعورية وحمت نفسها من التمذهب الأدبي أو الانضواء تحت سقف جماعة أدبية!..

وكأنه لم يكن معنياً بما يجري هناك في خلوات الشعر وفي مجادلات الشعراء التي وصلت إلى كل الآذان، إلا الماغوط فقد أصمَّ عنها وابتعد!.. فالشعر عنده يأتي من مكان آخر أقرب مما يتصورون!.. إنه من الذات ومن التجربة في الحياة، وليس من النظريات والمقولات المستعربة ولا من التأمّل البارد في التاريخ وفي ملامح الحضارات القديمة. فلم يهتم الماغوط بالأسطورة مثل غيره من الشعراء آنذاك، ولم يسعَ لأن يكون شاعر رؤية وصاحب نبوءة، ولم تجذبه أسطورة الانبعاث التموزية التي كاد ألا ينجو منها شاعر في زمنه. اقترن شعر الماغوط بالحزن الذي يجوب في أعماقه، الحزن المتوارث:

«يا نظرات الحزن الطويلة

يا بقع الدم الصغيرة أفيقي

إنني أراك هنا

على البيارق المنكّسة

وفي ثنيات الثياب الحريرية..»

الأعمال الكاملة. حزن في ضوء القمر. ص١٨.

وكثيراً ما يردد الماغوط، قائلاً: «أنا حزين»، و«يا أيها الحزن.. يا سيفي الطويل المجعَّد».. الحزن يوازي الهواء الذي يتنفسه، فحزنه كثيف وجمالي وإيقاعي، ولا يقلُّ مَوسَقَةً عن الإيقاعات والتفاعيل عند غيره من الشعراء. ومن نافل القول أن الموسيقا الشعرية الداخلية في شعر الماغوط النثري أكثر حيوية وتنوعاً وتناغماً حتى من الشعر الموزون، ومن رتابة التفعيلة عند بعض الشعراء الذين جايلوه أو أتوا بعده!..

ولعلَّ هذا ما جعل شعره يحتل مكانة مميزة في شعر النثر الذي لم يكن هو أول من كتبه، كما يعتقد البعض، فلقد سبقه إليه كثيرون، ولكنه كان أول من رسخه!..

لقد كان الماغوط حداثياً بالفطرة، دون ثقافة مستعارة أو مرجعية فلسفية بحث عنها الآخرون واستعانوا بها، وكان خارج تصنيف «فرانز فانون» عن المثقف المستعمر، فلم يُحاكِ الغرب، ولم يتمرد على الغرب، ولم تكن عنده عقدة تجاه هذا الغرب، ولم يتشبث بفلكلوريته كنوع من ردّة الفعل كما عند شعراء «الزنوجة» في أفريقيا، ولم يسعَ للتطهر، بل على العكس، إلى المزيد من الانغماس في التجربة وفي الحياة التحتية أو ملاصقاً للهموم العامة، وقد كان بارعاً في المزاوجة ربما عن غير قصد بين ما هو خاص وما هو عام، بين ذاته وبين الآخرين، ولأنه لم يكن في واقع الأمر إلا واحد من الآخرين، ولم ينظر يوماً إلى نفسه باعتباره أستاذاً يمتلك المعرفة والوعي وعليه أن يعلم الآخرين، لا بل إن شعر الماغوط من الناحية الأخلاقية يتسم بالسلبية، وهذا ليس عيباً في الإبداع.

إذاً مرجعية الماغوط أولاً وأخيراً هي ذاته المتمرسة بالتجربة والمعاناة والنابعة أيضاً من غريزته الفطرية ومن إحساسه المباشر بالأشياء وبالعالم فليس للماغوط أبوة شعرية وهو خارج العقدة الأوديبية شعرياً على الأقل!..

ولهذا كلّه ينطبق عليه وصف الشاعر الألماني «فريدريش شيللر» حين تحدث عن الشاعر الساذج والشاعر العاطفي – وبما أن كلمة ساذج في لغتنا تعني البلاهة والعتة وتثير الحساسية، سنضع بدلاً عنها صفة (العفوي) أو (الشاعر العفوي) وشيللر يعني بها شاعر الفطرة الذي لا يبدع أشكالاً نموذجية.

ويقول شيللر: «واجب الشاعر (الفطري) أن يصور المضمون الكامل للإنسانية في الواقع.. إنه يحسُّ ويشعر، ولا نقول يعي ويدرك، إنه يصدر في ذلك عن إحساس غريزي ساذج وفطري..» ويرى شيللر أن هذا الشاعر «الفطري» هو نموذج العبقري لأنّه لا يعمل طبقاً لمبادئ معروفة، بل طبقاً للخواطر والمشاعر. ويقابله عند شيللر الشاعر العاطفي الذي يبدع من وعي بالطبيعة الحقّة، ويكون واعياً بالزمن وبالمسافة التي تفصل بين الواقع والمثال.. بين قوانين العقل وتحققها في الطبيعة. بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون.. والشاعر العاطفي يستمد أحكامه من شجرة المعرفة. ويؤكد شيللر أنه لا يوجد شاعر فطري بالمطلق كما لا يوجد شاعر عاطفي بالمطلق أيضاً. وفي هذه النسبية بين الطرفين يمكن أن نضع الماغوط الأقرب إلى الشاعر (العفوي) بالمعنى العبقري للعفوية.

شعر الماغوط شعر حسي، للحواس حضور كبير فيه، وهو شعر شبقي أيضاً، اللذة والألم والجسد والحياة أو الحيوات تتوجد عنده بوفرة، وكل هذا يأتي دون تخطيط أو دراية مسبقة، بل عفو الخاطر، أي شعر «إيروسي» ضد الموات واليباس. وهو دون أن يعي، جامع تيارات ومذاهب في شعره حيث تختلط عنده الرمزية بالواقعية بالرومانتيكية، بالحسيّة الحداثوية وما بعد الحداثوية، ولا يمكن أن يكون الماغوط واعياً لكل ذلك أو متقصداً له.. وما هذا الاختلاط إلا دليل على عفويته وعشوائيته، فلو كان مبرمجاً لكان عمد إلى تنقيح قصائده من هذه الأخلاط المتباينة واكتفى بجانب واحد منها وأقصى الباقي، لكن عبقريته الجارفة

والفطرية هي التي جرفت كل هذه التيارات من على السطح وأدرجتها تحت جناحيها وهي تتأهل للتحليق!..

وشعر الماغوط على عفويته يشكل حالة استقطاب جمالية، إذ تصب فيه ملامح عدة مدارس أدبية دون أن يكون للماغوط دخل في ذلك!.. ورغم ذلك فإن شعره خارج التصنيفات ولا يمكن أن يصنّف لصالح مدرسة ما، فهو لا يطيق التصنيف، إنه شعر وحسب فيه سوريالية، وواقعية، وفنتازيا... شعر بلا أوزان دون أن يفرط بالإيقاع الداخلي الذي ينشأ هنا من التوتر المتصادم مع الاستخدام العفوي للّغة. والنثر الشعري عند الماغوط يحقق مستواه الأعلى ويتجاوز شعريته ليغدو غنائياً ممسوقاً لا بل ملحمياً أو شبه ملحمي، وذلك لكثافة الذات فيه واللافت في الأمر أن الذات عند الماغوط لا تتجاوز حدودها ولا تستسلم للنرجسية، بل تقدم بوصفها ذات صغيرة، خائفة، مذعورة، ومهددة...

كما هي ذوات الآخرين أو عموم الآخرين في واقعنا، ذات تحلم وحلمها لم يتحقق وربما لن يتحقق، إنها ذات مدحورة ومأساوية، خسرت كل شيء وتعرف أنها خسرت كل شيء، فلا مجال عنده للأمل ولا للتفاؤل الرخو، فشعر الماغوط لا يحتمل هذه الفجوات، ولذلك وصفناه بالسلبية.. وربما هذه السوداوية قريبة من القراء وجعلتهم يتعاطفون مع هذه الذات التي تشبههم، خلافاً لما هو عند شعراء آخرين تتضخم عندهم الأنا بشكل متفرد مبالغ فيه، وحياتهم يصورونها حافلة بالانتصارات الوهمية!..

لم يطق الماغوط في حياته حذلقات النقاد وقد عبّر عن ذلك في كتاباته وحواراته ولم يكن مهتماً بما يقولونه عنه، ولعلَّ هذا ما يفسر ابتعاد النقاد عن شعره فإضافة لكونه شعر غير قابل للتصنيف، فهو أيضاً خارج دائرة نظرية التأثر والتأثير عند «هارولد بلوم» وخارج حسابات النقد الأسطوري عند «نورثروب فراي» فالقصيدة الماغوطية تنطلق من درجة الصفر، من حيث تنسى منجزات الشعر وتنبثق من ينابيع الذات القابعة في (الآن وهنا) ولا تتحدر من ذاكرة الشعر البعيدة

أو القريبة. شعر مصدره الأنا أو الذات لكل ما يعتلج فيها من أشواق وصبوات. الذات المتمردة المنفصلة والمتصلة مع ذوات الآخرين، الذات التي تصطخب فيها الشبقية والغضب المكبوت والمعلن، والفزع والرغبة في الانتقام. حتى وإن كان الماغوط أحياناً ينساق وراء ذاته وهي تتقنع بالأنا الجمعي، فشعر الماغوط شعر الصوت الواحد، وشعر اللحظة الآنية، حيث يكون صداه في مكانه، في حدود المساحة التي يحدثها وقع الصوت الذي يكاد لا يتجاوز مساحة غرفة أو صراخ على عتبة بيت يتكوّن من بضعة حجرات أو عدة جدران، وقد يبدو هذا الكلام فيه تضييق لفسحة الشعر اللامحدودة أو ما يسمونه فضاء الشعر!..

لكن أن يكون لك هذا الحيّز في الكينونة الشعرية الذي منحته الطبيعة للشاعر المبدع محمد الماغوط.. ولو أن لكل شاعر عربي هذه المساحة أو انتزع مثل هذه المساحة التي تبدو ضيقة، لكان لنا مكانة شاسعة وواسعة في خارطة الشعر الكوني!..

شعر الماغوط دائماً يقرّب المسافة بين ذاته وبين العالم، بين الداخل والخارج. في شعره الصادر عن فطريته المتخاصمة مع الميتافيزيقيا، إذ لا نلمح تجويفات أو فجوات ميتافيزيقية في شعره، لا يسترسل ولا يستسلم للغموض والتعمية ولا يلجأ إلى الأقنعة إلا ما هو شفاف منها لاسيما تلك التي تحيكها الذات جمالياً لنفسها!.. وهذا قليل في شعر الماغوط على كل حال.

إن شعره قائم على شبكة فوضوية من الصور الحسية شديدة الصراحة والنافرة والغريبة، والتي يجمعها جامع شعري مكون من لغة مموسقة مشحونة بالتهكّم والسخرية والهجاء والحزن، ومن الإكثار من المخاطبة واستخدام أدوات النداء الصريحة والمستترة.. لغة تذهب في شتى الاتجاهات في السياسة كما في الحب، هذا الجامع الذي يكوّن النص الماغوطي، يلم كل هذه المكونات الصغرى والكبرى، ليكون الصياغة الجمالية العفوية لقصيدة الماغوط.

والماغوط من الناحية الوجودية، لا يحاور الموت ولا يقلقه الوجود أو التساؤل حول الكيفية التي انوجد عليها الوجود، أو لماذا انوجد أو وجد!.. كلها مسائل لا تعنيه ولا يريد أن يتأمل فيها، وهي مواضيع كما هو معلوم، كانت في

عصره ذات جاذبية اختطفت معظم الأدباء والشعراء غيره، لاسيما الذين ينزعون إلى استحضار مواضيع عالمية شغلت الذهنية الغربية، ومن باب المحاكاة والتقليد!..

توجهات الماغوط كانت أبسط من ذلك، والأصح أن نقول أعمق من ذلك، لأنها كانت أكثر تأثيراً وحميمية ووقعاً على النفس. وتلك المواضيع المختلفة ذهبت أدراج الرياح، بينما مواضيع الماغوط الحميمية والبسيطة لا تزال تفعل فعلها وهي باقية فينا كقراء للشعر!.. فشعر الماغوط يمسّنا دوماً ويؤثر فينا ليس لأننا من المحرومين والمعذبين والبائسين الذين يتحدث عنهم في شعره، بل لأنها تشكل لنا مرآة تعكس ذواتنا المجرحة وبلا أقنعة، ولأنها عائمة على بحر من الصور المبتكرة، البكر التي لم نعتد عليها في الشعر قبله، ومن هذا التوتر المشدود الأوتار والذي لم يتراخَ مع مرور الزمن، وهذه أيضاً من ملامح عبقرية هذا الشاعر!..

في ديوانه الأول: «حزن في ضوء القمر» تغلِب الرومانسية كل ما عداها، حيث الحلم والحنين للطفولة والرغبة في عناق الطبيعة أو العودة إلى البدائية، وهي حالات ظلّت تلاحق الماغوط في كل ما كتب لاحقاً وإن كانت بشكل أخفّ وأقل، وفي الديوان أيضاً يعلو الصوت الاحتجاجي الصارخ ضد القهر والحرمان، وفيه يستعطف ويستجدي وهو يخاطب أباه أو حبيبته ليلى، يقول:

«بع أقراط أختي الصغيرة

وارسل لي نقوداً يا أبي

لأشتري محبرة

وفتاة ألهث في حضنها كالطفل

* * *

فأنا أسهر كثيراً يا أبي

أنا لا أنام

حياتي سواد وعبودية وانتظار

فاعطني طفولتي

وضحكاتي القديمة على شجرة الكرز

وصندلي المعلق في عريشة العنب

لأعطيك دموعي وحبيبتي وأشعاري

لأسافر يا أبي».

حزن في ضوء القمر – الأعمال الكالمة – ص٣٥.

وفي هذا الديوان الذي يتحدث فيه الماغوط عن طفولته الشريدة والجريحة وحنينه إلى البيت الذي غادره، ويصور الماغوط حزنه الطويل والأبدي، ويربط هذا الحزن المعتق بأشعاره حتى النهاية، بعد أن غادرته البهجة إلى الأبد على أرض الوطن لاسيما بعد أن تعرض لتجربة السجن في الخمسينات، يقول:

«بيتنا الذي كان يقطن على صفحة النهر

ومن سقفه المتداعي

يخطر الأصيل والزنبق الأحمر

هجرته يا ليلى

تركت طفولتي القصيرة

تذبل في الطرقات الخاوية

كسحابة من الورد والغبار

غداً يتساقط الشتاء في قلبي

وتقفز المتنزهات من الأسمال والضفائر الذهبية

وأجهش ببكاء حزين على وسادتي

وأنا أراقب البهجة الحبيبة

تغادر أشعاري إلى الأبد».

الأعمال الكاملة – حزن في ضوء القمر – ص٣٧.

وفي قصيدة «القتل» الطويلة من ديوانه «حزن في ضوء القمر» التي يتحدث فيها عن سجنه، وهي من أطول قصائده، يسرد الماغوط بطريقة اللاوعي حالته في السجن، وهي قصيدة ذات إيقاعات متوترة مشدودة، تتوزعها حالتا الطلب والنداء اللذان يتقاطعان مع الوصف لكي تتم سردية القصيدة وحكائيتها، وكأنها تروى على مسرح شعري يرويها ممثل واحد من خلف ستارة أو من داخل قفص:

«ضع قدمك الحجرية على قلبي يا سيدي

الجريمة تضرب باب القفص

والخوف يصدح كالكروان

ها هي عربة الطاغية تدفعها الرياح

وها نحن نتقدم

كالسيف الذي يخترق الجمجمة».

الأعمال الكاملة – حزن في ضوء القمر – ص٨١

وكمثال على استخدام النداء، يقول:

«أيها الجراد المتناسل على رخام القصور والكنائس

أيتها السهول المنحدرة كمؤخرة الفرس

المأساة تنحني كالراهبة»

الأعمال الكاملة – حزن في ضوء القمر – قصيدة «القتل» – ص٨٢.

ويمكننا أن نلحظ في المقطع السابق غرابة الصور وفرادتها، واستخدامه كاف التشبيه في آخر المقطع..

وهكذا تمضي قصيدة «القتل» الزاخرة بالصور بين السرد والوصف، وتظهر فيها ملامح وجوه وشخصيات تعبر في أجواء القصيدة وفي أفقها البعيد أحياناً؛ صورة السجان وتصوير السجن والسجناء ومخاطبة ليلى الغائبة، يخاطبها الماغوط كما في معظم قصائد المجموعة، وهنا في هذه القصيدة بالمزيد من الحرقة والخوف والعتاب:

«اعطني فمك الصغير يا ليلى

اعطني الحلمة والمدية، إننا نجثو

نتحدث عن أشياء تافهة

وأخرى عظيمة كالسلاسل التي تصرُّ وراء الأبواب

موصدة.. موصدة هذه الأبواب الخضراء

المنتعشة بالقذارة

مكروهة صلدة

من غمامات الشوق الناحبة أمامها

نتثاءب ونتقيأ وننظر كالدجاج إلى الأفق

لقد ماتَ الحنان

وذابت الشفقة من بؤبؤ الوحش الإنساني

* * *

أه ما أتعسني!.. إلى الجحيم أيها الوطن الساكن في قلبي

منذ أجيال لم أرَ زهرة».

قصيدة القتل – الأعمال الكاملة – ص٨٨.

وفي ديوانه الثاني: «غرفة بملايين الجدران» إذ تتصاعد فردية الماغوط ومماحكته، وننتقل فيه من حالة الحزن إلى حالة الغضب والرفض، ويمتزج ذلك بالعدمية واللاانتماء والإصرار على هذا اللاانتماء إلى درجة نفيه أو تأكيده لتثبيت

نقيضه، فهو تعبير لاشعوري عن الانتماء، ونلاحظ فيه أيضاً نشدان السفر والتوق إلى الحرية في التحلل من الحب، ومن الالتزام وبالإصرار على المشاكسة والمناكفة:

«أريد أن أغني وأهاجر

أن أنهب وآكل وأثور

هذا من حقي

لقد ولدت حرّاً كالآخرين

بأصابع كاملة وأضلاع كاملة

ولكنني لن أموت

دون أن أغرق العالم بدموعي، وأقذف السفن بقدمي كالحصى».

الأعمال الكاملة – غرفة بملايين الجدران – ص٢١٧.

الماغوط يصر على أنه الكائن الضعيف الصغير الذي يشبه كائنات «فرانز كافكا» المذعورة أو المدحورة، إنه أي الماغوط في شعره بطل اللابطولة أو المهزوم المحطّم، العائد من هزيمته متعباً ومزهواً في آن.. ورغم الصور العنيفة واللغة القاسية التي تسود شعره، فإن صورة الإنسان الخائف الضعيف تأتي كنقيض لهذه القسوة:

«آن الأوان

لتمزيق شيء ما

للإبحار عنوة تحت مطر حزين

لا كمغامر تلفّه سيول من الحقائب والأزهار

بل كفأر خسيس

كفأر دامع العينين

يستيقظ مذعوراً

كلما ناحت إحدى البواخر

وتألّقت مصابيحها

كعيون الضباع المبللة».

الأعمال الكاملة – غرفة بملايين الجدران – قصيدة منزل قرب البحر – ص١٣٠.

ويصل الغضب والرفض بالماغوط حدود العدمية الوطنية! فالماغوط الذي أدمن حبَّ الوطن يريد أن يهاجر، أن يترك كل شيء خلفه، ولكنه يجد أن السفر هو مجرد تطلّع أو حلم أو تَمَنٍّ أو تهديد، أو ممارسة في المكان حيث هو جالس على كرسي في المقهى يحلم بالسفر، ويسافر إلى معظم عواصم العالم ويضاجع أميرات ونساء شهيرات، إنها الدراما الماغوطية الشهية والمثيرة غير القابلة للتحقق، لأن الماغوط في حقيقة الأمر قوي الانتماء، وهو على عكس ما تقوله قصائده، ربما لا يحب السفر، ولكنه يسند ظهره على المفارقات المأساوية الأشد غرابة، ويخلخل الركود والتكرار بالمزيد من الانفعالات المؤثرة، يقول الماغوط:

« يا أرصفة أوروبا الرائعة

أيتها الحجارة الممددة منذ آلاف السنين

تحت المعاطف ورؤوس المظلات

أما من وكر صغير

لبدوي من الشرق

يحمل تاريخه فوق ظهره كالحطاب»

الأعمال الكاملة . غرفة بملايين الجدران . ص١٣١.

وفي مكان آخر يقول:

«لا شيء يربطني بهذه الأرض سوى الحذاء

لا شيء يربطني بهذه المروج سوى النسيم

الذي تنشقته «صدفة» فيما مضى

لكن من يلمس زهرة فيها

يلمس قلبي..».

الأعمال الكاملة – غرفة بملايين الجدران – ص١٥٣.

الحكائية في شعر الماغوط بسيطة، غير معقدة، كما أن السرد الشعري عنده بسيط أيضاً، وبما أنه يدور حول هذه الحكائية البسيطة المؤلفة من ثلاثة مواضيع أساسية هي: (الخبز والمرأة والحرية)، وإن ثورة الماغوط كلها تبدو وكأنها تدور حول هذه الحقائق الثلاث. فالمرأة عنده حبيبة ومشتهاة، وقريبة وعاهرة وأم وسبية، ولكنها ومع كل هذه المتناثرات حاضرة في شعره وهي غاية من غاياته وتكاد أحياناً تتطابق مع الوطن ومع دمشق التي يخاطبها أحياناً بالحبيبة ويشتمها أحياناً أخرى!.. وعن الجوع، فكثيراً ما يقول الماغوط وبصراحة صارخة:

«أنا جائع يا أبي، وأريد امرأة...»

يقول:

«أنا مغرم بالكسل

بعدة نساء على فراش واحد»

الأعمال الكاملة ـ حزن في ضوء القمر ـ ص٩٦.

هذا النهم الصريح، والغريزة الفاغرة عند الماغوط هي بمثابة الغول الجائع في شعر الماغوط ويريد إشباعاً وإلا فإن كل شيء سيكون مهدداً، وفي مكان آخر يرى الماغوط أن الحرمان ضروري لكتابة الشعر، ونداء الغريزة من روافد الإبداع الشعري عنده!..

وهو لا يتناول ثالوث (الجنس والخبز والحرية) باعتباره مطلقاً أو حاملاً لمعانٍ كلية أو رمزية، بل بالمعنى الدقيق والواقعي لهذا الثالوث. فالحرية التي يتكلم عنها الماغوط هي في أن يكون هو حراً في أن يقول ما يشاء وأن يتمرد ويثور في الشارع أو يعود عارياً إلى قريته بعد أن يفرغوا الشوارع من المارة، وذلك دون أن يسجن..

الحرية في أن ينال حقه من النساء والخبز والتبغ والتسكع والكسل.. وبناء على ذلك فإن ثورة الماغوط فردية وليست جماهيرية أو طبقية وليست نابعة عن وعي ثوري بالتغيير نحو الأفضل:

«سأجعل الهموم تتراكم على شفتي
كما يتراكم الجليد على أفواه المغارات الأثرية
أترك غبار المكانس والقطارات
يملأ أذني
وألتف حول قصائدي كالذيل
لا أريد أن أسمع شيئاً
لا المطر ولا الموسيقى
لا صوت الضحية ولا صوت الجلاد
لن أسمع إلا طقطقة القصائد في جيوبي
وارتطام الحقائب على ظهري من مكان إلى مكان»

الأعمال الكاملة . غرفة بملايين الجدران . ص١١٠.

ولنقرأ أيضاً هذه الصرخة الوحشية:

«كل امرأة في الطريق هي لي
كل نهد وكل سرير
هو لي.. لعائلتي لرفاقي الجائعين
طالما لنا شفاه وأصابع كالآخرين
ودماء فواره كالآخرين
يجب أن نأكل ونحب ونهجر
ونقذف فضلات الأثداء خلف ظهورنا».

الأعمال الكاملة . غرفة بملايين الجدران . ص٢١٨.

هذه الروح الرامبوية والبودليرية معاً، الرافضة المتمردة عند الماغوط والتي قلَّ أن نجد مثيلاً لها في شعرنا المعاصر، بهذا الزخم، تجعله يرى المدينة بمثابة ذئبة تفترس الناس، ويرى الريف مكاناً للعذوبة والطهر ومنبعاً للشعر والبراءة..

والماغوط يصر على تصوير نفسه في هذه المدينة بمثابة بدوي متنقل أو هندي أحمر على وشك الانقراض، ينشد الهرب أو الغربة والسفر والترحال، إذ لا ملاذ إلا بالهرب أو العودة إلى الرحم، إلى الطبيعة.. ولكنه ليس البدوي الأبله في المدينة، بل البدوي الشاعر القوي الذي يمتلك الصراخ وقول الشعر، الغاضب أو الفلاح الذي لا يبالي بما تدعيه المدينة الزائفة، الفلاح الماكر الذي جعله الألم والفقر والحرمان خبيراً وداهية.. هذه الصورة للفلاح التي يتقمصها الماغوط راسخة في ذهنه ونلمحها في أكثر من قصيدة:

«طفولتي بعيدة.. وكهولتي بعيدة
وطني بعيد.. ومنفاي بعيد
أيها السائح
اعطني منظارك المقرّب
علني ألمح يداً أو محرمة في هذا الكون تومئ لي
صورني وأنا أبكي
وأنا أقعي بأسمالي أمام عتبة الفندق
واكتبْ على قفا الصورة: هذا شاعر من الشرق.

* * *

اصرف أدلاءك ومرشديك
والقِ إلى الوحل بكل ما كتبته من حواشٍ وانطباعات
إن أي فلاح عجوز
يروي لك «ببيتين من العتابا»
كل تاريخ الشرق

وهو يدرج لفافته أمام خيمته».

الأعمال الكاملة . الفرح ليس مهنتي . قصيدة: أيها السائح . ص٢٦٦.

وأمام كل هذه الخيبات التي يلحظها الماغوط في المدن العربية لاسيما بيروت ودمشق يتعالى صوت الاحتجاج والرفض وروح التهكم والهجائية...

ويتمنى الماغوط أن يتم تبادل الأوطان كالراقصات في الملهى!.. وكل هذه المفارقات في المواقف وفي استخدام الصور الشعرية الغريبة والنادرة، ورغم استخدامه المتكرر لكاف التشبيه في تقريب الصورة أو تقريب البعيد، وهذا نابع عن بساطة آلية الكتابة عنده ومن نفوره اللاشعوري من كل تعقيد.. تتضافر كل هذه المكونات التي ذكرناها هنا في هذه القراءة لتشكل فرادة الماغوط، فالصور الشعرية عنده كما تقول الناقدة الدكتورة خالدة سعيد معلّقة على ديوان «حزن في ضوء القمر»، تقول:

«قصيدة الماغوط عقد من الصور ولو أنها غير مرتبة وفق اتجاه أو تسلسل معين.. وإن الصورة قوام التعبير الشعري عند الماغوط، وتكاد تكون الوسيلة الوحيدة لولا لمحات من الأصوات الداخلية في قصيدة أو قصيدتين من مجموعة حزن في ضوء القمر».

وبالفعل يلحظ قارئ الماغوط أن قصائده كلها هي دفق متتابع من الصور بلا ترتيب وبعفوية وفوضى، وكأنها باقات ورد مشلوحة أو منثورة في فضاء القصيدة، والصور الشعرية عند الماغوط طازجة، حارة على عكس ما تراه الدكتورة خالدة سعيد، وغير مستخدمة في شعرنا العربي الحديث والقديم، وهي تُكَوِّنُ نسيجاً متشابكاً من العلاقات المتنافرة فيما بين الأشياء من جهة، وفيما بين ما هو حي وما هو ذهني أو حدسي وأداة التقريب دائماً أو غالباً ما تكون كاف التشبيه!..

هذه الشعرية التي امتلكها الماغوط وبوّأته مكانة عالية بين الشعراء تليق به كمبدع وهي شعرية استثنائية وعبقرية تحتاج إلى وقفات كثيرة..

وما وقفتنا هذه إلا مجرد إشارة خاطفة لشاعر يجب أن يقرأ لكي يتذوق شعره، أولاً ولكي ندرك القوة العفوية في الشعر، ثانياً، وهذه الموهبة التي يبدو أن عناية ما قد صانتها لنا لكي تصلنا بهذه الصراحة الحادة كشفرة سيف.

الشعر والحزن

في الشعر العربي يوجد تنوع كبير، وأهم ما فيه هذا الحوار مع الوجود: الحياة والموت/ والطبيعة والجسد، وفيه التأمل والتبصر والحدسية..

الشعر العربي قبل الدعوة، اتسم بالفردية الشديدة، إلا أن ترتيباً ما، لا مجال هنا للخوض فيه، جعل الشعراء ينهجون في القصيدة، على مستوى الشكل نهجاً عاماً متعارف عليه، أطلق عليه النقاد فيما بعد، اسم:«عمود الشعر العربي». وهذا النهج لم يلغ فردية الشاعر، ويمكننا أن نطلق على هذه المرحلة العظيمة من الشعر: مرحلة ما قبل السياسة، أو ما قبل الإيديالوجيا، إذا جاز القول، في هذه المرحلة، اتسم الشعر بالغنائية، يتجلى ذلك في تصوير نفسية الشاعر وعواطفه وما يصيبه من فرح وحزن وقلق!.. فالشاعر فرد في قبيلة، يعبر عن ذاته أولاً، ثم عن القبيلة تالياً. وفي المرحلة التالية، بعد أن تمكنت الديانة العربية الجديدة، وتوسعت، أصبح الشاعر فرداً في أمة، وتوحدت أحلامه مع أحلامها، وأصبح مقيداً، نفسياً، بمنظومة أخلاقية جديدة، تشارك فيها العقيدة، والمدينة، والتطلعات المصيرية، وفي كثير من الحالات أصبح الشاعر جندياً في جيوش الفتح! ومع تطور الحياة السياسية، وتمركز السلطة في العصر الأموي وما تلاه، وظهور الصراعات السياسية والفكرية، أصبح الشعراء منخرطين، بشكل أو بآخر، بالسياسة. «كثير عزة» مثلاً كان كيسانياً، الحطيئة كان ساخطاً، وتفاقم ذلك في العصر العباسي وما بعده، وصار للشاعر طموحاً سياسياً كما عند المتنبي! مع هذه التطورات تراجع الشعر الغنائي. لكن هل تراجع الحزن من لغة الشعراء؟ على العكس، فقد أخذ الحزن بعداً فجائعياً في بعض الأحيان! ولا بد بداية من الإقرار بأن الحزن موجود في الشعر العربي، وتندر القصائد المرحة قبل عصر أبي

نواس، وبشار وبعض الشعراء الماجنين في العصر العباسي. ولا أستطيع التأكيد على أن الحزن يكون حالاً عاماً ودائماً يلازم شعباً ما، وأستشهد بحديث ينسب للنبي العربي، يقول:« أنا حزين من أمة حزينة». ويرى علم النفس الديني أن الكآبة والحزن والبكائيات من جوهر الديانات والعقائد!ونستطيع أن نلحظ في الخطاب الديني الإسلامي وغير الإسلامي، هجائيات وتسفيه شديد للذة وللمتع الشخصية وللدنيوية.. لقد عبر الشعر عن هذه الثقافة الجديدة، التي تميزت عن «الجاهلية» والتي واحدة من معانيها العديدة: (التبرج) قال تعالى في كتابه العظيم: «وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرج الجاهلية» على ضوء ذلك هل نستطيع القول إن الحزن أصبح ممنهجاً وشمولياً؟ لن أجازف هنا بجواب حاسم وقطعي، ولعلنا نتذكر قصيدة مالك بن الريب الحزينة وهو يرثي نفسه، ثم لنتذكر أحزان أبي ذؤيب الهذلي وشكواه من ريب الزمان، ولننتقل إلى رثاء المدن، كرثاء ابن الرومي لمدينة البصرة، ورثاء الممالك الزائلة كرثاء أبي البقاء الرندي وغيره، إلى أن نصل إلى العصر الحديث، حيث لم تستطع الأسطورة أن تخفف من استمرارية الحزن المتوارث! ففي معظم شعر بدر شاكر السياب، وخليل حاوي، وصلاح عبد الصبور، وأمل دنقل، يسري الحزن عميقاً من منابع فوارة! ويكفي أن ندلل على حضور الحزن في الشعر العربي الحديث، أن نذكر أن محمد الماغوط ، أحد أعلام هذا الشعر، له مجموعتان شعريتان من ثلاث، واحدة بعنوان: «الفرح ليس مهنتي» والأخرى: «حزن في ضوء القمر»! لكن لماذا كل هذا الحزن المتأصل في شعرنا وفي غنائنا؟! أعتقد، وليست هذه إجابة كافية عن التساؤل، أن العرب، على المستوى الجمعي، بلغت حضارتهم الأوج ثم انحدرت إلى الهاوية، وما أكثر ما عبر المتنبي عن ذلك، منذ وقت مبكر، لقد أخرج العرب من التاريخ منذ أواخر العصر العباسي، عندما ساد عليهم الترك والديلم ثم السلاجقة والمغول، ومع مجيء الفرنجة تحت راية الحروب الصليبية، انكفأت النخب العربية، وانسحبت من المدن إلى الأرياف، وهيمن عليها اليأس، وفي أحسن الأحوال كان الشعر الملاذ الوحيد، وزراعة الكروم والبساتين، أو اللهو بالصيد لتناسي ما جرى لهم،

وهم يرون معاقلهم تؤخذ منهم واحدة تلوى الأخرى، ولغتهم الآسرة يرطن بها الغرباء، هذا إلى أن جاءهم العثمانيون الذين توجوا ظلاميتهم بإعدام (الأحرار) نخبة الأمة وخيرة مثقفيها! وعندما لاح لهم ضوء في نهاية النفق، وظنوا أنهم سينهضون مع النهضة، تكالب عليهم الاستعمار الأوربي، ومزق دولهم، وقدم البعض منها هدايا لشذاذ الآفاق! وعندما أرادوا أن يتجمعوا أخفقوا، وبدا لهم أن الزمن يقودهم من إخفاق إلى إخفاق، وأن تاريخهم تراكمت فيه الهزائم، والصراع والاحتراب يحجب ما كان مضيئاً من هذا التاريخ! فحقيقة الأمر، أن العرب جماعة مأساوية بلا مأساة جمالية أو مركزية، وهذا ما يجعل الحزن ينتشر أفقياً وشاقولياً، ويجعل الحزن داءاً مثبطاً، ولم نفلح كعرب في تحويله إلى تصعيد جمالي ولا مصيري، فحكم على آدابنا بالتقليد والتبعية! ولعل هذا ما دفع زكي الأرسوزي إلى القول، إن العصر الذهبي للعرب هو العصر «الجاهلي» عصر البطولة، عصر ما قبل السياسة.

المحتويات

الصفحة

صدر للمؤلف

- **حراس العالم:** قصص – وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩٦ طبعة أولى.
طبعة ثانية – دار التكوين – دمشق.
- **مملكة التلال** : قصص – دار الينابيع – دمشق ١٩٩٧.
- **الأرض القديمة:** قصص – دار كراس – بيروت ١٩٩٧.
طبعة ثانية – دار ايبلودور الدمشقي – دمشق.
- **منازل صفراء ضاحكة:** قصص – دار نينوى – دمشق ٢٠٠٣.
- له العديد من المقالات والزوايا في المجلات والصحف العربية.
- وعمل في عدة مجلات وصحف ثقافية.

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م
عدد الطبع ١٠٠٠نسخة